



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة الشهيد حمّـه لخضر - الوادي
كلية العلوم الاجتماعية والانسانية
قسم التاريخ



دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني

أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه الطور الثالث (ل. م. د) في التاريخ
تخصص: تاريخ بلاد المغرب الحديث

- إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد الكامل عطية

- إعداد الطالب:

جمال بوطي

أعضاء لجنة المناقشة:

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة الأصلية	الصفة
علي غنابزية	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	رئيسا
عطية عبد الكامل	أستاذ التعليم العالي	جامعة الوادي	مشرفا ومقررا
رضا ميموني	أستاذ محاضر "أ"	جامعة الوادي	عضوا
أحمد بالعجال	أستاذ محاضر "أ"	جامعة الوادي	عضوا
صلاح الدين هدوش	أستاذ التعليم العالي	جامعة باتنة 01	عضوا
عباس كحول	أستاذ التعليم العالي	جامعة بسكرة	عضوا

السنة الجامعية: 1444 - 1445 هـ / 2023 - 2024 م



الإهداء

إلى الوالدين الكريمين أطال الله في عمريهما.

إلى كل المتعطشين لإحياء

تراث الأمة ومجدها.

إلى روح هؤلاء المهاجرين الأندلسيين الذين

ضحوا بالنفس والنفيس من أجل خدمة

بلدهم الثاني الجزائر.

إلى كل هؤلاء أهدي عملي.

شكر وتقدير

أشكر الله عزّ وجلّ أولاً الذي وفقني في إنجاز هذا العمل المتواضع.

وأشكر والديّ ثانيّاً اللّذين وقفوا بجانبني طوال مساري الدراسي. كما أشكر أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور عبد الكامل عطية الذي وقف بجانبني دون كلل أو تعب وأفادني بتوجيهاته ونصائحه القيّمة طوال إنجاز هذه الدراسة.

وكذلك أشكر الأساتذة والعمال الإداريين بجامعة الوادي وخارجها الذين لم يبخلوا عليّ بالنصائح والتوجيهات. كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل زملائي وأصدقائي دون استثناء، سواء الذين ساعدوني في جمع المادة العلمية أو الذين وقفوا بجانبني خلال هذه المرحلة.

ولا يسعني في الأخير إلّا أن أشكر كل من كان سنداً لي ووقف بجانبني وساعدني على المضي قدماً من أجل مواصلة مشوار البحث والوصول إلى إنجازهِ.

قائمة المختصرات:

الرمز	الدلالة
إلخ	إلى آخره
ج	جزء
هـ	هجري
ط	طبعة
ط خاصة	طبعة خاصة
د . ط	دون طبعة
م	ميلادي
ص	صفحة
د . م	دون مكان
ت	توفي
د . ت	دون تاريخ
د . د	دون دار
ق	قرن
إ . ع . م	الإمارات العربية المتحدة

List of abbreviations:

Icon	Significance
P	Page
T	Tome
R. A	Revue Africaine
D	Died
N	Number
W. D	without date
Ibid	Ibidem
op. cit	opus citatum (the work cited)

مقدمة

شكلت أرض الجزائر منذ حقب زمنية طويلة مسرحا وقاعدة لحوادث عظيمة، منذ ما قبل التاريخ إلى الآن، وقامت على أرضها العديد من الدول كما سقطت دول أخرى، وتعتبر أيضا من أهم بلدان المغرب الإسلامي التي امتزجت على أرضها العديد من الشعوب، كما وطأت أرضها شعوبا أخرى كالإغريق والرومان، وغيرها من الشعوب والقبائل التي سكنت هذه المنطقة الشاسعة، وتأثرت وأثرت بها في مختلف الميادين.

وبحكم موقعها المتميز الذي يتوسط قارات العالم تقريبا، وبحكم مساحتها الشاسعة وتنوع تضاريسها ومناخها، كانت محط أنظار العديد من الشعوب والعائلات التي سكنت أرضها وامتزجت بشعبها، ومن بين تلك الشعوب التي هاجرت إليها واستقرت بها المهاجرون الأندلسيون، هؤلاء الذين كانت بدايات هجرتهم إلى الجزائر منذ أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، وهذا بحكم العلاقات الاجتماعية والثقافية والأسرية التي تربط سكان الأندلس بسكان بلاد المغرب العربي، ثم توالى الهجرات بعد ذلك خاصة بعد سقوط الحواضر الإسلامية في يد الممالك المسيحية الإسبانية، لتزداد هذه الهجرات أكثر بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وأثناء الجلاء الأخير لهؤلاء من إسبانيا بين سنتي 1609م و1614م.

وخلال هذه الفترة أي بعد سقوط غرناطة، استقبلت الجزائر توافد أعداد كبيرة من المهاجرين الأندلسيين الذين استقروا في المدن الساحلية والمدن القريبة منها، وأثروا وتأثروا بالسكان المحليين، كما أنّ هؤلاء بعد استقرارهم بالجزائر حاولوا الاندماج وسط سكانها، ونقلوا معهم خبرتهم وأموالهم من أجل مواصلة نشاطهم الاعتيادي، بل وتكثيف نشاطهم في مختلف المجالات سواء العلمية أو الاقتصادية كالنشاط الفلاحي والصناعي والتجاري، ومن بين أهم النشاطات التي ولجوا إليها وحاولوا دائما تطويرها النشاط العسكري وبالخصوص النشاط العسكري البحري، ومما ساعدهم في ذلك ضعفهم وكرههم الشديد لكل ما هو مسيحي وخاصة كل ما هو إسباني، نظرا لما خلفه هؤلاء في نفوسهم من سلبهم لوطنهم وممتلكاتهم وتفريق شملهم، فدخلوا لهذا الباب بمصراعيه، وتفننوا في تطويره وساهموا في تفعيل حركيته لفترات

طويلة خلال العهد العثماني بالجزائر، ومن جهتها السلطة الحاكمة بالجزائر رحبت بهم وقدمت لهم الدعم الكافي وحفزتهم من أجل الدخول لهذا النشاط، خاصة وأنّ إيالة الجزائر في بداية عهدها لا تزال فتية في العمل العسكري البحري، وتحاول جاهدة تطوير منظومتها العسكرية وترسانتها الحربية البحرية من أجل مجابهة القوى الغربية ومواجهة مختلف التحديات الداخلية والخارجية التي تحيط بها.

فعلى غرار مختلف الفئات الأخرى التي ساهمت في تكوين البحرية الجزائرية العثمانية كالأتراك العثمانيين والأعلاج والأسرى الأوروبيين وبعض السكان المحليين، كان لهؤلاء المهاجرين دور هام ولا يقل عن أهميته في الدور الذي لعبته الفئات الأخرى، وذلك الدور مسّ كل جوانب المؤسسة البحرية تقريبا، فلم تكن مساهمتهم في البحرية الجزائرية متعلقة بالشق العسكري الحربي فحسب، ولكن تعدت في ذلك إلى الشق الصناعي والتجاري وحتى الاستخباراتي، وكونوا بذلك مساهمة جد قيمة أعطت بشكل أو بآخر الانطلاقة القوية في عملية دفع عجلة تطور وتقدم البحرية الجزائرية طيلة ثلاثة قرون، وأمام كل هذا كان اختيارنا لموضوع أطروحتنا تحت عنوان: "دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني".

ويرتكز هذا الموضوع على ثلاثة عناصر رئيسية؛ يتمثل الشق الأول منه في فئة المهاجرين الأندلسيين، ونقصد بذلك كل من هاجر من الأندلس والتي نعني بها جغرافيا شبه الجزيرة الإيبيرية سواء المسلمون أو اليهود، وسواء الذين هاجروا مع بداية الوجود العثماني بالجزائر أو خلال الجلاء الأخير لهؤلاء مع بداية القرن السابع عشر الميلادي، وإن اختلفت المصطلحات بين ما يُسمون الأندلسيين أو الموريسكيين، إلا أنّ المقصود واحد وهو كل الفئات التي هاجرت من الأندلس وكل من ساهم من بعيد أو قريب في هذا الجانب.

أما الشق الثاني وهو المتعلق بالبحرية الجزائرية، سوف نتطرق من خلاله إلى مختلف نشاطات البحرية، سواء العسكرية (الدفاع، الجهاد البحري) أو العمرانية أو الصناعية والتجارية،

وعند الحديث عن البحرية فإننا نعني بها كمؤسسة وليس كأسطول فقط، لأنّ البحرية كمؤسسة لها العديد من الفروع المكونة لها، فهناك الموانئ التي ترسو فيها السفن وتحيط بها العمارة العسكرية خاصة المتعلقة بحماية وحدات البحرية والتي لها دور دفاعي أيضا، وكذلك الشق المتعلق بالصناعة الحربية التي فيها صناعات مشتركة بين القوات البحرية والبرية، كصناعة الأسلحة والبارود، وصناعة خاصة بالبحرية فقط كصناعة السفن وما يتعلق بها، ونشاط آخر متعلق بهذه المؤسسة وهو النشاط التجاري الذي برز كثيرا في هذه الفترة، سواء تجارة البضائع أو تجارة العبيد، بالإضافة إلى نشاط آخر، والذي يتمثل في ركوب البحر والعمليات الجهادية، وهو الذي برز كثيرا في تلك الفترة وبرز معه هؤلاء المهاجرون لأسباب وعوامل سننتطرق لها في مضمون هذا البحث، وكل هذه النشاطات هي التي سنحاول التركيز عليها، وجمع مختلف المعلومات والمعطيات التاريخية التي تساعدنا في فهم واستكشاف الدور الحقيقي لهذه الفئة، ومدى مساهمتها في الأنشطة سابقة الذكر سواء بالكثير أو بالقليل.

أمّا الشق الثالث هو المتعلق بالفترة الزمنية (الفترة العثمانية)، بحيث سننتطرق إلى ذكر مساهمة هؤلاء المهاجرين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، أي بين سنتي 1519م إلى غاية 1830م، وبالخصوص خلال القرنين الأولين من هذه الفترة، أين نجد مساهمة هؤلاء المهاجرين واضحة وأكثر جدية، وهذا راجع لعدة أسباب سنحاول ذكرها في فصول هذه الأطروحة، ليتراجع دورهم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين، خاصة بعد تراجع نشاط الجهاد البحري وتحرير كل من وهران والمرسى الكبير سنة 1792م.

- دواعي اختيار الموضوع:

ترجع دواعي اختيار موضوع "دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني" إلى عدة أسباب، فبعد اطلاعنا على مجموعة من الكتب المتخصصة في التاريخ الأندلسي بالجزائر خاصة الدراسات التي قام بها ناصر الدين سعيدوني وحنيفي هلايلي، وجدنا أنّه من بين المواضيع التي لا تزال لم تُدرس بعد أو بشكل أدق لم تخصص لها دراسة

أكاديمية تتصفها وتؤرخ لها موضوع "دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية"، فمعظم الدراسات التي تطرقت لموضوع المهاجرين الأندلسيين واستقرارهم بالجزائر ركزت على أدوار هؤلاء في مجالات أخرى، كالمجال الثقافي والصناعي دون التركيز على هذا المجال، وهذا ما كان حافزا لنا للبحث فيه وإخراج دراسة تتصف هؤلاء وتتفرض الغبار وتكشف الأسرار المخفية لأدوارهم الحقيقية في البحرية الجزائرية، وربما تكون قاعدة ومرتكز لدراسات أخرى في هذا الموضوع، فمهما بحثنا فإننا لا نلبي ولا نعطي الحق التاريخي لهذه الفئة وأدوارها المختلفة في الجزائر، وتماشيا مع ذلك يمكن أن نُجمل الأسباب الرئيسية التي كانت وراء اختيارنا لهذا الموضوع، سواء الأسباب الذاتية أو الموضوعية (العلمية) في النقاط التالية:

الأسباب الذاتية:

- الرغبة في الاطلاع على نشأة البحرية الجزائرية والتطورات التي صاحبها خلال فترة الوجود العثماني بالجزائر.
- معرفة الدور الحقيقي الذي لعبه المهاجرون الأندلسيون في البحرية الجزائرية خلال الوجود العثماني.
- رغبتنا في إلقاء الضوء ونفض الغبار على جانب مهم من تاريخ الجزائر الحديث والذي يتمثل في الدور الذي قام به المهاجرون الأندلسيون في البحرية الجزائرية العثمانية.

الأسباب العلمية:

- الخروج من دائرة البحث في مواضيع العلاقات أو المواضيع العسكرية والسياسية، والتوجه نحو مواضيع أخرى تمس جوانب مختلفة من تاريخ بلاد المغرب الحديث.
- دراسة مختلف النشاطات للمهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية.
- محاولة القيام بجمع ما هو متفرق بين مختلف الكتب والوثائق في دراسة علمية تسلط الضوء على مآثر وإنجازات المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية.

- إثراء المكتبة التاريخية ببحث علمي أكاديمي يعالج الدور الذي لعبه المهاجرون الأندلسيون في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، ويكون بذلك مرجع للباحثين المهتمين بالدراسات الموريسكية في الجزائر سواء داخل الوطن أو خارجه.
- الدراسات السابقة:

تناولت العديد من الدراسات العربية والأجنبية جوانب من موضوع "الهجرة الأندلسية إلى الجزائر خلال العصر الحديث" مثل الدراسات التي قام بها ناصر الدين سعيدوني وحنيفي هلايلي وفوزي سعد الله ودراسات لوي كاردياك وكورين شوفالييه ومارسيدس غارثيا أرينال وغيرهم من الباحثين، ومن بين تلك الجوانب التي تطرقت لها الجوانب الثقافية والعلمية والاقتصادية، لكن هناك جانب آخر ظل يسوده الغموض وغُيبت عنه الكتابات إلا البعض اليسير الذي أشار إليه دون الخوض في غماره والتوسع فيه ونقصد بذلك موضوع دراستنا، والذي يتناول جانب هام من الأدوار التي قام بها المهاجرون الأندلسيون في الجزائر خلال العصر الحديث والتي لا تقل أهمية عن الجوانب الأخرى، والتي نعتبرها من أهم المساهمات التي قام بها هؤلاء المهاجرون في بلادهم الثانية الجزائر.

ورغم ذلك ظهرت حديثا بعض الدراسات التي بدأت بنفض الغبار وكشف المستور وإعطاء هذه الفئة حقه من الدراسة والتأريخ لدورها الهام في البحرية الجزائرية، خاصة ما قام به ناصر الدين سعيدوني وحنيفي هلايلي من نشرهم لمجموعة من الكتب والمقالات المهمة داخل الوطن وخارجه التي تؤرخ لهذا الجانب، والتي تعتبر من أهم الدراسات الموريسكية في الجزائر، ويواصل هذا المشوار فوزي سعد الله بدراسة قيمة جدا تحتوي على معلومات مهمة حول هذه الفئة ونشاطاتها المختلفة في الجزائر خلال العهد العثماني، لكن نؤكد أنها تبقى دراسات قليلة في حق هؤلاء، خاصة إذا ما قارناها بالدراسات الموريسكية في البلدان الأخرى من المغرب العربي، والتي تقدمت بخطوات كبيرة في هذا الجانب.

ومما لا شك فيه أنّ هذه الدراسات رغم قيمتها التاريخية والمعرفية الكبيرة إلا أنها تبقى دراسات عامة لم تعط المعلومة الكافية لقضية نشاط الموريسكيين في البحرية الجزائرية، وإنما تطرقت لها بشكل مختصر وسريع، ومن بين أهم تلك الدراسات التي كانت لنا مرتكزا وانطلاقة حقيقية للبحث أكثر حول هذا الموضوع نذكر:

- دراسة ناصر الدين سعيدوني، تحت عنوان: "الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر ((دار السلطان)) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر"، والتي نشرها سنة 1990م في إسبانيا ضمن ملتقى الدراسات الموريسكية، وهي من بين الدراسات المهمة التي قام بها ناصر الدين سعيدوني في هذا المجال، والتي تعالج مجريات الهجرات الأندلسية نحو الجزائر ومكان استقرارهم وأهم النشاطات التي مارسوها في الجزائر بعد تواجدهم بها.
- دراسة حنفي هلايلي، تحت عنوان: "أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي"، وهي عبارة عن كتاب تم نشره في سنة 2010م. وتعتبر هذه الدراسة من بين أهم الدراسات التي تطرقت لهجرة الأندلسيين واستقرارهم بالجزائر وتفاعلهم مع الأنشطة التي كانت متواجدة في تلك الفترة.

- دراسة ناصر الدين سعيدوني، تحت عنوان: "دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر"، وهي عبارة عن كتاب أيضا تم نشره في سنة 2013م. وتعتبر هذه الدراسة مهمة جدا لكل من يهتم بالدراسات الموريسكية في الجزائر، كونها تحتوي على معلومات قيمة فيما يخص هجرة الأندلسيين وتواجدهم بالجزائر خلال العهد العثماني، بالإضافة إلى احتوائها على معلومات قيمة حول الأنشطة التي مارسها الأندلسيون في الجزائر.

- دراسة فوزي سعد الله، تحت عنوان: "الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم"، وهي عبارة عن كتاب مقسم إلى جزئين تم نشره سنة 2016م. وتعتبر من بين أهم الدراسات التي كتبت عن تاريخ وأنشطة الأندلسيين بالجزائر، كونها تحتوي على معلومات جد قيمة وجديدة حول هذا التواجد، والشيء الذي نلاحظه في هذه الدراسة هو اعتماد مؤلفها على مجموعة كثيرة من

المصادر والمراجع الأجنبية خصوصا الإسبانية والفرنسية والإيطالية، وكذلك اعتماده في جلب المعلومات على بعض الروايات الشفهية التي رواها له أحفاد الأندلسيين أو من لهم صلة بهؤلاء المهاجرين، والتي من شأنها أن تكون ذات قيمة تاريخية، وهذه الميزة قلما نجدها في المراجع التي أرخت لهذا الموضوع حسب اطلاعنا عنه.

- دراسة عبد القادر الميلى، تحت عنوان: "الأندلسيون المواركة وحضورهم في الصناعة البحرية بالجزائر في العهد العثماني"، وهي عبارة عن مقال تم نشره سنة 2018م. والذي يعرض فيه دور المهاجرين الأندلسيين في بناء البحرية الجزائرية في مختلف المجالات وخاصة الصناعية والجهادية منها، بالإضافة إلى عرضه معلومات قيمة حول مشاركة هؤلاء في الدفاع عن الموانئ الجزائرية من الهجمات الأوروبية.

- دراسة سمير عبد الرسول العبيدي، تحت عنوان: "أثر التهجير القسري لموريسكيي الأندلس إلى المغرب الأوسط (الجزائر) (1492-1609م)"، وهي عبارة عن مقال نُشر في سنة 2018م. ورغم أن هذه الدراسة قام بها مؤلف غير جزائري وهو من بلد العراق إلا أنها تعتبر من بين الدراسات التي أفادتني كثيرا رغم اختصارها وقلة حجمها، كونها تحتوي على معلومات قيّمة وجديدة حول هجرة الأندلسيين وأماكن استقرارهم، وكذلك احتوائها على جملة من الإحصائيات والمعلومات الدقيقة حول هذا الموضوع.

- دراسة عبد القادر مرجاني، تحت عنوان: "هجرات الموريسكيين إلى الجزائر ومساهماتهم في مواجهة المد الإيبيري في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي"، وهي عبارة عن مقال نُشر في سنة 2019م. تحتوي هذه الدراسة المختصرة على معلومات مهمة حول التواجد الأندلسي في الجزائر، ومساهماتهم في الدفاع عن الجزائر ومواجهة المد الصليبي وذلك ضمن البحرية الجزائرية.

- دراسة داود ميمن، تحت عنوان: "الهجرة الأندلسية ودورها في بناء القوة العسكرية للجزائر ما بين 1492م و1610م"، وهي عبارة عن مقال نُشر في سنة 2020م. ويعتبر من بين الدراسات المهمة التي أُلقت الضوء على بعض جوانب موضوع دراستنا خاصة الصناعة البحرية والعمارة العسكرية، ومختلف الأدوار التي قام بها الأندلسيون في عمليات الدفاع عن السواحل الجزائرية ضمن مؤسسة البحرية الجزائرية.

- دراسة إبراهيم بن يحيى البوسعيدي وآخرون، تحت عنوان: "الدور العسكري لموريسكي الأندلس في الدفاع عن الجزائر العثمانية حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي"، وهي عبارة عن مقال نُشر في سنة 2022م. تحتوي هذه الدراسة على معطيات تاريخية مهمة حول موضوعنا هذا، خاصة فيما يخص الدور الدفاعي والجهادي للأندلسيين في البحرية الجزائرية، إلا أنها كانت مختصرة جدا لم تغط كل الأدوار التي ما قامت بها فئة الأندلسيين في الجزائر فيما يخص الجانب العسكري، ورغم ذلك كانت من بين الدراسات المهمة التي ساعدتنا في الوصول إلى بعض المعلومات والمعطيات التاريخية لجوانب مختلفة من موضوع دراستنا.

- الإشكالية:

يمكن طرح الإشكالية الرئيسية لموضوع بحثنا المعنون بـ: "دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني" كآتي:

فيما يتمثل الدور الذي ساهم من خلاله المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني؟

وتتدرج تحت هذه الإشكالية مجموعة من التساؤلات يمكن إيجازها فيما يلي:

- فيما تتمثل النشاطات التي مارسها هؤلاء المهاجرين ضمن مؤسسة البحرية الجزائرية؟
- هل هذا الدور الذي قام به المهاجرين الأندلسيين في مؤسسة البحرية كان متساوي في جميع المجالات أم هناك دور برزوا فيه أكثر من الآخر؟ وما هي الأسباب التي أدت إلى ذلك؟

- ما هو موقف السلطة المركزية من هذا الدور هل رحبت به ودعمته أم وقفت كعائق في وجهه؟

- هل كانت فئة المهاجرين الأندلسيين تحظى بنفس مكانة الفئات الأخرى وخاصة العثمانيين والأعلاج العاملين ضمن هذه المؤسسة أم هي أقل شأنًا من ذلك؟

- من أهم العائلات والشخصيات الأندلسية التي كان لها شأن في هذا الجانب؟

- باعتبار أن الهجرة الأندلسية نحو الجزائر لم تقتصر على فئة المسلمين فقط بل هناك اليهود الأندلسيين (السفارديم) الذين هاجروا مع المسلمين، فهل كان لهم دور هم كذلك في البحرية الجزائرية، وهل هو في نفس دور الفئة السابقة أم أقل شأنًا؟

- هل دور هؤلاء المهاجرين خلال هذه الفترة بقي في نفس المستوى منذ بداية تأسيس البحرية الجزائرية العثمانية أم تراجع فيما بعد؟

- وفي الأخير كيف يمكن تقييم هذا الدور هل كان ذا أهمية كبيرة أم كان دور عادي أقل شأنًا من الأدوار التي لعبتها الفئات الأخرى البارزة في البحرية الجزائرية؟

- أهمية البحث:

تكمن أهمية دراسة موضوع "دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني" في توضيح الدور الذي قامت به هذه الفئة في مختلف الأصعدة على مستوى البحرية الجزائرية، التي كان لها شأن كبير في تعزيز قوة إيالة الجزائر العثمانية، والتي سيطرت على الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط لعدة قرون، إضافة إلى ذلك إبراز التأثيرات التي حدثت بوجودهم من خلال نشاطاتهم المتعددة في مختلف المجالات سواء في المجال العسكري أو الصناعي أو التجاري.

- منهج البحث:

وفقا لطبيعة الموضوع الذي قمنا بالبحث فيه والذي يستلزم الوقوف على طبيعة الدور الذي قام به المهاجرون الأندلسيون في البحرية الجزائرية خلال الفترة المدروسة - الوجود

العثماني بالجزائر - وتتبع مسار نشاطهم، فإننا اعتمدنا على "المنهج التاريخي والوصفي" لسرد واقع ومجريات التواجد الأندلسي بالجزائر، وسرد ووصف أهم نشاطات هؤلاء المهاجرين في البحرية الجزائرية، بالإضافة إلى ذلك اعتمدنا على "المنهج الإحصائي" والذي ساعدنا في إجراء عمليات إحصائية كثيرة في مختلف فصول الأطروحة، خاصة في الفصل الأول الذي يحتوي على العديد من الإحصائيات والأرقام المتعلقة بالتواجد الأندلسي بالجزائر، وإحصائيات أخرى متعلقة بمؤسسة البحرية وعتادها في الفصل الثاني، بالإضافة إلى إحصائيات حول عدد الأسرى العبيد في الفصل الرابع ضمن عنصر النشاط التجاري أو الجهادي وغيرها من الإحصائيات الأخرى، واعتمدنا بشكل أقل على "المنهج المقارن"، خاصة في الفصل الأول أين تحدثنا على الهجرة الأندلسية بمراحلها الثلاث، والتي تختلف أسبابها ونتائجها في كل مرحلة، وكل هذه المناهج ساعدتنا في ضبط المعلومات وتتبعها وفق أسلوب تاريخي مُمنهج، بُغية الوصول إلى الهدف المسطر وهو الإجابة على الإشكالية المطروحة، وإخراج البحث بطابع أكاديمي موضوعي خالٍ من الذاتية والفوضوية في تقديم المعلومات اللازمة لهذا البحث التاريخي.

- تقديم مصادر ومراجع البحث:

لقد اعتمدنا في دراستنا هذه على مجموعة من المصادر والمراجع العربية والأجنبية، واختلفت المعلومات الموجودة في هذه الوثائق من وثيقة إلى أخرى، فهناك من زودتنا بمعلومات كثيرة، وأخرى استقينها منها بعض المعلومات القليلة التي تخص دراستنا هذه، ولو أننا اعتمدنا بشكل كبير على المراجع والدراسات الحديثة، كونها تحتوي على معلومات قيّمة وكثيرة فيما يخص موضوعنا، وذلك راجع إلى جدّية البحث في الموضوع الخاص بالتاريخ الموريسكي في الجزائر، بالإضافة إلى اعتمادها على وثائق كانت فيما مضى مختبئة بين المصادر المعاصرة لتلك الفترة (الوجود العثماني بالجزائر)، أو التي كانت قريبة منها زمنياً، خصوصاً المصادر الأجنبية، ومع كل هذا فإننا اعتمدنا على بعض المصادر التي زودتنا بمعلومات مهمة خاصة فيما يخص مؤسسة البحرية الجزائرية ومجريات الهجرة الأندلسية نحو الجزائر، فتعددت في

مجموعها بين كتب مصدريّة عربيّة وأجنبيّة ومراجع قديمة وحديثة وبين مقالات ورسائل جامعيّة باللغة العربيّة واللغة الأجنبيّة، ومن بين تلك الوثائق وأهمها نذكر:

1- المصادر:

أ- المصادر العربيّة:

- وصف إفريقيا: لمؤلفه حسن بن محمد الوزان الفاسي (ليون الإفريقي) (ت: حوالي سنة 957هـ / 1550م)، يعتبر هذا الكتاب من بين المصادر المهمة التي أرخت لتاريخ وجغرافية بلاد العرب وجزء كبير من بلاد إفريقيا، ويقع في جزئين، وقد أفادنا في التعرف على جغرافية الجزائر في تلك الفترة.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: لمؤلفه شهاب الدين أحمد بن محمد المقرئ التلمساني (ت: 1041هـ / 1631م)، وهو من بين المصادر التي أرخت لتاريخ وجغرافية الأندلس، يقع في ثمانية أجزاء، وهو الآخر أفادنا في التعرف على جغرافية الأندلس، كما زدنا بمعلومات مفيدة حول مجريات سقوط غرناطة سنة 1492م وما نتج عنها بعد ذلك، وأفادنا أيضا في التعرف على مسار الهجرة الأندلسية في تلك الفترة.

- العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع: لمؤلفه إبراهيم بن أحمد بن غانم الأندلسي (ت: 1008هـ / 1599م)، وهو كتاب احتوى على معلومات جد قيمة في المجال العسكري خاصة فيما يخص صناعة المدافع والبارود في تلك الفترة، ويعتبر من المصادر المهمة التي اعتمد عليها البحارة العرب وغيرهم من العجم في مجال الصناعة العسكرية كونها تحتوي على معلومات دقيقة في هذا المجال، وقد أفادنا هو الآخر في التعرف على كفاءات وتقنيات صناعة الأسلحة والبارود في ورشات مؤسسة البحرية الجزائرية.

ب- المصادر الأجنبيّة (المُعربة وغير المُعربة):

- مذكرات خير الدين بربروس: لمؤلفه خير الدين بربروس (ت: 953هـ / 1546م)، يمثل هذا الكتاب الذي هو عبارة عن مذكرات شخصية تؤرخ لحياة وإنجازات البحار العثماني الشهير

خير الدين بربروس في الجزائر وخارجها مصدر هام لتاريخ بدايات الوجود العثماني بالجزائر، كونه يحتوي على معلومات تخص مؤسسة البحرية وإنجازاتها، ومعلومات أخرى تخص سياسته رفقة إخوانه في الجزائر، بالإضافة إلى معلومات مهمة حول النشاط العسكري والسياسي في الجزائر مع بدايات القرن السادس عشر الميلادي، وقد استفدنا منه كثيرا خاصة في الفصل التمهيدي، بحيث زدنا بمعلومات عن مجريات إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية، ومجريات تحرير السواحل الجزائرية من الغزو الإسباني، وغيرها من المعلومات التي لا غنى عنها لكل من يكتب حول الوجود العثماني بالجزائر.

- تحفة الكبار في أسفار البحار: لمؤلفه كاتب جلبي (مصطفى بن عبد الله) والمعروف أيضا باسم "حاجي خليفة" (ت: 1068هـ / 1657م)، أفادنا هذا الكتاب في التعرف على مختلف الحوادث التي طرأت على الجزائر مع بدايات الوجود العثماني بها، وخاصة عمليات تحرير المدن الجزائرية المحتلة من طرف الإسبان، التي قام بها الإخوة بربروس بمساعدة السكان المحليين.

- إفريقيا: لمؤلفه مارمول كربخال (ت: 1600م)، يعتبر هذا الكتاب الذي يقع في ثلاثة أجزاء من بين الكتب المصدرة المهمة التي أرخت لجغرافية وتاريخ إفريقيا والأندلس، وقد ساعدنا في التعرف على بعض المناطق الجغرافية في الأندلس، كما ساعدنا في الوصول إلى بعض المعلومات المتعلقة بنشاطات المهاجرين الأندلسيين المستقرين بالجزائر خلال العهد العثماني.

- مذكرات أسير الداوي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب: لمؤلفه كاثكارت (ت: 1843م)، يعتبر هذا الكتاب الذي هو عبارة عن مذكرات يروي فيها القنصل الأمريكي كاثكارت تجربته كأسير في الجزائر من أهم المصادر التي أرخت للجزائر في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، بحيث يصف فيه الوضع العام في الجزائر خاصة مؤسسة البحرية، وما جرى له هو شخصيا أثناء مكوثه في السجن، وقد استقينا منه معلومات كثيرة خاصة المتعلقة بالأسطول البحري

الجزائري كعمليات تسيير السفن الحربية وحمولتها وشحنها، وغيرها من المعلومات التي تعتبر جد قيمة بكل ما يتعلق بالبحرية الجزائرية خلال هذه الفترة.

Topographie et Histoire générale d'Alger - لمؤلفه diego de haëdo (ت: 1613م)، هذا الكتاب الذي يتحدث عن تاريخ الجزائر العام مع بدايات التواجد العثماني بها من أهم الكتب المصدرية وأغناها بالمعلومات المتعلقة بالجزائر خلال هذه الفترة، وقد أفادنا هو الآخر في انتقاء بعض المعلومات حول النشاطات المختلفة التي كان يمارسها الموريسكيون في الجزائر.

2- المراجع:

أ- المراجع العربية:

- أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي: لمؤلفه حنفي هلايلي، يُعد هذا الكتاب من المؤلفات المهمة التي تؤرخ للوجود الأندلسي بالجزائر، وكونه يحتوي على معلومات ومعطيات تاريخية مهمة فيما يخص هذا الجانب فإنه أفادنا كثيرا في موضوع بحثنا خاصة في الفصل الأول والفصلين الأخيرين، أين استقينا منه بعض المعلومات المهمة حول هجرة الأندلسيين ومكان استقرارهم، ومعلومات أخرى تخص العائلات الأندلسية التي عملت لصالح البحرية الجزائرية في مختلف الحرف والصنائع.

- الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم: لمؤلفه فوزي سعد الله، سبق تعريف هذا المرجع في قسم الدراسات السابقة، ويُعد هذا المرجع من بين الكتب التي ساعدتنا كثيرا في جمع بعض المعلومات حول موضوعنا، خصوصا المعلومات المتعلقة بالعائلات والشخصيات الأندلسية التي استقرت بالجزائر والتي كانت لها نشاطات مختلفة ضمن البحرية الجزائرية.

- الأندلسيون المواركة: لمؤلفه عادل سعيد بشتاوي، يُعد هذا المرجع من بين المراجع الأساسية المكتوبة باللغة العربية التي أرخت للهجرة الأندلسية وتداعياتها على الصعيد الأندلسي وعلى

الصعيد العالمي خصوصا بلدان المغرب العربي، وقد أفادنا في التعرف على مجريات الهجرة الأندلسية ونتائجها.

- الجيش الجزائري في العصر الحديث: لمؤلفه علي خلاصي، أفادنا هذا الكتاب في التعرف على الصنائع العسكرية التي كانت متواجدة في الجزائر، مع احتوائه على بعض المعلومات المتعلقة بنشاط الأندلسيين في البحرية الجزائرية خصوصا الشق العسكري والمتعلق بصناعة الأسلحة والبارود.

- دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر: لمؤلفه ناصر الدين سعيدوني، سبق تعريف هذا المرجع في قسم الدراسات السابقة، وهو الآخر أفادنا في التعرف على نشاط الأندلسيين الصناعي خصوصا في مدينة الجزائر.

- دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة الأساطير والواقع: لمؤلفه المنور مروش، لقد أفادنا هذا الكتاب (الجزء الثاني منه) في انتقاء بعض المعطيات والإحصائيات المتعلقة بالموريسكيين الذين انضموا إلى صفوف البحرية الجزائرية، ومعطيات أخرى متعلقة بهؤلاء خصوصا الجانب الحربي منه.

ب- المراجع الأجنبية (المعربة وغير المعربة):

- الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 - 1541: لمؤلفته كورين شوفالييه، يُعد هذا الكتاب رغم صغر حجمه من بين الكتب التي احتوت على معلومات قيّمة فيما يخص التواجد العثماني بالجزائر، وقد أفادنا في موضوعنا هذا، فلم يخلُ تقريبا كل فصل من فصول هذه الأطروحة دون الاعتماد على هذا الكتاب، خصوصا في موضوع تواجد الإخوة بربروس بالجزائر، ومجريات الهجرة الأندلسية نحو الجزائر، بالإضافة إلى معطيات ومعلومات أخرى متعلقة بمؤسسة البحرية الجزائرية، ونشاطات هؤلاء المهاجرين في الجزائر كالنشاط الصناعي والتجاري وحتى العسكري وغيرها من المعلومات التي لا غنى عنها في هذه الدراسة.

- **قراصنة سلا:** لمؤلفه روجي كواندرو، في الحقيقة وجدنا في هذا الكتاب معلومات تاريخية مهمة حول المهاجرين الأندلسيين، لم نجدها في كتب أخرى حسب ما توصلنا إليه من بحث في هذا الموضوع، وإن كان عنوانه يوحي إلى قراصنة سلا الموريسكيين إلا أنه احتوى على معلومات متعلقة بنشاط القرصنة بشكل عام، وبعض المعلومات المتعلقة بالبحرية الجزائرية وعلاقتها بقراصنة سلا المعروفين بنشاطهم الجهادي، وقد أفادنا خصوصا في الفصل الرابع من هذه الدراسة على التعرف على أهم الشخصيات الأندلسية السلاوية التي عملت لصالح البحرية الجزائرية خاصة خلال القرن السابع عشر الميلادي.

- **marine et marins D'Alger (1518- 1830):** لمؤلفه مولاي بلحميسي Moulay Belhamissi، يُعد هذا الكتاب الذي يقع في ثلاثة أجزاء من بين الكتب الأساسية التي أرخت للبحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، وقد أفادنا كثيرا في التعرف على هذه المؤسسة، خصوصا مكونات الأسطول البحري كأنواع السفن والمعدات الحربية اللازمة لركوب البحر والجهاد، بالإضافة إلى إحصائيات أخرى متعلقة بعدد السفن والقوة العاملة في هذه المؤسسة، وبعض المعلومات المتعلقة بالأندلسيين الذين عملوا لصالح البحرية الجزائرية.

3- المقالات:

أ- باللغة العربية:

- **"الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر ((دار السلطان)) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر":** لكتابه ناصر الدين سعيدوني، سبق التعريف به في جزء الدراسات السابقة، أفادنا هذا المقال في التعرف على مجريات الهجرة الأندلسية نحو الجزائر، وأماكن استقرار هؤلاء المهاجرين بهذه الأخيرة.

- **"مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م":** لكتابه حنيفة هلايلي، هذا المقال يحتوي على معلومات كثيرة فيما يخص البحرية

الجزائرية خلال العهد العثماني، وقد أفادنا في التعرف على هذه المؤسسة، والتعرف كذلك على مجريات الهجرة الأندلسية نحو الجزائر، وأهم الأنشطة التي مارسها هؤلاء في مؤسسة البحرية. - "صناعة السفن في الجزائر أيام الأتراك (ق. 16 - 19)": لكاثبه مولاي بلحميسي، وقد أفادنا هذا المقال في التعرف على مواصفات بعض السفن التي كانت متواجدة في الأسطول البحري، بالإضافة إلى أنه زودنا ببعض المعلومات عن الأندلسيين الذين شاركوا الصانع مع الفئات الأخرى في مؤسسة البحرية الجزائرية.

ب- باللغة الأجنبية:

- "la marine de la régence d'Alger": لكاثبه Devoulx Albert، هذا المقال الذي يتحدث عن مؤسسة البحرية في إيالة الجزائر قد ساعدنا في التزود ببعض المعلومات التي تخص هذه المؤسسة، كما ساعدنا في التعرف على بعض نشاطات الأندلسيين في الجزائر وبالخصوص صناعة السفن.

- "Les morisques et l'effort de construction d'Alger aux XVIIe et XVIIIe siècles": لكاثبه Samia Chergui، يحتوي هذا المقال على معلومات مهمة

حول استقرار الأندلسيين بالجزائر ونشاطاتهم المختلفة، وقد أفادنا في التعرف على الدور الذي قام به المهاجرون الأندلسيون في الشق الدفاعي، كما زودنا بمعلومات عن بعض الشخصيات التي لعبت دورا مهما في مجال تشييد العمارة العسكرية، وكذلك في مجال التجارة.

4- الرسائل الجامعية:

- "الصناعة العسكرية في الجزائر في العهد العثماني 1518 - 1830": رسالة ماجستير لكاثبها إسماعيل جودي، لقد أفادتنا هذه الرسالة في التعرف على بعض أنواع الأسلحة والسفن التي كانت متواجدة في الأسطول الجزائري، بالإضافة إلى احتوائها على معلومات تخص الأندلسيين وأدوارهم المختلفة، خاصة العسكرية منها كصناعة السلاح والبارود ضمن البحرية الجزائرية.

- "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية - اقتصادية": أطروحة دكتوراه علوم لكايتبتها عائشة غطاس، أفادتنا هي الأخرى في التعرف على بعض الشخصيات الأندلسية التي كانت ناشطة في مجال التجارة بالجزائر خلال العهد العثماني.

- خطة البحث:

قمنا بتقسيم هذه الدراسة التي هي تحت عنوان: "دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني" إلى مقدمة وفصل تمهيدي وأربعة فصول أساسية وخاتمة، ويمكن توضيح هذا التقسيم كالآتي:

في بداية هذه الدراسة وكما هو معمول به في مختلف البحوث والدراسات قمنا بإدراج مقدمة، والتي تضمنت مجموعة من العناصر التي تشرح وتوضح النقاط العريضة والأفكار الأساسية التي سرنا عليها منهجيا لإنجاز هذه الدراسة، ومن بين تلك العناصر التي تضمنتها المقدمة تمهيد عام الذي وضعنا من خلاله مرتكزات هذا البحث من حيث موضوعه وإطاره الزمني والمكاني، بالإضافة إلى ذكر الدراسات السابقة والتي هي عبارة عن مجموعة من عناوين الدراسات التي قام بها الباحثون، والتي لها علاقة بموضوعنا هذا سواء بشكل جزئي أو بشكل كبير، وغيرها من العناصر الأخرى كالإشكالية والمراجع المعتمدة التي لا داعي لتكرارها هنا.

أما الفصل التمهيدي الذي كان تحت عنوان: "الأوضاع السياسية السائدة في الأندلس والمغرب الأوسط أواخر القرن 15م وبدايات القرن 16م"، يُعتبر هذا الفصل كمدخل تمهيدي للموضوع، بحيث تطرقنا فيه إلى أوضاع الأندلس والمغرب الأوسط من الناحية السياسية والعسكرية ومدى تأثيرها على هجرة الأندلسيين نحو الجزائر، وتضمن عنصرين أساسيين، تمثل العنصر الأول في ذكر "الأوضاع السياسية السائدة في الأندلس"، والذي بدوره ينقسم إلى عنصرين ثانويين، فتمثل العنصر الأول في ذكر "بدايات تشكل الوحدة الإسبانية"، والذي قمنا من خلاله بعرض مجموعة من المعلومات التاريخية المتعلقة ببداية تشكل إسبانيا المسيحية

خاصة ظروف ومجريات الاتحاد الذي جمع بين مملكتي أراغون وقشتالة نتيجة الزواج السياسي الذي جمع فرديناند الخامس ملك أراغون وإيزابيلا ملكة قشتالة سنة 1469م، وما نتج عنه سياسيا وعسكريا، وتطرقنا بعدها في العنصر الثاني والذي تمثل في ذكر "سقوط غرناطة وتشكل إسبانيا الموحدة"، وقمنا في هذا العنصر بعرض مبسط لبدايات تشكل آخر مملكة إسلامية بالأندلس والتي تتمثل في مملكة غرناطة، ثم تدرجنا تاريخيا في ذكر الأسباب والظروف التي أدت بها إلى السقوط سنة 1492م، وما نتج عن هذا السقوط على المدى القريب سواء من جانب حكام وأهالي غرناطة أو من جانب الممالك المسيحية التي حققت انتصارا على المسلمين وحققت حلمها في توحيد إسبانيا المسيحية، ومختلف النتائج التي ترتبت عن ذلك، أما العنصر الثاني الرئيسي فإننا عنوانه بـ: "الأوضاع السياسية السائدة في المغرب الأوسط"، وقد قسمناه إلى ثلاثة عناصر ثانوية مع شرح أكثر من سابقه، فكان العنصر الأول تحت عنوان: "تقهقر الدولة الزيانية"، والذي عرضنا فيه مختلف الحوادث التي طرأت على الدولة الزيانية خاصة مع بدايات القرن السادس عشر الميلادي، وكان العنصر الثاني تحت عنوان: "التحرشات الإسبانية"، وقد عرضنا في هذا العنصر التحرشات الإسبانية التي تعرض لها المغرب الأوسط مع بدايات القرن السادس عشر، ولتسهيل فهم هذا الموضوع وترتيبه منهجيا قمنا بتفكيكه إلى نقطتين رئيسيتين، الأولى كانت تحت عنوان: "أسباب التحرشات"، والثانية كانت تحت عنوان: "مجريات الغزو". أما العنصر الثاني الثانوي كان تحت عنوان: "انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية"، وفي هذا العنصر قمنا بعرض مجموعة من المعلومات التاريخية التي تخص مجريات التواجد العثماني بالجزائر خصوصا البحارة العثمانيين الإخوة بربروس، وما نتج عن ذلك على المدى القريب، وبالأخص تحرير السواحل الجزائرية من الغزو الإسباني وإلحاق الجزائر بالباب العالي أو الخلافة العثمانية سنة 1519م.

أما الفصل الأول فكان تحت عنوان: "ظروف ومجريات الهجرة الأندلسية إلى الجزائر"، وينقسم هذا الفصل إلى ثلاثة عناصر رئيسية، تمثل العنصر الأول في ذكر "أسباب الهجرة"،

وعرضنا في هذا العنصر مجموع الأسباب التي أدت بهجرة الأندلسيين من موطنهم الأندلس إلى الجزائر خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وفي العنصر الثاني ذكرنا "مراحل الهجرة"، بحيث عرضنا فيه أهم مراحل هجرة الأندلسيين إلى الجزائر سواء قبل سقوط غرناطة أو بعدها، والتي تمثلت في ثلاث مراحل رئيسية، قمنا بإلقاء الضوء عليها كل على حدى في هذا العنصر، والتي تمثلت في: "الهجرة الاختيارية (قبل سقوط غرناطة)"، و"الهجرة الاضطرارية (بعد سقوط غرناطة)"، ثم "الهجرة الإجبارية (1609-1614م)". وفي العنصر الرئيسي الثالث والأخير ذكرنا فيه "استقرار الأندلسيين بالجزائر"، بحيث قمنا بعرض أهم المراكز التي استقر بها هؤلاء في الجزائر بعد هجرتهم من الأندلس.

وبخصوص الفصل الثاني الذي كان تحت عنوان: "نشأة وتطور البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني"، فإننا قسمناه هو كذلك إلى ثلاثة عناصر رئيسية تحتوي على معلومات تاريخية حول مؤسسة البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، وتماشيا مع ذلك كان العنصر الأول تحت عنوان: "ظروف وعوامل نشأة الأسطول الجزائري"، والذي تطرقنا فيه إلى أهم العوامل التي أدت بظهور الأسطول الجزائري العثماني مع بدايات القرن السادس عشر، كما أننا ولتسهيل فهم الموضوع أكثر قمنا بوضع تمهيد في بدايته، والذي استعرضنا فيه بعض المفاهيم الاصطلاحية والتاريخية للأسطول البحري، بالإضافة إلى ذكر بعض المعلومات حول البحرية الجزائرية قبل التواجد العثماني وبعض المعلومات الأخرى التي تفيد القارئ في فهم الموضوع أكثر، أما النقطة الثانية قمنا من خلالها بعرض "الظروف والعوامل"، ونقصد بذلك الظروف الرئيسية والأسباب الحقيقية لنشأة الأسطول الجزائري الذي هو رأس الحربة لمؤسسة البحرية الجزائرية.

وفي العنصر الرئيسي الثاني عرضنا "عتاد الأسطول"، وقد احتوى هذا العنصر على معلومات مهمة تخص عتاد الأسطول البحري والتي من بينها السفن والأدوات الملحقة بها، ومختلف الأسلحة التي كانت مستعملة في تلك الفترة، بالإضافة إلى عرض معيشة البحارة

الجزائريين أثناء السفر وعلاقتهم بمختلف الفئات الأخرى المكونة للبحرية الجزائرية، ومن ذلك عرض أسلوب الأكل وأوقات السفر ومختلف التحضيرات التي تكون قبل انطلاق كل رحلة بحرية.

وفي العنصر الأخير تناولنا "البنية التنظيمية للجيش البحري"، بحيث ألقينا الضوء على قيادة البحرية والأسطول والطاقم التابع لهما، من أعلى رتبة في المؤسسة إلى آخر رتبة، مستعرضين في ذلك مهام كل قائد أو كل فرقة من هؤلاء بشكل مختصر، ونظرا لطبيعة القيادة التي كانت تسير عليها البحرية في ذلك الوقت، ونظرا لاحترام الترتيب القيادي حسب ما ذكرنا آنفا فإننا قسمنا هذا العنصر إلى عنصرين ثانويين، فكان العنصر الأول تحت عنوان: "إدارة البحرية الجزائرية"، ومن خلاله قمنا بعرض القيادة العامة للبحرية التي يرجع لها القرار الرئيسي والدور الفعال في توجيه هذه المؤسسة وفق المصلحة العامة للبحرية وللإيالة بشكل عام، والتي يقع معظم قاداتها على مستوى مدينة الجزائر بالقرب من الحاكم العام للإيالة، أما العنصر الثانوي الثاني فكان تحت عنوان: "الطاقم المساعد والمرافق للأسطول البحري"، ونقصد به كل العاملين على مستوى الأسطول خاصة عند إبحاره سواء في رحلات الاستطلاع أو الجهاد البحري، فهو يضم قيادة الأسطول والعمال البسطاء، بدءاً من القائد العام إلى البحارة الجنود.

وفي الفصل الثالث الذي يعتبر فصل أساسي لموضوع بحثنا هذا فكان تحت عنوان: "الدور الصناعي والدفاعي للمهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية"، هذا الفصل يعرض جانباً مهماً من أنشطة الأندلسيين في البحرية الجزائرية، والتي تُعتبر المحرك الرئيسي لتطور وقوة هذه المؤسسة، فقمنا بعرض المعلومات المتوفرة وإن كانت شحيحة في بعضها ضمن عنصري الصناعة والدفاع، وتماشياً مع ذلك قمنا بتقسيمه إلى عنصرين إثنين رئيسيين، تمثل العنصر الأول في: "مساهمتهم في التصنيع"، والذي بدأناه بتمهيد عام يوضح مدى خبرة هؤلاء المهاجرين في مجال الصناعة البحرية، ومعلومات أخرى لها علاقة بهذا الموضوع، ثم عرضنا مختلف نشاطات هؤلاء في مجال "صناعة الأسلحة وتحضير البارود"، والذي بدوره قسمناه إلى

نقطتين تمثلتا في: "صناعة الأسلحة" و"صناعة وتحضير البارود"، فمن خلال هذين العنصرين وضحنا مدى مساهمة هؤلاء المهاجرين في هذه الصناعة التي هي في الحقيقة صناعة برية وبحرية في نفس الوقت، وقد استفادت منها البحرية الجزائرية كثيرا، بل وتعتبر من العوامل الأساسية التي ساهمت في بروز هذه المؤسسة على المستوى الإقليمي والدولي، ثم عرضنا في العنصر الثانوي الثاني: "صناعة وتجهيز السفن"، وفي هذا الجزء قمنا بعرض مختلف المعلومات التاريخية التي تبين مساهمة الأندلسيين في مجال صناعة السفن، الذي يعتبر من أكثر مجالات الصناعة حيوية، نظرا لأن قوة الأسطول أو ضعفه تعتمد عليها، بالإضافة إلى الصناعات الأخرى سابقة الذكر، ومن ذلك عرضنا أهم السفن التي ساهم في صناعتها هؤلاء، وعرضنا المراكز التي عملوا من خلالها والتي لها علاقة بهذه الصناعة.

كما عرضنا في العنصر الرئيسي الثاني الذي كان تحت عنوان: "مساهماتهم في الدفاع"، والذي قمنا بتقسيمه أيضا إلى عنصرين ثانويين تمثلتا في: "مشاركتهم في التصدي للحملات البحرية على الجزائر" و"مشاركتهم في بناء وتشيد العمارة العسكرية"، جملة ما قام به هؤلاء في عمليات الدفاع والتصدي لكل المخاطر التي تعرضت لها موانئ الجزائر، هذه الأخيرة التي تعتبر القاعدة الأساسية لتحرك الأسطول الجزائري، بالإضافة إلى دورهم في بناء وتشيد العمارة العسكرية، ونقصد بذلك القلاع والحصون وغيرها من المنشآت التي هي تحت خدمة الأسطول الجزائري ومؤسسة البحرية الجزائرية بشكل عام.

وبخصوص الفصل الرابع الذي هو أيضا فصل أساسي في هذه الدراسة فكان تحت عنوان: "الدور الجهادي والتجاري للمهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية"، فإننا عرضنا فيه دورا آخر لهذه الفئة والذي لا يقل أهمية عن الأدوار الأخرى، وهو الآخر قسمناه إلى عنصرين رئيسيين عالجا فيهما الدور الجهادي والتجاري الذي قام به المهاجرون الأندلسيون على مستوى البحرية الجزائرية، وتماشيا مع ذلك كان العنصر الأول تحت عنوان: "الدور الجهادي (الجهاد البحري)"، وفي هذا العنصر قمنا بعرض مختلف الأنشطة التي مارسها هؤلاء

في مجال الجهاد البحري أو "القرصنة" ضمن البحرية الجزائرية، مع عرض أهم الشخصيات والعائلات التي مارست هذا النشاط، سواء العائلات الأندلسية التي كانت متواجدة بالجزائر أو التي كانت خارج الجزائر وعملت لصالح البحرية الجزائرية، أما العنصر الثاني فكان تحت عنوان: "الدور التجاري (مساهمتهم في تنشيط التجارة وتمويل حركة الجهاد البحري)"، والذي عرضنا فيه أهم ما قام به هؤلاء في مجال التجارة خاصة تجارة الأسرى التي اكتست أهمية في ذلك الوقت، ومدى مساهمة هذا النشاط في تمويل حركة الجهاد البحري خصوصا قبل حلول القرن التاسع عشر الميلادي.

وفي نهاية هذه الدراسة عرضنا خاتمة لأهم النتائج التي ترتبت عن هذا الموضوع، ثم ذللناها بمجموعة من الملاحق الخاصة بهجرة الأندلسيين ونشاطاتهم في البحرية الجزائرية، وكذلك قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في هذا البحث، بالإضافة إلى قائمة الفهارس المتمثلة في فهرس الأعلام وفهرس الأماكن وفي الأخير قائمة لفهرس المحتويات.

- صعوبات البحث:

- لقد واجهتنا في إعداد هذه الدراسة مجموعة من الصعوبات، ولعل من أهمها نذكر:
- قلة المصادر والمراجع التي نتحدث عن هذا الموضوع، فمعظم الوثائق التي اطلعنا عليها والخاصة بالدراسات الموريسكية في الجزائر كانت تتحدث عن الأنشطة التي قام بها الأندلسيون في الجزائر بشكل عام دون التدقيق فيها، خصوصا موضوعنا هذا الذي يتعلق بالدور الذي لعبه المهاجرون الأندلسيون في البحرية الجزائرية.
- ندرة الوثائق الأرشيفية التي تؤرخ للعائلات الأندلسية التي عملت لصالح البحرية الجزائرية، خصوصا العائلات التي مارست الجهاد البحري وهذا حسب ما توصلنا إليه من بحث.
- صعوبات أخرى كانت ظرفية كون أن رحلة بحثنا قد تزامنت مع تفشي وباء كورونا لفترة قاربت السنتين وهذا ما أعاقنا في البحث أكثر عن هذا الموضوع.

الفصل التمهيدي:

الأوضاع السياسية السائدة في الأندلس
والمغرب الأوسط أواخر القرن 15م وبدايات
القرن 16م

أولاً: الأوضاع السياسية السائدة في الأندلس

1- بدايات تشكل الوحدة الإسبانية

2- سقوط غرناطة وتشكل إسبانيا الموحدة

ثانياً: الأوضاع السياسية السائدة في المغرب الأوسط

1- تقهقر الدولة الزيانية

2- التحرشات الإسبانية

أ- أسباب التحرشات

ب- مجريات التحرشات

3- انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية

أولاً: الأوضاع السياسية السائدة في الأندلس

1- بدايات تشكل الوحدة الإسبانية:

تعتبر إسبانيا الحالية دولة أوروبية ذات حكم ملكي تقع في شبه الجزيرة الإيبيرية (الأندلس سابقاً)، ممتدة بين درجتي عرض 36° و 43° شمالاً وبين خطي طول 3° شرقاً و 9° غرباً، بمساحة اجمالية تقدر بـ 504963 كم²، وتحدها شمالاً فرنسا والمحيط الأطلسي وشرقاً البحر الأبيض المتوسط وغرباً المحيط الأطلسي والبرتغال وجنوباً البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي¹، وتتميز إسبانيا أو شبه الجزيرة الإيبيرية بشكل عام بمناخ جاف معتدل، بحيث أنه بارد في الشتاء وحار في الصيف، كما تحتوي على العديد من الأنهار مثل نهر دُويره duero ونهر تاجه tajo ونهر الوادي الكبير Guadalquivir والعديد من الأنهار الأخرى، كما تعتبر إسبانيا غنية بالمعادن مثل الرصاص والفضة والحديد والنحاس، بالإضافة إلى غناها بالأملاح الطبيعية مثل نترات البوتاسيوم والمغنسيوم وغيرها، كما توجد بها العديد من الأشجار المنتشرة على سفوح الجبال وعبر السهول مثل أشجار الصنوبر والفلين وغيرها². وعن أصل سكانها وجغرافيتها يذكر عبد القادر المشرفي الجزائري: "... اعلم أن هؤلاء الإسبانيين لا شك أنهم فرقة من الروم لا من الفرنج بدليل أن كتاب النبي صلى الله عليه وسلم الذي كتبه لهرقل عظيم الروم وبعثه له مع دحية الكلبي يدعو إلى الإسلام هو الآن عند ملك طليطلة وقداراه (كذا) لابن الصايغ النحوي لما أوفده عليه قلاوون سلطان مصر وسموا بالإسبانيين نسبة لإسبانيا بقطع الهمزة المكسورة وهي مدينتهم القديمة وقاعدة ملكهم القويمة وقد تلاشت وبقي الاسم لها وأما الآن فقاعدة ملكهم مدينة مدريل باللام ويقال لها مدريد بالدال أيضاً حذو طليطلة ومسكنهم بأرض الأندلس من أرض قطلان وبرشلونة من جهة الشرق إلى أشبونة

¹ - معرفة، "جغرافيا إسبانيا"، موقع معرفة، تم الاطلاع عليه بتاريخ 19-01-2021م، مُتاح على الرابط التالي: <https://cutt.us/IFzuJ>

² - ج. س. كولان، الأندلس، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، ط 1، دار الكتاب اللبناني (لبنان)، دار الكتاب المصري (مصر)، 1980م، ص 64-68.

في جهة الغرب ويجاورونهم الدبرقيز من بعض الغرب والفرانسييس من جهة الشرق وجبل طارق ويقال له جبل الطار داخل في تخوم الاسبانيين إلا أنه بيد الإنقليز ولكونهم من الروم سموا بروم الأندلس وابتداء ملكهم في القرن الخامس من الميلاد المسيحي عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام...¹.

بينما يذكر خير الدين التونسي الأندلس في قوله: "اعلم أن هاته المملكة من الممالك الأوروبية الجنوبية الغربية، ومقرها بين ست وثلاثين درجة ودقيقة واحدة وثلاث وأربعين درجة وإحدى وخمسين دقيقة من العرض الشمالي، وبين الدرجة الأولى من الطول الشرقي والحادية عشرة وسبعة وثلاثين دقيقة من الطول الغربي. ويحدها في الشمال البحر المحيط، والجبال الفاصلة بينها وبين فرنسا، وفي الجنوب بوغاز جبل طارق، وفي الغالب مملكة البرتغال، وفي الشرق البحر الأبيض... ومساحة أرضها خمسمائة ألف وتسعة وأربعون ألفاً ومائتان وثلاثة وأربعون كيلو ميترًا مربعًا ما عدا جزر البليار... وهي ذات جبال وأودية، فيها من الجبال الكبار ستة، ومن الأودية العظم خمسة، ومن الصغار أربعة"²، ويضيف إلى ذلك ياقوت الحموي وصفا للأندلس في قوله: "... أما الأندلس فجزيرة كبيرة فيها عامر وغامر، طولها نحو الشهر في نيف وعشرين مرحلة، تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر والرخص والسعة في الأحوال..."³.

ومن الناحية السياسية كانت شبه الجزيرة الإيبيرية أو الأندلس خلال القرن الثالث عشر الميلادي مقسمة إلى خمسة ممالك كبرى وتتمثل في: نافار وأراغون وقشتالة وغرناطة والبرتغال

¹ - عبد القادر المشرفي الجزائري، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإيبانيين بوهان من الأعراب كبنّي عامر، د. ط، د. م، (مصدر الكتاب: archive.org)، 2008م، ص 1، 2.

² - خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم محمد الحداد، د. ط، دار الكتاب المصري (القاهرة)، دار الكتاب اللبناني (بيروت)، مصر، 2012م، ص 518، 519.

³ - ياقوت الحموي (ت: 626 هـ)، معجم البلدان، ج 1، د. ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977م، ص 262.

حسب ما ذكره شكيب أرسلان¹، وانشغلت كل مملكة من هذه الممالك في توسيع نفوذها على حساب الممالك الأخرى، حتى تختفي مملكة نافار وتبقى مملكتي أراغون وقشتالة اللتين سوف يشكلان دولة إسبانيا فيما بعد، أما مملكة البرتغال فقد انشغلت ببناء استقلالها الذاتي².

وسنحاول من خلال هذا العرض تسليط الضوء على ثلاثة ممالك باستثناء مملكة نافار التي اختفت خلال القرن الثالث عشر، ومملكة البرتغال التي أخذت استقلالها وأصبحت دولة قائمة بحد ذاتها، أما الباقي فإن اثنين منها (أراغون وقشتالة) شكلت التواجد المسيحي لإسبانيا، وأخرى ضلت تصارع هذا التكتل وتحافظ على التواجد الإسلامي بالأندلس إلى غاية سقوطها سنة 1492م وتتمثل في مملكة غرناطة، وسنتحدث في الأسطر التالية بشكل مختصر على بداية تأسيس تلك الممالك المسيحية (أراغون وقشتالة)، ثم نقوم بعدها بعرض مجريات الحوادث التي ارتبطت بتأسيس مملكة غرناطة وعلاقتها مع هذه الممالك المسيحية، وذلك في الجزء الخاص بها ضمن صفحات هذا الفصل، ويمكن إيجاز مراحل تكون الممالك الإسبانية المسيحية سابقة الذكر فيما يلي:

أ- مملكة أراغون Aragon:

مملكة أراغون (Reino de Aragón) تقع في شبه الجزيرة الإيبيرية وترجع أصولها إلى القرن الحادي عشر الميلادي، بحيث عمل حكام برشلونة بالتوسع على حساب المناطق المجاورة كجزر البليار ومدينة فالنسيا وأسسوا مملكة أراغون سنة 1035م، وقد سيطرت على أجزاء واسعة من البحر الأبيض المتوسط خلال القرن الثالث عشر الميلادي³.

¹ شكيب أرسلان، خلاصة تاريخ الأندلس، د. ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983، ص 125.

² عامر أحمد قبح، "السياسة الصليبية الإسبانية تجاه بلاد المغرب بُعيد سقوط غرناطة (1492-1504م/ 897-910هـ)"، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، المجلد 02، العدد 38، جوان 2016م، ص 361.

³ موقع sensagent، مملكة أراجون، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 15-09-2021م، متاح على الرابط التالي:

http://dictionary.sensagent.com/ar-ar/مملكة_أراجون/

ب- مملكة قشتالة Castilla:

تعد مملكة قشتالة (Reino de Castilla) من أكبر الممالك المسيحية بشبه الجزيرة الإيبيرية من الناحية الجغرافية، وقد تأسست في منتصف القرن العاشر الميلادي بعد استقلالها عن مملكة ليون التي كانت تحكم الجزء الغربي من هذه المنطقة، واتخذت مدينة برغش عاصمة لها، ويعتبر فرناندو غنصالس أول حكامها¹، وبقيت على هذه الحال إلى غاية اتحادها مع مملكة أراغون في القرن الخامس عشر الميلادي والذي نتج عنه ظهور إسبانيا الموحدة. ومما لا شك فيه أن كل مملكة من هذه الممالك كان لها نفوذ داخلي ومحاولة للتوسع الخارجي، فنجد أن مملكة قشتالة كانت تتجه نحو المحيط الأطلسي، ومملكة أراغون توجهت نحو البحر الأبيض المتوسط، وكان هدفها من هذا التوجه تأمين الطرق البحرية بين إشبيلية وصقلية وإيجاد مناطق ارتكاز في سواحل شمال إفريقيا، ورغم اختلاف المملكتين في توجههم التوسعي إلا أنه كانت تجمعهم غاية واحدة وهي عداؤهم للإسلام والمسلمين، وهذه الغاية كان لها الشأن الكبير في توحيد الممالك المسيحية لمواجهة الوجود الإسلامي في المنطقة. وكتنفيذ لذلك قامت بالاستيلاء على الحواضر الإسلامية بالأندلس وضمها إلى ممتلكاتها، ويمثل سقوط غرناطة نهاية لسقوط الأندلس، فبهذه السياسة وبالإضافة إلى التناحر بين المسلمين وعدم وجود قيادة رصينة في الأندلس وانتشار التشتت والتفرقة، والأمر من ذلك الموالاة المتتالية لبعض الحكام والسكان للحكام المسيحيين وطلب يد المساعدة منهم، هؤلاء الذين لم يدخروا أي فرصة لضرب المسلمين وتشيتيتهم وفق قاعدة "فَرَقَ تَسُدْ"، ليسهل عليهم في الأخير السيطرة على تلك الحواضر وإخضاع سكانها لمتطلباتهم وقوانينهم التي لم تكن أبدا في صالح المسلمين.

¹ - فريجة منصور، "قشتالة وأراغون تاريخيا وسياسيا من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر"، مذكرة مكملة لنيل متطلبات الماستر في تاريخ الغرب الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، قسم العلوم الإنسانية، جامعة ابن خلدون، تيارت، الجزائر، دفعة 2020م، ص 22 - 23.

فكانت تتلاشى الحواضر مدينة تلوى الأخرى لتبقى حاضرة غرناطة ومملكة المسلمين صامدة لأكثر من قرنين من الزمن، فقد سقطت العديد من الإمارات قبل سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة 1492م، فأولى هذه الإمارات سقوط إمارة طليطلة سنة 1085م لتتوالى بعدها حركة سقوط المدن في يد النصارى مع مطلع القرن الـ 12 ميلادي، فسقطت سرقسطة سنة 1112م، وأشبونة سنة 1147م، وطرطوشة ولاردة سنة 1148م، وجزيرة ميورقة سنة 1229م، وقرطبة وبلنسية سنة 1236م، وشاطبة ودانية سنة 1240م، ومرسية سنة 1242م، وجيان سنة 1246م، وإشبيلية سنة 1248م¹، ليختتم هذا السيناريو بسقوط غرناطة سنة 1492م، وتسليم مفاتيح آخر معاقل المسلمين إلى الملوك المسيحيين، الذين لم يهنأ لهم بال بهذا الإنجاز وإنما راحت سياستهم في العمل قُدمًا على تمسيح المسلمين الباقين بإسبانيا، وانتهاك حرمتهم وعاداتهم وضرب عقائدهم وهويتهم الإسلامية العربية، ورغم المقاومات التي أبداهها المسلمون في الكثير من الأحيان فإنها لم تؤثر بشكل أو بآخر على المسار الذي سطره هؤلاء الملوك المسيحيون، إلى غاية الجلاء الأخير للموريسكيين مع بدايات القرن السابع عشر (1609-1614م)، وفرض القوانين الإسبانية على من بقي منهم تحت منظور احتقاري واستبدادي.

وبعد عمليات الاسترداد التي دامت لفترات طويلة، وبعد مواجهة الوجود العربي الإسلامي بالأندلس طيلة ثمانية قرون، ظهرت إسبانيا كدولة موحدة في شكلها الحالي، وذلك بعدما تولى عرش أراغون خوان الثاني الذي سعى في أن يزوج ابنه فرديناند (الخامس)² من ابنة عمه

¹ جمال يحيوي، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610م، د. ط، دار هومة، الجزائر، 2004م، ص 25، 27.

² فرديناند الخامس الكاثوليكي (1452-1516م)، تولى الملك سنة 1474م، اشتهر بأنه سياسي عنيد وجريء، تزوج بإيزابيلا ملكة قشتالة، ووجد تقريبا كل شبه الجزيرة الإيبيرية، مما ساعده في ذلك على القضاء على مملكة غرناطة سنة 1492م، وغزو معظم سواحل المغرب العربي. يُنظر: بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد في البحر 1470-1547م، ط 1، دار النفائس، بيروت، 1980م، ص 44.

إيزابيلا القشتالية¹، ورغم معارضة الكثير لهذا الزواج إلا أنه تم فعلا في سنة 1469م، واعتلت إيزابيلا عرش قشتالة سنة 1474م، بينما اعتل بعدها فرديناند عرش أراغون سنة 1479 بعد وفاة والده خوان الثاني². وهو ما يوضحه أحمد توفيق المدني في قوله: "ميلاد إسبانيا الحديثة الموحدة، يرجع إلى 1469، بالمصاهرة السعيدة على الوحدة الإسبانية، التي تمت بين فرديناند ملك أراغون، وبين إيزابيلا وارثة عرش قشتالة، التي مات أخوها الملك، فورثت عنه العرش، وهكذا تكونت سنة 1474، إسبانية المسيحية الموحدة"³.

وهذا الاتحاد شكل ضربة قوية للمسلمين في الأندلس، بحيث أصبحوا أمام مواجهة مملكة قوية وممتدة، ومن جهة أخرى انقطع عنهم العون بزوال دولة بني مرين في المغرب الأقصى والاستيلاء عليها من طرف بني وطاس، الذين لم تكن لهم القوة الكافية لمواجهة المسيحيين في الأندلس وتحرير المسلمين⁴. ليختتم هذا السيناريو بسقوط غرناطة ونهاية الحكم الإسلامي بالأندلس وهو ما سنحاول توضيحه في العنصر الموالي في هذا الفصل.

¹ - إيزابيلا الأولى الكاثوليكية ملكة قشتالة من مواليد مدريد (1451 - 1504م)، تزوجت من فرديناند ملك أراغون ووحدت مملكتها قشتالة بمملكة أراغون مما ساعدها على إكمال وحدة إسبانيا. ينظر: بسام العسلي، المرجع السابق، ص 44.

² - نبيل عبد الحي رضوان، "جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث"، أطروحة مكملة لنيل متطلبات الدكتوراه، قسم الدراسات العليا التاريخية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، دفعة 1987م، ص 29، 30.

³ - أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492 - 1792، د. ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت، ص 48.

⁴ - محمد العروسي المطوي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط 2، دار الغرب الإسلامي، د. م، د. ت، ص 247، 248.

2- سقوط غرناطة وتشكل إسبانيا الموحدة:

تقع غرناطة جغرافيا في جنوب شرق شبه الجزيرة الإيبيرية، وتفتح حدودها الشرقية على البحر الأبيض المتوسط، وتشمل شمالا منطقة ألمرية، بينما تمتد جنوبا إلى غاية جبل طارق، ويحدها غربا سفوح الجبل الأسود (سييرا مورينا) ومنطقة نهر الوادي الكبير¹، هذا من الناحية الجغرافية أما من الناحية السياسية فإن غرناطة تعتبر المملكة الأخيرة التي حافظت على الوجود العربي الإسلامي لأكثر من قرنين من الزمن (1238-1492م) بالأندلس، فمرت بفترات الازدهار والقوة ومرت بفترات أخرى بالضعف والتشتت إلى غاية سقوطها على يد الممالك الإسبانية الموحدة سنة 1492م.

وفي الحقيقة هذا المقام لا يسعنا إلى ذكر كل ما ساهمت به مملكة غرناطة على الصعيد السياسي والحضاري وغيرها من المجالات، ولكن سنحاول تسليط الضوء على أهم المحطات التي مرت بها هذه المملكة وعلاقاتها بالممالك المسيحية التي كانت دائما في صراع معها، والتي حاولت أن تدحرها خارج إسبانيا وتستكمل وحدتها المفقودة لعدة قرون خلت، فبعد عرضنا في العنصر السابق لبدايات تشكل الممالك المسيحية واتحادها من أجل طرد المسلمين من إسبانيا واستكمال وحدتها، سنحاول في هذه الصفحات ذكر الأصول التاريخية لتأسيس مملكة غرناطة وعلاقاتها بالممالك المسيحية بالأندلس، لنقف في نهاية هذا العنصر على الحدث الهام والحدث الذي ظل راسخا في أذهان الأندلسيين خاصة والمسلمين عامة وهو سقوط غرناطة ونهاية الوجود الإسلامي بالأندلس، وهذا الحدث كذلك لا ينسى في نفوس المسيحيين الإسبان الذين اعتبروه انتصارا لهم ولأرضهم ولدينهم، وأوائل من فرح بهذا الانتصار واعتبره إنجازا عظيما الملكين الكاثوليكين فرديناند وإيزابيلا ويسانداهم في ذلك البابا ورجال الدين وغيرهم من فئات الشعب المسيحي الأخرى الحاقدين على الإسلام والمسلمين وكل ما هو عربي أو إسلامي.

¹ - يوسف شكري فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ط 1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1993م، ص 9.

وقبل التطرق إلى مراحل سقوط غرناطة واكتمال الوحدة الإسبانية سنتطرق إلى الجذور التاريخية لبداية تأسيس هذه المملكة، وتماشيا مع هذا الطرح فإنه يمكن القول أن من بين العوامل التي ساهمت في ظهور هذه المملكة هو تدهور دولة الموحدين بالأندلس واهتزاز نفوذهم مع بداية القرن الثالث عشر الميلادي، ولا سيما بعد انتصار ألفونسو الثامن ملك قشتالة وحلفائه من ملوك إسبانيا القوط على محمد الناصر الخليفة الموحدي في معركة حصن العقاب سنة 609 هـ / 1212م، ونظرا لهذه الظروف وجد عدد كبير من زعماء الأندلس الفرصة للخروج عن طاعة الموحدين، فثاروا في مناطق شتى من البلاد وحاولوا السيطرة على ما تحت أيديهم من أملاك الموحدين والاستقلال بها¹.

لكن هناك من عمل على توحيد الأراضي الأندلسية من أجل مواجهة الغزو الصليبي، كحركتي ابن هود وابن الأحمر، وفي هذا الإطار بدأ ابن هود حركته في مرسية سنة 625 هـ / 1228م، وأطاعته كل من مرسية وقرطبة وإشبيلية ومالقة وألمرية والعديد من المناطق الأخرى، لكن رغم محاولة سيطرته على العديد من المناطق إلا أنه مُني بالهزائم المتكررة مع النصارى الذين أسقطوا قرطبة عاصمة الخلافة في 23 شوال 633 هـ / 29 جوان 1236م ورفع الصليب فوق مئذنة مسجدها الأعظم، ولم يعيش ابن هود طويلا بعدها إذ توفي في ثغر ألمرية سنة 635 هـ / 1237م. أما حركة ابن الأحمر أو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر الذي ينحدر من مدينة أرجونة، وقد ظهرت حركته تزامنا مع حركة ابن هود وكان منافسا له، غير أن ابن الأحمر كان أكثر دهاء وأكثر حنكة سياسية من ابن هود²، فقد كان قوي الشخصية، عالي الهمة، واسع القدرات، يمتاز بقدر عال من الفطنة، كفاءته كبيرة في مجابهة الحوادث والتحديات والإفادة من الأخطار، وتحويل كل ذلك إلى منطلق للنصر³، فانضوت

¹ - عبد الحكيم الذنون، آفاق غرناطة، ط 1، دار المعرفة، دمشق، سوريا، 1988م، ص 40.

² - علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م، ص 34.

³ - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 39.

تحت حكمه كل من جيان ووادي آش وما حولهما وحاول ضم الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية، فأطاعته قرمونة وقرطبة وإشبيلية أواسط سنة 629هـ / 1232م¹ لمدة قصيرة، ثم تخلت عنه كل من قرطبة وإشبيلية وانضوت تحت حكم ابن هود، وفي سنة 630هـ / 1233م انضمت إليه شريس ومالقة والمناطق المجاورة لهما، وبعد وفاة ابن هود عمل ابن الأحمر على توحيد الأندلس، فانضمت إليه غرناطة في رمضان 635هـ / أفريل 1238م واتخذها مركزا لحكمه، ثم افتتح ألمرية وطرد منها حاكمها ابن الرميي، وهكذا نشأة مملكة غرناطة بالأندلس لتأخذ المشعل من أجل مواجهة الزحف الصليبي والتشتت الذي يضرب مناطق الأندلس².

وقد أرجع عبد الحكيم الذنون عوامل وأسباب قيام مملكة غرناطة وتلاشي باقي القواعد الأخرى بالأندلس إلى سببين مهمين وهما³:

أولاً- عامل تضاريسي، والذي تمثل بالخصوص في الوادي الكبير الذي يقع شمالها، بحيث أصبح حاجزا طبيعيا بين الأندلس المسلمة وإسبانيا المسيحية.

ثانياً- عامل سياسي وعسكري، والذي تمثل في قيام مملكة غرناطة قرب عدوة المغرب وشمال إفريقيا، حيث دول إسلامية تمد الأندلس وتتجدها في ساعات الحرج، فكلما اشتد الخطر في الأندلس جاء المدد من المغرب.

وقد شهدت هذه الأخيرة فترات من القوة والازدهار وفترات من الضعف والانحطاط رغم ما كانت تواجهه من الخطر الصليبي المستمر الذي كان دائما يحاول الاستيلاء عليها، فنجد أنها شهدت نوع من القوة السياسية والعسكرية في عهد مؤسسها الأول ابن الأحمر (1238-1273م)، وشهدت كذلك نوع من الاستقرار في عهد ابنه أبو عبد الله محمد بن يوسف الملقب بـ الفقير الذي كان له الفضل في ترتيب أمور الدولة النصرانية، وكذلك شهدت نوع من القوة

¹ يذكر أحمد توفيق المدني أن مؤسس مملكة بني نصر في غرناطة قد اعترف به أهل الجنوب ملكا سنة 1235م الموافق لـ 633هـ. ينظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 42.

² علي المنتصر الكتاني، المرجع السابق، ص 34.

³ عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 41.

وتجدد الجهاد في عهد السلطان أبو الوليد إسماعيل الذي استلم الحكم سنة 1314م، وشهدت الضعف والانحطاط في عهد باقي الحكام، فبعد وفاة السلطان إسماعيل سنة 1325م تدخل غرناطة في مرحلة من الصراع داخل البلاط الملكي وعُرف هذا الصراع بالصراع الناصري، فقد خلف السلطان إسماعيل ولده أبو عبد الله محمد ذو الحادية عشرة سنة، وقد تم اغتياله من طرف بعض الجنود المغاربة، لتنتقل السلطة بعد ذلك إلى أخيه أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل الذي لم يتجاوز سنه السادسة عشرة سنة 1333م واغتيل هو كذلك سنة 1354م، وهكذا توالى مقتل الحكام والسلاطين في مملكة غرناطة التي دخلت في مرحلة اللااستقرار والتفكك، رغم محاولات بعض السلاطين لإعادة الاعتبار لها واسترجاع قوتها مثل السلطان الغني بالله محمد بن يوسف الذي حاول الحفاظ على قوة مملكة غرناطة، واستعان في ذلك بالمتقنين والعلماء في تسيير شؤون دولته¹.

ونلاحظ أنه بعد أن تم تحقيق الوحدة السياسية بين مملكتي قشتالة وأراغون، على اثر زواج فرديناند حاكم أراغون من إيزابيلا وريثة عرش قشتالة في عام 1469م، الذين تميزا بسياسة الغدر والابتعاد عن الوفاء، خاصة إيزابيلا التي تمتلك نزعة دينية متطرفة، ترتكب من خلالها أبشع الجرائم باسم المسيحية، وهمهم الأكبر هو الضغط على غرناطة والاستيلاء عليها، خاصة وأن هذه الأخيرة كانت غارقة في سلسلة من الحروب الأهلية²، فأصبحت مملكة غرناطة مهددة من طرف المسيحيين، بالإضافة إلى ظهور الفوضى جراء سلوك السلطان أبي الحسن "الغالب بالله" الذي حيكت في قصره الدسائس والمؤامرات³، والذي حاول تجديد الهدنة مع مملكة قشتالة، ولكن الملكين الجديدين - فرديناند وإيزابيلا - رفضا ذلك إلا بعد دفع جزية سنوية، فرفض أبو الحسن طلبها وزحف بجيشه نحو قلعة الصخرة الواقعة غربي مدينة رندة وفتحها عام 1481م،

¹ - جمال يحيوي، المرجع السابق، ص 29 - 30.

² - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 45 - 46.

³ - محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 248 - 249.

لكن رغم هذا النصر الذي حققه أبو الحسن إلا أنه لم يتطلع لفتح باقي الثغور الأندلسية أو إلى الاهتمام بتحصين مملكته غرناطة وتقوية جيشها من أجل مواجهة الغزو الصليبي الإسباني، فعكس ذلك نجد أن أبو عبد الله قد أصابه الغرور بفعل الانتصار السريع الذي حققه على الأسبان، فعلى إثر ذلك خلد إلى الركون والراحة واسترسل في الملذات، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه، واحتجب عن الناس، ليس هذا وحسب بل اقترن بفتاة إسبانية يافعة على الرغم من سنه المتقدم، التي كان اسمها إيزابيلا ثم سميت بثريا فيما بعد، والتي كانت جارية عنده، وقد عُرف عنها بالذكاء والدهاء، الأمر الذي أدى بها إلى التدخل في شؤون غرناطة¹.

وأمام هذه الحوادث وقعت المشاكل في بيت الأسرة الحاكمة، خاصة ما حدث بين زوجته عائشة الحرة وثريا الإسبانية، وذلك من خلال ولاية العهد التي كانت ترجع إلى ولد عائشة أبي عبد الله محمد²، فقد أنجبت ثريا لأبي الحسن ولدين وهما سعد ونصر الذين تبرأ من دين أبيهما فور معرفتهم بأن غرناطة ستسقط بيد الأسبان، وعلى أثر ذلك قاما بتغيير اسميهما، فسمي سعد بـ "ضون فرناندو" وسمي نصر بـ "ضون خوان"، وقد سعت إيزابيلا "ثريا" بأن تكون الخلافة في أحدهما، وقامت بإقصاء عائشة الحرة وزجت بولديها أبي عبد الله وأبي الحجاج في السجن المقام في برج قمارش الذي يعتبر أمنع أبراج قصر الحمراء³، حتى تسمح لولدها باعتلاء عرش المملكة، ومن جهتها استطاعت عائشة أن تفلت من السجن رفقة ولدها، واستطاع أبو عبد الله محمد من السيطرة على غرناطة بعد هزيمة أبيه الذي كان منشغلا بمحاربة قشتالة، في حين التجأ أبوه إلى مالقة واستقر عند أخيه أبي عبد الله الزغل، وقد حاول

¹ - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 46.

² - حول نسب أبي عبد الله من جانب أمه يذكر محمد لبيب الببتوني: "هناك خلاف في كون أبي عبد الله بن أبي الحسن بن الأحمر أمه حظيته ثريا أو أنه ابن زوجه عائشة، وعلى كل حال كانت ثريا سببا للفشل في هذه الأسرة، ففرقت بين الأخ وأخيه، ثم بين الولد وأبيه مما كانت نتيجة زوال ملكهم والقضاء على دولتهم". ينظر: محمد لبيب الببتوني، رحلة الأندلس، د. ط، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 2012م، ص 106.

³ - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 47.

أبو عبد الله محاربة القشتاليين لكنه فشل في ذلك، ووقع أسير عند فرديناند سنة 1483م الذي جهزه لمحاربة عمه الزغل، واستطاع أن يستولي على غرناطة سنة 1487م، ومن جهته استولى فرديناند على مالقة، وشرع في محاربة الزغل إلى غاية استسلام هذا الأخير سنة 1490م، وبقي أبو عبد الله محمد الأمير المسلم الوحيد في الأندلس، الذي واجه العديد من التحديات، خاصة النفوذ الإسباني المتزايد، وطلب الملك فرديناند من أبي عبد الله محمد من تسليم غرناطة له، ولكنه رفض ذلك وأبدى مقاومة ضد المسيحيين، وأمام طول الحصار ونفاذ الذخيرة، وتقشي الجوع والمرض¹، التي تعرضت له غرناطة لم يجد أبو عبد الله حلاً إلا في عقد اجتماع مع رجال الدولة، من أجل النظر في الأوضاع التي آلت إليه المملكة والحصار الذي يتعرضون إليه، وتم اتخاذ القرار بطلب الاستسلام من أجل الحفاظ على أرواح المسلمين وممتلكاتهم ودينهم².

وقد وصف لنا عبد الله عنان شخصية الأمير أبو عبد الله بأنه كان: "...أميراً ضعيف العزم والإرادة قليل الحزم والخبرة، ولم يكن يتمتع بشيء من تلك الخلال الباهرة التي امتاز بها أسلافه وأجداده العظام من بني الأحمر. وكان الملك والحكم غايته يبتغيها بأي الأثمان والوسائل. وقد ألقى ملك قشتالة القوى في ذلك الأمير الضعيف الطموح، أداة صالحة يوجهها كيفما شاء، فاتخذته وسيلة لبث دعوته بين أنصاره ومؤيديه في غرناطة وغيرها، وليقنع المسلمين بأن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى..."³.

لكن لم يقبل هذا القرار مجموعة من الفرسان الشجعان وعلى رأسهم موسى بن أبي الغسان، الذين فضلوا الموت على أن يستسلموا ويسلموا المدينة للجيش المسيحي وعلى رأسه

¹ - محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 248 - 249.

² - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 44.

³ - محمد عبد الله عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين، ط 3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1966م، ص 206.

الملك فرديناند والملكة إيزابيلا¹، وفي هذا الشأن قال موسى بن أبي الغسان رافضا بشدة هذا الموقف المتخاذل، ورافضا للاستسلام ومدافعا عن وطنه: "أي باعث بنا إلى اليأس فإنّ دم الأبطال من عرب الأندلس فاتحي هذه الديار، يجري في عروقنا، وعندنا قوة وافرة، وجيوش مُعوّدة مجربة في الوقائع، لا نرتاب في أقدامها، ولدينا عشرون ألف شاب يمكنهم أن يدافعوا عن دورهم وأسوارهم أعظم قوة وأكثر جيش"².

ورغم ذلك تم عقد اتفاقية الاستسلام والتي تضمنت مجموعة من الحقوق والمصالح التي يتمتع بها المسلمون بعد تسليم المدينة، ومن بين تلك الحقوق عدم مساس دينهم ولا مصالحهم ولا أراضيهم وأملاكهم ولا حتى عاداتهم وتقاليدهم، ويضيف إلى ذلك أحمد توفيق المدني أن: "... أهل غرناطة (500000 نسمة) خافوا فضيحة النساء وانتهاك حرمة البنات، وتشنيت الشمل، وفقد المال، فقرروا الاستسلام بعد مقاومة بطولية للإسبان، ورضوا أن يكونوا من رعايا الدولة الإسبانية مقابل اعترافها بحرية دينهم، واحترام عقائدهم وعوائدهم، والمحافظة على أموالهم وممتلكاتهم، وحرية من أراد منهم الانتقال بماله وأهله إلى بلاد المغرب العربي..."³.

وفي الواقع توجد اتفاقيتين مقابل تسليم غرناطة، إحداها علنية تبرز في طياتها مدى احترام حقوق المسلمين في الأندلس، والتي ذكرنا أهم قراراتها سابقا، وأخرى سرية "اتفاقية العار" وقعها أبو عبد الله وقواده مع فرديناند وإيزابيلا، ووافق بموجبها أبو عبد الله الصغير على تسليم غرناطة للملكين الكاثوليكين مقابل امتيازات مادية لأبي عبد الله وحاشيته⁴، وتم عقد الاتفاقية في نوفمبر 1491م الموافق لـ محرم 897 هـ، ودخلت بعدها الجيوش الإسبانية وقوادها لتعلن نهاية الوجود الإسلامي بالأندلس في بداية شهر جانفي 1492م⁵، ثم انتقل أبو عبد الله آخر

¹ - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 44.

² - نفسه، ص 43.

³ - نفسه، ص 44.

⁴ - عبد الحكيم الذنون، المرجع السابق، ص 52.

⁵ - جمال يحيوي، المرجع السابق، ص 38.

ملوك غرناطة رفقة عائلته ونفر كبير من الناس إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى، وبقي هناك إلى غاية وفاته سنة 940هـ (1533م)¹، وبقي نسله فيها إلى سنة 1037هـ (1627م) يعيشون من أوقاف المسلمين المرصودة على الفقراء والمنقطعين².

ومن خلال مختلف الحوادث التي مرت بها غرناطة والأندلس بشكل عام، نلاحظ أنها تميزت بالصراعات الداخلية والفتن في معظم أوقاتها، وهذا ما أدى إلى عدم استقرار الملك في غرناطة، وفي نفس الوقت تحالف الممالك المسيحية فيما بينها من أجل القضاء على بقايا المسلمين في الأندلس، وتجلّى ذلك في اتحاد مملكتي قشتالة وأراغون، اللذين سعيا إلى زرع الفتن والبلابل داخل البيت الغرناطي، إلى غاية إسقاطه نهائيا سنة 1492م، وتوحيد إسبانيا المسيحية بعد مرور حوالي ثمانية قرون من الوجود الإسلامي بها، الذي ترك بصماته وآثاره في مختلف المجالات في هذه البلاد، وهذا السقوط لم يتأثر به المسلمون فقط بل حتى المسيحيون تأثروا به، نظرا لما كان للمسلمين من دور كبير في مختلف المجالات، كالاقتصادية والثقافية والاجتماعية والعلمية، وبعد معاهدة الاستسلام بين الملك فرديناند الكاثوليكي والملك محمد أبو عبد الله الصغير تنتهي صفحة من التاريخ المشرق للمسلمين في الأندلس.

ويمكن إرجاع سبب سقوط غرناطة إلى تشتت المسلمين وانقسامهم إلى إمارات وكذلك الحروب الأهلية³ في الأندلس، بالإضافة إلى تدهور الأوضاع في الممالك الإسلامية بالمغرب العربي، والتي هي الأخرى شهدت الضعف والانحطاط تزامنا مع سقوط غرناطة، فلم تستطع مساعدة مملكة غرناطة ومواجهة القوى المسيحية كما كانت عليه أيام دولة المرابطين والموحدين، ولا هي قادرة كذلك على حماية نفسها من الخطر الخارجي والذي تمثل في تعرضها

¹ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج 2، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005م، ص 286-287.

² محمد لبيب البتوني، المرجع السابق، ص 108.

³ عبد الله محمد جمال الدين، المسلمون المنصرون أو المورييسكيون الأندلسيون، ط 1، دار الصحو، القاهرة، 1991م، ص 21.

للتحركات الإسبانية والبرتغالية فيما بعد، فيمكن القول أن قوة الأندلس وازدهارها مرتبط أساساً بازدهار وقوة دول المغرب العربي، التي هي أقرب بلدان المسلمين لها، وكذلك باعتبار أن الأندلس هي الأخرى عُدوة من عدوات المغرب العربي، فتاريخياً هي امتداد للمغرب العربي، نظراً لروابط التواصل الحضاري والتقارب الاجتماعي بين المجتمعين الأندلسي والمغربي.

ثانياً: الأوضاع السياسية السائدة في المغرب الأوسط

1- تقهقر الدولة الزيانية:

بعد انهيار دولة الموحدين وظهور علامات الضعف والانحطاط داخل كيائها السياسي والعسكري خاصة بعد انهزامها في معركة حصن العقاب بالأندلس سنة 1212م، أصبحت غير قادرة على مواصلة جهودها في توحيد بلاد المغرب العربي، وتماشياً مع هذه الحوادث انقسم المغرب العربي إلى ثلاث دويلات والتي انفصلت عن دولة الموحدين، وتمثلت هذه الدويلات في تأسيس الدولة الحفصية بالمغرب الأدنى بعد أن قطع والي إفريقية الصلة بمراكش وأعلن استقلاله سنة 1236م، وكذلك ظهور دولة بني عبد الواد أو الدولة الزيانية¹ بالمغرب الأوسط بعد أن استقلت عن دولة الموحدين سنة 1235م بقيادة يغمراسن بن زيان². وفي نفس السياق يذكر عبد الكريم غلاب أن تأسيس دولة بني عبد الواد يرجع إلى الموحدين أنفسهم، وهذا راجع إلى حاجتهم في أواخر عهدهم إلى من يحفظ لهم السلطة والأمن في المناطق التي أصبحت بعيدة عن مركز السلطة في مراكش، وكذلك اشتغال الجيش بالأندلس، لهذه الأسباب أصبح

¹ - حول تأسيس الدولة الزيانية يذكر حنفي هلايلي: "تأسست الإمارة الزيانية حوالي سنة 633هـ / 1235م، وانتهت بالفتح العثماني لتلمسان سنة 962هـ / 1554م، وعرفت باسم دولة بين (كذا) عبد الواد: إلى أن استولى عليها المرينيون، ودخلوا عاصمتها تلمسان سنة 738هـ / 1337م، وبعد فتح البلاد من طرف السلطان أبي حمو موسى الثاني 1359-1389م، سميت الدولة باسم ولده زيان، فعرفت بالدولة الزيانية". ينظر: حنفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، د. ط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2010م، ص 12 (الحاشية السفلية).

² - شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 2، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط 4، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م، ص 173.

لزاما عليهم إنشاء دولة تابعة لهم عاصمتها تلمسان، وتنفيذا لذلك عين أحد الخلفاء المتأخرين من الموحدين سنة 624هـ يغمراسن بن زيان عاملا على تلمسان¹.

وفي المغرب الأقصى استحوذت قبيلة أخرى على الحكم وأعلنت استقلالها سنة 1248م، والتي تمثلت في قبيلة بني مرين واتخذت مدينة فاس عاصمة لها، هذا بالإضافة إلى انفصال دولة الأندلس وظهور مملكة غرناطة تحت حكم بنو الأحمر²، والذين استحوذوا على أجزاء مهمة من الأندلس إلى غاية سقوط دولتهم ونهاية الأندلس الإسلامية سنة 1492م، وهذا ما يوضحه محمد خير فارس في قوله: "بدأت مملكة عبد الواد بحكم يغمراسن الطويل 1235-1283 في ظروف خاصة تركت على هذه الدولة بصماتها. كانت دولة الموحدين قد تفككت، فقد استقل بنو هود في الأندلس وخطبوا للعباسيين، واستقل الحفصيون في المغرب الأدنى وجانب من المغرب الأوسط، وأعلن يغمراسن استقلاله في تلمسان، وبدأ بنو مرين ينازعون الموحدين على ملك المغرب الأقصى. وكانت العلاقات بين هذه القوى آنذاك معقدة ومتقلبة..."³. وأمام هذه التطورات أصبحت كل دولة لها كيائها الخاص وسياستها الخاصة، مواجهة في ذلك التحديات التي تواجهها، ومن بين هذه الدول سنركز على الدولة الزيانية وما آلت إليه بعد استقلالها إلى غاية التواجد العثماني بالجزائر، مستعرضين في ذلك أهم ما تعرضت له سياسيا وعسكريا خلال هذه الفترة في نقاط مختصرة حسب ما تتطلبه الدراسة التي نحن بصدد البحث فيها.

وتماشيا مع ذلك كانت بلاد المغرب الأوسط (الجزائر) خلال هذه المرحلة تعيش في حالة فوضى وعدم الاستقرار السياسي في معظم الأوقات، وكانت تعيش في حالة حرب مستمرة تقريبا، فقد خاض يغمراسن مؤسس الدولة الزيانية 72 معركة ضد جيرانه، والعديد من المعارك

¹ عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 275.

² شارل أندري جوليان، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 2، المرجع السابق، ص 173.

³ محمد خير فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الإسباني، ط 1، د. م، 1969م، ص 08.

التي خاضها خلفاؤه من بعده، خاصة وأنها تموقعت - الدولة الزيانية - بين دولتين يسعيا من أجل التوسع على حسابها، فكانت تواجه تحديات من جهة الشرق حيث يحدها الحفصيون بالمغرب الأدنى (تونس)، ويحدها من جهة الغرب المرينيون بالمغرب الأقصى، وهذا ما جعل حدودها متموجة طيلة حكم الزيانيين لها، فقد كان المرينيون دائما يحاولون التوسع شرقا على حساب جيرانهم الزيانيين، وتنفيذا لذلك قاموا بغزو تلمسان عاصمة الدولة الزيانية عدة مرات، فقد احتلوها لمدة 12 سنة بين سنتي 1337 و1348م وكذلك احتلوها مرة أخرى سنة 1352م إلى غاية سنة 1358م أين أعاد أبو حمو موسى بن يوسف (1359-1389م) إحياء الدولة الزيانية من جديد، لكن لم يكف المرينيون هجماتهم نحو الدولة الزيانية فقد أعادوا احتلال تلمسان سنة 1388م¹.

ومن الجهة الأخرى أي من جهة الشرق فلم تكن العلاقة مع الحفصيين أحسن حالا مع المرينيين، فقد كانت علاقتهم تسودها الريبة والتوجس والطمع في التوسع على حساب الآخر، ونجد أنه في عهد ابن تاشفين الأول (1318-1337م) تمكن الزيانيون من بسط نفوذهم على المغرب الأوسط كله حتى أنهم احتلوا تونس، ونظرا لهذا التوسع استتجد الحفصيون بالمرينيين من أجل مساعدتهم في دحر التوسع الزياني على حساب أراضيهم، واستجابة لذلك حاصرت القوات الحفصية المتحالفة مع القوات المرينية مدينة تلمسان سنة 1334م².

ونتيجة لهذا الوضع كانت الحدود الجغرافية للدولة الزيانية غير مستقرة، فكانت تتسع أحيانا وتضيق أحيانا أخرى، فقد وصل الجيش المريني إلى تونس والزاب وقسنطينة، بينما وصلت جيوش الحفصيين إلى غاية المدينة ومليانة وتلمسان. بالإضافة إلى ظهور المشاكل الداخلية مع القبائل والسكان، فقد كانت تسود فيها حياة العشائر والقبائل ومعظم هذه القبائل

¹ محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543)، شركة الأصالة للنشر والتوزيع،

الجزائر، ط 1، 2012م، ص 84-85.

² نفسه، ص 85-86.

تُفضل الحرية وإدارة شؤونها الخاصة بنفسها، حتى أن السكان في بعض الأحيان يستتجدون بالمرينيين وفي البعض الآخر يستتجدون بالحفصيين، وهذا شكل لها عائق في عدم بروزها كقوة إقليمية في المنطقة، بالإضافة إلى التفكك الاجتماعي والتراجع الاقتصادي والسياسي والعسكري طيلة ثلاثمائة سنة¹. وهذا لا يعني أنها لم تتمتع بفترات من القوة السياسية والعسكرية لكن لم يكن كافيا لبروزها وسيطرتها على المغرب الأوسط بشكل عام، ونظرا لهذه الظروف والضعف التي شهدتها الدولة الزيانية فإنه نجم عنه الغزو الإسباني والوجود العثماني بها.

ونظرا لهذا الوضع يقول نيقولاوي إيفانوف: "كانت الجزائر تمثل لوحة محزنة لبلد مدمر، مستعبد وتتنازعه الصراعات الداخلية. فقد استولى الإسبان على الشواطئ بينما سطا البدو على المناطق الداخلية فأطفأوا فيها آخر جذوات المدينة الزراعية، وتحولت المدن والأماكن الأثرية القديمة إلى أوكار للضواري والغربان". ويضيف إلى ذلك أن بلاد المغرب الأوسط لم تقع تحت أي سلطة حكومية موحدة، فقد كانت البلاد تعيش حالة التمزق والتجزؤ إلى إقطاعات مستقلة متعددة، وإمارات للبدو ومدن يحكمها طغاة، فقد كان الغرب الجزائري تحت حكم السلطة الزيانية، وكانت مناطق وادي شلف ومدينتي المدية ومليانة تحت سيطرة حاكم دلس، أما الأراضي الواقعة إلى الشرق من الوادي الكبير فقد اعتبرت تحت حكم سلطان تونس الحفصي، وتشكلت هناك إمارات مستقلة عاصمتها بجاية حتى عام 1510م، ثم قسنطينة التي حكمها الأمراء الحفصيون المحليون، وهناك قبائل لم تعترف بسلطة أي أحد كقبيلة كوكو أو القبيلة الكبرى وقبيلة ولد عباس أو القبيلة الصغرى، وفي بعض الحالات كانوا يعترفون للحفصيين بسلطة اسمية فقط، وفي جنوب البلاد كانت منطقة الزاب والحضنة وغيرها من المناطق المتاخمة للصحراء تحت حكم أمراء البدو، بالإضافة إلى وجود مناطق ومدن كثيرة ولا سيما على الساحل لم تعترف بسلطة أحد، بل كان يحكمها المرابطين والمغامرين الذين استولوا على السلطة في ظروف مختلفة، ففي مدينة شرشال مثلا استقر الموريسكيون الهاربون من غرناطة سنة 1492م وشكلوا

¹ - محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543)، المرجع السابق، ص 86-88.

سلطة خاصة بهم سميت مقاطعة المهاجرين، وقد حكم مدينة الجزائر سنة 1510م الشيخ سالم التومي مدعوما من أقربائه وأنسابه من قبيلة تغلب¹.

ويزيد عبد الحميد بن زيان بن أشنهو على هذا الوصف وصف آخر يذكر فيه أن معظم الشعب الجزائري كان يعيش في ظنك وظلم شديد والبؤس مخيم عليه وذلك لكثرة المجاعات والأمراض والكوارث الطبيعية، بالإضافة إلى تدخل الأعراب الرحل في شؤون الملوك وكانت القبائل تجد مجالا للتطاحن فيما بينها فتتصر طائفة على أخرى².

لكن هذا لا يعني أن المغرب الأوسط (الجزائر) كانت في حالة فتن واضطراب بشكل دائم أو لم تقم لها دولة كما زعم بعض المؤرخين الغربيين، ولكن كانت دولة قائمة ولها مؤسسات ونظام سياسي، ونجد أن معظم الدول في تلك الفترة كانت تعيش الفوضى والصراعات والمشاكل الداخلية وهي متفاوتة من دولة إلى أخرى وليس حكرا على المغرب الأوسط، ويوضح لنا هذا الجانب عبد الحميد بن زيان بن أشنهو في قوله: "... الجزائر كانت دولة من أكبر الدول في عهد بني يغمراسن الأولين وقبلهم وكان لها في عصرهم شعب وأمة وحدود ترابية ودوايب إدارية وتقاليده لا يختلف فيها اثنان، تلك الشروط التي تتوفر لقيام أمة ودولة إنما هزمت الدولة ونهض مغامرون وشتتوا شملها، ولا نستغرب من ذلك إذا علمنا أن الدول المجاورة للبحر المتوسط المعاصرة لبني زيان الأخيرين كانت كلها تعاني نفس الفتن الداخلية وتعيش في الفوضى والتفرقة، ونعلم أن إيطاليا كانت السلطة فيها موزعة على البابا وفينيزيا وجنوة وسردينيا وصقلية وفلورنزا ولونبارديا تتطاحن فيما بينها، وكذلك كانت ألمانيا وفرنسا وأيضا إسبانيا التي لم يوحدوها ويجمع شمالها بجنوبها إلا الملكان الكاثوليكيان على حساب المسلمين..."³.

¹ - نيقولا إيغانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516 - 1574، ترجمة يوسف عطا الله، مراجعة وتقديم مسعود ضاهر، ط 1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1988م، ص 97، 98.

² - عبد الحميد بن زيان بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، تم جلب الكتاب من موقع: archive.org ، ص 28.

³ - نفسه، ص 29.

وهذه الحالة التي كانت تمر بها الدولة الزيانية أدت بها في الأخير إلى ظهور الفتن والقلق الداخلي، بالإضافة إلى التحرشات الإسبانية على المناطق الساحلية والتي زادت من حدة التدهور، فبعدما كان الاقتصاد منهارا انهار أكثر وأصبحت إسبانيا هي المسيطرة على الطرق التجارية البحرية، ومهيمنة على الوضع السياسي والإداري للدولة الزيانية، كل هذا ترك المجتمع الزياني في حيرة من أمره، هل ينضوي تحت سلطة الاحتلال المتمثلة في السلطة الإسبانية أم الوقوف بجانب حكام الدولة الزيانية التي هي في حالة يرثى لها، وهذا ما يفسر عدم استطاعة الدولة الزيانية ولا حتى الدول المجاورة في التصدي للزحف الصليبي.

وأمام هذا التشتت والصراع تعرضت بلاد المغرب الأوسط للغزو الإسباني بداية من سنة 1505م، الذي احتل العديد من المناطق دون مقاومة تذكر من طرف السكان المحليين، وفرض عليهم بأن يُقروا أنهم أتباع لإسبانيا وبأن يدفعوا الضريبة لهم¹، وفي هذا الجانب يذكر عبد القادر المشرفي: "... ولما استقل قدم الإسبانيون بوهرا ن انحاز إليهم طوايف من الأعراب الذين ضعف إيمانهم... فصاروا خدمة لهم ومن جملة جيشهم وكثر بهم السواد على المسلمين فكانوا لهم عليهم أعوانا وفي الدين الفاسد إخوانا فشنوا بهم الغارات وانتفعوا بهم فيما يحتاجونه من الدواب والأقوات..."².

وأمام هذا الوضع أصبح الزعماء المحليون يتقربون من الأجانب ويحيكون الدسائس ويدبرون المؤامرات للإطاحة ببعضهم البعض وهذا بتشجيع من الإسبانيين وبعض سكان البدو، وهناك بعض القبائل انحاشت عن المسلمين وتعاونت مع الغزاة المسيحيين مثل قبائل قيزة وشافع وحميان وغمرة وبني ونزار وأولاد علي³، وتحولت الجزائر كلها إلى قاعدة للمرتشدين والجواسيس والحكام الساقطين الذين طلبوا العون من طرف الغزاة المسيحيين، فيما بقي الأهالي

¹ - نيقولاي إيفانوف، المرجع السابق، ص 98.

² - عبد القادر المشرفي الجزائري، المرجع السابق، ص 2.

³ - أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، ط 2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 63.

البسطاء وفي مقدمتهم الفلاحين والتجار والحرفيين ينتظرون الفرج ويتوقون لقيادة توحدهم وتخلصهم من هذا الوضع المزري¹.

2- التحرشات الإسبانية:

لقد تعرضت الجزائر للغزو الإسباني كغيرها من بلدان المغرب العربي التي تطل على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن هذا الغزو عشوائيا بل كانت من ورائه أسباب وعوامل سمحت للمملكة الإسبانية بغزو سواحل بلاد المغرب العربي بشكل عام والجزائر بشكل خاص، ولقد مر هذا الغزو بفترات وعبر مراحل معينة، ليستغرق هذا الغزو لسواحل المغرب الأوسط قرابة ثلاثمائة سنة إلى غاية تحرير الجزائر نهائيا من هذا الاحتلال سنة 1792م، وفي هذا المحور سنقوم بإلقاء الضوء على أسباب الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية وعرض مجريات هذا الغزو ونتأجه على المدى القريب والبعيد.

أ- أسباب التحرشات:

هناك العديد من الأسباب التي دفعت بإسبانيا وبالكنيسة الكاثوليكية إلى غزو بلاد المغرب العربي والتي من بينها المغرب الأوسط، واتخذت في ذلك العديد من الأسباب وعلى رأسها الأسباب الاقتصادية والدينية والسياسية والتاريخية، وبشكل كبير ملاحقة الموريسكيين والسيطرة عليهم حتى في أوطانهم الجديدة والتي احتضنتهم ورحبت بهم، فكان شعارها الحرب ضد المسلمين وضد البحارة المسلمين، ويمكن أن نوجز أهم الأسباب التي أدت بالغزو الإسباني لسواحل المغرب الأوسط في النقاط التالية:

- ضعف الدولة الزيانية وما صاحبه من تدهور سياسي واقتصادي وحتى عسكري، وذلك بسبب التفكك والتناحر بين القبائل، مما مهد للإسبان بغزو سواحلها، مستغلين في ذلك هذا التفكك والضعف لصالحهم.

¹ - نيقولايف إيفانوف، المرجع السابق، ص 99.

- الحقد الديني، وتجلّى ذلك في العمل الذي قام به الملوك الكاثوليك وبرعاية من البابوية في تجسيد هذا الهدف وهو السيطرة على المسلمين وغزو بلادهم، خاصة بعد سقوط غرناطة وانتشار موجة الانتصار الديني على حساب المسلمين، وبروز الروح الصليبية لدى الكاردينال فرانسيسكو خيمينيس دي سيسنيروس¹، الذي حرّض على المشاريع التوسعية في المغرب الأوسط، ونلاحظ ذلك بشكل جديّ عندما تزوج الملك فرديناند الأراغوني بإيزابيلا القشتالية الذين عملا سويا على تجسيد المشاريع التوسعية ضد المسلمين، خاصة رغبة الملكة إيزابيلا في غزو بلاد المغرب العربي، فقد كانت تُحضر للحملة على المرسى الكبير، لكن أجلها سبق حلمها بحيث توفيت سنة 1504م، وتركت وصيتها التي تحمل في طياتها الحقد الدفين على المسلمين ورغبتها القوية في التخلص منهم وغزو أرضهم وذلك في قولها: "إنه لا ينبغي إيقاف غزو إفريقيا، ولا الصراع ضد الكفار المسلمين من أجل العقيدة"².

ويؤكد هذا التوجه فرديناند بروديل - حسب ما ذكرته كورين شوفالييه - في قوله : "إن كل مؤرخي الكاردينال خيميناس (Ximenes) قد ركزوا على الأسباب الدينية للمشاريع الإسبانية على هيئة صليب هذه الأسباب لا يمكن إهمالها، ولكنها ليست الوحيدة، فإسبانيا لا تضمن مستقبلها إلا إذا جاء اليوم الذي تصبح فيه سيده السواحل الإفريقية المواجهة لها"³,

¹- خيمينيس Ximénés أو Cisneros واسمه كذلك فرنسوا اكسيمينيس Francois Jimenesde ولد في قشتالة (1436-1517م)، تم تعيينه أمينا لسر المملكة في سنة 1492م، ثم كاهنا لطليطلة في سنة 1495م ثم حاكما لقشتالة حتى وفاة الملكة إيزابيلا سنة 1504م، ثم عمل رئيسا لمحاكم التفتيش بين سنتي 1506 و1516م، وغزا وهران سنة 1509م، اشتهر بقسوته الوحشية في إبادة المسلمين، وكان المحرض الأساسي لاحتلال مدن المغرب في محاولة لتتصير المسلمين بهذه المنطقة. ينظر: بسام العسلي، المرجع السابق، ص 45.

²- نجيب دكاني، "الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر الهجري 10 هـ السادس عشر ميلادي 16م"، رسالة مكملة لنيل متطلبات الماجستير، تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 2002م، ص 18.

³- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510 - 1541، ترجمة: جمال حمادنة، د. ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م، ص 20.

وفي موضع آخر يذكر بروديل أن الكنيسة الكاثوليكية اهتمت بشكل كبير بالحرب ضد شمال إفريقيا¹.

- تخوف إسبانيا من حركة الموريسكيين والأمراء العرب بشمال إفريقيا ضدهم، خاصة بعد التمرد الذي قام به الموريسكيون بين عامي 1499 و1502م ضد السلطات المسيحية الإسبانية، وهو الأمر الذي جعل بالكاردينال خيميناس أن يقوم بمحاولة تحويل الموريسكيين عن دينهم وإبعادهم عن إسبانيا وتخليص هذه الأخيرة من الخطر المتمثل في شمال إفريقيا²، وقد أبدى المسيحيون مخاوفهم من المسلمين المطرودين من الأندلس وإخوانهم المتواجدين في شمال إفريقيا، من إعادة تعبئة قواتهم وتحرير الأندلس من جديد، وهو الأمر الذي بينه مبارك بن محمد الملي في قوله: "إن العرب والمسلمين لا يعتبرون خروجهم من الأندلس هزيمة نهائية، لقد أخفوا سلاحهم، ومعظم رؤسائهم تظاهروا فقط بالانهزام في انتظار الفرصة المؤاتية لينقضوا من جديد على الأندلس ويشهروا الحرب مرة أخرى على المسيحية؛ وأنه لا بد من القضاء على أوكار ((القراصنة)) في الشمال الإفريقي"³.

- الحملات الانتقامية التي يقوم بها الموريسكيين ضد السفن الإسبانية وعلى مستوى السواحل الإسبانية انطلاقا من السواحل الجزائرية، وهذا ما دفع الإسبانين إلى تنظيم حملات انتقامية للسيطرة على الموانئ التي ينطلق منها نشاط الموريسكيين ومن يعاونهم⁴.

- البحث عن طرق بحرية آمنة بين إسبانيا والجزر التابعة لها في البحر الأبيض المتوسط، ولا يتم ذلك إلا بعد السيطرة على سواحل شمال إفريقيا، ومن بين الممالك التي كانت تسعى

¹ - Braudel Fernand, "Les Espagnols de l'Afrique du Nord de 1492-1577", In R. A, Alger, 1928, n° 28, p 201.

² - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 20 - 21.

³ - مبارك بن محمد الهاللي الملي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 3، د. ط، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د. ت، ص 20.

⁴ - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 336.

لهذا العمل مملكة أراغون التي تقع في الجهة الغربية من إسبانيا، وقد كانت تملك جزر البليار وصقلية وسردينية، وكذلك لوجود أحد أفراد أسرة أراغون على رأس مملكة نابولي، وبحكم توجهها نحو البحر المتوسط خاصة ما تمتاز به العلاقات التجارية بين إشبيلية وصقلية الغنية بالحبوب، كل هذا دفع بها إلى محاولة السيطرة على سواحل شمال إفريقيا¹.

- وهناك سبب آخر لا يقل خطورة عن سابقه، وهو أن معظم السكان المحليين خاصة الأعراب منهم لا يتقنون فنون القتال واستخدام الأسلحة، مع أن لهم اندفاعا وحماسا قويا للجهاد لكنهم يعرضون أنفسهم في معظم المعارك للهلاك، عكس الجيوش الإسبانية المنظمة والتي تعرف متى وكيف تستخدم الأسلحة وتعرف كيفية التخطيط والحماية لجيوشها للتقليل من الخسائر المادية والبشرية، ولهذا السبب كان في معظم المعارك التي جرت بين سكان الجزائر قبل التواجد العثماني وبين الجيوش الإسبانية تكون لصالح هذه الأخيرة، وهذا الأمر يؤكد خیر الدين بربروس ضمن مذكراته، والذي تحدث فيه عن سكان تلمسان ومواجهتهم للتحركات الإسبانية والتي باءت محاولاتهم بالفشل، ويرجع هذا الفشل حسب قوله إلى أن: "... هؤلاء الأعراب لا علم لهم بفن الحرب، ويحسبون أن قتال الجيوش النظامية يشبه أعمال النهب في الصحراء. إن الإسبان العارفين بفنون القتال ذاقوا مرارة الهزيمة مرات عديدة على يد البحارة الأتراك. فلو كان لهؤلاء البدو عقل لما عرضوا أنفسهم للهلاك... في الحقيقة كان بينهم شجعان يجيدون الفروسية، إلا أن طريقة ركوبهم للخيل كانت بدائية جدا؛ فضلا عن كونهم لا يملكون أسلحة جيدة، وحتى لو وجدت فهم لا يجيدون استعمالها، كما أنهم لم تكن لهم أسلحة نارية جيدة. والسبب الأول في انهزامهم يرجع إلى كونهم لا يعرفون إطلاقا فنون القتال بشكل جماعي"².

¹ - محمد خير فارس، المرجع السابق، ص 14.

² - خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، ط 1، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2010م، ص 106 - 107.

ب- مجريات التحرشات:

لقد عازمت الدول الأوروبية المسيحية القضاء على هيمنة الدولة العثمانية في البحر الأبيض المتوسط، خاصة في الحوض الغربي منه حيث تتربع إيالة الجزائر على المنطقة وتشكل قوة بحرية تخشاها معظم الدول أو كل الدول التي لها صلة بالبحر الأبيض المتوسط وحتى خارجه، بحيث نجد أنه بعد انضمام الجزائر للباب العالي قامت بتطوير أسطولها البحري ونظامها السياسي والعسكري ونشطت عمليات الجهاد البحري، وعملت على مطاردة المسيحيين في عرض البحر المتوسط وحماية المسلمين من هجمات هؤلاء القراصنة الصليبيين، وقبل هذا كانت تخطط الدول المسيحية وخاصة الممالك الإسبانية للقضاء على الوجود الإسلامي بالمنطقة ومن ثم التوسع على حساب الدول الإسلامية من أجل تحقيق مجموعة من الأهداف ولعل أهمها نشر الدين المسيحي والبحث عن ثروات اقتصادية تلبي حاجيات المجتمع الأوروبي المتزايد من سنة إلى أخرى.

وأهم عامل كان وراء غزو الممالك المسيحية لسواحل المغرب العربي هو تخوف العالم الكاثوليكي من الإسلام، الذي يعتبرونه نقيضا للقيم الاجتماعية والروحية في أوروبا، خاصة بعد سقوط القسطنطينية سنة 1453م التي كانت قاعدة للمسيحيين في شرق أوروبا، لذلك لم تتوان سلطات روما عن الدعوة بإلحاح إلى تنظيم حملة صليبية جديدة، وقد استقبلت تلك الدعوات بأصداء إيجابية واسعة في بلدان أوروبا الكاثوليكية ولا سيما في أوساط طبقة النبلاء، فكانت إيطاليا وإسبانيا والمناطق المتاخمة لهما من أراضي جنوب ألمانيا والبروفانس والبرتغال، أهم المراكز التي ازدهرت فيها الحضارة الأوروبية الغربية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر، ومثلت هذه المناطق بالذات عصر النهضة والإصلاح الديني، وكره الغرب للمسلمين وللحركات الدينية السياسية المرتبطة بالإسلام، لذلك فإن العبء الأساسي في المواجهة العسكرية الشاملة للإسلام وقع على عاتق تلك المناطق¹، ورغم هذا المبدأ الموحد في مواجهة المسلمين

¹ - نيقولا إيغانوف، المرجع السابق، ص 31 - 32.

إلا أن تلك الدول اصطدمت فيما بينها فيما يخص مناطق النفوذ، لذلك عقدت اتفاقيات عديدة من أجل تسوية النزاع القائم واستغلال مناطق النفوذ كل لصالحه.

ومن أهم الاتفاقيات التي عقدتها الممالك المسيحية في هذا الجانب نجد اتفاقية توردي سيلاس (Tordesillas) سنة 1494م بين البرتغال وإسبانيا، التي تنص على تقسيم مناطق النفوذ بينهم، وقد تم مباركتها من طرف بابا الفاتيكان إسكندر بروجيا (Alexandre VI) (1492-1503م)، معطيا بذلك الصبغة الدينية للغزو الصليبي لسواحل شمال إفريقيا¹، ثم تم عقد اتفاقية أخرى عرفت بمعاهدة فيلا فرنكا (Vilafranca) سنة 1509م، تم بموجبها تقسيم مناطق شمال إفريقيا بين إسبانيا والبرتغال، ونتيجة لذلك استحوذت إسبانيا على المناطق الشرقية والمتمثلة في بعض المناطق من شمال المغرب الأقصى والجزائر وتونس وطرابلس الغرب، أما البرتغال فإنها استحوذت على الجهة الغربية المطلّة على المحيط الأطلسي والعديد من المناطق الأخرى التابعة للمغرب الأقصى².

وما زاد الطين بلة كما يقال تخوف الكاردينال خيمينيس من توقف الهجومات ضد العرب والمسلمين بعد سقوط غرناطة وفرار المسلمين من الأندلس، لذلك أثار مخاوف الملكة إيزابيلا التي كانت أكثر تعصبا من الملك فرديناند، وهذا بخصوص ما يمكن أن يفعله المسلمون الذين فروا نحو سواحل المغرب العربي من إعادة تعبئة قواهم والهجوم على إسبانيا، لذلك ألح على ضرورة نقل الحرب ضد المسلمين من الأندلس إلى سواحل المغرب العربي³.

ومن أهم مناطق المغرب الأوسط التي احتلوها خلال القرن السادس عشر نذكر ما يلي:

- **المرسى الكبير:** يعتبر المرسى الكبير من بين أحسن الموانئ في البحر الأبيض المتوسط، ولقد لعب دور اقتصادي وعسكري هام في تاريخ الجزائر، وكان مركز اقتصادي ونقطة تبادل

¹ حنفي هلايلي، بابا عروج وبدايات تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة، الندوة العلمية "المجتمع والدولة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر"، مخبر مصادر وتراجم، جامعة وهران 1، الجزائر، 28 أبريل 2016م، ص 03.

² محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543)، المرجع السابق، ص 99-100.

³ مبارك بن محمد الهلايلي، المرجع السابق، ص 19.

السلع بين الدول الأوروبية وبلدان المغرب العربي خلال الحكم الزياني لبلاد المغرب الأوسط. وقد أثار هذا الميناء إعجاب العديد من الرحالة والمؤرخين، ومن بينهم نذكر حسن الوزان (ليون الإفريقي) الذي يصفه في قوله: "مدينة صغيرة (يقصد المرسى الكبير) أسسها في عصرنا ملوك تلمسان على ساحل البحر المتوسط، بعيدة ببضع أميال عن وهران، ومعناها الميناء الكبير، لأن هناك ميناء ما أظن أن في الدنيا أكبر منه، يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسفن الحربية... وقد استولى الإسبان عنوة على المرسى الكبير قبل سقوط وهران ببضعة أشهر"¹.

وباعتباره قريباً من السواحل الإسبانية ونظراً لمكانته الاستراتيجية قامت إسبانيا بغزوه، ولتنفيذ هذا الغزو قام الملك فرديناند بتكليف الجنرال دون ديبغو فرنانديز دي كورطوبا لهذه المهمة، ووضع تحت إمرته جيشاً قوامه أكثر من 10 آلاف رجل، ضمن أسطول يتألف من سبعة سفن كبيرة وقوادس و140 سفينة من جميع الأنواع، بالإضافة إلى مجموعة من سفن النقل التي التقى بها الأسطول الإسباني بالقرب من مالقة في أوت 1505م²، لكن بسبب هبوب رياح قوية تم تأجيل الحملة، فمكثوا في ميناء ألميريا طيلة الأسبوع الأول من شهر سبتمبر ولم تغادره إلا مساء يوم 09 سبتمبر من نفس السنة³.

وفي الجانب الآخر نجد أن سكان المرسى الكبير قد سمعوا بهذه الحملة واستعدوا لمواجهتها، لكن بسبب تأخرها افترقوا ظناً منهم أن الإسبان تراجعوا في احتلالهم للمرسى الكبير، وهو الأمر الذي انعكس إيجاباً على الحملة الإسبانية، بحيث شرع هؤلاء الإسبان يهاجمون المرسى الكبير صباح يوم 10 سبتمبر، وقد دامت المعركة أياماً واستبسل فيها الجنود المسلمون،

¹ - حسن بن محمد الوزان الفاسي (ت: حوالي سنة 1550م)، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج 2، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م، ص 31.

² - H. D. de Grammont, *Histoire d'Alger sous la domination turque (1515- 1830)*, Ernest leroux, éditeur, paris, 1887, p 05- 06.

³ - مبارك بن محمد الهاللي الملي، المرجع السابق، ص 22- 23.

لكن نظرا لكثرة عدد الجنود الإسبان ونظرا لعنصر المفاجأة وقوة الأسلحة الإسبانية، فإنها حسمت المعركة لصالح الإسبانين، ونلاحظ أنه بعد استشهاد قائد المرسى الكبير وانقطاع الماء عن الحامية الإسلامية بالقلعة، كل هذه الأسباب ساهمت بشكل كبير في استسلام المسلمين بعد حصار دام خمسين يوما¹.

وبعد هذا الانتصار قرر القائد دون ديبغو تحويل جامع المرسى إلى كنيسة، وشرع بتعزيز مواقعه على مستوى القلعة، وعندما وصلت أنباء الاستيلاء على المرسى إلى إسبانيا قررت هذه الأخيرة إعلان الأفراح لمدة ثمانية أيام، وطلب الملك من دون ديبغو الذهاب إلى إسبانيا من أجل تهنئته، وبالفعل رحل دون ديبغو وترك مكانه دون روي روكا².

- **وهران:** تقع مدينة وهران على ساحل البحر الأبيض المتوسط في الشمال الغربي للقارة الإفريقية، ضمن إقليم الدولة الجزائرية وتقع غرب مدينة الجزائر، تأسست حوالي عام 903م³ من قبل التجار المسلمين الوافدين من الأندلس وفق معاهدة أبرمت مع السكان الأصليين للمنطقة⁴. وجاء في رحلة التمكروتي واصفا هذه المدينة في قوله: "... قال ابن عبد ربه هي

¹ - مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص 23.

² - نفسه، ص 23-24.

³ - لقد تضاربت آراء المؤرخين حول تاريخ تأسيس مدينة وهران، وبرز في هذا الجانب اتجاهان رئيسيان: الاتجاه الأول يعتقد أن مدينة وهران قد تأسست منذ زمن بعيد وربما يعود تأسيسها إلى ما قبل التاريخ، وهذا الاتجاه يمثله جل المؤرخين والجغرافيين الغربيين، والاتجاه الثاني وهو اتجاه الأغلبية يعتقد أنها تأسست في القرن الثالث الهجري على أيدي المسلمين مع اختلاف بسيط في تحديد السنة، فهناك من يذكر أنها تأسست سنة 290هـ (903م) وبعضهم يقول تأسست سنة 291هـ (903-904م) وبعضهم الآخر يذكر أنها تأسست سنة 292هـ (904-905م)، ومن المرجح أن يكون الاتجاه الثاني هو الأقرب إلى الصواب، وذلك لأنه يمثل الأغلبية وكذلك أن جل المؤرخين الغربيين اقتبسوا حادثة تأسيس وهران من المؤرخين العرب. يُنظر: محمد بن ميمون الجزائري، **التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية**، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 308، 313.

⁴ - Arezki CHouitem, "L'occupation d'Oran par les Espagnols en 1509", Revue d'histoire méditerranéenne, Université Bejaia, Algérie, N°: 02, juin 2020, p 36.

مدينة حصينة بناها محمد بن أبي عون وجماعة من الأندلسيين سنة تسعين ومائتين...¹، ويصفها حسن الوزان في قوله: "وهران مدينة كبيرة فيها ستة آلاف كانون، بناها الأفارقة الأقدمون على شاطئ البحر المتوسط، بعيدة بنحو مائة وأربعين ميلا من تلمسان. وبها من البنايات والمؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة، من مساجد ومدارس وملاجئ وحمامات وفنادق، محاطة بأسوار عالية وجميلة، يقع جزء من المدينة في السهل، والجزء الآخر في جبل شديد الارتفاع، وكان معظم سكانها من الصناع والحاكة..."².

وقد تعرضت للغزو الإسباني سنة 1509م بعد إخضاع المرسى الكبير، وحول هذا الحدث يذكر المزاري: "ثم جهز - يقصد الإسبان - جيشا لوهران وغزاها فملك برج مرساها في أول ربيع الثاني سنة إحدى عشر من العاشر (02 أوت 1505م)... ولما ملكوها استقروا بها إلى أن تقدموا لوهران فدخلوها في آخر المحرم سنة أربع عشر من العاشر³... وغيرهما كان ذلك في صفر سنة خمسة عشر من العاشر، بمداخلة يهودي غدار للمسلمين وذلك أن اليهود الذين بوهران تحت ذمة المسلمين أتى واحد منهم يقال له زاوي بن كبيسة المعروف بابن زهو بجيش النصاري للمدينة غفلة وأدخلهم لها سرا بالحيلة فقام الجيش لباب المدينة الموالي للمرسى ففتحه ليلا وأخذ العساسين وهما: عيسى بن الغريب العربي، والغناس بن طاهر العبدلّوي، وصار الجيش يدخل ويخرج ونكبوا المسلمين قتلا وسبيا..."⁴.

- **بجاية:** تعتبر بجاية من أهم مدن الشرق الجزائري ومن بين أهم موانئ الساحل الجنوبي للبحر الأبيض المتوسط، وقد لعبت دورا كبيرا في تنشيط الحركة التجارية والصناعية في الإيالة

¹ علي بن محمد التمكروتي، **النفحة المسكية في السفارة التركية (1589)**، تحقيق وتقديم محمد الصالحي، ط 1، دار السويدي للنشر والتوزيع (إ. ع. م)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (لبنان)، 2007م، ص 41.

² حسن بن محمد الوزان الفاسي، المصدر السابق، ص 30.

³ هذا التاريخ الذي ذكره بن عودة المزاري والموافق ل 31 ماي 1508م تاريخ غير صحيح، لأن الإسبان احتلوا وهران في ماي 1509م، حسب ما ذكره يحي بوعزيز محقق هذا الكتاب وحسب ما ذكره المؤرخين الذين أرخوا لهذا الحدث.

⁴ الآغا بن عودة المزاري (ت: 1897م)، **طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر**، ج 1، د. ط، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، د. م، د. ت، ص 211.

الجزائرية خلال العهد العثماني، ومن بين الذين وصفوا هذه المدينة مارمول كربخال الذي قال عنها: "مدينة عظيمة كانت في عهد ازدهارها تحتوي أكثر من عشرين ألفا من الدور العامرة. بناها الرومان على سفح جبل كبير ينظر إلى البحر، على بعد ثلاثين ميلا شرقي الجزائر وعلى بعد اثني عشر فرسخا من جيجل في الجهة الأخرى..."¹. بينما يصفها صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار في قوله: "هي مدينة عظيمة على ضفة البحر، والبحر يضرب في سورها. وهي محدثة من بناء ملوك صنهاجة، أصحاب قلعة أبي طويل، وتعرف بقلعة حماد اليوم... وعليها سور عظيم، والبحر يضرب فيه. ولها داران لصناعة المراكب، وإنشاء السفن، ومنها تغزا بلاد الروم... وهي مرسى عظيمة تحط فيه سفن الروم من الشام وغيرها من أقصى بلاد الروم، وسفن المسلمين من الإسكندرية بطرف بلاد مصر، وبلاد اليمن، والهند، والصين، وغيرها..."². وتعرضت هي الأخرى للغزو الإسباني الذي شن عليها حملة كبيرة في 5 جانفي 1510م، وفتك بأهلها وخرب الكثير من آثارها³.

- **عناية:** تقع في أقصى الشرق الجزائري كانت تابعة للسلطة الحفصية قبل الوجود العثماني بالجزائر، ثم تم ضمها إلى الإيالة الجزائرية بعد تحريرها من الغزو الإسباني الذي تعرضت له سنة 1510م⁴.

وهناك مناطق أخرى استسلمت للجيش الإسباني دون أي مقاومة، طمعا فيه أو خوفا من بطشه، مثل مدينة الجزائر التي كان يحكمها سليم التومي سنة 1510م، فإنه بمجرد الإعلان عن سقوط بجاية في أيدي الإسبان، أصاب أهل مدينة الجزائر هلعا شديدا لأنهم لم يكونوا يملكون إلا العدد القليل من الأسلحة ولا يوجد لديهم أي مدفع، ونتيجة لهذه الأسباب اجتمع

¹ - مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، ج 2، د. ط، دار نشر المعرفة، الرباط، 1989م، ص 376.

² - مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، د. ط، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، د. ت، ص 128، 130.

³ - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 2، ط 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م، ص 9.

⁴ - نفسه، ص 9.

أعيان المدينة وقرروا توقيع معاهدة الاستسلام، وفي 31 جانفي 1510م ذهب سليم التومي بصفته شيخ مجلس الأعيان إلى بجاية معلنا ولائه للقائد الإسباني بدرو نافارو، ومقابل هذا الولاء طلب هذا الأخير من سليم التومي دفع ضريبة باهظة وإطلاق سراح كل العبيد المسيحيين الموجودين في مدينة الجزائر¹، بالإضافة إلى دفع إتاوة مالية سنوية للإسبان قيمتها تقدر بنفس قيمة ما كانت تدفعه مدينة الجزائر لمدينة بجاية الحفصية قبل ذلك².

ولم يتوقف الحد عند هذا بل قام سكان الجزائر بإرسال وفد آخر إلى إسبانيا سنة 1511م، وتنازلوا للإسبان من خلاله على الجزر الساحلية المواجهة لمدينة الجزائر ليقبضوا عليها حصونا ومراكز، ومن أهم تلك الحصون التي ظلت عائقا أمام سكان مدينة الجزائر حصن الصخرة أو البنيون³. وكذلك يتوجب على حاكم مدينة الجزائر الذهاب شخصيا إلى ملك إسبانيا برفقة مولاي عبد الله حاكم تنس الذي أعلن هو كذلك خضوعه وطاعته لإسبانيا، وحملوا معهم الهدايا الثمينة بالإضافة إلى 130 فردا من العبيد المسيحيين. ومن الملاحظ أنه كان لسليم التومي العديد من المعارضين نتيجة خضوع هذا الأخير للإسبان وولائه لهم، بالإضافة إلى التصرفات التعسفية التي كان يقوم بها الإسبان مع السكان الذين أثقلوا كاهلهم بالضرائب، وتنصيب حامية عسكرية إسبانية قرب المدينة حدث من حرياتهم، خاصة من ناحية الجهاد البحري والتجارة⁴.

ونجد كذلك أن بعض المناطق في الغرب الجزائري مثل مستغانم ومزغان شعرت هي الأخرى بالخطر من الغزو الإسباني، فقدموا فروض الطاعة والولاء للإسبان سنة 1511م،

¹ - كورين شوفالبيه، المرجع السابق، ص 23، 25.

² - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 9.

³ - نفسه، ص 9.

⁴ - كورين شوفالبيه، المرجع السابق، ص 23، 25.

وأمام كل هذا فإنهم أخضعوا كذلك إمارة بني زيان وصاروا يتلاعبون بأمرائها ومستقبلها على حد تعبير يحي بوعزيز¹.

3- انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية:

يرجع الفضل في انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية وانضوائه تحت حكمها إلى مجموعة من البحارة الذين كان لهم الدور الكبير في هذا الانضمام والتحالف، الذي اتضح رسميا سنة 1519م، لكن قبل هذا التاريخ جرت العديد من الحوادث، ولعل من أبرزها تدهور وتراجع كيان الدولة الزيانية التي كانت تحكم جزء هام من المغرب الأوسط، والتحرشات الإسبانية التي استولت على العديد من المناطق المهمة في المغرب الأوسط خاصة الساحلية منها مع بدايات القرن السادس عشر الميلادي، ومع توالي هذه الحوادث وبروز تغيرات جديدة على مسرح الأحداث وانعكاسها على سكان المغرب الأوسط كان لزاما عليهم أن ينضوا تحت لواء دولة قوية وتكون لها روابط مشتركة خاصة الدينية منها، وبالفعل هذا ما حدث من خلال انضواء المغرب الأوسط تحت لواء الخلافة العثمانية، رغم معارضة البعض من الجزائريين لهذا التقارب بين البلدين وخيانة البعض الآخر وانضمامه إلى الجيوش الإسبانية المحتلة لبعض مناطق البلاد، وكان من بين عوامل ظهور هذا التقارب وجود الإخوة بربروس الذين ساهموا بشكل كبير في صد الهجمات الإسبانية وتأسيس إيالة الجزائر الجديدة بمساندة الدولة العثمانية. ومن خلال هذا التمهيد نطرح التساؤلات التالية:

من هؤلاء البحارة المعروفون بالإخوة بربروس؟ وكيف وصلوا إلى المغرب الأوسط؟ وما الدور الذي لعبه هؤلاء في انضمام هذا الأخير إلى الخلافة العثمانية؟ وكيف تم ذلك؟

نقصد بهؤلاء الرجال الإخوة بربروس هؤلاء البحارة العثمانيين الذين ذاع صيتهم في مشارق الأرض ومغاربها، والذين اشتهر منهم اثنان وهما عروج وخير الدين بربروس (أي ذو اللحية الحمراء) في الأوساط الإسلامية وفي الأوساط المسيحية كذلك، وترجع أصول موطنهم

¹ - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 9 - 10.

إلى جزيرة مدلي اليونانية التي فتحها السلطان العثماني محمد الفاتح، وقد استوطنتها البعض من جنوده ومنهم يعقوب الذي تزوج بفتاة نصرانية من تلك الجزيرة، التي أنجبت له: إسحاق وعروج وخير الدين وإلياس¹، ويرى علي محمد الصلابي أن زوجة يعقوب لم تكن نصرانية بل كانت سيدة أندلسية مسلمة كان لها الأثر على أولادها في تحويل نشاطهما نحو بلاد الأندلس التي كانت تتعرض للاضطهاد المسيحي الإسباني والبرتغالي للمسلمين الأندلسيين²، ويعطي لنا نيقولاي إيفانوف تعريفا أدق لهذه الأسرة في قوله: "... وهما - الأخوان عروج - ولدا فارس إنكشاري عثماني اسمه يعقوب من جزيرة ميشيلين في الأرخبيل اليوناني، كان في أوقات فراغه يتعاطى تجارة البازيلا والفاصوليا والأواني الخزفية. وقد اتخذتا كنيتهما ببربروس التي تعني ((ذو اللحية الحمراء)) نسبة إلى لحاهما الشهباء التي ورثاها عن أبيهما المولود في مكدونيا. أما والدتهما كاترينا فكانت أرملة لكاهن أرثوذكسي. وعند إنجاب الأولاد في مثل هذه الحالة، كانت العادة أن البنت تعتبر مسيحية وتتربى على هذا الأساس بينما يعتبر الذكر مسلما. ارتبط مصير ثلاثة من هؤلاء الأولاد بالبحر، وواحد تعاطى مهنة النجارة، وآخر التحق بمؤسسة علمية. أما البنات فقد أصبحت إحداهن راهبة"³. وعلى أي حال لا يهم إن كانت أمها نصرانية أم مسلمة، ولكن الأهم من ذلك أن الإخوة ببربروس نشأ وتربى تربية إسلامية وتربى على حب الجهاد ورفع راية الإسلام، وهو ما انعكس إيجابا على بلاد المغرب العربي والدولة العثمانية بشكل عام.

واشتهر منهم اثنان وهما عروج وخير الدين، الذين اشتغلا بالتجارة البحرية، ورغم الظروف التي مروا بها خاصة عروج الذي سجن من طرف قراصنة رودس⁴، وبعد التخلص من سجنه تولى قيادة سفينة البحار العثماني علي ريس بحيث قام بنقل الأخشاب والتجارة فيها،

¹ - محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 266، 268.

² - علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط 1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، 2001م، ص 207.

³ - نيقولاي إيفانوف، المرجع السابق، ص 96.

⁴ - محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 266، 268.

وبعد ذلك دخل في خدمة السلطان المملوكي قانصوه الغوري، لكن الأمر لم يدم طويلا ليعود بعدها إلى العمل على تجهيز أسطول جديد بمساعدة ابن السلطان العثماني بايزيد الثاني الأمير قورقود، الذي عُرف عنه رعايته للبحارة وسعيه لتخليص الأسرى العثمانيين من أيدي فرسان رودس المسيحيين، وبذلك منح لعروج سفينة كبيرة بدأ فيها نشاطه البحري من جديد، خاصة بملاحقة فرسان رودس والقرصنة على سفنها. ومع هذه الحوادث كانت في الجانب الآخر تعيش بلدان المغرب العربي الانحطاط والضعف السياسي والعسكري، بالإضافة إلى تعرضها للغزو المسيحي خاصة الأسباني الذي سيطر على أجزاء كبيرة من أقاليمها، وفي خضم هذه الظروف وصل عروج وأخيه إلى جزيرة جربة واتخذها قاعدة لنشاطهم البحري، وبعد أن ذاع صيتهما وتحصلا على الكثير من الغنائم، شعرا بأن جزيرة جربة غير مأمونة ولا توجد بها قلعة يمكن الاحتماء بها عند الضرورة، لذلك توجهوا إلى سلطان تونس أبي عبد الله محمد الحفصي طالبين منه منحهم مكانا آمنا في مملكته، فوافق على منحهم منطقة حلق الوادي¹ لممارسة أعمالهم في الجهاد البحري، مقابل دفع خمس الغنائم التي يستحوذون عليها للملك التونسي، ومن هنا اتجهت انظارهم حول السواحل الجزائرية التي يستولي على العديد من مناطقها الجيش الأسباني²، ومن هنا كذلك بدأت قصتهم في مواجهة القراصنة المسيحيين وتحرير السواحل الإسلامية وصولا إلى استقرارهم بالجزائر وربطها بالخلافة العثمانية، ليكون لهم شأن عظيم في هذا الحوض الغربي للمتوسط، الذي شهد العديد من الصراعات بين المسلمين والمسيحيين طيلة ثلاثة قرون من الزمن.

تقول كورين شوفالييه عن الإخوة بربروس: "وفي هذا الوقت كان البحر الأبيض المتوسط مسرحا لانتصارات مدوية أحرزها أربعة إخوان من أصل أحد الجزر اليونانية... وكان يتميز

¹ هشام سوادي هاشم، "البحرية الجزائرية في القرن السادس عشر من خلال كتاب تحفة الكبار في أسفار البحار لكاتب جلبي (1608-1656)"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المنعقد يومي 07-08

ديسمبر 2009م، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر)، جامعة الجزائر، الجزائر، ص 91، 93.

² محمد العروسي المطوي، المرجع السابق، ص 266، 268.

هؤلاء الإخوة بالشجاعة ومعرفة علوم البحر مما جعلهم قراصنة مهابي الجانب في البحر الأبيض المتوسط. وبعد دخولهم الإسلام وضعوا أنفسهم تحت خدمة سلطان استانبول حيث كانوا يقومون بحملات جريئة على شواطئ إسبانيا قصد مساعدة مسلمي الأندلس على الهروب من هذه الجزيرة وكانوا يملكون حوالي عشرة سفن عليها 1000 رجل جاعلين من القرصنة حرفة لهم...¹. ويذكر جودت باشا واصفا خير الدين بقوله: "وكان خير الدين باشا يعرف باسم خضر وعند الأوروبايين باسم بار باروس أي صاحب اللحية الحمراء وكان مشهورا بأعماله العظيمة وغزواته الخارقة للعادة في البحر وهو مجاهد جليل المناقب حتى ظن الناس أنه من أهل الكرامة المجاهدين الأجلاء ذوي المناقب..."².

ونظرا لذيوع صيت هؤلاء وإتقانهم لمهمة الجهاد البحري وكذلك ملاحقة القراصنة المسيحيين، وشيوع انتصاراتهم في بلدان البحر الأبيض المتوسط، قام سكان الجزائر بالاستتجاد بهم لتخليصهم من الغزو الإسباني، فلبوا ذلك وشرعوا في تحرير المدن التي تعرضت للغزو الإسباني، رغم كل الصعوبات التي تعرضوا لها سواء من حيث نقص العدة والعتاد وكذلك كثرة الخونة والأعداء، وبفضل الله ثم بفضل خبرتهم ودهائهم ومعاونة السكان الوطنيين الغيورين على وطنهم قاموا بدحض الجيش الإسباني وتحرير المدن واحدة تلو الأخرى، ورغم أنه أخذ منهم جهدا كبيرا ومدة طويلة وخسائر كبيرة في الأرواح والعتاد إلا أنهم بفضل الله تمكنوا من تحرير سواحل الجزائر ما عدا المرسى الكبير ووهران التي تحررت فيما بعد، وحول هذا الحدث يذكر ابن رقية التلمساني: "سنة خمسة وعشرين وتسعمائة قدم خير الدين رايس وأخوه عروج إلى تونس ثم من تونس إلى جيجلة وبجاية فأخذهما. وتمكن بجيجلة. فبعث إليهم أهل الجزائر يشكون من النصارى قائلين لهم: ((سمعنا بكم أناس تحبون الجهاد، وأخذتم بجاية وجيجلة من

¹ - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 26.

² - جودت باشا، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، ج 1، د. ط، مطبعة جريدة بيروت، د. م، 1308هـ / 1891م، ص 147.

أيدي النصاري ونصرتم الدين؛ فهنيئاً لكم أيها المجاهدون، لا بد أن تقدموا إلينا، وتخلصونا من أيدي هؤلاء الملاحين الكفرة؛ لأننا في محنة عظيمة وذلة شديدة.)"¹. ولما سمع عروج بربروس هذا الخبر اتجه نحو الجزائر ضمن مركبين من نوع غليوط، ثم وصل بعد ذلك أخوه خير الدين إلى جيجل، وعند معرفته أن أخاه عروج قد اتجه نحو مدينة الجزائر لمواجهة الغزاة أرسل له مائتين وثمانين رجلاً ورجع هو إلى تونس².

وحول هذه التحركات الحثيثة التي كان يقوم بها الإخوة بربروس، يذكر خير الدين بربروس في مذكراته أن ممالك الكفر ((الممالك المسيحية)) قد اتفقوا على القضاء عليه هو وأخيه قائلاً: "لقد ظهر تركيان اسمهما: عروج وخير الدين خضر. يجب أن نسحق هاتين الحيتين قبل أن تتحولاً إلى تنين. علينا أن نمحو اسميهما من على وجه الأرض. إننا إذا أتحنا لهما الفرصة سوف يسببان لنا متاعب كثيرة"³.

وبداية تواجدهم بالجزائر كان عام 1512م حينما استجد بهم علماء وأعيان بجاية وكذلك أمير قسنطينة الحفصي أبو بكر، وطلبوا منهم النجدة وتخليصهم من الغزو الإسباني الذي تعرضت له مدينتهم، فلبوا رغبتهم وزحفوا على المدينة بأسطول بحري منطلقاً من حلق الوادي متجهاً نحو مدينة بجاية⁴، لكن السفن المسيحية كانت تتابعهم وتريد القضاء عليهم فوقع اشتباك كبير بين تلك السفن وقوات الإخوة بربروس، ونظراً لصعوبة المهمة قررت قوات بربروس الابتعاد قليلاً عن الساحل، ليلحقها الجيش الإسباني وجرت معركة كبيرة، بحيث تم فيها الاستيلاء على مجموعة من السفن المسيحية وفرت البقية إلى قلعة بجاية للاحتماء بها، لكن بربروس حاولا الهجوم على القلعة ومن فيها لكنهم تعرضوا لوابل كبير من القنابل، واستشهد

¹ ابن رقية التلمساني، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، ضبط النص وعلق عليه خير الدين سعدي الجزائري، ط 1، أوراق ثقافية، جيجل، الجزائر، 2017م، ص 83-84.

² نفسه، ص 84-85.

³ خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 49-50.

⁴ يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 11.

خلالها ستون رجلا وسقط عدد كبير من الجرحى، وقد فقد عروج ذراعه اليسرى نتيجة قذيفة سقطت على ذراعه، وبعدها حاول خير الدين الهجوم مرة أخرى على القلعة ونشبت معركة أخرى، تم فيها قتل ثلاثمائة إسباني وأسر مائة وخمسين آخرين، ثم عادا إلى تونس بأربع عشرة قطعة بحرية¹.

وترجع أسباب عدم تمكنهم من تحرير مدينة بجاية إلى صلابة وقوة التحصينات الإسبانية، بالإضافة إلى تعاون أمراء بني عباس مع الإسبان، وهناك سبب آخر أثر على سير هذه الحملة ويتمثل في إصابة قائد الحملة عروج بجروح خطيرة أدت به إلى قطع ذراعه بعد أن استعصى علاجها².

لكن رغم ذلك لم تُخيب آمال سكان بجاية ولم يفشل الإخوة بربروس في مواصلة تحرير تلك المدينة، ففي أثناء اتجاه خير الدين بربروس وأخيه إلى مضيق جبل طارق ثم المرور إلى الأندلس لإنقاذ بعض الموريسكيين، وصله وفد من مدينة بجاية حاملا رسالة جاء فيها: "إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال. لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم لما نلقاه من ظلم الإسبان. فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم. جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه إيانا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بتخليصنا من هؤلاء الكفار"³.

وكان هذا الطلب من حاكم بجاية الأمير عبد الرحمان، وفي المقابل كان عروج يدرك جيدا أن استعادة بجاية سيكون له تأثير كبير على مستقبله، لذلك وافق على طلب الأمير عبد الرحمن، هذا الأخير الذي جهز قوة مكونة من ثلاثة آلاف مقاتل وأضاف إليهم عروج 200

¹ - خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 50، 53.

² - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 11.

³ - خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 67.

من بحارته¹. وفي حدود سنة 921هـ / 1515م² توجه الإخوة بربروس نحو بجاية رفقة 2033 بحار وعشرة سفن قادرة و 150 مدفعا والآلاف من الأسرى الذين يقومون بالجذف، ونشبت معركة بين قوات بربروس والقوات الإسبانية، دامت أكثر من ثلاث ساعات ونصف، ثم التحق بعد ذلك أعراب البوادي بالأخوين بربروس، يقدرون بحوالي عشرين ألف رجل، واستمرت المقاومة الإسبانية 29 يوما، لكن قوات خير الدين لم تستطع الدخول للقلعة نظرا لعدم امتلاكهم لمدافع تلك حصونها³.

وأمام هذا الأمر وجد عروج أنه لا يمكن له الاستمرار في نشاطه البحري لمواجهة التوسع الأوروبي بقدراته الخاصة، لذلك فكر أنه لا بد من الاستعانة بدولة قوية تساعده في ذلك، فاتجهت أنظاره صوب الدولة العثمانية، فأرسل أحد بحارته وهو بيبري ريس إلى السلطان سليم الأول⁴ الذي رحب به ومنحه سفينتين حربيتين كبيرتين مجهزتين بالسلاح والعتاد، وأذن له أن يجند ما يشاء من بحارة الأناضول⁵.

وبعد شيوع خبر هذه المعركة تحركت قوات إسبانية كبيرة من جزيرة مينورقة متجهة نحو بجاية، وفي ظل هذه الأخبار انسحب المسلمون إلى جيجل لترصد القوات الإسبانية القادمة

¹ - هشام سوادي هاشم، المرجع السابق، ص 93.

² - بلبروات بن عتو، "بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني 1510 - 1554"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، الجزائر، المجلد 3، العدد 7-8، 22 جانفي 2013م، ص 182.

³ - خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 70، 72.

⁴ - هو السلطان سليم بن بايزيد، حكم الدولة العثمانية في الفترة الممتدة من 1512م إلى غاية 1520م، واشتهر بالشدة والصرامة. ومن بين الإنجازات المهمة التي حققها وضعه حدا للتوسع الصفوي بعد هزمه للشاه إسماعيل في معركة جالديران عام 1514م، وفي عهده تم القضاء على دولة المماليك بالشام ومصر، بعد المعركتين اللتين انتصرا فيهما الجيش العثماني على المماليك، وتمثلتا في معركتي مرج دابق بالقرب من حلب سنة 1516م، ومعركة الريدانية بالقاهرة سنة 1517م، كما أن في عهده دانت له الحجاز بالطاعة ودخلت تحت حمايته فلقب "بخادم الحرمين"، كذلك في عهده انضمت الجزائر إلى الخلافة العثمانية بتشجيع من خير الدين بربروس وذلك سنة 1518م أو في سنة 1519م في بعض المصادر الأخرى. يُنظر: أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، المصدر السابق، ص 32.

⁵ - هشام سوادي هاشم، المرجع السابق، ص 93.

من مينورقة، وتم الاستيلاء على عشرة سفن مسيحية من نوع قادرغة كانت مشحونة بالأسلحة والمعدات الحربية وتوجهوا بها نحو بجاية، وقد عمل خير الدين خدعة للإطاحة بالجيش الإسباني الموجود بالقلعة، وتمثل ذلك في رفع الرايات الصليبية على عشرة سفن ضخمة التابعة لأسطول¹، وأمر خمسمائة بحار بأن يمكثوا في هذه السفن² وتوجه بها نحو قلعة بجاية، وعندما رأوها الجنود المسيحيين الموجودين ببجاية فرحوا بها وقاموا بفتح الأبواب لها، ففاجأهم الجنود المسلمون بصيحات التكبير والتهليل، ليطلب بعدها الإسبانين الأمان من قوات خير الدين، وتم فتح القلعة³.

لكن بعد فتحهم للحصن الأول للقلعة وأسر 500 من المسيحيين، أحاطوا بالحصن الثاني، وقاموا بضربه بالمدافع مدة عشرين يوما⁴، لكن هذه العملية لم تكلل بالنجاح بسبب نفاذ البارود، ورفض السلطان الحفصي تزويدهم به، وذلك خوفا منه أن يحقق انتصارا على المسيحيين، مما يؤدي إلى تعلق الناس بهما وازدياد نفوذهما، وهذا ما يشكل خطرا عليه حسب تقديره⁵. في حين وصلت التعزيزات من المسيحيين بمائتي سفينة، ووضع في الحصن أكثر من عشرة آلاف من المقاتلين، ونظرا لأن المسلمين لم تكن لهم القوة الكافية لمواجهة المسيحيين قاموا بالتوجه نحو شرشال عن طريق البر وساقوا الأسرى معهم، وذهب خير الدين ببربروس إلى تونس بأربع قطع بحرية⁶.

¹ - خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 70، 72.

² - حنيفي هلايلي، بابا عروج وبدايات تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة، المرجع السابق، ص 05.

³ - خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 70، 72.

⁴ - كاتب جلبي، تحفة الكبار في أسفار البحار، تصنيف حاجي خليفة، ترجمة وتحقيق محمد حرب وتسليم حرب، ط 1، دار البشير للثقافة والعلوم، د. م، 2017، ص 86.

⁵ - محمد دراج، "تأسيس إيالة الجزائر"، مجلة عصور، جامعة وهران، الجزائر، المجلد 09، العدد 01، ص 27.

⁶ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 86 - 87.

وبعد فتح قلعة بجاية¹ اجتمع شيوخ وقواد المناطق المجاورة لهذه البلدة وتم مبايعة الأخوين عروج لحكم الجزائر، وهذا ما ذكره خير الدين بربروس في مذكرات: "بعد فتح القلعة جاء جميع شيوخ وقواد المناطق المجاورة لبجاية مبايعين لي، ومن هنا انتصبت أنا وأخي ملكين على هذه البلاد"². ويذكر خير الدين بربروس أيضا أن فتح قلعة بجاية كان ذا أهمية كبيرة، وذلك لكونه ربما مفتاح لفتح كل المدن الجزائرية الأخرى، وهذا ما عزز الثقة في نفس عروج وخير الدين بربروس في تأسيس دولة جديدة تابعة لهم، خاصة بعد تراجع علاقتهم مع ملك تونس، الذي خشي على ملكه، ونستشف هذا التوجه لخير الدين وأخيه من خلال قوله: "لقد بات أنه من اللازم علينا أن نؤسس لأنفسنا دولة جديدة في غربتنا هذه"³.

ومن المؤكد أنه تحالف مع عروج العديد من سكان البربر، ومن بينهم أحمد بن القاضي الذي تزعم القبائل بعد سقوط بجاية سنة 1510م، قصد الوقوف في وجه الغزو الإسباني، ولما جاء عروج إلى بجاية انضم إليه وأصبح خليفته، غير أن عبد العزيز رئيس قبيلة بني عباس وعدو بن القاضي وقف ضد هذا التحالف⁴.

وفي مدينة الجزائر التي تعرضت قلعته (البينيون) للاحتلال من طرف الإسبان، وخضع الجزائريون لهم مضطرين، وتم فرض عليهم إتاوة سنوية بالإضافة إلى المرور في مياهم⁵، هذا الاحتلال وهذه المعاملة أثرت على السكان المحليين وقيدت حريتهم، لذلك أصبح لزاما على

¹ في الحقيقة لم يتم تحرير بجاية بشكل نهائي في عهد حكم الإخوة بربروس للجزائر، ولكنهم فتحوا قلعة بجاية دون المدينة كلها والتي ظلت تحت سيطرة الجيش الإسباني إلى غاية تحريرها بشكل نهائي سنة 1554م (1555م) في عهد البيلرباي صالح رايس. وفي نفس السياق يذكر بلبروات بن عتو: "... أن خير الدين لم يفتح بجاية ولم يطرد الإسبان منها بالكامل، إذ لم يتحقق ذلك إلا في عصر البيلرباي صالح رايس... سنة 1555، والذي يُفهم من مذكرات خير الدين بربروس أنه فتح قلعة واحدة فقط بالمدينة...". يُنظر: خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 73 (الحاشية السفلية). ويُنظر أيضا: بلبروات بن عتو، "بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني 1510-1554"، المرجع السابق، ص 184.

² خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 72.

³ نفسه، ص 73.

⁴ كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 26-27.

⁵ كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 87.

سليم التومي حاكم مدينة الجزائر وأهالي المدينة بأن يتخلصوا من هذا الاحتلال وتحرير القلعة، وتنفيذا لذلك أرسلوا وفدا مكونا من عدة شخصيات¹ يترأسه سالم التومي إلى الإخوة بربروس المتمركزين بجيجل خلال عام 1516م ، يشكون من خلاله الضيق والخطر المحدق بهم الذي يمارسه الغزاة الإسبان، الذين احتلوا القلعة المواجهة لمدينة الجزائر سنة 1510م وحولوها إلى وكر للجوسسة والتخريب، بالإضافة إلى شن غارات دائمة على سكان مدينة الجزائر، ويسلبونهم أموالهم وأغنامهم وثرواتهم، مما جعلهم يعيشون دائما في حالة من الرعب والاستقرار²، وبعد شرحهم للوضع المُرري التي تعيشه مدينة الجزائر طلبوا من الإخوة بربروس تحرير قلعة الصخرة المحتلة من طرف الإسبانيين والتي يربط بها 200 جندي إسباني³.

وفي تلك الأثناء كان الإخوة بربروس يهيئان نفسيهما لشن ضربة قوية ضد الإسبان في بجاية، لكنهم أجّلوا هذه الحملة وقررا انجاد سكان مدينة الجزائر⁴. وحول هذا الحدث يذكر خير الدين بربروس: "عندما كنت مع أخي في مدينة جيجل وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، كان أهمها وفد مدينة الجزائر التي كانت تمثل مركز البلاد. كان أهالي الجزائر يشكون من ظلم الإسبان، ويرجوننا تدخلنا لإنقاذهم، فخرج أخي عروج في خمسمائة بحار متجها إلى مدينة الجزائر بعد أن خلفني في جيجل"⁵.

وتطبيقا لذلك خرج عروج على رأس حملة برية مكونة من الجنود الأتراك وأغلبها من سكان القبائل، وفي نفس الوقت قاد خير الدين أسطولا بحريا والتقيا معا في مدينة الجزائر، واستقبلا من طرف السكان استقبالا حارا، ثم شرعا في قصف الحصن الإسباني بمدافعهما، وفي تلك الأثناء اتجه عروج إلى شرشال التي كانت تحت سيطرة شخص تركي اسمه قارة حسن

¹ - خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 74.

² - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 13.

³ - حنيفي هلايلي، "بابا عروج وبدايات تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة"، المرجع السابق، ص 06.

⁴ - يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 13.

⁵ - خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 74.

كان يتعاون مع بعض المهاجرين الأندلسيين على حكم شرشال، فقضي عليه وسيطر على المدينة ثم عاد إلى مدينة الجزائر وبايعوه السكان أميرا للجهاد في سبيل الله¹.

لكن الإخوة بربروس لم يستطيعوا تحرير الصخرة في هذه الفترة، كما أن حاكم مدينة الجزائر سالم التومي شعر بتزعزع منصبه وربما يفقده لصالح عروج الذي اكتسب شعبية كبيرة لدى سكان الجزائر، بالإضافة إلى ذلك اعتبر الإسبان أن استقرار عروج بهذه المدينة سيشكل خطرا عليهم وعلى مستقبلهم بالمنطقة، كل هذا أدى بتحريك السلطات الإسبانية لوقف ما يحدث في مدينة الجزائر خاصة الوقوف في وجه الإخوة بربروس، لذلك عزموا على مقاومتهم وتحطيم سلطتهم وطردهم. وتنفيذا لذلك تحالفوا مع أمير تنس الخاضع لهم واستمالوا إليهم سالم التومي واتباعه بالإضافة إلى استمالتهم بعض زعماء القبائل المجاورة للمدينة، ثم وجهوا من وهران حملة كبيرة بقيادة حاكمها ديقوا فيرا ووصلت هذه الحملة إلى الجزائر في أواخر شهر سبتمبر 1516م ونزلت قرب باب الواد، ونزلوا إلى البر وجرت مناوشات بينهم، واستغل عروج هبوب ريح شمالية ساعدتهم في اغراق الكثير من الإسبانين ومعاونيهم وتم قتل بعضهم وأسر بعضهم الآخر².

وتمكن عروج من قتل سالم التومي والتفرد بحكم مدينة الجزائر، وبعدها أعادوا الكرّة على الحصن لكنهم فشلوا في تحريره، وفي نفس الوقت خلصت المؤونة من الجنود الإسبانين، ولم تُعدّ المؤن تصل إليهم كما في وقت سالم التومي، وأمام هذا الوضع قام مارتين فاركاس قائد الحامية الإسبانية بحصص البنيون بإعلام الملك بتلك الحال، وبينما كان ينتظر النجدة من إسبانيا سارع عروج بتوجيه طلب إليه بالاستسلام لكنه رفض ذلك، فقام بربروس بمهاجمته وقتل مارتين وتم الاستيلاء على الحصن³.

¹ يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ص 13.

² نفسه، ص 13-14.

³ حنيفي هلايلي، "بابا عروج وبدايات تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة"، المرجع السابق، ص 06.

وبعد استشهاد عروج سنة 1518م وتسلم أخيه خير الدين بربروس زمام الأمور بمدينة الجزائر، أدرك صعوبة الموقف نظرا لضعف موقفه السياسي ومركزه الحربي رغم ما يتصف به من قوة وشجاعة، وكذلك خشي من تمرد سكان الجزائر والمناطق المجاورة لها، فيستغل الإسبان ذلك الوضع ويهاجمون الجزائر، بالإضافة إلى ذلك رفض بعض القيادات المحلية الانضواء تحت سلطة خير الدين بربروس، حتى تستعيد نفوذها وسلطتها، فالزيانيون عادوا إلى حكم تلمسان تحت الحماية الإسبانية، والسلطان الحفصي يريد أن يمد نفوذه إلى الجزائر، وفي نفس الوقت أعلن أحمد بن القاضي سيطرته على مناطق زواوة، وثارت كل من تنس وشرشال¹.

وأمام كل هذه التحديات أدرك خير الدين بربروس بعد وفاة أخيه عروج أن الإرث الذي آل إليه كان من الصعب تسييره وحده لذلك كان أمامه خياران، إما أن يترك الجزائر ويواصل عمله في الجهاد البحري، وإما أن يسعى إلى بناء ما ورثه عن أخيه ويدافع عن المسلمين في شمال إفريقيا ويواصل الجهاد البحري ضد القراصنة المسيحيين، معتمدا في ذلك على حليف قوي يستطيع مساعدته². ثم خطب في أهالي الجزائر وقال لهم: "إنني قد حميتكم حتى الآن، وعمرت القلعة وأصلحتها، ووضعت فيها أربعمئة مدفعا. وقد أذهب بعد ذلك إلى بلاد أخرى؛ فعينوا من تريدونه واليا عليكم. وحينما سمعوا ذلك، أخذوا كلهم يرجونه ويتوسلون إليه قائلين: لا تتركنا. فقال لهم (خير الدين بك) إن حاكم (تلمسان) و(تونس) من أعدائي، أما إذا أصبحت الخطبة باسم أبناء عثمان أبقي، فقبلوا ذلك"³.

وفي رواية أخرى ذكرها صاحب كتاب الزهرة النائرة أن خير الدين بربروس عزم على السفر إلى إقليم الروم من أجل مواصلة الجهاد، ثم جمع أهالي الجزائر من العلماء والصلحاء وقال لهم: "إنني قد عزمت على السفر إلى حضرة السلطان وأمنت على بلادكم من العدو بما

¹ - هشام سوادي هاشم، المرجع السابق، ص 95-96.

² - ياتسيك ماخوفيسكي، تاريخ القرصنة في العالم، ترجمة أنور محمد إبراهيم، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2008م، ص 96.

³ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 93.

تركت فيكم من المجاهدين ومن وصل إليكم من أهل الأندلس وما تركت عندكم من العدة، لأنني تركت في بلادكم أكثر من أربعمائة مدفع، ولم يكن من قبل في بلادكم ولو مدفع واحد". فقالوا كلهم له: "أيها الأمير لا تطيب أنفسنا بفراقك ولا نسمح لك بذلك، فإله الله في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله يسألك يوم القيامة عنهم"، ثم قال لهم خير الدين: "أنتم رأيتم ما وقع من الملاحين الكافرين ولا يؤمن من عواملهم، وقد ظهر لي من الرأي أن نصل يدنا بطاعة السلطان الأعظم، مولانا السلطان سليم، فيمدنا بالمال والرجال وجميع ما نحتاج إليه من آلة الجهاد، ولا يكون ذلك إلا بصرف الخطبة إليه وضرب السكة عليه"¹.

ولتحقيق هذا المطلب كان ينوي خير الدين بربروس الذهاب بنفسه إلى إسطنبول ليعرض على السلطان سليم الأول شخصيا قضية أبعاد الجزائر، ولكن زعماء مدينة الجزائر ألحوا عليه بأن يبقى فيها كي يستطيع مواجهة الأعداء إذا تحركوا، وطلبوا منه أن يقوم بإرسال سفارة تنوب عنه²، فقبل طلبهم هذا وأرسل خير الدين بربروس محضرا إلى السلطان سليم يوضح فيه خضوعه للباب العالي ولتوليه الحكم في الجزائر³، رفقة مجموعة من أهالي الجزائر تحمل رسالة باسم القاضي والخطيب والفقهاء يترأسهم الشيخ أبو العباس أحمد بن القاضي، كونه شخصية علمية دينية وذو دراية عسكرية بشؤون الحرب⁴، كما أرسل خير الدين مع الوفد ممثلا له يدعى حاجي حسين آغا⁵، وذلك في أوائل شهر ذي القعدة عام 925 هـ، في الفترة من 26 أكتوبر إلى 03 نوفمبر 1519م⁶.

¹ - محمد بن محمد بن عبد الرحمان الجيلاني، المرجع السابق، ص 107.

² - علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 212.

³ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 93.

⁴ - هشام سوادي هاشم، المرجع السابق، ص 97.

⁵ - محمد دراج، "تأسيس إيالة الجزائر"، المرجع السابق، ص 25.

⁶ - علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 211.

ومما جاء في هذه الرسالة: "إن أهل المدينة هم عبيد للسلطان العثماني، ليس لهم ملاذ سواه يفرعون إليهم في موقفهم الحرج... ثم أشادوا بأفضال بابا عروج في مدافعة "الكفار" لأنه كان ناصر الدين وحامي المسلمين المجاهدين في سبيل الله" إلى أن وقع شهيدا في حصار الإسبانيين لمدينة تلمسان، وخلفه أخوه المجاهد في سبيل الله أو التقى خير الدين، وكان له خير خلف، فقد دافع عنا، ولم نعرف عنه إلا العدل والإنصاف واتباع السنة الشريفة، وهو ينظر إلى مقامكم العالي بالتعظيم والإجلال ويكرس نفسه وماله للجهاد لرضاء رب العباد وإعلاء كلمة الله، ومناط مآله سلطنتكم العالية، مظهرا إجلالها وتعظيمها، على أن محبتنا له خالصة ونحن معه ثابتون، ونحن وأميرنا خدام أعتابكم العالية. وأهالي إقليم بجاية والغرب والشرق خدمة مقامكم العالي. وإن المذكور حامل الرسالة المكتوبة سوف يعرض على جلالته ما يجري في هذه البلاد من الحوادث والسلام"¹.

وأرسل خير الدين مع هذا الوفد أربع سفن ووضع فيها أربعة ربابنة سفن أسرى من مختلف الدول، وأربعين غلاما وهدايا كثيرة وأرسلها إلى السلطان سليم، الذي بدوره قبل الهدية، وأرسل إلى خير الدين السيف والخلة والراية مع الحاج حسين². كما منح خير الدين بربروس رتبة بكربك أي - أمير الأمراء - وهذا اللقب يمنح صاحبه سلطات إدارية واسعة ويجعله قائدا أعلى للقوات المسلحة في إقليمه وممثلا للسلطان³.

ولما وصل الحاج حسين إلى الجزائر استقبله خير الدين بحفاوة وامتنان وأخذ ما أرسله إليه السلطان، ثم أخرج المنادين ينادون أن الولاية أصبحت ملكا للسلطان، واستضاف المبعوث بكل وقار وأحسن إليه ثم أعاده إلى الباب العالي⁴.

¹ - هشام سوادي هاشم، المرجع السابق، ص 97، 98.

² - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 93.

³ - هشام سوادي هاشم، المرجع السابق، ص 99.

⁴ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 93.

ثم أرسل بعد ذلك السلطان سليم الأول قوة مؤلفة من ألفي إنكشاري مزودين بالمدفعية، وعدد من متطوعي الأناضول الذين بلغ عددهم 200 مقاتل، واللذين سمح لهم السلطان سليم الأول بتجهيزهم ومنحهم نفس امتيازات الإنكشارية¹.

ثم واصل هذا الدعم ابنه السلطان سليمان القانوني²، الذي قام سنة 1520م بإرسال ألفي جندي من فرقتي الإنكشارية والمدفعية إلى خير الدين بربروس³.

وبهذه القوة أصبح تحت إمرة خير الدين بربروس جيشا مكونا من أربعة آلاف من جنود الإنكشارية ومن متطوعي الأناضول، والذين كَوّن بهم خير الدين قوة الجزائر الحربية⁴. وأصدر الخليفة العثماني أمرا بالسماح للمسلمين بالتطوع في قوات خير الدين، وشجعهم على ذلك، فانخرطت معه أعداد لقتال الصليبيين، ووقفت في وجهه أعداد أخرى مثل أصحاب النفوذ كبنو زيان والحفصيون والإمارات الصغيرة وزعماء البربر وغيرهم⁵.

¹ - هشام سوادي هاشم، المرجع السابق، ص 99.

² - هو الخليفة سليمان خان الأول الملقب بالقانوني، وهو عاشر خلفاء الدولة العثمانية، ولد في غرة شعبان سنة 900 هـ الموافق ل 27 أبريل سنة 1495م، تولى الحكم سنة 1520م بعد وفاة والده سليم الأول، وبلغت الدولة العثمانية في عهده أقصى اتساع لها، وتقدمت الفتوحات الإسلامية في عهده تقدما كبيرا لم تصل إليه بعده، واشتهر باسم القانوني نظرا لما أدخله من القوانين والنظم في كافة فروع الحكومة، خاصة في الإدارة والجيش ونظام التعليم، وقد قضى أيام حكمه للدولة العثمانية التي تعتبر أطول فترة حكم للسلطانين العثمانيين بحيث دامت 46 سنة، في توسيع نطاق الدولة وإعلاء شأنها، حتى بلغت في أيامه أعلى درجات الرقي والازدهار، وظل على هذه الحال إلى غاية وفاته في 20 صفر سنة 974هـ الموافق ل 5 سبتمبر 1566م عن عمر ناهز أربعة وسبعين سنة. ينظر: محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط 1، دار النفائس، بيروت، 1981م، ص 198 وما يليها.

³ - أرجمند قوران، "نقل الأتراك الجزائريين لمسلمي الأندلس إلى شمال إفريقيا ونتائجه"، ترجمة من التركية عامر الهنيي، مراجعة وتدقيق منذر أبو هاشم، نقلا عن: عامر الهنيي، دور أترك الجزائر في نقل مسلمي الأندلس إلى شمال إفريقيا ونتائجه، الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، نشر بتاريخ: 12 / 01 / 2009م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 22 / 11 / 2021م، متّاح على الرابط التالي: <http://www.wata.cc/forums/showthread.php?39437>

⁴ - هشام سوادي هاشم، المرجع السابق، ص 99.

⁵ - محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، ج 08، ط 04، المكتب الإسلامي، د. م، 2000م، ص 519، 520.

الفصل الأول:

ظروف ومجريات الهجرة
الأندلسية إلى الجزائر

أولاً: أسباب الهجرة

ثانياً: مراحل الهجرة

- 1- الهجرة الاختيارية (قبل سقوط غرناطة)
 - 2- الهجرة الاضطرارية (بعد سقوط غرناطة)
 - 3- الهجرة الإجبارية (1609 - 1614م)
- ثالثاً: استقرار الأندلسيين بالجزائر

أولاً: أسباب الهجرة:

لقد شهدت مناطق شمال إفريقيا منذ الفتح الإسلامي للأندلس توافد أعداد كبيرة من المهاجرين الأندلسيين، وذلك للترابط الثقافي والاجتماعي بين عدوتي الأندلس والمغرب، وشهدت بالخصوص هجرة العلماء والتجار وأصحاب الحرف، لكن هذا التواجد ازداد خلال القرون الوسطى وهذا نظرا للظروف التي كانت تمر بها الأندلس من فترة إلى أخرى، خاصة التأثير العسكري والسياسي الذي أحدثته الحملات المسيحية لاستعادة إسبانيا، ليزداد هذا التواجد أكثر بعد سقوط غرناطة سنة 1492م إلى غاية الجلاء الأخير لهؤلاء الأندلسيين بين سنتي 1609 و1614م.

ومن المؤكد أن الوحدة التي جمعت مملكتي قشتالة وأراغون الإسبانيتين، قد صاحبتهما محاولات استرجاع البلاد الإسبانية والقضاء على الممالك الإسلامية بها، وهو ما تم فعلا بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وما انعكس على الأندلسيين الذين اضطهدوا واضطروا إلى الهجرة خارج بلادهم، بعد منعهم من ممارسة شعائرهم الدينية وإجبارهم على اعتناق الدين المسيحي¹، خاصة ما قامت به الملكة إيزابيلا المتعصبة التي رسمت مجموعة من الخطوات لتنفيذ سياستها القائمة على التنصير القسري للمسلمين، واعتمدت في ذلك على الأساقفة والرهبان ومنحتهم مناصب في البلاط الملكي، ومن بينهم فرانسيسكو خمينيس دي ثيسنيروس الذي عينته أسقفا على طليطلة من أجل تنفيذ مشروعها في طرد المسلمين وانهاء وجودهم من بلاد الأندلس².

¹ - بلقاسم صديقي، المرجع السابق، ص 89.

² - إلهام محمود كاظم، مشتاق بشير الغزالي، نور حسين، "اضطهاد مسلمي الأندلس (الموريسكيين - Moriscos) في عهد شارل الأول (كارلوس الخامس) 1516 - 1556"، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، العراق، العدد 20، 2017م، ص 23.

وأمام هذا الواقع أضحت الهجرة أمراً محتوماً، فهجر أغلب سكان الأندلس المورييسكيين¹ نحو بلدان شمال إفريقيا، ولم تمكث هناك سوى فئة قليلة، والتي فرض عليها الواقع الاختيار بين الأمرين: إما التأقلم مع الوضع الجديد على ما يقتضيه من ولاء للدولة الإسبانية واعتناق المسيحية وتبني اللغة الإسبانية وثقافتها، وإما الرحيل عن مسقط رأسهم²، لكن في كلتا الحالتين

¹ - لقد أطلق المؤرخون عدة أوصاف أو تسميات على الأندلسيين، وذلك حسب طبيعة تواجدهم في الأندلس أو من خلال الفترات التي هاجروا خلالها، وكذلك من خلال أصولهم أو من خلال بقائهم أو تواجدهم في الأندلس، فكل حالة من هذه الحالات كان يطلق عليها تسمية معينة لهؤلاء الأندلسيين، فنجد أن المؤرخين الأفرنج أطلقوا اسم المورييسكوس Moriscos، وهورناتشيروس Hornacheros، وكان العرب يطلقون عليهم اسم الأندلس والتغريين، واسم التغريين أطلق على سكان شمال الأندلس أي من برشلونة وما دونها وأراغون وقشتالة، وقد حول النصارى هذا الاسم إلى لفظ تقارين Tagarins، أي هؤلاء الذين كانوا قريبين من الثغور أو العمارات التي كانت موجودة في الحدود المجاورة لبلاد المسيحيين من شبه الجزيرة الإيبيرية، ولما غادر سكان الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي مطرودين من بلادهم سماهم الإسبان المورييسكوس أي العرب الصغار احتقاراً وإهانة لهم، وهناك فئة سميت بالمستعربين Mozarabos وهذا اللفظ يقابله لوس مرانيس Los marranes نسبة لليهود المتظاهرين بالنصرانية ومعناه الخنازير، والمستعربون هم الإسبان الذين يتكلمون العربية ويسكنون في جنوب الأندلس مع العرب إنما يدينون بالمسيحية، أو كانوا مسلمين وتمسحوا تحت الضغط، وكانوا موضع اضطهاد لأنهم كانوا يقيمون صلواتهم في منازلهم ويدخلون الكنائس ويظهرون النصرانية، وكانت لهم لغة خاصة وهي لغة عربية ممزوجة باللغة الإسبانية. وفئة أخرى تسمى المدخرون Mudejares، وهم الأندلسيون الذين مكثوا في إسبانيا واحتفظوا بدينهم سرا بعد سقوط غرناطة، ولكنهم نسوه ونسوا لغتهم وشعائهم مع مرور الوقت واندمجوا في المجتمع المسيحي. هذا حسب ما ذكره عبد الحميد بن زيان بن أشنهو.

بينما يرى عبد الله حمادي أن كلمة مورييسكي تنحدر من الأصل اللاتيني Maurus والذي يعني أسمر البشرة أو ينحدر من سكان منطقة la Antigua Mauritania وهي بلاد شمال المغرب، بحيث كانت المنطقة تابعة للإمبراطورية الرومانية وسكانها يسمون Maurus وتحولت بعد ذلك باللغة الإسبانية إلى Moros، وبالتالي أطلق الإسبان تسمية موريوس على كل الفاتحين من عرب وبربر، وصارت مع الوقت تعني "العربي"، وبعد سقوط غرناطة سنة 1492م صاروا ينعنونهم Moriscos، وهي كلمة أطلقت لتصغير واحتقار الأندلسيين.

يُنظر: عبد الحميد بن زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 31-32. وينظر أيضاً: عبد الله حمادي، "هجرة الأندلسيين إلى الجزائر بدأت مع دخول المرابطين إلى الأندلس في سنة 1085م"، حوار مع الخير شوار لجريدة الشعب أونلاين (جريدة إلكترونية) يوم 03 فيفري 2021م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 01 جوان 2022م، متاح على الرابط التالي:

<https://cutt.us/6O2Rq>

² - ألفونسو دو لاسيرنا، "المورييسكيون الإسبان في تونس والمغرب"، مجلة الأكاديمية، العدد 13، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 1998م، ص 117.

كانت النتائج صعبة وقاسية على هؤلاء الموريسكيين، لأن البعد عن الوطن كالبعد عن الأم، والبقاء تحت الاستعباد والظلم الذي تسلطه الكنسية والحكومة الكاثوليكية كالوقوع بين المطرقة والسندان.

وأمام هذا الوضع المزري أصبح أمام الأندلسيين ثلاثة خيارات لا أكثر ولا أقل؛ ويتمثل الخيار الأول في توحيد الجهود والقوى لمواجهة النصارى واستنقاذ الأندلس مجددا وهو ما لم يتم تحقيقه إلا في بعض المناطق، ثم تم الاستيلاء عليها من طرف الجيش الإسباني، والخيار الثاني تمثل في القبول بحكم النصارى والانضواء تحت رايتهم ومعتقداتهم، وهناك من فضل هذا الخيار وهم قلة والذين يتمثلون خاصة في الناس الضعاف والمزارعين والعمال وأهل المدن، تحت اسم الموريسكيين أو المدجنين، والخيار الثالث والذي هو خيار الأغلبية أو إن صح القول هو الخيار الذي فرض على الأندلسيين من طرف السلطات الإسبانية، والذي تمثل في الهجرة والنزوح عن الوطن إلى أراضٍ أخرى خاصة بلاد المغرب العربي¹. ولهذه الأسباب وأخرى خاصة الصراع البحري العثماني الإسباني مع مستهل القرن السادس عشر الميلادي ارتبط التواجد الأندلسي بالجزائر².

وفي هذا الصدد يذكر حنفي هلايلي: "إن المورسكيين سواء الذين كانوا مستقرين بغرناطة أو بمناطق أندلسية أخرى، كانوا منذ عهد مبكر متشوقين للهجرة نحو شمال إفريقيا، وازداد هذا الشوق بعد قيام الحكومة الإسبانية بمزيد من الضغط ومحاولات إبادة من بقي من

¹ - عمارة سيدي محمد، "هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب الأوسط خلال القرن (7هـ / 13م) ودورهم الثقافي"، رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران (السانية)، الجزائر، دفعة 2013م، ص 70.

² - ناصر الدين سعيدوني، "الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر ((دار السلطان)) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر"، ملتقى الدراسات الموريسكية، 4-9 ديسمبر 1990م، إسبانيا، ص 108.

الموريسكيين، أما بالنسبة للمقيمين في المناطق الشرقية لإسبانيا، فكانوا يفضلون الشريط الساحلي الجزائري الذي لم يكن يبعد سوى ساعات قليلة من الإبحار¹.

ويمكن سرد أهم العوامل والأسباب التي أدت بالأندلسيين بالهجرة من موطنهم إلى بقاع العالم ومن بينها الجزائر في النقاط التالية:

- "تفكك المجتمع الموريسكي الأندلسي بعد القمع الشديد الذي فرض عليه، والانتقام الهجمي الذي تعرض له إثر فشل ثورة البشارت الكبرى"² (Alpujarras) سنة 1570م، وما صاحبها من تداعيات على المجتمع الأندلسي، خاصة موريسكيو غرناطة الذين تعرضوا لاضطهاد الكنيسة³.

- تعرض الموريسكيين للقتل والتشريد والترحيل بعيدا عن بؤر الثورة، والبيع في أسواق النخاسة، والفصل بين أفراد الأسرة الواحدة⁴.

- القيام بعمليات التنصير من طرف محاكم التفتيش⁵ والتي استغلتها الحكومة الإسبانية بشكل خاص على الأطفال والمراهقين، لتصنع منهم أجيال جديدة تُستأصل من جذورها الإسلامية،

¹ - حنفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، جامعة الجزائر، الجزائر، 07-08 ديسمبر 2009م، ص 191.
² - فوزي سعد الله، الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم، ج 1، د. ط، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م، ص 106.

³ - Michel Boeglin, "De la déportation à l'expulsion: évangélisation et assimilation forcée, Les morisques à Séville (1570-1610)", In: Cahiers de la Méditerranée. N°: 79, 2009, p 125.

⁴ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص 106.

⁵ - حول فكرة تأسيس محاكم التفتيش يذكر حنفي هلايلي: "ظهرت فكرة تأسيس محاكم التفتيش منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، حيث كان البابوات يعهدون إلى الأساقفة بمعاينة المارقين والملحدين. تأسست هذه الدواوين في إسبانيا خلال عهد الملكين الكاثوليكين إيزابيلا وفرديناند (1474-1516). فكانت أول المحاكم في إشبيلية وقرطبة وجيان وبلد الوليد سنة 1482، والتي تابعت اليهود وفرضت عليهم التنصير. في سنة 1483 أصدر الفاتيكان براءة تقضي بإنشاء مجلس أعلى لمحاكم التفتيش تشرف على شؤون الدين الكاثوليكي"، وحسب ما ذكرته بشرى محمود الزوبعي فإن فكرة تأسيس محاكم التفتيش ترجع بعد أن صُدرت أوامر من طرف السلطة الإسبانية في السابع عشر من شهر سبتمبر سنة 1480م إلى كل من ميغيل =

فبعد سقوط غرناطة قام الراهب هرناندو بتنصير حوالي ثلاثة آلاف من المسلمين في يوم واحد بدعوى أن آبائهم كانوا من النصارى¹.

- التطهير العرقي العنصري الأكبر والأخطر مأساوية خلال القرن 17م على الأقل، والذي طال 300 ألف شخص حسب المصادر الإسبانية التي تستند إلى وثائق الأرشيف المحلي².

- تدهور الأوضاع السياسية والعسكرية، بحيث كان الوضع العام في الأندلس يسوده الاضطراب والفوضى خاصة من الناحية السياسية والعسكرية، وتجلّى ذلك بشكل واضح بعد هزيمة الموحدين في معركة حصن العقاب (609هـ / 1212م)، وكانت هذه الهزيمة بداية نهاية الوجود الإسلامي بالأندلس وما تبعها من ظهور الفتن والخلافات السياسية التي أتاحت للممالك المسيحية الإسبانية الفرصة بشن حملات الاسترداد وغزو العديد من المدن الإسلامية تمهيدا لتحقيق الوحدة الإسبانية، وهذه الأوضاع كلها انعكست سلبا على الأندلسيين الذين اضطروا

=دي موريللو Miguell de Morillo وخوان دي سان مارتن Juan de San Martin ويساعدهما اثنان من الرهبان بتشكيل أول محكمة تفتيش في إشبيلية. وقد كان الطراز الهندسي موحد لقاعات محاكم التفتيش بحيث يضم البناء ثلاثة أنواع من السجون: الأول يخصص للأشخاص الذين لا تكون جرائمهم ضد الدين، والثاني مخصص لسجن موظفي المحكمة الذين يرتكبون في أثناء تأديتهم وظائفهم جرائم أو أخطاء، أما النوع الثالث فهو يشكل السجون السرية وهو المخصص للأشخاص الذين اتهموا بالهرطقة (أي الخروج عن الدين والأعراف المعمول بها)، وهذه السجون تتصل بغرف التحقيق وقاعات التعذيب وتقع في الطابق الأرضي حيث الزنانات الرهيبة، وداخل تلك الزنانات كانت تطلّى جدرانها بالشمع لمنع المساجين من محاولة تسلق جدرانها للهروب، وكان سرير السجين قطعة مستطيلة من الخشب وفرشه قطعتين من الخيش أما وسادته فكانت عبارة عن قطعة مربعة من الحجر، وخصص لكل زنانة إناءين من الفخار أحدهما لطعامه وشرابه والآخر لفضلاته، ويفرض على السجين ارتداء قطعة من القماش الخشن مرسوما عليها علامة الصليب باللون الأحمر. وهكذا بدأت هذه المحاكم تلاحق كل من اتهم بخروجه على المسيحية، وبدأت تنتشر في أنحاء البلاد الإسبانية، وقد بلغ العدد الكلي لمحاكم التفتيش في نهاية القرن الخامس عشر خمس عشرة محكمة تفتيش، موزعة على المدن المهمة، وكان أكثر نشاطها في المدن الأندلسية كمديريد وإشبيلية وطليطلة، حيث تركز فيها أعداد كبيرة من الموريسكيين. يُنظر: حنيفي هلايلي، "حكم هجرة الأندلسيين إلى المغرب العربي من خلال فتاوى الونشريسي"، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، العدد 02، مارس 2010م، ص 39. وينظر أيضا: بشرى محمود الزوبعي، محاكم التفتيش الإسبانية 1480-1516م، د. ط، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016م، ص 56، 65.

¹ - أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 49-50.

² - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص 110.

للحجرة، خاصة من المدن التي احتلها النصارى مثل مدينة ماردة سنة 1228م وقرطبة سنة 1236م وبلنسية سنة 1238م والعديد من المدن الأخرى¹.

- تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية، وتجلّى ذلك في انتشار الظلم وكثرة الضرائب والصراعات داخل المجتمع الأندلسي².

- فرض التنصير الإجباري من طرف الكنيسة، والتي استغلته محاكم التفتيش لصنع أجيال جديدة تُستأصل من جذورها الإسلامية، بالإضافة إلى عزم محاكم التفتيش على قطع الموريسكيين من جذورهم وهويتهم الثقافية، فنجد أنها عاقبت كل من يقوم بالأعمال المنافية لقواعد وضوابط السلطات الحاكمة والكنيسة، ومن بين تلك الممارسات التي يعاقب فاعلها نذكر: الوضوء، الطهارة، الصلاة، صوم رمضان، الاحتفال بيوم الجمعة، عدم شرب الخمر، عدم أكل لحم الخنزير، الزواج على الطريقة الإسلامية وغيرها³.

ومن أخطر المراسيم التي تم تطبيقها في هذا الجانب مرسوم 12 أكتوبر 1501م، الذي تضمن حرق كل المصاحف والكتب والمؤلفات في ساحة باب الرملة بمدينة غرناطة، وقد تكفل بهذه العملية القس سيسنيروس⁴، وكانت الغاية من هذا العمل هو إلغاء أي رابط يربط المسلمين بعقيدتهم وتراثهم، وبالتالي يصبح من السهولة تنصيرهم، ولكن لم يكن الأمر بالسهل، فرغم ما قامت به السلطات الإسبانية من تنظيم فرق تبشيرية تتكون من رهبان وراهبات من أجل تنصير الموريسكيين إلا أنها فشلت في ذلك، ليفرض بعدها سيسنيروس التنصير القسري للموريسكيين،

¹ - نبيلة ابن عزوز، "أندلسيو الجزائر آثارهم وتاريخهم حاضرة تلمسان - أنموذجاً -"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص الدراسات الأدبية والحضارة الإسلامية، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، دفعة 2018، ص 77-78.

² - نفسه، ص 78.

³ - حنيفي هلايلي، "حكم هجرة الأندلسيين إلى المغرب العربي من خلال فتاوى الونشريسي"، المرجع السابق، ص 40-41.

⁴ - داود ميم، "الهجرة الأندلسية ودورها في بناء القوة العسكرية للجزائر ما بين 1492م و1610م"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري، المجلد 02، العدد 01، جانفي 2020م، ص 63.

واستعمل في ذلك كل أساليب العنف والتعذيب، وهذا الأمر أدى بالمسلمين إلى إعلان الجهاد والثورة ضد القس سيسنيروس وجماعته المتعصبة¹، وقد سعى الملوك الكاثوليك لتجسيد هذا المبدأ بكل الوسائل والطرق، وهدفهم في ذلك تنقية الدم المسيحي واسترداد كل شبر من الأراضي الإسبانية. ونستشف ذلك من خلال قول الأسقف دون باسكوال بورونات إي براتشينا الذي ذكر فيه: "وضع الملوك الكاثوليكين على رأس الكنيسة في اشبيلية العالم العلامة التقى الرحيم، الراهب فرناندو دي تلابيرا وعلى رأس الجيش القائد الهمام الكونت تانديلا. عملا هذان البطلان بكل حرص وحكمة كاثوليكية على ترسيخ وتقوية عملية الاسترداد. اتصل الراهب فرناندو مباشرة باليهود والمسلمين الذين دخلوا الدين الجديد وغيروا أسماءهم. عملا الرجلان على تحقيق اندماج كل هذه الأجناس مجتمعة لتشكل في النهاية الإسبان المسيحيين، تطلبت هذه العملية ما يناهز ثمانية قرون من الاقتتال والتطاحن"².

- انتهاكات محاكم التفتيش وقسوتها على المورييسكيين ومحاولة طمس هويتهم ودينهم وحرهم خارج إسبانيا الكاثوليكية، وهو ما يبينه لوي كاردياك في قوله: "إن محاكم دواوين التفتيش سوف تبقى بالإضافة إلى ذلك قاسية مع المرتدين حيث أخذوا تماما على استمرارهم في التخفي والتستر. إن هؤلاء «الممارسين المتظاهرين» كثيرا ما سلموا إلى السلطة المدنية: وحيث كانت المحاكم تصرح ضدهم بأقصى العبارات والأوصاف أو «أنهم كالعرق ينمو على الرغم من بقاءه حيا في قلوبهم»، أو: «(العربي) يعتبر عضوا عفنا، جافا وميتا وأنه وجب قطعه ورميه خارج الكنيسة الكاثوليكية»"³.

¹ - محمد رزوق، الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط 3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1998م، ص 58.

² - الأسقف دون باسكوال بورونات إي براتشينا، المورييسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ترجمة كنزة الغالي، ج 1، ط 1، مطابع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012م، ص 114-115.

³ - لوي كاردياك، المورييسكيون الأندلسيون والمسيحيون، تعريب وتقديم عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر)، تونس، ط 1، 1983م، ص 95.

وفي هذا الإطار يوضح فرنسوا مرتيناز أن محاكم التفتيش والكنيسة لم تكن المحرضتين على طرد الموريسكيين، بل كان هدفهم القيام بعمليات التبشير ونشر المسيحية في أوساط الأندلسيين، لأنها بقرار النفي سوف تخسر الكثير، لكن بعد سنة 1609م لم يكن بإمكانهم معارضة هذا القرار لأنه يتعلق بسياسة وأمن الدولة¹.

- الحقد الصليبي الدفين على مسلمي الأندلس من طرف الصليبيين، ومحاولة منهم تصفية العرق الإسباني المسيحي وطرد العرق الإسلامي العربي من بلادهم، وقد بدأ التفكير في هذا الجانب بشكل جدي منذ نهاية القرن 16م، ليتم تنفيذ ذلك في 09 أفريل 1609م بعد صدور قرار الطرد الجماعي². وفي هذا الجانب يقول عبد الرحمن علي الحجي: "... وبقي المسلمون يقاومون ما يزيد على القرن دفاعا عن عقيدتهم متمثلة في وجودهم وكل الأمور المتعلقة بهم، حتى الثمار الفكرية والإنتاج الحضاري بمظاهره، لذلك كانت محاكم التفتيش. وتقود كل هذا ويتم بروح صليبية، تأخذ من تبدو عليه أية صلة بالإسلام، أو يُضبط متلبسا يؤدي الشعار أو يترسم عادة من العادات أو يحمل شارة من شارته، حتى الملابس والاعتسالات اعتبرت دليلا عليه، فكان من جراء ذلك أن أظهر عدد من المسلمين النصرانية وأبطنوا الإسلام، أطلق على هؤلاء اسم «المورسكيون (Los Moriscos): المسلمون الصغار»...³.

- نقض معاهدة غرناطة التي تحتوي في بنودها على احترام السلطات للمعتقدات الإسلامية وحرية المسلمين في ممارسة دينهم والمحافظة على أماكن عبادتهم، ومن بين البنود والشروط التي جاءت في هذه المعاهدة ما ذكره أحمد المقري في قوله: "... ثم عددوا مطالب وشروطا

¹- François Martinez, "La permanence morisque en Espagne après 1609 (discours et réalités)", Doctorat d'Etudes Romanes, Faculté: Arts et Lettres, Langues et Sciences humaines et sociales, Spécialité: Espagnol, Université Paul-Valéry – Montpellier III, France, 1997, p 58.

²- فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص 106، 111.

³- عبد الرحمن علي الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 92-897هـ (711-1492م)، ط 2، دار القلم، دمشق- بيروت، 1981م، ص 569.

أرادوها، وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش: منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون، ويحلف على عادة النصارى في العهود، وتكلم الناس في ذلك، وذكروا أن رؤساء أجناد المسلمين لما خرجوا للكلام في ذلك امتن عليهم النصارى بماء جزيل وذخائر، ثم عقدت بينهم الوثائق على شروط قرئت على أهل غرناطة، فانقادوا إليها، ووافقوا عليها، وكتبوا البيعة لصاحب قشتالة، فقبلها منهم، ونزل سلطان غرناطة من الحمراء¹.

- تخوف السلطات الإسبانية من احتمال وجود تعاون عسكري بين مسلمي إسبانيا وباقي دول العالم الإسلامي، خاصة الخلافة العثمانية التي كانت تشكل التهديد القوي لاستقرار وأمن المملكة الإسبانية، فكان الخيار الأمثل هو الطرد النهائي للأندلسيين لاجتتاب كل الأخطار التي قد تتجم عن بقائهم في إسبانيا².

- فشل سياسة الإدماج رغم جميع المحاولات التي قامت بها السلطات الإسبانية لإنجاح هذه السياسة، ويتضح ذلك من خلال الرسالة التي بعثها البطريرك ريبيرا إلى ملك إسبانيا فيليب الثالث³، والتي ذكر فيها أن جهود استيعاب المورييسكيين كانت غير مجدية، لأنهم لم ينخرطوا في الديانة المسيحية، وأنهم تجنبوا شرب الخمر وأكل لحم الخنزير⁴، وغيرها من الأمور الأخرى التي كانت السلطات الإسبانية تحاول تطبيقها على المسلمين المتواجدين بإسبانيا، وهذا من

¹ - أحمد المقري (ت: 1041هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج 4، د. ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م، ص 528.

² - خديجة دوالي، "مأساة طرد مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة: الأبعاد والتحليل"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، الجزائر، المجلد 06، العدد 23 - عدد خاص، أوت 2016م، ص 108.

³ - ابن وخليفة الملك الإسباني فيليب الثاني، ولد في مدريد سنة 1578م، تولى حكم إسبانيا سنة 1598م واستمر في الملك حتى وفاته سنة 1621م. ينظر: عبد القادر فكاير، "مساهمة الجزائر في دعم الأندلسيين واحتضانهم (1492-1609م)"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، الجزائر، المجلد 05، العدد 17، 20 أفريل 2015م، ص 243 (الحاشية السفلية).

⁴ - Feridun BİLGİN, "ENDÜLÜS'TE KALAN SON MÜSLÜMANLARIN (MORİSKOLAR) İSPANYA'DAN SÜRGÜNÜ (1609-1614)", Dinbilimleri Akademik Araştırma Dergisi, Türkiye, Cilt 13, Sayı 2, 2013, p 41.

أجل فصلهم عن هويتهم وانتمائهم الديني والحضاري وإدماجهم بشكل كلي في المجتمع الإسباني. لكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن كما قال الشاعر، فرغم أنهم استطاعوا أن ينجحوا في التأثير على بعض الموريسكيين إلا أن أغلبهم رفضوا هذا الأمر وفضلوا الهجرة أو ممارسة التقية (التعبد خفية) داخل إسبانيا على أن ينخرطوا ويندمجوا في المجتمع الإسباني الذي يدعو إلى الفساد الأخلاقي وتبني الدين المسيحي.

- الأعمال التي قام بها الموريسكيون من فساد في إسبانيا حسب التقارير الإسبانية¹.
- شكل النمو الديموغرافي المتزايد للأندلسيين قلقا للسلطات الإسبانية، لذلك حاولوا التخلص من هذا النمو بطرد الموريسكيين خارج إسبانيا، بحيث كان الموريسكيين يزدادون بنسبة أكبر من نمو الإسبانين، فمن خلال إحصاء 1565 / 1572م إلى غاية الطرد النهائي سنة 1609م ازداد الإسبان بنسبة 44.7 % في حين ازداد الموريسكيين بنسبة 69.7%².
- القرب الجغرافي بين عدوتي الأندلس والمغرب العربي، بالإضافة لتشابه هذين الإقليمين في الكثير من مجالات المعيشة³، وكذلك لتشابههم في المناخ والتضاريس خاصة الجهة الشمالية لبلاد المغرب العربي.
- بروز الإيالة الجزائرية على مستوى البحر الأبيض المتوسط وانتشار سمعتها في أوساط الموريسكيين، الذين اعتبروها من أكثر الإيالات العثمانية المغاربية المهيأة عسكريا لتقديم الدعم والمساعدة لهم⁴.

¹ - محمد رزوق، المرجع السابق، ص 120.

² - نفسه، ص 121.

³ - بلقاسم صديقي، "هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب 15 - 17م: الدوافع والمراحل"، المجلة المغاربية للمخطوطات، جامعة الجزائر 02، الجزائر، المجلد 13، العدد 05، جوان 2017م، ص 88.

⁴ - حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرثا"، المرجع السابق، ص 191.

- وبالنسبة لفئة اليهود الأندلسيين (السفارديم) فإن السبب الرئيسي لطردهم من إسبانيا كان سبب ديني على حد قول حسام الدين شاشية، وذلك من خلال تضارب العلاقة بين فئة الكونفارسوس أو اليهود المعتنقون للمسيحية بفئة السفارديم المحافظون على دين اليهودية، وهذا الاختلاف العقائدي بين الفئتين خاصة فيما يخص العبادات والعادات وكذلك الاحتفالات اليهودية، جعلت من المفتش العام لمحاكم التفتيش والذي يسانده الكونفارسوس بالتأكيد على أن الأعمال المنتشرة في المملكة من طرف اليهود السفارديم والتي تهدف إلى نشر الدين اليهودي في وسط المجتمع المسيحي لا يمكن السكوت عنها¹، وهذا كان سببا مقنعا لطرد اليهود من إسبانيا في اعتقاد رجال السلطة المسيحية ومن يساندهم.

ثانيا: مراحل الهجرة:

لقد مرت الهجرة الأندلسية نحو الجزائر بثلاث مراحل رئيسية تعددت أسبابها واختلفت في نتائجها وتأثيراتها على الأندلسيين أنفسهم وعلى المناطق المستقبلية لهم، ورغم أن الدراسات التاريخية قليلة التي تحدثت على هذا الجانب خاصة الدراسات التي عاصرت تلك الفترة، وهو الأمر الذي يضع الباحث يفتقد للكثير من المعلومات وربما يلتبس بعض الغموض في الكثير من الفترات، لكن رغم ذلك حاول الباحثون الذين اهتموا بهذا الجانب من جمع بعض المعلومات المتفرقة هنا وهناك وتسليط الضوء على هذه المرحلة المهمة في التاريخ الأندلسي وتاريخ الجزائر، وهذا الأمر يوضحه حنفي هلايلي في قوله: "عرفت الجزائر هجرة أندلسية واسعة وهامة خلال مراحل الهجرات الثلاث الكبرى نحو المنطقة إلا أن الوثائق المتعلقة بها وبالجالية الأندلسية محدودة، والموجود منها ما يزال معظمه موزعا عبر مختلف أرشيفات دول البحر الأبيض المتوسط، زيادة على وضعية الجالية الأندلسية بالجزائر وطبيعة الحكم العثماني

¹ - حسام الدين شاشية، السفارديم والموريسكيون، ج 1، ط 1، دار السويدي للنشر والتوزيع (إ. ع. م)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (لبنان)، 2015م، ص 128.

بالإيالة، كلها جعلت الدراسات الموريسكية الأندلسية بالجزائر تتأخر عن زميلاتها بتونس والمغرب الأقصى¹. ويمكن أن نوجز مراحل هذه الهجرات فيما يلي:

1- الهجرة الاختيارية (قبل سقوط غرناطة):

يمكن القول أنّ هذه المرحلة ابتدأت منذ التواجد الإسلامي بشبه الجزيرة الإيبيرية وتأسيسه الأندلس، بحيث اتسمت هذه المرحلة التي امتدت لقراءة ثمانية قرون من الزمن على التبادلات الاقتصادية والعلمية بين الأندلس وباقي بلدان العالم الإسلامي وبالخصوص المغرب العربي، نظرا لكونه قريب من الناحية الجغرافية ويجمعه الترابط الأسري بين سكان الأندلس والمغرب العربي، وحسب فؤاد طوهاره فإن سياق الهجرة الأندلسية نحو الجزائر يبتدأ من القرن الثاني للهجرة (الثامن ميلادي) وإلى غاية قيام دولة بني زيان التي احتضنت هؤلاء المهاجرين².

ويذكر سمير عبد الرسول العبيدي أن المرحلة الأولى للهجرة الأندلسية نحو المغرب الأوسط كانت بدايتها منذ القرن الثامن ميلادي إلى غاية سقوط غرناطة، وتقسم هذه الفترة بدورها إلى مرحلتين؛ فالمرحلة الأولى الممتدة من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر الميلاديين، وارتبط خلالها التواجد الأندلسي بالجزائر بالنشاط التجاري بشكل خاص، وتميزت بأنها هجرات لأسر ثرية والعديد من العلماء البارزين، وكان لها أثر كبير في جميع الميادين سواء العلمية أو الاقتصادية، بالإضافة إلى مساهمة هؤلاء في بناء وتشيد المدن والموانئ البحرية، أما المرحلة الثانية خلال هذه الفترة فهي تمتد من 1212م إلى غاية سقوط غرناطة سنة 1492م، وتميزت هذه المرحلة بوصول موجات من المهاجرين الأندلسيين إلى المغرب الأوسط خاصة بعد تلاحق سقوط الحواضر الإسلامية بالأندلس كقرطبة سنة 633 هـ / 1236م، وبلنسية سنة 635 هـ / 1238م، وإشبيلية سنة 646 هـ / 1248م، وكان توجه معظم

¹ حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرثا"، المرجع السابق، ص 186.

² فؤاد طوهاره، "الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط السياق التاريخي والمجال الجغرافي"، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 15، 2015م، ص 157.

الأندلسيين إلى المدن الساحلية خاصة بجاية ومدينة الجزائر وتلمسان، ورافق قدوم هؤلاء المهاجرين قدوم جماعات كبيرة من اليهود الذين استقروا بالحوضر الكبرى في المغرب الأوسط، وقد عددهم بحوالي ثمانية آلاف يهودي، وقد اندمجوا في المجتمع الجزائري ومارسوا مهنة التجارة ومختلف المهن ذات الدخل المرتفع¹.

بينما يذكر عبد الله حمادي أن هجرة الأندلسيين إلى الجزائر بدأت مع دخول المرابطين إلى الأندلس في سنة 1085م، فبعد انتصارهم في معركة الزلاقة هاجر الكثير من أمراء الطوائف إلى إمارة الحماديين ببجاية أيام حاكمها المنصور بن الناصر بن علناس الحمادي، وأمراء بني صمادح ملوك ألمرية وما جاورها هاجروا إلى بجاية سنة 1091م، ونزلوا بأموالهم وأهلهم وحاشيتهم في هذه المدينة، فأكرم السلطان الحمادي وفادتهم ومنحهم بلدة دلس، والتي صارت فيما بعد قبلة للمهاجرين الأندلسيين. كما هاجر إلى بجاية أيضا ملوك العامريين أمام الزحف المرابطي، ويذكر عبد الله حمادي أيضا أن هجرة الأندلسيين إلى الجزائر وخاصة إلى إمارة الحماديين ببجاية قد تحدثت عنها المصادر، وبذلك تكون الجزائر أول قبلة للمهاجرين الأندلسيين منذ القرن الحادي عشر الميلادي².

وبعد سقوط ألمرية توجه الكثير من الأندلسيين إلى بجاية ومدينة الجزائر، ثم بعد سقوط بلنسية سنة 1238م أين استقبلت مدينة الجزائر العديد من اللاجئين الأندلسيين، وتوالت بعدها الهجرة تلو الأخرى نتيجة سقوط الحواضر الإسلامية بالأندلس إلى غاية سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس سنة 1492م³. وقد كان توافد المهاجرين في هذه المرحلة ضعيف،

¹ - سمير عبد الرسول العبيدي، "أثر التهجير القسري لموريسكي الأندلس إلى المغرب الأوسط (الجزائر) (1492-1609م)"، مجلة دراسات تاريخية، بيت الحكمة قسم الدراسات التاريخية، العراق، المجلد 2018، العدد 47، 2018م، ص 170.

² - عبد الله حمادي، المرجع السابق.

³ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 40.

وذلك لنقص الاستقطاب خاصة الجانب العلمي، ونقص فرص العمل خاصة في الوظائف المهمة كالتقضاء والتعليم والكتابة والعديد من الوظائف الأخرى¹.

ومن بين أسباب هذه الهجرة زحف الممالك المسيحية على حساب الممالك الإسلامية في الأندلس، مثل هجرة سكان ألمرية نحو تلمسان وهجرة أهل رندة نحو تطوان، والعديد من سكان غرناطة هاجروا نحو بجاية ووهران وقابس وصفاقس وسوسة، وكذلك كانت الهجرة الجماعية مثل هجرة سكان وادي آش بعد انهزام الزغل واستسلامه، بحيث غادر رفقة جمع كبير نحو وهران ثم بعدها إلى تلمسان، والعديد من الهجرات الأخرى نحو بلدان المغرب العربي، ولم تكن هذه الهجرة مقتصرة على هجرة السكان بل تضمنتها هجرة للثقافة والعلوم والحرف التي أغنى بها هؤلاء بلدان المغرب العربي².

وفي هذه المرحلة نجد أنهم استقروا في العديد من المناطق بالمغرب الأوسط خاصة الساحلية منها، ونستشف ذلك من خلال قول عبد العزيز فيلالي الذي ذكر فيه: "عرف المغرب الأوسط، توافد العديد من الأسر الأندلسية، خصوصا في فترة الأزمات السياسية للأندلس، فقد شيدت جالية منهم مدينة تنس سنة 262هـ / 876، ومدينة وهران سنة 290هـ / 903، واستقر في الأولى أهالي البيرة وتذمير، وأعادوا الحركة التجارية لمرسى الدجاج، المنفذ البحري الرئيسي للدولة الرستمية... وكان لهم وجود في بني جد ليداس القريبة من مدينة تنس، وفي مدينة لمسيلة في أوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي، وكذلك استقرت طائفة منهم في مرسى أرزيو، كانت تقوم بتصدير ملح سباخها، إلى العدو الأندلسية"³.

وقد استعان سلاطين بني زيان بالمهندسين والبنائين والفنيين الأندلسيين بعد استقرارهم بالمغرب الأوسط في العديد من الأعمال خاصة في أعمال البناء والتعمير، بالإضافة إلى

¹ - فؤاد طوهار، المرجع السابق، ص 157.

² - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 185.

³ - عبد العزيز فيلالي، تلمسان في العهد الزياني، ج 1، د. ط، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م، ص 173-174.

الصناعات الحربية في مدينة تلمسان، مثل ما قام به أبو حمو موسى الثاني الذي اعتنى بالصناعة وشجع ممتهنيها على احترافها وإتقانها، ووضعهم في فئة اجتماعية تلي مرتبة الأشراف والفقهاء مباشرة، وأمام هذا التشجيع للصناعات والحرف المختلفة وكذلك توفر الأرضية الخصبة لهذا الغرض فإن المهاجرين الأندلسيين الذين استقروا بتلمسان قاموا بتأسيس مجموعة من الورشات الصناعية بمنطقة سهل وادي الوريث بضواحي مدينة تلمسان، ونقلوا إليها صناعة الأطرزة والمنسوجات الحريرية والقطنية، والكتان والصوف وسائر الأواني المنزلية، ومعامل الفخار والخزف والأسلحة المختلفة¹.

2- الهجرة الاضطرابية (بعد سقوط غرناطة):

بدأت هذه الهجرة بشكل واضح بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، بحيث اضطرب الأندلسيين إلى الهجرة نظرا لما تعرضوا له من ظلم واستبداد، خاصة بعد تطبيق القوانين الصادرة ضدهم مثل القانون الذي صدر سنة 897هـ / 1492م، والذي ينص على تجريم المسلمين وتحريم إقامة شعائرهم الدينية وإغلاق المساجد وطمس هويتهم مثل ما قام به الكاردينال خمينيس بإحراق عشرات الآلاف من الكتب، وصدر مرسوم آخر سنة 907هـ / 1501م ينص على منع المسلمين من حمل السلاح، وأعطيت لهم ثلاثة أيام لمغادرة الأندلس ومن يخالف ذلك يحكم عليه بالموت من قبل محاكم التفتيش، هذا وتعرضوا لإجبارية التنصير مثل ما نص عليه المرسوم الملكي المؤرخ في 908هـ / 1502م من قبل الملكة إيزابيلا، والذي يُخير الأندلسيين بين التنصر أو الطرد، ولا يبقى ذكر فوق سن الرابعة عشرة أو أنثى فوق سن الثانية عشرة بعد شهر أفريل من نفس السنة إلا إذا تنصروا².

¹ - عبد العزيز فيلاي، المرجع السابق، ص 221-222.

² - مصطفى داودي، "دور البحرية الجزائرية في القضايا الإنسانية الخارجية بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المنعقد يومي 07-08 ديسمبر 2009م، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر 02، الجزائر، ص 274-275.

وبعد تطبيق هذا المرسوم رحل من غرناطة أكثر من ثلاثمائة أندلسي، واعتبر الباقين متنصرين بموجب القانون، وهذه الفئة الأخيرة لم تسلم هي الأخرى من سياسة الاضطهاد والتعسف التي تمارسها السلطات الإسبانية ضد المسحيين الجدد أو الموريسكيين، فقد صدر في حقهم أمر ملكي يوم 22 ربيع الأول 917 هـ / 20 جوان 1511م يلزمهم بأن يُسلموا سائر الكتب العربية التي لديهم لمحاكم التفتيش وأن لا يتخاطبوا باللغة العربية، بالإضافة إلى منعهم من الختان والوقوف اتجاه القبلة، وعدم الاستحمام والاغتسال وارتداء الملابس العربية. ونتيجة لذلك تعرض عشرات الآلاف من الموريسكيين لأبشع صور التعذيب والقتل الممارسة ضدهم¹. وأمام هذه الظروف الصعبة هاجر معظمهم إلى سواحل بلاد المغرب العربي وخاصة المغرب الأقصى والأوسط نظرا للقرب الجغرافي وللترباط الثقافي والاجتماعي بين سكان الأندلس وسكان المغرب العربي، ونلاحظ أنه بعد نقض معاهدة غرناطة التي كانت تضمن حقوق الموريسكيين في إسبانيا وذلك وفق ما تم الاتفاق عليه بين ملك غرناطة والملكين الكاثوليكين، وبعد مرور بضع سنوات فقط على سقوط غرناطة تم نقض تلك الاتفاقية، وخلق العديد من الحُجج من أجل تنصير الموريسكيين واضطهادهم، وبدأت الملامح الحقيقية للسياسة الإسبانية تظهر في الأفق، فكان من جراء ذلك حتمية الهجرة من إسبانيا إلى أرض آمنة.

وهذا ما يوضحه أحمد المقري في قوله: "... ثم إن النصارى نكثوا العهد ونقضوا الشروط عروة إلى أن آل الحال لحملهم المسلمين على التنصر سنة أربع وتسعمائة بعد أمور وأسباب أعظمها وأقواها عليهم أنهم قالوا أن القسيسين كتبوا على جميع من كان أسلم من النصارى أن يرجعوا قهرا للكفر ففعلوا ذلك وتكلم الناس ولا جهد لهم ولا قوة ثم تعدوا إلى أمر آخر وهو أن يقولوا للرجل المسلم أن جدك كان نصرانيا فأسلم فترجع نصرانيا ولما فحش هذا الأمر قام أهل البيازين على الحكام وقتلوهم وهذا كان السبب للتنصر قالوا لأن الحكم خرج من السلطان أن من قام على الحاكم فليس إلا الموت إلا أن يتنصر فينجو من الموت وبالجمله فإنهم تنصروا

¹ - مصطفى داودي، المرجع السابق، ص 274 - 275.

عن آخرهم بادية وحاضرة وامتنع قوم من التنصر واعتزلوا النصارى فلم ينفعهم ذلك وامتنعت قرى وأماكن كذلك منها بلفيق وأندرش وغيرهما فجمع لهم العدو الجموع واستأصلهم عن آخرهم قتلا وسبيا إلا ما كان من جبل... وأخرجوا على الأمان إلى فاس بعيالهم وما خف من أموالهم دون الذخائر ثم بعد هذا كله كان من أظهر التنصر من المسلمين يعبد الله في خفية ويصلي فشدّد عليهم النصارى في البحث حتى أنهم أحرقوا منهم كثيرا بسبب ذلك ومنعواهم من حمل السكين الصغيرة فضلا عن غيرها من الحديد وقاموا في بعض الجبال على النصارى مرارا ولم يقيض الله تعالى لهم ناصرا إلى أن كان إخراج النصارى إياهم...¹.

ويقول خير الدين بربروس في مذكراته: "كان الإسبان يقومون بمظالم كبيرة في حق المسلمين الذين كان الكثير منهم يعبدون الله سرا في مساجد سرية قاموا ببنائها تحت الأرض. لقد دمر الإسبان وأحرقوا جميع المساجد وصاروا كلما عثروا على مسلم صائم أو قائم إلا وعرضوه وأولاده للعذاب والإحراق. خلال ذلك قُمنّا بحمل عدد كبير من المسلمين في السفن وإنقاذهم من أيدي الكفار، ونقلهم إلى الجزائر وتونس"². وذكر ابن اشنهو أن عروج قد نقل عمّا يزيد عن عشرة آلاف مهاجر أندلسي في سفنه، بينما نقل أخوه خير الدين بربروس ما يزيد على 70 ألفا موريسكي في سبعة أسفار أو أكثر³.

وقد وصل بهم - الأندلسيين - الأمر حسب ما ذكره غرامون إلى أنهم قد ألقوا بأطفالهم في المنحدرات والصحاري بدلا من السماح لهم أن يعتنقوا المسيحية⁴. وحسب أرجمونت كوران فإن حُكام المغرب الأقصى لم يتمكنوا من مساعدة الموريسكيين، وذلك بسبب محاولات الإسبان

¹ - أحمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 2، د. م، د. ت، (مصدر الكتاب: archive.org)، ص 616-617.

² - خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 54.

³ - عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 44.

⁴ - H.-D. de Grammont, op. cit, p 02.

والبرتغاليين الاستيلاء على سواحل المغرب الأقصى¹، وكذلك قيام الإسبان بسد مضيق جبل طارق ليمنعوا وصول أي نجدة من مسلمي شمال إفريقيا².

وأمام هذه الحال تحتم على الموريسكيين الاستجداء بأقوى دولة إسلامية والتي تتمثل في الدولة العثمانية، وتنفيذاً لذلك أرسلوا إلى الباب العالي في مستهل القرن السادس عشر رسالة استغاثة إلى السلطان بايزيد الثاني، وجاء في مستهل هذه الرسالة ما يلي: "الحضرة العلية وصل الله سعادتها، وأعلى كلمتها، ومهد أقطارها، وأعز أنصارها، وأذلّ عداتها. حضرة مولانا وعمدة ديننا ودينانا، السلطان الملك الناصر، ناصر الدنيا والدين، وسلطان الإسلام والمسلمين، قانع أعداء الله الكافرين، كهف الإسلام وناصر دين نبينا محمد عليه السلام، محيي العدل، ومنصف المظلوم ممن ظلم، ملك العرب والعجم..."³. وتم اثراء هذه الرسالة بأبيات شعرية لأبي البقاء صالح بن شريف، يصف فيها حال المسلمين في الأندلس وما يعانونه نتيجة ظلم واستبداد الإسبان، وفي آخر هذه القصيدة يستغيث الشاعر بالسلطان العثماني، ومما جاء في تلك القصيدة³:

فها نحن يا مولاي نشكو إليكم	فهذا الذي نلناه من شر فرقة
عسى ديننا يبقى لنا وصلاتنا	كما عاهدونا قبل نقض العزيمة
والا فيجلونا جميعاً عن أرضهم	بأموالنا للغرب دار الأحبة
فأنتم بحمد الله خير ملوكنا	وعزتكم تعلو على كل عزة
وتم سلام الله قلت ورحمة	عليكم مدى الأيام في كل ساعة

¹ - أرجمند قوران، المرجع السابق.

² - أورخان محمد علي، "مأساة الأندلس وموقف العثمانيين"، مجلة حراء، Işık Özel Eğitim Tic، إستانبول، تركيا، العدد

05، أكتوبر - ديسمبر 2006م، ص 37.

³ - نفسه، ص 37 - 38.

ولكن بسبب التمردات الداخلية في الدولة العثمانية خاصة الفتنة التي أشعلها الشاه إسماعيل الصفوي، وهو الأمر الذي أدى بالسلطان بايزيد إلى تصريف النظر عن الموريسكيين وعدم تخليصهم من مشاكلهم¹. وفي هذا الصدد يقول جودت: "... وفي عصر السلطان بايزيد الثاني سنة ثمانمائة واثنين وتسعين هجرية قام الإسبانيول على المسلمين في الأندلس وجزيرة سيسيليا فأرسل ملك آل الأحمر حاكم تلك البلاد قصيدة غراء شكا بها للدولة العلية قيام الإسبانيول في البلاد والتمس فيها النجدة والإمداد لإنقاذها من أيدي الأعداء فجهز السلطان عدة سفن بقيادة الرئيس كمال الدين... غير أنه وقتئذ قامت الحروب البحرية في بلاد الأرناؤط وأطراف المورة فحال ذلك دون إغاثة أهل الأندلس"².

لكن هذا لا يعني أن السلطان بايزيد الثاني لم يتحرك أو يحاول مساعدة الموريسكيين المضطهدين في الأندلس، بل حاول مساعدة هؤلاء من خلال الاتفاق الذي عقده مع السلطان قايتباي ملك مصر على مساعدة الموريسكيين، وذلك بأن يرسل بايزيد أسطولاً إلى إسبانيا، وأن يرسل قايتباي جيشاً من جهة إفريقيا، لكن حال الأمر دون ذلك بسبب انشغال السلطان بايزيد الثاني بفتنة أولاده، كركوك، وأحمد، وسليم ووقوع الحرب فيما بينهم، حتى آل الأمر بتنزله عن الملك لابنه سليم الأول³.

وفي هذه الفترة كانت تمر الدولة العثمانية بتوتر سياسي وصراع كبير أدى بها إلى عدم مساعدة الموريسكيين، أو أنها قامت بمساعدة محتشمة لم تكن في متطلعات هؤلاء المضطهدين، ورغم المحاولات التي قامت بها الجزائر بقيادة خير الدين بربروس في استعادة الأندلس لكن نظراً للظروف الصعبة التي كانت تمر بها الجزائر من مشاكل داخلية ومواجهة للغزو المسيحي

¹ - أرجمند قوران، المرجع السابق.

² - جودت باشا، المصدر السابق، ص 143.

³ - محمد لييب البتتوني، المرجع السابق، ص 108 - 109.

لسواحلها حال دون تحقيق ذلك الهدف، الذي سعت من خلاله الدولة العثمانية والجزائر إلى استرجاع الأندلس أو الفردوس المفقود كما يحلو للبعض تسميتها.

ومن بين أبرز المشاكل التي مرت بها الدولة العثمانية في تلك الفترة صراعها مع دولة المماليك في مصر، بسبب النزاعات التي بدأت في عهد السلطان العثماني محمد الفاتح، بحيث اقترح هذا الأخير على حاكم دولة المماليك في مصر أشرف سيف الدين الذي كان يحكم كذلك مملكة الحجاز ونجد، قيام الدولة العثمانية بتعمير وإصلاح قنوات المياه في الحجاز دون مقابل تيسيرا للحجاج فقبول بالرفض، ثم ازدادت العلاقات توترا عندما تم فرض ضريبة على الحجاج العثمانيين، بالإضافة إلى رغبة المماليك في ضم منطقة جوقور أوه العثمانية إلى الأراضي السورية، ومن المشاكل الأخرى التي تعرضت لها الدولة العثمانية هي مشكلة الأمير جم (الأخ الصغير للسلطان بايزيد)، الذي طلب العرش لنفسه، ونتيجة لذلك حدثت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار السلطان بايزيد وهروب الأمير جم إلى مصر، وما ضاعف المشكلة أكثر قيام القراصنة بأسر الأمير جم وبيعه إلى البابا، والتي استغلته الدول الأوروبية في عملية تهديدها للدولة العثمانية، وهذا ما أدى إلى تحالف صليبي جديد من البابا جويلس الثاني وفرنسا والمجر وجمهورية البندقية ضد الدولة العثمانية، وهذا الأمر أدى بها إلى تركيز اهتمامها على الخطر الأوروبي¹.

بالإضافة إلى ذلك الصراع مع الدولة الصفوية التي حاولت نشر المذهب الشيعي في الأناضول، من خلال إرسالها لآلاف من الشباب التركمان بعد تدريبهم وتلقينهم مفاهيم المذهب الشيعي إلى الأناضول، وكان نتيجة هذه الأعمال حدوث حركات عصيان مسلحة قادها الشيخ جنيد ومن بعده ابنه حيدر، ولم تتخلص الدولة العثمانية من هذه القلاقل والفتن ومن خطر الدولة الصفوية إلا في عهد السلطان سليم الأول (1512-1520م)².

¹ - أورخان محمد علي، المرجع السابق، ص 38.

² - نفسه، ص 38.

ومع كل هذا نلاحظ أن السلطان بايزيد الثاني قام بإرسال قوة بحرية تحت قيادة كمال رايس وأيدن باشا سنة 892 هـ / 1487م نحو بعض الدول المتوسطية الأوروبية، بحيث تمكنت هذه الحملة البحرية من ضرب سواحل مالطا وصقلية وسردينيا وكورسيكا، ثم ضربت سواحل إيطاليا وإسبانيا، ونتج عنها تدمير العديد من القلاع والحصون المشرفة على البحر الأبيض المتوسط، لكن هذه الحملة لم تحقق الهدف المطلوب وهو ردع المسحيين وإعادة الاعتبار للموريسكيين وإرجاع حقوقهم، ولكن مع ذلك ساهمت في إجلاء ثلاثمائة ألف أندلسي نحو المغرب والجزائر¹.

أما ملك مصر قايتباي فإن الملك فرديناند والملكة إيزابيلا أرسلتا إليه "المسيو بطره مارتين" سفيرا، وهذا الأخير أبدى من المهارة ما أقنع به قايتباي بأن الإسبانين إنما يدافعون عن أنفسهم من هؤلاء العرب الذين غصبوا ديارهم ونهبوا أموالهم وعاثوا في أرضهم فسادا! وبذلك اكتفى كل من بايزيد وقايتباي بأن أرسلتا كتبا إلى فرديناند وإيزابيلا، والبابا وملك نابولي، بعدم إرهاب مسلمي الأندلس². لكن هذا العمل لم يجد نفعا، وإنما ما ينفع هو وجوب التحرك الفعلي وإشهار السيف والبارود في وجه هؤلاء المسيحيين الذين اضطهدوا المسلمين في الأندلس ونزعوا منهم ممتلكاتهم وحاربوهم في دينهم وعرضهم، كما ذكر الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (803 - 845م) في مطلع قصيدته التي كتبها بمناسبة انتصار المسلمين على البيزنطيين في معركة عمورة (223 هـ / 838م)، والتي ذكر فيها³:

السيف أصدق إنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ومن المؤكد أن الدولة العثمانية لم تكن غافلة عن الوضع العام في الأندلس، بحيث كانت على دراية تامة بالحالة التي يمر بها الأندلسيون، فمن خلال الرحلة التي قام بها البحار

¹ - مصطفى داودي، المرجع السابق، ص 277.

² - محمد لييب البتوني، المرجع السابق، ص 108 - 109.

³ - مجهول، قصة قصيدة السيف أصدق إنباء من الكتب، منصة عالم الأدب، نُشر بتاريخ: 10 - 02 - 2022م، تم الاطلاع

عليه بتاريخ: 05 - 03 - 2022م، مُتاح على الرابط التالي: <https://2u.pw/gHO1eL>

العثماني بييري رايس في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط والساحل الأندلسي التي تمكن من خلالها معرفة جغرافية الساحل الأندلسي، وقد جسد هذه المعطيات في كتابه "كتاب البحرية" kitabi Bahriye، ومما لا شك فيه أن هذه المعلومات الجغرافية المهمة لطبيعة سواحل وموانئ الأندلس قد ساعدت بشكل كبير بيلرباي الجزائر خير الدين بربروس ومختلف الرياس العثمانيين في تلك الفترة حسب ما ذكره عبد الجليل التميمي¹، وتكمن هذه الفائدة في معرفة الطرق والمسالك المهمة في البحر الأبيض المتوسط وخصوصا الجزء الغربي منه وهو ما سمح لهؤلاء البحارة من بسط نفوذهم على البحر المتوسط وكذلك مكنهم من مساعدة الموريسكيين، وإن كانت مساعدة محتشمة لم ترق أبدا إلى تطلعات وآمال الموريسكيين.

وهذا العمل الذي قام به بييري رايس يُفند قول أنّ الدولة العثمانية لم تكن لها دراية بالأندلس وأوضاعها في تلك الفترة، ومما يؤكد هذا الطرح الرسالة التي وجهها السلطان العثماني في 26 جوان 1571م إلى برتيف باشا ومما جاء فيها: "لقد وصلتنا رسالة كليج علي حول أخبار مسلمي الأندلس وما هم عليه من مقابلة وجدال ضد الكفار، وكيف أنهم يبذلون النفس والنفيس للقتال. ورغم ذلك فليس لديهم الطاقة الكافية لمحاربة هذا العدو وأصبحوا في حالة قهر واضحة، ومن قلة الذخيرة الحربية للاستمرار في حربهم ضد إسبانيا..."².

بالإضافة إلى ذلك الفرمانات التي كان يُصدرها السلاطين العثمانيون إلى قادة الولايات التابعة لهم، ولعل من أبرزها ولاية الجزائر التي تعتبر من أقوى الولايات العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط والتي كانت قريبة من منطقة الأندلس، بحيث كانوا يحثون فيها حكام إيالة الجزائر على مساعدة الموريسكيين ومواجهة القوى المسيحية المتزايدة في الحوض الغربي للبحر

¹ عبد الجليل التميمي، "لغة أواخر الموريسكيين وإقامتهم بالمغرب من خلال نصوص وفرمانات عثمانية جديدة"، المجلة التاريخية المغربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، السنة الرابعة والثلاثون، العدد 128، جوان 2007م، ص 109.

² نفسه، ص 109.

الأبيض المتوسط، وكمثال على ذلك الفرمان الذي أرسله السلطان العثماني إلى بيلرباي الجزائر علي باشا المؤرخ في 10 ذي القعدة 977 هـ الموافق لـ 16 أفريل 1570م، ومما جاء فيه: "أمر إلى أمير أمراء الجزائر علي باشا:

ذكرت في رسالتك المرسلة إلى المقام العالي، أن الولاية أصبحت قريبة من الأمن والأمان، وأنه جرى تعمير وصيانة المواقع المحتاجة إلى ذلك، وأن الرعية تعيش حالياً حياة جيدة، وأن طوائف الأعداء، نظموا جماعات كبيرة وهاجموا الولايات القريبة من إسبانيا، ونهبوا واستولوا عليها. ولكن منذ قيام ذلك تصدى أهالي الأندلس للأعداء، وقد انهزم رؤسائهم وتشتت شملهم... وعليه أمرك أن تقوم من جانبك بإرسال العساكر أو الذخائر كلما كان ذلك ممكناً، لمعاونة المسلمين هناك ومؤازرتهم...¹.

ومما لا شك فيه أن الإيالة الجزائرية قد كانت لها مساهمات في نقل المهاجرين الأندلسيين إلى الجزائر في العديد من الفترات، ففي سنة 1529م قام كل من إيدین راييس وصالح راييس بتجهيز حملة نحو السواحل الإسبانية بطلب من خير الدين بربروس، والتي أسفرت عن نقل 600 مورييسكي بننسي، بحيث كان هؤلاء ينتظرون النجدة من سفن الرياس العثمانيين عند مصب نهر أوفيلا Ovilla، وتمكنت سفن البحرية الجزائرية من نقلهم إلى الجزائر، واستقر هؤلاء المهاجرين بسهول متيجة ونواحي البليدة ودلس². وهناك من يذكر أن الإخوة بارباروس قاموا خلال الفترة 1518-1528م بشن ثلاث وثلاثين غزوة على السواحل الإسبانية وأنقذوا من خلالها سبعون ألف مورييسكي³.

¹ عبد الجليل التميمي، "لغة أواخر المورييسكيين وإقامتهم بالمغرب من خلال نصوص وفرمانات عثمانية جديدة"، المرجع السابق، ص 118-119.

² حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ المورييسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرابا"، المرجع السابق، ص 193.

³ - Arezki CHouitem, op. cit, p 34.

ومن أبرز تلك الحملات حملة قام بها خير الدين بنفسه، بحيث توجه على متن أسطول بحري قوامه ستة وثلاثين سفينة متجهة إلى الأندلس، وكان من نتائجها نقل عدد كبير من الأندلسيين إلى الجزائر¹. وبعد انهزام شارلكان² أمام الجزائر سنة 1541م أرسل مدجني غرناطة والذين يبلغ عددهم في إسبانيا حوالي 364 ألف موريسكي، كتاب إلى السلطان العثماني سليمان القانوني قدموا فيه شكواهم من الفاسيين لعدم نصرتهم، وعبروا عن شكرهم لخير الدين بربروس لإنقاذهم من جور وطغيان النصارى، واستعطفوه لكي يُعين خير الدين بربروس واليا مجددا على الجزائر، لكن بربروس قد وافته المنية قبل تحقيق هذه الأمنية سنة 1546م. ونلاحظ أن المدجنين ازدادت حالتهم سوءا بعد اعتلاء فيليب الثاني عرش إسبانيا سنة 1558م³، الذي وجه قوته إلى اضطهاد ما تبقى من الموريسكيين، خاصة بعد المحاولات التي قام بها العثمانيون من أجل إنقاذ مسلمي الأندلس من السيطرة والاضطهاد الإسباني، بالإضافة إلى محاصرة العثمانيين لمالطة سنة 1565م⁴.

وأمام هذه الحوادث قام الملك فيليب الثاني بسن العديد من القوانين التي تثبط حرية الموريسكيين وتستعبدتهم، مثل القانون الذي صدر سنة 1567م والذي يقضي بمنع الموريسكيين من اتخاذ لباس خاص بهم، ومفاتيح ل منازلهم، والتحدث باللغة العربية. ونتيجة لهذا الوضع أعلنوا ثورتهم عام 1568م واستمرت لعامين لكنها باءت بالفشل، وقد خططت الدولة العثمانية

¹ - مصطفى داودي، المرجع السابق، ص 279.

² - شارلكان أو شارل الخامس وفي بعض المصادر الأخرى يُطلق عليه كارلوس الخامس، هو ملك إسبانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، ولد سنة 1500م وورث ملك إسبانيا عن والدته جان ابنة فرديناند وإيزابيلا الذين قاما بإسقاط الأندلس وطرد المسلمين منها، وانتخب أميرا لألمانيا بعد موت جده لأبيه الإمبراطور مكسيميليان، وقد قضى أيام حكمه في محاربة فرنسوا الأول ملك فرنسا، وحارب خير الدين بربروس بيلرباي الجزائر وأمير البحر الشهير، وقصد الاستيلاء على الجزائر سنة 1541م ولكنه لم يفلح في ذلك، تنازل عن ملك إسبانيا لابنه فيليب الثاني، وعن ألمانيا لأخيه فرديناند، واعتزل في أحد الأديرة حتى توفي سنة 1558م. ينظر: محمد فريد بك المحامي، المرجع السابق، ص 204.

³ - أرجمند قوران، المرجع السابق.

⁴ - نبيل عبد الحي رضوان، "تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط"، مجلة المؤرخ الصغير، جامعة القاهرة، مصر، العدد 20، جولية 1998م، ص 232.

لتحرير مسلمي الأندلس وذلك بإرسال أسطول لغزو إسبانيا، لكن لم يتحقق ذلك بسبب تدمير الأسطول العثماني في معركة اينه بختي (ليبانتو) بواسطة التحالف النصراني¹ في أكتوبر من عام 1571م. لكن رغم ذلك واصل حكام الجزائر مساعدة الموريسكيين ونقلهم من إسبانيا إلى أماكن توجههم، مثل ما قام به حاكم الجزائر حسن فنزيانو في سنة 992 هـ / 1584م بنقل حوالي ألفي أندلسي إلى الجزائر من منطقة أليكانت بإسبانيا².

وفي هذه المرحلة توافد عدد كبير من المهاجرين الأندلسيين نحو الجزائر، وذلك لما تعرضوا له من ظلم واضطهاد من طرف السلطات الإسبانية، وكذلك لبروز مكانة الجزائر الدولية وانتشار سمعتها في البحر الأبيض المتوسط، خاصة بعد الهزائم التي لحقت بالممالك المسيحية التي شنت حملاتها ضد الجزائر، ولعل أشهرها حملة شارلكان الإسباني سنة 1541م، التي كلفته خسائر مادية وبشرية كبيرة، فكان من نتائجها على الجانب الإسباني تحطم 15 قادسا وحوالي 150 سفينة بها مخازن ومدفعية وفقدان 12000 رجل، وهذا بعد المواجهات القوية بين الجيش الجزائري والجيش الإسباني، والذي أبدى فيها سكان الجزائر دفاعا شديدا ومقاومة عنيفة انتهت بانتصارهم على الجيوش المسيحية بعد حوالي أربعة أسابيع من المعارك³، والتي جعلته - شارلكان - يرمي تاجه في البحر ويعترف بقوة الجزائر الدولية وهيبتها العالمية، وهذه الانتصارات المتوالية استقطبت أنظار المهاجرين الأندلسيين الذين اختاروا الجزائر كملجأ ومن الحكم العثماني نفوذا مجددا ومناسبا لآمالهم على حد تعبير حنفي هلايلي⁴.

¹ - أرجمند قوران، المرجع السابق.

² - مصطفى داودي، المرجع السابق، ص 278 - 279.

³ - Jan Glete, **war fare at sea 1500- 1650 Maritime Conflicts and the Transformation of Europe**, First published by Routledge, London, 2000, p 101.

⁴ - حنفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرثا"، المرجع السابق، ص 187.

ورغم أن هذه الهجرة كانت في ظاهرها توحى بانعكاسات سلبية ووخيمة على المهاجرين الأندلسيين الذين ذاقوا الأمرين من سياسة الحكومة الإسبانية وقوانينها الاستبدادية ومن الظروف التي تعرضت طريقهم أثناء الهجرة، وتوحي من الوهلة الأولى أنها كانت في صالح إسبانيا وشعبها باعتبارها تخلصت من العرق العربي أو قللت من تواجده ونفوذه في أرض إسبانيا المسيحية، التي أصبحت موحدة في كامل ربوعها يعلوها رمز الصليب بدل رموز الإسلام التي كانت منتشرة هناك، إلا أن الحقيقة عكس ذلك تماما، فإن إسبانيا خسرت الكثير بمجرد هجرة هؤلاء المورييسكيين الذين كانوا يمتلكون الخبرة والحنق في مختلف المجالات وعلى رأسها الأنشطة الاقتصادية بمختلف تفرعاتها، ومثالا على ذلك نلاحظ أنه بعد سنة 1560م هاجر من إسبانيا حوالي 140 ألف مورييسكي الكثير منهم من أصحاب المهن والحرف، فعلى غرار بعض المدن الأخرى هاجر حوالي سبعة آلاف مهني من مدينة إشبيلية وهو ما انعكس سلبا على اقتصاد هذه المدينة، خاصة حركة التصدير التي كانت رائجة نحو الهند في تلك الفترة، وهناك بعض المناطق الأخرى مثل طليطلة وقرطبة تضررتا هما كذلك تضررا بالغا بعد طرد أصحاب المهن والصنائع من المورييسكيين، دون أن ننسى مناطق أخرى ككتالونيا، بلنسية، غرناطة وأراغون التي أصبحت مناطقها خرابا تصل في بعض الحالات إلى مسافة 40 كلم¹ دون وجود أي نشاط، خاصة النشاط الفلاحي والصناعي.

3- الهجرة الإجبارية (1609 - 1614م):

الهجرة الأندلسية الإجبارية أو الأخيرة تعتبر آخر هجرة للأندلسيين من بلادهم الأندلس إلى بقاع العالم وبشكل كبير إلى بلدان المغرب العربي، بحيث استقطبت الجزائر الآلاف من هؤلاء المهاجرين نظرا للتقارب الديني والاجتماعي والقرب الجغرافي بين بلاد الأندلس أو إسبانيا

¹ - إسماعيل جودي، "الصناعة العسكرية في الجزائر في العهد العثماني 1518 - 1830"، رسالة مكملة لنيل متطلبات الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 2009م، ص 66.

والجزائر، ولم تكن هذه الهجرة عفوية بل كانت وفق تخطيط مُحكم من طرف السلطات الإسبانية التي حاولت تهجير هؤلاء المورييسكيين وتتنقية الدم المسيحي في إسبانيا، ولم تكن سهلة نظرا للأعداد الكبيرة التي سوف تهاجر وما يصاحبها من تنظيمات للرحلات وعراقيل أخرى، وسنحاول في هذا الإطار ذكر مجريات الطرد ونتائجه على إسبانيا وعلى المهاجرين أنفسهم.

إن فكرة الطرد النهائي للمورييسكيين لم تكن فجأة إنما جاءت عقب العديد من القرارات والمخططات التي تستهدف طرد المورييسكيين من إسبانيا أو تنصيرهم وإخضاعهم لقوانين الدولة الإسبانية، فبعد وصول فيليب الثالث إلى الحكم عقب وفاة والده سنة 1598م، قام برحلة إلى إقليم بلنسية رفقة مستشاره فرانسيسكو غوميث دي ساندوفال، حيث اطلع على الوضع الديموغرافي والسياسي بشرق إسبانيا، ومن ثم بعث لرئيس أساقفة بلنسية خوان دي ريبيرا يأمره فيها بمضاعفة الجهد لتنصير أكبر عدد من المورييسكيين عن طريق الوعظ والتعليم الديني، فيما انحاز رجال البلاط الإسباني إلى فكرة طرد المورييسكيين، وهذا بعد تخوفهم من استغلال المورييسكيين فرصة الوقوف ضد إسبانيا بمساعدة قوة أجنبية، وقد أزر هذا القرار عددا من رجال الدين الذين كانوا يساندون فكرة الطرد، ومنهم الراهب الدومينيكاني خايمي بليدا والأسقف خوان دي ريبيرا الذي التمس من الملك طرد المورييسكيين مرتين، المرة الأولى في رسالة مؤرخة في ديسمبر 1601م التي ذكر فيها أنه إذا لم يطرد المورييسكيين فسوف يرى ضياع إسبانيا في حياته، والمرة الثانية في جانفي 1602م وصف فيها المورييسكيين بالهراطقة الذين خانوا الرب والملك. وهناك من رفض فكرة الطرد مثل واعظ الملك الراهب خيرونيمو خابيري، الذي انتقد سنة 1607م فكرة الطرد التي اقترحها الأسقف دي ريبيرا، واعتبره أيضا أنه مسؤولا عن فشل محاولات تنصير المورييسكيين في بلنسية. لكن هذا الانقسام داخل البلاط الملكي لم يدم طويلا، فقد تغير الوضع سنة 1608م حيث أجمع أعضاء مجلس الدولة على فكرة الطرد¹.

¹ - مرسوم طرد المورييسكيين من "مملكة بلنسية" ومرسوم طرد المورييسكيين من سائر الممالك الإسبانية، ترجمة محمد عبد المومن، دورية كان التاريخية، العدد 34، ديسمبر 2016م، ص 158.

وبعد اتخاذ هذا القرار من طرف الحكومة الإسبانية وعلى رأسها الملك فيليب الثالث بطرد الموريسكيين نهائياً من إسبانيا، وذلك بُغية تنقية الدم المسيحي من الجنس العربي الإسلامي، وهو ما يبينه أحمد بن قاسم الحجري الذي عاصر تلك الفترة في قوله: "وفي... أيامه أمر السلطان النصراني ببلاد إشبانية؛ أعني بلاد الأندلس المسمى بـ فلب الثالث من اسمه بإخراج جميع المسلمين من بلاده. وابتداء ذلك كان لسنة ثمان عشرة وألف؛ وآخر من خرج منهم كان عام عشرين وألف"¹. وقد نوقش هذا الأمر عبر جلسات بدأت يوم 22 نوفمبر 1608م واستمرت إلى غاية شهر مارس 1609م، وذلك بحضور العديد من الأساقفة الذين طلب منهم أن يدلوا بأرائهم، فعارض البعض وساندت الأغلبية قرار الطرد².

وتماشياً مع ذلك تم إصدار مرسوم بتاريخ 09 أبريل 1609م يقضي بنفي الأندلسيين وفق مخطط تسيير رحلات عبر مجموعة من الدفعات³، واعتمدت في ذلك الحكومة الإسبانية على سفن الإمبراطورية بالإضافة إلى أسطول من السفن التجارية تم استئجارها من أصحابها لهذا الغرض، أضيف إليها مجموعة من السفن من جنوة وصقلية والبرتغال في عمليات النقل وتأمين الرحلات⁴، وتماشياً مع المخطط المسطر تم نفي مورسكيي بلنسية بتاريخ 22 سبتمبر 1609م، بحيث تم ترحيل 28 ألف موريسكي نحو ميناء دانية، و15 ألف موريسكي نحو ميناء بلنسية⁵.

¹ - شهاب الدين أحمد بن قاسم الحجري (ت: بعد سنة 1640م)، كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم وترجمة شورد فان كونكزفلد، قاسم السمرائي، خيرارد فيخرز، د. ط، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، د. م، د. ت، ص 45.

² - مرسوم طرد الموريسكيين من "مملكة بلنسية" ومرسوم طرد الموريسكيين من سائر الممالك الإسبانية، المرسوم السابق، ص 158.

³ - عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، ط 1، مطابع أنترناشيونال برس، القاهرة، مصر، 1983م، ص 183.

⁴ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 1، ص 111.

⁵ - حنفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 34.

ففي البداية تم ترحيل موريسكيي بلنسية التي تقع في شرق البلاد لأنهم يشكلون تجمعا كبيرا فيها يقدر بحوالي 70٪ من مجموع سكان الاقليم، وكذلك خوف السلطات من هؤلاء من تجميع قواهم ضد السلطة الإسبانية، ولتنفيذ هذا المخطط تم الاعتماد على رئيس أساقفة بلنسية خوان دي ربيرو، وأشرف على عملية الترحيل دون أوغسطين دي ميثيا¹. وتنفيذا لهذا المخطط فإنه تم استحضار 62 قادسا و 14 غليوناً إلى ميناء بلنسيا تحمل على متنها حوالي ثمانية آلاف جندي لتسيير وتنظيم عملية النفي في سبتمبر 1609م، ونظرا لخطورة القرار بنفي جميع الموريسكيين من الإقليم نظرا لما يخلقه من خراب اقتصادي واجتماعي كبير تم عقد مشاورات بين السلطات المحلية في محاولة إبقاء جزء من هؤلاء وفق شروط معينة ونفي الباقي²، وبعد المشاورات تقرر السماح لستة بالمائة من أجل البقاء ونفي البقية، وهذا من أجل القيام ببعض الأعمال خاصة في المجال الزراعي³.

ومن بين الشروط التي تم من خلالها بقاء فئة معينة تتمثل في كل الموريسكيين الذين لم يمارسوا أي عداوات أو مشاكل خلال السنتين الماضيتين قبل قرار النفي، بالإضافة إلى الأطفال الذين لم يتجاوز سنهم الرابعة، وتم السماح كذلك للأطفال دون السادسة من العمر إذا كان أبوهم نصراني وبقاء أمهم إذا كانت من الأندلسيين، وفي حال كانت الأم نصرانية فيمكنها البقاء والاحتفاظ بأولادها وطرد زوجها الموريسكي⁴، وتم كذلك السماح لستة أسر من بين 100 أسرة أندلسية بالبقاء وهذا من أجل الحفاظ على مصانع السكر ومحصول الأرز في ذلك العام أي بداية الطرد الجماعي، بالإضافة إلى مهمة تدريب المستوطنين الجدد على الأنشطة الزراعية، ويتمثل هؤلاء في المسيحيين القدامى الذين استقروا مكان الموريسكيين، بحيث تم

¹ - عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، المرجع السابق، ص 183-184.

² - نفسه، ص 185.

³ - Raja Yassine Bahri, "Aportes culturales des los Moriscos en Túnez", Revista de Historia Moderna, N°: 27, 2009, p 266.

⁴ - عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، المرجع السابق، ص 185.

تسليمهم المنازل ومصانع السكر وحقول الأرز وطواحين المياه الخاصة بالموريسكيين الذين تم نفيهم خارج إسبانيا¹.

وقد نشر محمد عبد المومن وثيقتين مهمتين حول مرسوم طرد الموريسكيين من إسبانيا، بحيث ترجم محتوياتهما ونشرهما ضمن مقال في مجلة "كان" التاريخية، ومما جاء في تلك الوثيقتين ما يلي:

- الوثيقة الأولى²: "مرسوم الطرد القسري لموريسكيي مملكة بلنسية المنشور في العاصمة يوم 22 شتبر 1609"، ومما جاء فيها ما يلي:

"من دون لويس كاريو دي طوليدو، ماركيز كاراثينا، سيد بلدة بنتو وبلدة إينيس، قائد (فرسان رهبانية القديس يعقوب في) شنكلانا ومونتي سون، نائب الملك وقائد قواته (في مملكة بلنسية)، وحاكم هذه المدينة وكل مملكة بلنسية بتكليف من جلالتة. إلى الكبراء، الأساقفة، النبلاء، البارونات، الفرسان، القضاة، نقباء المدن والبوادي، الحكام، وكل موظفي جلالة الملك، المواطنين، سكان هذه المملكة... ماركيز كاراثينا، صديقي ونائبي، الحاكم العام لمملكة بلنسية... أمرك بتشكيل لجنة تضم في عضويتها نائب الملك والأسقف وكبار رجال الدين وذوي الخبرة لتدارس كيفية ترحيل المطرودين من مملكتنا... وبعد أن توكلت على الرب والتمست عونه، قررت أنه على جميع موريسكيي مملكة بلنسية الخروج إلى شمال إفريقيا وليتحقق هذا القرار بالشكل المطلوب أمرنا بتعميم هذا المرسوم:

1- في البداية نؤكد أنه يجب على جميع موريسكيي هذه المملكة رجالا ونساء، ومعهم أطفالهم، وفي غضون ثلاثة أيام من تعميم هذا المرسوم، مغادرة مساكنهم ومناطق سكنهم الأصلية، والاتصال بالمسؤولين وإطاعة أوامرهم، ويمكنهم أن يحملوا معهم ما شاءوا من الأمتعة وكل ما

¹ - Feridun BİLGİN, op. cit, p 47.

² - مرسوم طرد الموريسكيين من "مملكة بلنسية" ومرسوم طرد الموريسكيين من سائر الممالك الإسبانية، المرسوم السابق، ص 160، 161.

يحتاجون إليه، حيث سيتم اركابهم في السفن والمراكب التي ستعبر بهم إلى شمال إفريقيا دون أن يتعرضوا للمعاملة السيئة أو الإهانة أو الإزعاج، ونعلمهم أنه يمكنهم أخذ كل ما يستطيعون، كما سيتم التكفل بالمؤن الكافية لرحلة عبورهم، كما نحذر من أن أي عصيان لمضامين هذا المرسوم، سيكون عقابه الإعدام الفوري.

2- بعد ثلاثة أيام من تعميم هذا المرسوم، فلن يسمح بوجود أي مورسكي في منزله أو في منطقته الأصلية، وإنما على الجميع أن يكونوا في طريقهم إلى أقرب مرسى ليتم اركابهم منه إلى بلاد المسلمين، وأي مورسكي عصا هذا الأمر يعتقل، ويسلم إلى أقرب محكمة ليلقى جزاءه، وإذا قاوم يقتل على الفور.

3- يعاقب بنفس العقوبة كل مورسكي يلقي عليه القبض وهو متوجه إلى مكان آخر غير المكان الذي سيتم منه إركاب المورسكيين ليغادروا صوب شمال إفريقيا، وعلى المورسكيين التزام منازلهم لغاية وصول المسؤولين الذين سيشرفون على عملية الترحيل.

4- إذا قام أحد المورسكيين بإخفاء أو طمر بعض من أملاكه المنقولة التي عجز عن حملها، أو قام بإضرار النار في منزل أو حقل مزروع أو بستان أو أشجار، فسيعاقب بالموت سكان المكان حيث وقع الحادث.

5- ومن أجل الحفاظ على المنازل ومعامل السكر والمرزات وقنوات الري، يمكن إعلام السكان الجدد بإمكانية القدوم والاستقرار، كما تفضل جلالة الملك فاستجاب للاستعطافات، فأمر بأن تبقى ست أسر من كل مائة أسرة بما في ذلك الزوجة والأبناء غير المتزوجين ولا المقبلين على الزواج ولا الذين هم في عمر الزواج، على أن يكونوا تحت رعاية أولياء أمورهم مع إمكانية تكيف هذا الإجراء حسب الأحوال السائدة وحسب خصائص كل منطقة.

6- يمنع على جميع المسيحيين القدماء والجنود سواء كانوا من هذه المملكة أو من غيرها أن يوجهوا أية إهانة، أو أن يقوموا بأي فعل يزعج المورسكيين، كما نحذر من أن يقترب أحد منهم أو من أبنائهم أو من نسائهم أو من ممتلكاتهم أو من أي أحد يرافقهم.

7- نحذر المورسكيين من إخفاء أية ممتلكات في منازلهم، ونحذر الجميع من مد يد المساعدة لهم تحت طائلة العقاب سبع سنوات من التجديف، أو بعقوبات أخرى تقدر حسب طبيعة الجريمة.

8- ليكن في علم المورسكيين، أن الهدف الوحيد لجلالة الملك هو إخراجهم من مملكته، وبأنه لن تتم مضايقتهم أثناء خروجهم، كما أنه يأذن لعشرة مورسكيين من الذين سيرحلون مع أول رحلة بالتوجه إلى شمال إفريقيا للاطلاع على أخبارهم ثم العودة بعد ذلك لإسبانيا. وكذلك الأمر مع كل دفعة جديدة. كما أن جلالة الملك سيعطي أوامره لكل ربابنة السفن وقادة الجنود العاملين عليها ليمنعوا كل بحار وجندي من توجيه أية إهانة أو إساءة إلى أحد المورسكيين المرحلين.

9- لا يطرد الأطفال من الجنسين تحت سن الرابعة الراغبون في البقاء، والذين تولى عنهم آبائهم بل يعتبرون أيتاما.

10- لا يطرد الأطفال تحت سن الست سنوات ولا أمهم المورسكية إذا كان أبوهم مسيحيا قديما، أما إذا كان الأب مورسكيا والأم من المسيحيين القدماء فيطرد الأب، في حين يبقى الأطفال تحت سن ست سنوات مع أمهم.

11- يسمح بالبقاء لمن ثبت أنه مسيحي حقيقي، وملتزم ويعيش بين المسيحيين منذ مدة طويلة ولم يسبق له أن كان عضوا في جماعة مورسكية.

12- يسمح بالبقاء لمن تم تعميدهم، الحاصلين على شهادة خاصة من طرف أساقفة مناطق إقامتهم الأصلية.

13- يأذن صاحب الجلالة للمورسكيين الراغبين في المغادرة إلى وجهة أخرى (غير شمال إفريقيا) بالخروج من إسبانيا، لكن دون المرور بممالك إسبانيا لأن عليهم المغادرة داخل الآجال المحددة".

- الوثيقة الثانية¹: "مرسوم طرد الموريسكيين من سائر أراضي مملكة إسبانيا"، ومما جاء فيها ما يلي:

"نلاحظ أنه في محتوى هذه الوثيقة حاولت السلطات الإسبانية كل ما في وسعها من أجل تنصير الموريسكيين بشتى الطرق لكنها فشلت في ذلك، ومما جاء في نص الوثيقة المترجمة ما يلي: "حاولنا لمدة طويلة تنصير مورسكيي هذه الممالك، كما عاقبهم ديوان التفتيش المقدس بعدد من العقوبات بالموازاة مع إصداره للعديد من مراسيم النعمة، ولم يترك وسيلة ولا أسلوبا لتلقيهم عقيدتنا المقدسة إلى اتباعه بدون أن تتحقق النتيجة المرجوة لأنه ما من أحد قد تنصر حقيقة... وبالنظر إلى كل ما ذكرناه سلفا، والتزاما بواجبنا في حماية ورعاية الإيمان الكاثوليكي المقدس، وحرصنا على السلام والأمن، واستجابة لما أشار به المجلس المكون من رجال متقنين في الإخلاص للرب لذا أمرنا بما يلي:

- على جميع الموريسكيين من سكان هذه الممالك رجالا ونساء وأطفالا - سواء كانوا مولودين بها أو من الأجانب - باستثناء العبيد - أن يخرجوا من هذه الممالك إلى خارج حدود إسبانيا في غضون ثلاثين يوما تبدأ من يوم تعميم هذا القانون، ونمنع عليهم العودة إليها تحت طائلة العقاب بالإعدام والمصادرة.

- نأمر ونحضر على جميع السكان والمقيمين في هذه الممالك والإقطاعات من أي طبقة أو أي حالة أو أي درجة من درجات النبلاء، بعد استقبال أو قبول أو إيواء أو تقديم الحماية سرا وعلنا لأي مورسكي وأية مورسكية بعد انصرام الأجل الذي حددناه دائما وإلى الأبد، سواء في أراضيهم أو مساكنهم أو في أي مكان آخر تحت طائلة المصادرة الشاملة للأموال والإقطاعات والحصون وغيرها من العقارات لصالح الخزينة الملكية دون أية إمكانية للعفو عن من قد تنتم معاقبته.

¹ - مرسوم طرد الموريسكيين من "مملكة بلنسية" ومرسوم طرد الموريسكيين من سائر الممالك الإسبانية، المرسوم السابق، ص 162.

- يمكننا ولنا الحق في ذلك أن نأمر بمصادرة كل ممتلكات المورسكيين العقارية والمنقولة بسبب جرائمهم المرتكبة ضد الرب والملك، لكنني سأكون رحيمًا بهم حيث سأترك لهم حرية التصرف طيلة المهلة التي حددناها في ثلاثين يومًا، حيث يمكنهم مبادلتها (ليس بالنقد والذهب والفضة والحلي والصكوك) ولكن بالسلع المسموح بها من مواطني هذه الممالك وليس من غيرهم.

- وليستفيد المورسكيون والمورسكيات من المهلة التي حددناها في ثلاثين يومًا، فقد رخصنا لهم في أن يتصرفوا بالبيع والشراء في المحاصيل والغلال، لكننا حظرنّا عليهم التصرف في العقارات التي ستصير إلى الخزينة الملكية لتوظف في خدمة الرب والصالح العام.

- وكذلك أسمح وأجيز لهؤلاء المورسكيين والمورسكيات بأن يخرجوا من ممالكهم وإقطاعياتهم البضائع والثمار عبر البر والبحر، مقابل أداء المكوس الجاري بها العمل...".

وأمام هذا القرار ونظرًا للقوانين المجعفة غادر الأندلسيون أرضهم وكلهم أملًا في العودة إلى أرضهم وممتلكاتهم، وقد صاحبت هذه الهجرة موجة من الفوضى والاضطراب، تخللتها عمليات النهب والسلب والتخريب والاقتطاع وإنكار الديون¹، وفي نفس الوقت كانت المناطق الأخرى من إسبانيا تشهد عمليات الترحيل على غرار أندلسي أرغون وقطالونيا ومرسية وقشتالة وغرناطة والعديد من المناطق الأخرى².

وتتفيذاً للأهداف المسطرة من طرف السلطات الإسبانية تم تجميع الأندلسيين في ثمانية مراكز رئيسية وهي: بلنسية وأرغون وقشتالة وأندلوثيا (الأندلس الصغرى) ومرسية وبرغش وقطالونيا وغرناطة، وانطلاقاً من هذه المراكز تم توزيع الأندلسيين على 12 نقطة ترحيل، في مناطق الشمال والجنوب والساحل الشرقي ففي الشمال الشرقي كانت: دانية ولقنت وقرطاجنة وجفية وساقونطة ومنقوفة وابن العروس والآفاق، وفي الجنوب كان هناك مركزان وهما مالقة

¹ - عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، المرجع السابق، ص 186.

² - نفسه، ص 186.

واشبيلية، وفي الشمال نجد: سوبورت ورنشغالة وأيرون¹. ولإنجاح هذه العملية تم الاستعانة ببعض الدول الأوروبية على غرار البرتغال وبعض الإمارات الإيطالية ومالطة².

تم في البداية نقل 3406 موريسكي من طرف الماركيز سانتكروز (ElMarquis de Santacruz) على متن 17 سفينة أبحرت من إسبانيا نحو وهران³، وهذا راجع إلى القرب الجغرافي بين وهران وإسبانيا، وكذلك استغلال فرصة احتلالها لتلك المنطقة مما سهل عليها نفي الموريسكيين، ونظرا للوفود الكبيرة التي التحقت بوهران، أمر حاكم وهران الكونت دي أقيلا القبطان الماركيز دي سنتا كروز في 07 أكتوبر 1609م بقيادة ستة سفن على متنها ستة آلاف موريسكي ونقلهم إلى المرسى الكبير، وفي نفس العملية طلب الكونت دي أقيلا من رباني السفن لويس فرخادو وخوان جيرونيمو، على نقل ثلاثة آلاف موريسكي على متن 07 سفن نحو ميناء أرزيو ومزغان، ونظرا لتزايد الموريسكيين كلف الكونت أقيلا القبطان دون ألفنسو هيرناندو بنقل حوالي 599 موريسكي نحو تلمسان، وفي أكتوبر 1609م قامت السلطات الإسبانية بنقل حوالي 1791 موريسكي على متن تسعة سفن نحو وهران والمرسى الكبير مُنطلقة من مينائي أليكانت وغراو الإسبانييتين⁴.

ولم يكن نقل المهاجرين الأندلسيين من إسبانيا إلى مناطق النفي بالعملية السهلة، فقد استمرت الهجرة نحو ست سنوات تخللتها مجموعة من الصعوبات والعراقيل خاصة على مستوى الموريسكيين الذين لقوا أنفسهم بين المطرقة والسندان كما يقال في المثل العربي، بحيث سلبت أملاكهم ووطنهم، وزرعت في نفوسهم الإحساس بالألم الناتج عن فراق أرض أجدادهم، وغيرها من الأمور الأخرى التي من الصعب تجاوزها خاصة في السنوات الأولى من الهجرة، بحيث

¹ - عادل سعيد بشتاوي، الأندلسيون المواركة، المرجع السابق، ص 186.

² - حنفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 37.

³ - نفسه، ص 37.

⁴ - نفسه، ص 37 - 38.

كانوا دائما منحايزين لوحدهم بشكل كبير دون مصاهرة أو اختلاط جدّي بسكان المناطق التي هاجروا إليها، وكان يحدهم الأمل في العودة مرة أخرى إلى بلادهم الأندلس.

ويمكن حصر طرق هجرة الأندلسيين نحو سواحل شمال إفريقيا في ثلاثة طرق رئيسية، تمثلت في طريق الهجرة من أراغون إلى فرنسا ثم إلى تونس، وسلخوا طريقا آخر من قرطاجنة إلى الجزائر ليلا، وطريق آخر مُنطلق من السواحل الجنوبية للأندلس نحو سواحل المغرب الأقصى¹، لكن نلاحظ أن هذه الهجرة لم تكن سهلة أبدا بالنسبة للمهاجرين الأندلسيين خاصة لما تعرضوا له في الطريق أو أثناء استقرارهم بالمناطق التي التحقوا بها. وفي هذا الجانب يقول أحمد بن قاسم الحجري: "وكان الأندلس يقطعون البحر في سفن النصارى بالكراء؛ ودخل كثير منهم في سفن الفرنج ونهبوهم في البحر..."². ويمكن أن نستشف من قول أحمد بن قاسم الحجري مدى المعاناة التي مر بها المهاجرون الأندلسيون في إسبانيا أو في طريق هجرتهم أو حتى بعد وصولهم إلى مناهم، وأقل ما يقال عليه هو غياب الروح الإنسانية والأخلاقية لكل من نهبهم أو سلبهم أملاكهم، فلوحة فراق الوطن ويضاف إليها لوحة وألم الظلم والاستبداد الذي تعرضوا له ينتج عنه حتما ألم شديد لا يعرف شدته إلا من مر به.

وبالنسبة لعدد المهاجرين خلال هذه المرحلة فإنه بلغ حسب ما ذكره فيي هنري ليون (Fey Henri-Léon) ما بين 12 ألف إلى 15 ألف موريسكي، بينما بقي عدد منهم غير كاشفي أصلهم ومختبئين وسط الأجناس الأخرى في البلاد الإسبانية³. بينما يذكر فريدون بيلجين أنه من الصعب تحديد عدد المنفيين بشكل دقيق، لأن مختلف الكتابات التي كانت معاصرة لتلك الفترة أو مختلف البحوث الجديدة التي تطرقت للهجرة الأندلسية لم تعطنا الرقم الدقيق لأعداد المهاجرين، وهذا راجع إلى صعوبة معرفة الذين غادروا إسبانيا طواعية بالإضافة

¹ - صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514 - 1830، د. ط، دار هومة، الجزائر، 2012م، ص 91.

² - شهاب الدين أحمد بن قاسم الحجري، المصدر السابق، ص 45.

³ - Fey Henri-Léon, *Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination espagnole*, Typographie Adolphe perrier, éditeur Boulevard Oudinol, Oran, Alger, 1858, p 55.

إلى أعداد الذين ماتوا في طريق الهجرة، زيادة على الأطفال الذين أخذوا من عائلاتهم، والذين أخفوا أنفسهم في هذه العملية، كل هذا يمنع من إحصاء المهاجرين بشكل دقيق، إلا أن الأرقام المعطاة تتراوح بين مائة وعشرين ألفاً، ومليون مهاجر¹.

وهناك من يذهب إلى أبعد من ذلك مثل ما ذكره مصطفى داودي الذي بين أن عدد الأندلسيين المطرودين حسب رواية نافاريتي قد بلغت خمسة ملايين نسمة منهم مليونين من اليهود!² وهنا نلاحظ فرقا كبيرا بين الرقم الذي أعطاه هنري ليون وما ذكره فريدون بيلجين، وفارق كبير أعطاه نافاريتي، ويبدو أن رقم خمسة ملايين مبالغ فيه، بينما رقم مليون مهاجر يبدو كبيرا جدا مقارنة بأعداد الموريسكيين الموجودين بإسبانيا، إذ كان يُقدر سكان إسبانيا بشكل عام في ذلك الوقت حوالي ثمانية ملايين، ويشكل الأندلس المسلمون حوالي 10% من مجموع السكان، وإذا افترضنا أن هذا العدد صحيح فإنه يتواجد بإسبانيا حوالي 800 ألف موريسكي، ونظرا لأن الموريسكيين لم يهاجروا كلهم بل أغلبهم فإنه من المحتمل يكون عدد المهاجرين حوالي 500 ألف مهاجر مثل ما ذكره فريدون³ الذي استند في هذا الطرح على بعض الدراسات المهمة بهذا الجانب.

وقد استقبلت الإيالة الجزائرية نحو 25 ألف موريسكي⁴، وكان استقبالهم حسن خاصة بوجود جالية أندلسية مستقرة بالجزائر. ويرى فريدون بيلجين أن كوسا مصطفى باشا (1610-1613م) الذي كان يحكم الجزائر في تلك الفترة لم يُرحب بالمهاجرين الأندلسيين، وذلك لعدة أسباب، ومنها بسبب انتشار المجاعة مما يثقل كاهل الإيالة في الجانب الاجتماعي والاقتصادي

¹– Feridun BİLGİN, op. cit, p 52– 53.

²– مصطفى داودي، المرجع السابق، ص 279.

³– Feridun BİLGİN, op. cit, p 53.

⁴– حنفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 34– 35.

والعسكري للبلاد، ومع ذلك تم استقبالهم وتم توزيعهم على العديد من المدن الجزائرية مثل تلمسان ومستغانم وأرزيو والعديد من المدن الأخرى¹.

لكن هذا الطرح الذي قدمه فريدون بيلجين غير صحيح في نظرنا، لأن المهاجرين الأندلسيين قد أغنوا الجزائر بمهاراتهم وبأموالهم وساهموا في إنعاش الاقتصاد الجزائري، وتقوية الجيش وتنشيط التجارة، بحيث كان لهم تأثير ملحوظ في مختلف المجالات، وكان لهم إسهام حضاري مشرف جدا، وحتى السكان لم ينكروا تواجدهم بل رحبوا بهم وخصصوا لهم أماكن للاستقرار بها، بالرغم من أن بعض الكتابات توضح أن بعض الموريسكيين قد تعرضوا لسوء معاملة بعض القبائل، مثل ما جرى لوفد من هؤلاء المهاجرين يتكون من 500 إلى 600 موريسكي قصدوا تلمسان، وتعرضوا للنهب من طرف الأعراب، وكان نفس الشيء بالنسبة لمجموعة مكونة من 40 موريسكيا متجهة نحو مستغانم، وهذه الحادثة يوضحها لنا أحمد المقرئ في قوله: "... فخرجت ألوف بفاس، وألوف آخر بتلمسان من وهران... فتسلط عليهم الأعراب ومن لا يخشى الله تعالى في الطرقات، ونهبوا أموالهم، وهذا ببلاد تلمسان وفاس، ونجا القليل من هذه المعرة..."². وفي نفس السياق يقول ابن سحنون الراشدي: "... وعلى ذكر موقف الجزائريين مع الأندلسيين خصوصا اللاجئين منهم إلى شواطئ البلاد فقد وقعت لبعضهم حوادث مؤلمة استغلها كثير من الكتاب وعمموا تهمهم للبلاد كلها، فذكروا أن مصير اللاجئين الأندلسيين ببعض شواطئ (الجزائر) كان نصيبهم القتل والنهب، وبالفعل وقع ذلك لبعض اللاجئين سنة 1018هـ أي بعد سقوط (غرناطة) بما يزيد على القرن، وهو الجلاء الأخير..."³. وأمام هذه الحادثة المؤلمة لم تبق القبائل الجزائرية ولا حتى السلطة مكتوفة الأيدي، بل أدى هذا الفعل إلى استنكار وغضب الفقهاء والعلماء وشيوخ القبائل الذين دعوا إلى معاقبة

¹– Feridun BİLGİN, op. cit, p 54.

²– أحمد المقرئ، المصدر السابق، ج 4، ص 528.

³– ابن سحنون الراشدي (ت: خلال النصف الأول من القرن 19م)، الثغر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، اعتنى به عبد الرحمن دويب، ط 1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 31.

هؤلاء الأعراب ونصرة الموريسكيين¹. في حين بادرت السلطة الحاكمة من جهتها بتقديم يد المساعدة للموريسكيين من أجل هجرتهم، خاصة مؤسسة البحرية الجزائرية التي جعلت أسطولها في خدمة هؤلاء المهاجرين والدفاع عنهم، وهو الأمر الذي يؤكد دي فولكس الذي بين أن البحرية الجزائرية ساهمت في نقل المهاجرين الأندلسيين من إسبانيا، وهذا راجع إلى أسطولها الذي يحتوي على سفن جيدة وحديثة الصنع مثل السفن المستديرة²، التي كانت خفيفة وسريعة الحركة وغيرها من العتاد المكون للأسطول الجزائري الذي كان في خدمة المهاجرين الأندلسيين. في حين حاولت الدولة العثمانية هي الأخرى إنقاذ الموريسكيين، فقد أمر السلطان أحمد الأول (1603-1617) وولاته في الجزائر وتونس وطرابلس الغرب بتقديم يد المساعدة للموريسكيين، وأجرى مساعي للاتصال بإنجلترا وفرنسا والبندقية لهذا الغرض، وفي خريف عام 1610م أرسل السلطان عامله "متفرقة إبراهيم أفندي" إلى ملك إنجلترا يدعوه فيه أن يتم تحميل الموريسكيين الملتجئين إلى مملكته في المراكب الإنجليزية، ونقلهم سالمين إلى الممالك العثمانية، وكذلك رسالة السلطان أحمد الأول إلى دوق البندقية في جوان 1614م وجاء فيها ما يلي: "حينما تمر طائفة المدجنين المذكورة بولاية البندقية راحلة من إسبانية، قاصدة ممالكنا المحروسة، فلا تسمحوا لأي مخالف بالتدخل والتعرض في المنازل والمراحل والمعابر لهم ولدوابهم، وأسباب أرزاقهم والعهد والأمان المبذول لهم، وقوموا بإيصالهم سالمين إلى ممالكنا المحروسة. لقد لمسنا إلى الآن حسن اهتمامكم، ولا شبهة في أن مبادرتكم بالإذن العاجل لهؤلاء الفقراء بالمجيء إلى دار الأمان ممالكنا المحروسة بيسر وسهولة هو دليل الظهور وتحصيل ما تقتضونه من الرضا، وسيكون استحكاماً وامتداداً لأساس المصالحة والمعاهدة بيننا، وعليه

¹ - محمد رزوق، المرجع السابق، ص 131 - 132.

² - Albert Devoux, "la marine de la régence d'Alger", R. A, Alger, N°: 77, septembre 1869, p 390.

نأمل تقيديكم بما جاء آنفاً، وقيامكم بالسعي وبذل الوسع لتحقيق ما ينبغي لهم من رضا الحال ورفاه البال¹.

هذا بالإضافة إلى مساعي الدولة العثمانية في حث المغرب الأقصى لمساعدة الموريسكيين خاصة وأنه أقرب بلد إسلامي للأندلس، وتنفيذاً لذلك أرسل السلطان أحمد الأول الأميرال خليل باشا في مهمة إلى المغرب الأقصى وذلك بتاريخ 2 سبتمبر 1613م، وحسب ما ذكره عبد الجليل التميمي والعديد من المؤرخين أن هذه المهمة تدخل في إطار تمتين العلاقات السياسية بين البلدين، وتزامنها مع الهجرة الأندلسية لا ينبغي بأن مهمة خليل باشا لها علاقة مباشرة بالقضية الموريسكية².

في ظل هذه الظروف الحرجة تمّ ترحيل الآلاف من الموريسكيين، وكان نصيب دول المغرب العربي حصة الأسد من هذا النزوح، الذي عان من خلاله الموريسكيين ويلات الظلم والتشرد والطعن في دينهم وهويتهم، إلّا أنّ البلدان التي استقبلتهم استقادت من خبرتهم، كونهم أصحاب خبرة في مختلف المجالات، فعلى غرار تونس التي استقبلت العديد من اللاجئين الموريسكيين، الذين استقبلوا بحفاوة من طرف حسين داي الذي أكرم وفادتهم ووزعهم على المناطق التونسية، ومع أنّهم وجدوا صعوبة التأقلم مع المجتمع التونسي في بداية الأمر إلا أنهم دَعَمُوا مركزهم وانخرطوا بشكل تام في الحياة التونسية، وفي مقابل ذلك حافظوا على أسمائهم وعوائلهم ولغتهم الإسبانية، ثم انتظموا داخل طائفة اتخذت لها رئيساً لقب بالشيخ الأندلسي، وبنوا مسجداً ألحقوا به مدرسة، كما كان لهم نظامهم العدلي وجمعياتهم المهنية³. وشكل كذلك المغرب الأقصى قبلة لهؤلاء المهاجرين، خاصة وأنّه قريب جغرافياً من إسبانيا، وتربطهم بها روابط تاريخية وحضارية شتى، فتراوح عدد النازحين إلى هذا البلد

¹ - أرجمند قوران، المرجع السابق.

² - عبد الجليل التميمي، "رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين"، نقلاً عن مكتبة عين الجامعة الإلكترونية (<https://ebook.univeyes.com/154081/pdf>)، ص 285 - 286.

³ - ألفونسو دو لاسيرنا، المرجع السابق، ص 118.

وبالخصوص مدينتي تطوان والرباط ما بين 50 ألف و100 ألف مورييسكي، وكما هو الحال في تونس فإن هؤلاء المهاجرين استقدموا معهم العديد من العناصر الثقافية، ونُظم العيش والعادات وصنوف من المعرفة تركت بصماتها إلى يومنا هذا¹.

ومن جهتها استقبلت إيالة الجزائر كغيرها من بلدان المغرب العربي وفودا مهمة من المورييسكيين الفارين من الاضطهاد الإسباني، وخصصت لهم سكنات وأماكن للإقامة، وكذلك وفرت لهم العمل سواء في المجال الفلاحي أو الصناعي والتجاري، واستغلت خبرتهم في الجانب الإداري والعسكري، بحيث ساهموا في إحداث نهضة علمية وفكرية واقتصادية بالجزائر، من خلال ولوجهم إلى عدة ميادين كالتدريس² والبناء والتشييد بالإضافة إلى تدعيم الحكم العثماني بالجزائر، ولا ننسى دورهم الكبير في تطوير التجارة والصناعة خاصة الصناعة العسكرية³ التي شكلت محور قوة الجيش الجزائري سواء البحري أو البري.

وننتج عن هذه الهجرة تغيرات جذرية في إسبانيا، بحيث أن المملكة الإسبانية تأثرت كثيرا بنفي المورييسكيين، ويوضح لنا ماثيو كار هذه الحالة التي آلت إليها إسبانيا في قوله: "... ففي مختلف أنحاء إسبانيا، خلف طرد المورييسكيين مشهدا من الخراب، بدءا من البيوت الخاوية والأحياء والقرى المهجورة إلى انخفاض العائدات. وفي بلنسية ورغم استحضار بليدا لعصر جديد من الوفرة، تواترت تقارير عن محاصيل لم تُبذر، وأخرى لم تُحصد، ومزارع كرمة وبساتين تعفنت ثمارها على سوقها لعدم وجود الأيدي الكافية لحصادها..."⁴.

¹ - ألفونسو دو لاسيرنا، المرجع السابق، ص 118.

² - فؤاد طوهارة، المرجع السابق، ص 164 - 165.

³ - عبد القادر مرجاني، "هجرات المورييسكيين إلى الجزائر ومساهماتهم في مواجهة المد الإيبيري في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي"، مجلة القرطاس، جامعة تلمسان، الجزائر، المجلد 06، العدد 11، جانفي 2019، ص 53.

⁴ - ماثيو كار، الدين والدم إبادة شعب الأندلس، ترجمة مصطفى قاسم، مراجعة أحمد خريس، ط 1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2013م، ص 483 - 484.

فكس ما كانت تعتقده السلطات الإسبانية أنّ نفى الموريسكيين سينعكس بالإيجاب على الحياة الاجتماعية والاقتصادية للبلاد، فإن نتائج هذا النفي كانت عكس توقعاتهم تماما. صحيح أن ممتلكات الموريسكيين التي سُلبت منهم جلبت نوعا من الثراء لخزينة المملكة، وهذا ما يُمكن المملكة من تسديد بعض ديونها المتراكمة، فقد جمع المجلس المالي 200 ألف دوكات من بيع العقارات المملوكة لشركة أوكانيا Ocana ومريد موريسكوس Madrid Moriscos في سنة 1610م. كما تأثرت بهذا الطرد الجماعي العديد من المؤسسات المالية في إسبانيا مثل بنك الإيداع في بلنسيا، كذلك انخفض معدل الدخل في كل من بلنسيا وتارازونا وسراكوستا، ولم تستطع الكنائس في هذه الحالة استعادة حالتها السابقة، فنلاحظ أنّه كان يتم الحصول على دخل قيمته 53153 ريال من الموريسكيين لدوق غانديا، لينخفض هذا الرقم بعد هجرة الموريسكيين إلى 15349 ريال في سنة 1610م¹.

هذا بالإضافة إلى تأثير الهجرة على الهيكل الديموغرافي لإسبانيا وهو ما أثر سلبا على خدمة الأراضي الزراعية وتراجع مردودها نظرا لاتساعها ونقص اليد العاملة بها، فبعد نفى حوالي 160 ألف موريسكي من منطقة بلنسيا وحدها، تم تعويضهم بـ 15 ألف مهاجر تم جلبهم من منطقة البيرينيه وكاتالونيا، وهذا العدد غير كافٍ ليعوض الفراغ الذي تركه الموريسكيين، وهو ما أثر على القطاع الفلاحي بشكل كبير. وكمثال آخر نجد أن منطقة لمانشا كان تعداد سكانها حوالي 120 ألف نسمة، وبعد هجرة الموريسكيين تقلص كثيرا ليصل أو يزيد قليلا عن 1000 نسمة خلال سنة 1623م².

وهذا التغير الذي حدث في الهيكل الديموغرافي أثر بشكل كبير وحاد على الحياة الاقتصادية والاجتماعية للملكة الإسبانية، وعانت منه لسنوات طويلة، وهذا إن دل على شيء إنّما يدل على سوء تسيير الشؤون الداخلية لإسبانيا من طرف المسؤولين، وعدم تفكيرهم في

¹– Feridun BİLGİN, op. cit, p 55– 56.

²– ibid, p 56– 57.

النتائج الوخيمة التي تطرأ على إسبانيا بعد نفي الموريسكيين، الذين كانوا يُشكلون محور أساسي في النمو الاقتصادي والاجتماعي للبلاد، فكان مهم طرد الموريسكيين دون التفكير في النتائج السلبية، بسبب حقدتهم الدفين للمسلمين، وبتحريض من الكنيسة التي هي الأخرى خسرت الكثير من هذا الطرد الجماعي.

ويبدو أن ما توقعه الأب سوبرينو حينما راسل البلاط الملكي الإسباني في سبتمبر 1609م كان صحيحا، بحيث وضح في تلك المراسلة أهم النتائج السلبية التي سوف تحدث في مملكته بلنسية وفي كامل البلاد الإسبانية بعد طرد الموريسكيين، ومما جاء في هذه الرسالة ما يلي: "سيدي: أمس أطلعني السيد كونت كاستيار على مذكرة يرسلها إلى جلاتكم؛ فحواها أن طرد الموريسكيين سيكون سببا في خراب المملكة، وقد أسس رأيه على أن الحياة في الممالك تقوم على الخدمات التي يؤديها الموريسكيون، فإذا طردوا فستتوقف إيرادات السادة والقساوسة والتجار، ولن تكون هناك تبرعات للفقراء والمستشفيات والكنائس، وستتوقف الحرف الميكانيكية، وبناء على هذا فإن الحياة في جميع أنحاء المملكة ستتوقف..."¹.

ثالثا: استقرار الأندلسيين بالجزائر:

مع استقرار الحكم العثماني بالجزائر شهدت هذه الأخيرة توافد أعداد كبيرة من الموريسكيين الفارين من الاضطهاد المسيحي، وقد ساهم في هذه العملية بايلربايات الجزائر وعلى رأسهم عروج وخير الدين بربروس وخلفاؤهم، الذين عملوا على تعزيز التواجد الأندلسي بالجزائر. فنجد أن البيلرباي خير الدين قد جهز أسطوله عدة مرات لهذا الغرض وقام بالإغارة على السواحل الإسبانية، بحيث تمكن من نقل أعداد كبيرة من الموريسكيين إلى شواطئ الإيالة الجزائرية، وقد وصل عدد هؤلاء المهاجرين ضمن هذه العملية إلى حوالي سبعين ألف نسمة. لتتوالى بعد ذلك الهجرات خاصة بعد ثورة البشارات في الأندلس بين سنتي 1569 و1570م

¹ - مرثيديس غارشيا أرينال، الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003م، ص 225.

بحيث أدت إلى نزوح الموريسكيين خاصة الثائرين منهم، والذي بلغ عددهم حوالي الثلاثين ألف بقيادة الباكي نحو الجزائر¹.

استقر عدد كبير من الأندلسيين في مدن الإيالة الجزائرية وخاصة الساحلية منها مثل مدينة الجزائر وبجاية ووهران وتلمسان وتنتس وشرشال ومستغانم ودلس وقسنطينة، وقاموا بإنشاء مدن جديدة مثل: مدينة البليدة والقلعة، في حين شكلوا غالبية السكان في بعض المدن الأخرى مثل مدينة الجزائر وتنتس ودلس وجيجل²، وقد "... تركوا عليها بصمات ظاهرة أينما حلوا فيها. فقد أحيوا مدينة شرشال، وعمرها كلاً من القليعة والبليدة، كما غرسوا الكثير من الزيتون والأشجار المثمرة في عنابة، والقطن في مستغانم، وصنعوا الحرير في القليعة، وزودوا مدينة الجزائر بالمياه في حين لم تكن هذه تعتمد إلا على الآبار والصهاريج"³.

ونجد أن عدد البيوت التي احتلها هؤلاء المهاجرين في مدينة شرشال فقط قدر بحوالي 12000 منزل⁴. بينما يذكر حنفي هلايلي أن عدد مساكن المهاجرين الأندلسيين في شرشال يقدر بحوالي 5000 مسكن من الثغريين والمدجنين والأندلسيين. وقد استقر في مدينة القل أكثر من 300 شخص من الأندلسيين الذين هاجروا إليها من قشتالة ومملكة بلنسيا، بينما مدينة القليعة الذي يطغى عليها الطابع الموريسكي الأندلسي استقرت بها حوالي 300 عائلة أندلسية من أصل مدجن وثغري، وذلك في عهد حسن باشا 1546-1567م، وهناك من الأندلسيين من فضل الاستقرار بخليج أرزيو قرب منطقة المقطع سنة 1492م. بينما عرفت مدينة الجزائر هجرة مكثفة من طرف الموريسكيين بحيث وصل عددهم في مطلع القرن السابع

¹ - ناصر الدين سعيدوني، الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر ((دار السلطان)) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر، المرجع السابق، ص 108.

² - Arezki CHouitem, op. cit, p 35.

³ - مصطفى بن حموش، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، ترجمة وتحقيق وتعليق مصطفى بن حموش، ط 1، دار الأمة، الجزائر، 2007م، ص 17.

⁴ - Arezki CHouitem, op. cit, p 35.

عشر الميلادي بأكثر من 25 ألف موريسكي¹. في حين أصبح سهل متيجة أرضا يسكنها الموريسكيين ويعمرون قراها²، وفيما يخص البوادي فإن وجودهم بها كان غير مرغوب فيه من طرف السكان، بسبب خوفهم من منافستهم في ميدان الزراعة، بالإضافة إلى أن المدن كانت محصنة ومراقبة من طرف السلطة المركزية لذلك شهدت تواجدا كبيرا للموريسكيين عكس البوادي التي كانت لا تحظى بالأمن كما هو موجود في المدينة³.

ونلاحظ أن معظم تلك المدن التي استقر بها المهاجرون الأندلسيون قد ازدهرت وانتعشت اقتصاديا واجتماعيا⁴، كما هو الحال في مدينة تنس التي بناها الأندلسيون وعمروا قراها، ومن بين المؤرخين الذين ذكروا تلك المدينة ووصفوها وذكروا تاريخ تأسيسها التمكنوتي الذي ذكرها في قوله: "... تنس وهي حصن بناه البحريون الأندلسيون ومن معهم سنة اثنتين وستين ومائتين..."⁵.

ومن بين المدن الأخرى التي احتضنت تلك الوفود مدينة بجاية التي استقر بها العديد من الأندلسيين، الذين برز منهم العديد من العلماء مثل الولي الصالح أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري، والذي هو أندلسي الأصل من بلدة قنطانيا بالأندلس، حسب ما ذكره التمكنوتي، وكذلك الشيخ العالم أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الاشبيلي، والشيخ أبو الحسن علي الاشبيلي⁶.

ومن بين البيوتات الأندلسية التي استوطنت في الجزائر قبل سقوط غرناطة سنة 1492م بيت ابن جبل الهمداني الذين استقروا بوهان حوالي سنة 511هـ / 1117م، ومن بين الأفراد

¹ - حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المرجع السابق، ص 192، 196.

² - Arezki CHouitem, op. cit, p 35.

³ - سمير عبد الرسول العبيدي، المرجع السابق، ص 172.

⁴ - Arezki CHouitem, op. cit, p 35.

⁵ - علي بن محمد التمكنوتي، المصدر السابق، ص 42.

⁶ - نفسه، ص 43 - 44.

الذين يُنسبون لهذا البيت الفقيه أبي عبد الله محمد بن مروان وابنه الحسن علي. وكذلك بيت ابن أبي العيش الخزرجي الأشبيلي، والذين تواجدوا بالجزائر قبل سنة 535هـ / 1140م، ويرجع أصل هذا البيت إلى مؤسسه الأول عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش بن خلف بن عبد الله، ويُعتبر ابنه الذي تربى في تلمسان هو المؤسس الحقيقي لهذا البيت¹.

ومن بين أشهر البيوت الأندلسية التي تواجدت بالجزائر بيت بني الملاح الذين احترفوا في قرطبة بالأندلس السكة وسبك الدنانير والدراهم وهي من الوظائف السامية في الدولة، ويرجع تواجدهم بالجزائر إلى حادثة سقوط قرطبة بيد القشتاليين سنة 633هـ / 1236م، بحيث اختارت هذه العائلة المغرب الأوسط كوجهة أساسية ونهائية لها، وقد استقروا بتلمسان وتولوا أرقى المناصب في بلاط بني عبد الواد لمدة تقارب السبعون سنة بسبب خبرتهم ومهاراتهم في العديد من الصنائع والحرف².

وهناك بيت بني سيد الناس، وينتمي هذا البيت إلى مؤسسه يعمر بن مالك بن بهثة بن حرب بن وهب بن حلى بن أحمر بن ضبيعة بن ربيعة الفرس بن نزار بن معد بن عدنان، وقد كان موطنهم الأصلي من منبج بالشام، ثم انتقلوا إلى الأندلس بعد الفتح الإسلامي لها واستقروا بكورة جيان وتحديدا بأبدة لمشايتها لموطنهم الأصلي، ومن بين الذين اشتهروا بهذا البيت أبو بكر محمد بن أبي العباس أحمد المعروف باسم "ابن سيد الناس"، وهو أول النازحين من هذه العائلة إلى بلاد المغرب العربي واستقر ببجاية، وفي هذه الحاضرة تولى ابن سيد الناس الصلاة بالناس والخطابة بالجامع الأعظم إلى جانب التدريس والإقراء³.

بالإضافة إلى بيت بني خلدون الذي ينتسب إلى أحد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وهو وائل بن حجر الكندي الحضرمي اليمني، واستقر بيت بني خلدون بإشبيلية منذ

¹ - عمارة سيدي محمد، المرجع السابق، ص 72 - 73.

² - نفسه، ص 73، 75.

³ - نفسه، ص 76 - 77.

النصف الأول من القرن الثالث للهجرة، ومكثوا هناك إلى غاية قبيل سقوط إشبيلية على يد النصارى سنة 646هـ / 1248م، وأول من انتقل من هذه العائلة إلى العدو المغربية الحسن بن محمد، ثم خلف وراءه ابنه محمد بن أبي بكر الذي مكّنه الأمراء الحفصيين من اعتلاء مناصب مهمة في البلاط الملكي، خاصة في زمن الأمير أبي إسحاق الذي منحه منصب صاحب الأشغال في ذي الحجة سنة 678هـ / 1279م¹.

ومن بين البيوت الأخرى التي استقرت بالجزائر بيت الآبلي، الذين يُنسبون إلى عبد الدار بن قصي بن كلاب بن مرة إحدى قبائل قريش، وكان موطنهم في الأندلس بمنطقة آبلّة التي تداول عليها المسلمون والنصارى في إخضاعها إلى غاية سقوطها نهائياً على يد المسيحيين النصارى في سنة 483هـ / 1090م، وقد انتقلوا إلى المغرب الأوسط خلال القرن السابع الهجري، واستقروا بتلمسان، وقد عمل بعض أفراد هذه العائلة في الميدان العسكري خاصة الأخوين إبراهيم وأحمد، ونظراً لكفاءتهم وخبرتهم تولى إبراهيم قيادة مرسى هنين، واكتسب حظوة كبيرة عند سكان تلمسان، وهو ما نتج عنه مصاهرة قاضي الجماعة في هذه البلدة محمد بن غلبون المرسي الذي زوج ابنته لإبراهيم، لينجب منها في سنة 681هـ / 1282م أحد أشهر علماء المغرب الإسلامي محمد بن إبراهيم والذي عُرف باسم الآبلي، الذي احتل مكانة مرموقة في وسط علماء عصره خلال القرن الثامن للهجرة².

وحسب ما ذكره حسام الدين شاشية نقلاً عن خيمينياث أن هذا الأخير أخبره أحد اليهود الأندلسيين أنه جاء هو وزوجته وابنه من مدينة مكناس التي هاجر إليها بعد سقوط غرناطة إلى مدينة الجزائر، وكان مسيحياً ذو أصل غرناطي وأن "... اسمه خوان كريناس وفي اليهودية موردخاي، يبلغ من العمر أربعين سنة... ابن خوان كريناس وماغدلينا رودريكات، متزوج من سيسنا دي ماريا دي بينا، أصيلة بورتو دي سانتا ماريا، وفي اليهودية تُسمى راكل، تبلغ من

¹ - عمارة سيدي محمد، المرجع السابق، ص 79، 81.

² - نفسه، ص 73، 83.

العمر خمسين سنة أكثر أو أقل قليلا، لديهم ابن يبلغ تسع سنوات، أكثر أو أقل قليلا، سألت ما اسمه فأجاب: خوان أنطونيو فيسنت، سأله الأب موناسيريو إذا كان معمدا أم لا، فأجاب بالنفي...¹.

وعرفت الجزائر خلال العهد العثماني هجرة العديد من العائلات الأندلسية مثل عائلة بوناتيرو والتي سميت أيضا بعائلة القلانسي لاشتهارها بامتهان حرفة صناعة الشواشي بمدينة الجزائر، وعائلة بن النيقرو وبن الكبابطي، بالإضافة إلى عائلة بو الركايب الذين تولى أفرادها مرافقة الحجيج إلى البقاع المقدسة، وعائلة بن بكير وسوسان وبوضربة والحداد وبوفنيش واليسري وبن حلي وبن حلة وبن عكاز والسراج برّحال ورويس وبلانكو، وبعض العائلات التي تنحدر من غرناطة كعائلة القصري وشيغارة ورفارة، وهناك عائلة الشويهد التي أنجبت العديد من العلماء والمهندسين، وعائلة العطار والمدني التي ينحدر منها أحمد توفيق المدني، وعائلة ابن تشيكو وابن رامول وغيرها². ومن بين الهجرات الموريسكية الفردية نحو إيالة الجزائر نجد هجرة الموريسكي مولينا الذي ينحدر من مدينة تروخيو وهو ذو أصل غرناطي، الذي وصل إلى الجزائر سنة 1611م³.

ومما لا شك فيه أنّ هذه الهجرات قد انعكست إيجابا على نمو وتطور حركة العمران بالمغرب الأوسط، فنجد أنّ هؤلاء الأندلسيين الذين استقروا بالمغرب الأوسط أعادوا إحياء العديد من المدن القديمة مثل تنس ووهران⁴، كما أنّ العائلات الأندلسية حافظت بصورة واضحة على

¹ - حسام الدين شاشية، المرجع السابق، ص 415.

² - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 68، 71.

³ - حسام الدين شاشية، المرجع السابق، ص 213 - 214.

⁴ - رفيق خليفي، "الأندلسيون وتنشيط حركة الوجهة البحرية للمغرب الأوسط"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرّبا"، المنعقد يومي 07 - 08 ديسمبر 2009م، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر 02، الجزائر، ص 141.

أصولها ومظاهرها حضارتها وأصالتها العريقة الموروثة من الأندلس¹ خاصة خلال القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين.

وبالنسبة لفئة اليهود القاطنين في مدينة الجزائر والتي منهم طبعا فئة اليهود الأندلسيين، فإنهم يُقدرون بحوالي خمسة آلاف نسمة². بينما يذكر سمير عبد الرسول العبيدي أن عدد اليهود المتواجدين بالإيالة الجزائرية خلال القرن السادس عشر الميلادي يُقدر بحوالي ثمانية آلاف نسمة³. ويذكر حسام الدين شاشية مستندا في كلامه إلى إبراهيم بن سلمون هاليفي أن مدينة تلمسان وحدها استقر بها حوالي اثني عشر ألف مُهجر يهودي⁴، وأصبحوا يشكلون جماعات متميزة تمارس التجارة والمهن ذات الدخل المرتفع ومع مرور الوقت اندمجوا مع المجتمع المحلي⁵.

وكانت الهجرة الأولى لهؤلاء عندما قام ألفونسو أراغون بطرد اليهود المايوركيين على إثر فتح جزر البليار سنة 1287م، وبعدها شهد القرن الخامس عشر وصول أعداد كبيرة من اللاجئين اليهود الإسبان الذين يطلق عليه كيبوزيين نسبة إلى القبعة التي كانوا يلبسونها والتي تسمى باسم كاببوس، وقطن هؤلاء في الجزء الأسفل من كل جهة في شارع السوق الكبيرة وخاصة بين الشارع والبحر في مدينة الجزائر، كما أنهم سكنوا كذلك بالقرب من باب الواد

¹ - الأشرعة السوداء "وثائقي عن نكبة الموريسكيين"، برنامج تحت المجهر، قناة الجزيرة، تم بثه بتاريخ: 12-12-2007م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 03-06-2022م، مُتاح على الرابط التالي: <https://www.youtube.com/watch?v=ht5kuFWT8Ck>

² - وليام شالر، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م، ص 89-90.

³ - سمير عبد الرسول العبيدي، المرجع السابق، ص 170.

⁴ - حسام الدين شاشية، المرجع السابق، ص 422.

⁵ - سمير عبد الرسول العبيدي، المرجع السابق، ص 170.

ومقابل السور حيث توجد كنيستهم. وقد صقلوا خبرتهم ومهارتهم في تطوير التجارة والصناعة بالجزائر، ومن بينهم فئة الجافيسون الذين كانوا أطباء لحكام مدينة الجزائر¹.

كما برعوا في مجال التجارة وبعض الحرف الأخرى كصياغة الذهب وسك النقود، بالإضافة إلى دورهم المهم في بيع وشراء البضائع التي غنمها رجال البحر من المسيحيين، وكانت علاقتهم بالمسلمين جيدة وتجمعهم أواصر الصداقة والاحترام²، ما عدا في بعض الفترات التي شكلوا فيها خطرا على الدولة والسكان، وذلك من خلال خيانتهم لمجتمع المغرب الأوسط، ومن أمثلة ذلك تقديمهم معلومات مهمة للإسبان من أجل معرفة خبايا المدن الداخلية للجزائر ولتسهيل غزوهم لها، مستغلين في ذلك الصراع القائم بين الإسبان والأتراك على أملاك الدولة الزيانية، خاصة اليهود الذين كانوا متواجدين بوهران وتلمسان والذين كانت تربطهم علاقة حسنة مع الإسبان³.

وحسب رواية هايديو فإنّ اليهود المتواجدين في الجزائر هم خليط من ثلاث فئات، تتمثل الفئة الأولى في اليهود الذين هاجروا من إسبانيا، والفئة الثانية اليهود الذين هاجروا من جزر البليار، والفئة الثالثة اليهود الأصليين المتواجدين في شمال إفريقيا منذ فترات زمنية طويلة، ومن الصفات التي تميزوا بها أنهم في أغلب الأحيان يعيشون في مكان واحد ويمارسون مهنة التجارة، ومعظمهم لديهم متاجر يبيعون فيها سلعهم، وبعضهم يبيع سلعه بصفة متقلّة أو في الشوارع، بحيث يحملون على أكتافهم سلالا أو صناديق ويتجولون بها في الشوارع. وبعضهم خياطون وصاغة وبقالون، والكثير منهم يشتري الأشياء التي جلبها القراصنة ويعيدون بيعها، وبعضهم الآخر يسافر بالبضائع ويذهب بها إلى قسنطينة وتونس وطرابلس وحتى إلى القسطنطينية، وهناك من يسافر إلى جهة الغرب إلى تلمسان وفاس وتطوان. وتعتبر فئة اليهود

¹ - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 17 - 18.

² - نفسه، ص 18.

³ - مختار حساني، تاريخ الدولة الزيانية، ج 2، د. ط، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م، ص 164 - 165.

من الفئات المسيطرة على مهنة الصياغة في الجزائر، بالإضافة إلى مهنة سك العملات الذهبية والفضية والنحاسية¹.

كما أنهم تمتعوا بالحرية التامة في ممارسة عقائدهم الدينية. وكان يتولى إدارة شؤونهم رئيس من أبناء الطائفة يُعَيِّنُه الداي، ولهم كامل الحرية في التنقل والإقامة حيث يرغبون، ويمارسون مختلف المهن في حدود ما يسمح به قانون الإيالة. وقد اشتهروا بالتجارة واحتكروا السمسرة وأعمال المصارف وتبديل العملة، والحكومة لا توظف سوى اليهود لسك النقود. كما أنهم يدفعون الجزية وضعفي الضرائب الجمركية المستحقة على جميع أنواع الضرائب المستوردة من الخارج، ومن بين القيود المسلطة عليهم؛ عدم مقاومة أي نوع من العنف يمارس عليهم من طرف المسلمين، وهم مُجبرون على ارتداء الثياب البيضاء أو السوداء، وغير مسموح لهم بركوب الخيل، أو بحمل أي نوع من أنواع السلاح بما في ذلك العصا، كما أنه يُسمح لهم بالخروج من أحد أبواب المدينة دون ترخيص خاص يومي السبت والأربعاء فقط، وباقي الأيام يجب أن يتحصلوا على ترخيص للخروج من أحد أبواب المدينة².

وأثناء إقامتهم بالمدن الجزائرية كانوا يقومون بالعديد من الأعمال الشاقة متى اقتضت الحاجة إلى ذلك، مثل ما حدث في صيف سنة 1810م حينما اجتاحت جحافل الجراد البلاد وقضت على كل ما مرت به من المزارع والأشجار وغيرها، وبهذه المناسبة تم إصدار الأوامر بخروج عدة مئات من اليهود بُغية حماية ووقاية حدائق الداي وبساتينه الشخصية، واضطروا للعمل والحراسة بالليل والنهار ما دام الجراد متواجدا بالبلاد³. بالإضافة إلى ذلك كانوا يُسدّدون

¹– diego de haëdo, **topographie et Histoire générale D'Alger**, traduit de l'espagnol par dr. Monnereau et a. Berbrugger, présentation de Jocelyne dakhli, editions Bouchene, 1998, p 122.

²– وليام شالر، المصدر السابق، ص 89 - 90.

³– نفسه، ص 89 - 90.

للسلطة ضريبة تُقدر بريالين في الشهر عن كل واحد منهم حسب ما ذكره هابنسترايت في رحلته¹.

وقد تم احترام ثقافتهم وتحديد نشاطاتهم التجارية، وهم يأتون في الدرجة الثانية بعد العبيد المسيحيين من حيث تزويدهم بمياه الينابيع، كما فُرض على كل تجمع سكاني يهودي دفع 1500 دوبلاس في السنة، أي ما يعادل 600 قطعة ذهبية، وكل شخص يدفع حسب إمكانياته، ومع كل هذا فإن هذه الأقلية كانت تتمتع بامتيازات اقتصادية كبيرة في الإيالة الجزائرية، ويُعتبرون من أهم الوسطاء فيما يخص العلاقات الدبلوماسية أو التجارية بين أوروبا والجزائر، كما لعبوا دورا كبيرا في تنشيط عملية شراء وبيع الغنائم².

¹ - ج. أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732م)،

ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م، ص 33.

² - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 66 - 67.

الفصل الثاني:

نشأة وتطور البحرية

الجزائرية خلال العهد العثماني

أولا: ظروف وعوامل نشأة الأسطول الجزائري

1- تمهيد

2- الظروف والعوامل

ثانيا: عتاد الأسطول

1- السفن

2- التجهيزات الحربية

ثالثا: البنية التنظيمية للجيش البحري

1- إدارة البحرية الجزائرية

2- الطاقم المساعد والمرافق للأسطول البحري

أولاً: ظروف وعوامل نشأة الأسطول الجزائري.

1 - تمهيد:

قبل التطرق إلى ذكر ظروف وعوامل نشأة الأسطول الجزائري لابد من أن نقف عند أهم المحطات المهمة التي تُمهّد لهذا الموضوع، ولعل من بينها تعريف الأسطول، فقد عرف لنا محمد ياسين الحموي الأسطول بقوله: "يُقال لمجموع السفن الحربية (الأسطول) وهو لفظ يوناني الأصل يلفظ Stolos. وكان يُطلق أحياناً على المراكب الحربية المجتمعة، وأحياناً على مركب حربي واحد... والأسطولي هو العسكري الذي يعمل في البحر، أما الذي ينتظم في سلك الجيوش البرية فهو الجندي"¹.

أما سعاد ماهر فتُعرف لنا السفينة التي تعتبر الوحدة الرئيسية المكونة للأسطول بأنها: "... السفينة لغة جمعها سفائن وسفن وسفين، وهي الجارية من المراكب الكبيرة، من سفن الشيء سفناً يسفنه أي قشره، وقد سُميت كذلك لقشرها وجه الماء، وصانعها السفان وحرفته السفانة... وتُستمد السفن العربية أسمائها المختلفة من شكل الهيكل، مثل البغلة والقنجة والسنبوق والجهازى، وغيرها من الأسماء... أما في أوروبا فإن أسماء السفن تؤخذ من هيئة معداتها..."².

ويجمع لنا حليم سرحان مختلف الألفاظ التي أطلقت على الأسطول في قوله: "وقد أطلق على مجموع السفن أسطول وهو لفظ يوناني (Stolos) نقل إلى العربية، ويقال له أحياناً عمارة، كما يطلق لفظ أسطول على مجموعة السفن أياً كان نوعها ويطلق على سفينة حربية واحدة،

¹ - محمد ياسين الحموي، تاريخ الأسطول العربي، د. ط، مطبعة الشرقي بدمشق، 1945م، ص 47.

² - سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، د. ط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1967م، ص 166.

كما أنه يعني السفن التي يسافر فيها للقتال، أما الإسبان فيطلقون عليه الأرمادة (Armada)، ويُعرف عند العثمانيين بالدونانمة، كما أُطلقت كلمة (Flotte) بالفرنسية...¹.

وترجع أصول صناعة السفن وركوب البحر إلى عصور زمنية قديمة، فكان أول من صنع السفينة هو نوح عليه السلام بأمر من الله تعالى، ثم توالى صناعة السفن وتطورت معها تقنيات الصناعة وتعددت أنواع السفن من المركبات الصغيرة إلى المركبات الكبيرة، وتعددت غايتها، فمنها من استخدمت للتجارة وأخرى استخدمت للغزو والاستكشاف وبعضها الآخر استخدم للسفر، ولعل أولى الأمم التي اتخذت هذه الغاية وسيلة لها في حياتها العامة، الصوريين والفينيقيين، الذين اكتشفوا من العلوم الرياضية أسراراً متنوعة واخترعوا فنونا شتى ساعدتهم في خوض البحار وساروا إلى أرض اليونان وخليج سبته، ووصلوا إلى أماكن أبعد من ذلك قصد التجارة².

وفيما يخص ركوب البحر عند العرب فإنه مر بمراحل، فقبل الإسلام كانت درايتهم بركوب البحر دراية ضعيفة، خاصة وأنهم يعتمدون في الغالب على التجارة الداخلية عبر الصحراء لذلك كان اهتمامهم ضعيف بركوب البحر، وكانت ثقافتهم بفن الملاحة مرتبطة بما عرفوه عن الدول المتحضرة في ذلك الوقت، فهي ترقى بتحضر تلك الدول وتتحط بانحطاطها³، وذلك أنّ العرب قبل الإسلام كانوا يجهلون ركوب البحر لبدأوتهم، وربما كانوا يخافون البحر ويهابون ركوبه مثل عرب الحجاز⁴، ما عدا بعض المناطق التي كانت ناشطة في هذا المجال خاصة لغرض التجارة، مثل قبائل حمير وسبأ من دول الجنوب، الذين عُرفوا بأنهم أهل للتجارة

¹ - حليم سرحان، "نظرات حول السفن الحربية الجزائرية في العهد العثماني (دراسة هيسطوريوغرافية)"، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة المسيلة، المجلد 05، العدد 09، 28 ديسمبر 2015م، ص 177-178.

² - محمد ياسين الحموي، المرجع السابق، ص 8، 10.

³ - نفسه، ص 8، 10.

⁴ - عبد الفتاح عبادة، سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتھا في الإسلام، د. ط، مطبعة الهلال، مصر، 1913م، ص

برا وبحرا، وكانوا أهل تجارة وملاحة كبيرة، ويتجلى ذلك من خلال مساهمتهم في نقل منتوجات الهند من حلي ومنتوجات زراعية وغيرها إلى المصريين والأشوريين والفينيقيين وغيرهم من عرب الشمال، وذلك عن طريق سفن البحر ثم توزع في أنحاء شبه الجزيرة العربية عن طريق القوافل التجارية عبر البر، ولتسيير ذلك وتنشيط هذه التجارة قاموا بتأسيس العديد من الموانئ على ضفاف شواطئ اليمن ترسو عندها السفن التجارية القادمة من الهند¹.

لكن بعد ظهور الإسلام في شبه الجزيرة العربية تطور مفهوم الملاحة عند العرب وأصبح الاهتمام به أكثر من سابقه، خاصة بعد نزول آيات قرآنية تحثهم على ركوب البحر والاستفادة من منافعه العظيمة²، مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَازِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾³، وكذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁴.

وهذه الآيات تحث المؤمنين وتطلعهم على الثروات الموجودة في البحر من حيتان وحلي ومنافع كثيرة، لذلك بدأ اهتمام المسلمين بركوب البحر يتطور شيئا فشيئا، ففي عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يكن للمسلمين دراية كبيرة بركوب البحر، وهذا ما نلاحظه من خلال الكتاب الذي أرسله عمر بن الخطاب إلى عمر بن العاص رضي الله عنهما بعد فتح مصر، وأمره أن يصف له البحر فأجابه عمر بن العاص بقوله: "يا أمير المؤمنين إن البحر خلق عظيم يركبه خلق ضعيف فهم فيه كدود على عود"، وأمام هذا الوصف المخيف للبحر من طرف عمر بن العاص، أدى بالخليفة عمر بن الخطاب إلى منع المسلمين من ركوب البحر

¹ - محمد ياسين الحموي، المرجع السابق، ص 8، 10.

² - نفسه، ص 8، 10.

³ - سورة النحل، الآية 14.

⁴ - سورة الجاثية، الآية 12.

صيانة للأمة المُحمدية، وامتنعت قریش وسائر القبائل عن ركوبه، غير أن بعض الشعوب الأخرى كأهل مصر كانوا يركبون البحر ويستخدمون سفنهم لأغراض التجارة والحرب¹. ويوضح لنا حسين مؤنس موقف الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قوله: "... نعم إن عمر رفض أن يسمح لمعاوية بالغزو بحرا، ولكنه عهد إليه في تحصين السواحل وجعلها على الأهبة لرد أي عادية على عجل، فوجد المسلمين يضعون نظاما دقيقا لحراسة السواحل، فنقلوا إليها أقواما من القادرين على الحرب، وأقاموهم على السواحل وفي كبار مدنها في معسكرات منظمة معدة..."².

ومع مرور الوقت صارت الأسفار البحرية حرفة نافعة لهم يتوارثونها أبا عن جد، ونظرا لأهمية هذه الأسفار قام أغنياء المسلمين بمشاركة المصريين أصحاب السفن، وصاروا يركبونها تارة للتجارة وتارة أخرى للغزو، فلما بلغ ذلك الخليفة عمر رضي الله عنه تركهم وشأنهم، وهذا راجع إلى تعود العرب لركوب البحر ومعرفتهم لفن الملاحة، وكانوا يتاجرون ويغزون بسفن صغيرة، معتمدين في ذلك على خبرة وخدمات النصارى الماهرين في فن الحرب³.

وفي عهد معاوية تم الإذن للمسلمين بالغزو بحرا، وبهذا الأمر صنع المسلمين سفنا مناسبة واستأجروا رؤساء من النصارى عارفين بأحوال الرياح، فصاروا يسافرون في البحر تارة بالمعدات الحربية للغزو وتارة أخرى بالبضاعة لغرض التجارة، ومن أمثلة ذلك قيام عقبة بن عامر بشن غزوة على جزيرة رودس وأخذ منها غنائم كثيرة. ونظرا لأهمية ركوب البحر ومنافعه الكبيرة التي تعود على المسلمين ونظرا لتوسع رقعة الدولة الإسلامية، أمر عبد الملك بن مروان (646-705م) حسان بن ثابت عامله على إفريقيا بأن يبني دارا للصناعة في تونس، وذلك لصناعة مختلف السفن، وتعتبر هذه الدار أول ترسانة لصناعة السفن في العالم الإسلامي على

¹ - جودت باشا، المصدر السابق، ص 138 وما يليها.

² - حسين مؤنس، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، د. ط، الدار المصرية اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع، د. م، 1993م، ص 89.

³ - جودت باشا، المصدر السابق، ص 139-140.

حد قول جودت باشا، وتم في هذه الدار صناعة أكثر من خمسمائة سفينة خفيفة، وبفضل هذه السفن وغيرها تكوّن للمسلمين أسطولاً كبيراً، ساعدهم في غزو العديد من المناطق، ولعل أشهرها غزوة طارق بن زياد للأندلس وفتحها في سنة 91 هجرية بأمر من موسى بن نصير حاكم إفريقيا، وبعدها ساهمت الأساطيل الإسلامية بتعزيز الفتوحات ومواجهة الأساطيل المسيحية¹. وبعد اكتشاف البوصلة ارتقى فن الملاحة البحرية كثيراً، بحيث أصبح العرب يسافرون إلى الهند والسواحل والجزر البعيدة، وهكذا بدأت تتطور السفن وفنون الملاحة شيئاً فشيئاً إلى أن أصبحت جزءاً أساسياً من الجيش الإسلامي²، وأصبح شغفهم لبناء السفن وركوب البحر كبير جداً نظراً لما فيه من فوائد جمّة، كالسفر والتجارة والمغامرة والاستكشاف وغيرها. ونلاحظ هذا الاهتمام الكبير للعرب بصناعة السفن وركوب البحر من خلال ما قاله عبد الله عروي بحيث ذكر أن: "... اهتمام العرب في إبان تمدنهم بالسفن الحربية وبصناعتها وبتقنهم في بنائها وتقويتها عاد عليهم بالفوائد الجلية والأرباح العظيمة فاتسع نطاق ملكهم ودوخوا الأمم وصدوا غاراتها وسادوا العالم أجيال فمهدوا بحاره لتجارتهم وأسفارهم وسيروا فيها سفنهم العديدة... كانت سفنهم تُعد بالمئات وتحمل بها التجارة إلى أنحاء العالم فطافوا بحاره واكتشفوا طرقاً تجارية مهمة في البحر المحيط والهندي والأحمر لم يسبقهم إليها أحد..."³.

وخلال القرنين الثالث والرابع الهجريين برزت البحرية الإسلامية بشكل كبير وذاع صيتها خاصة في وسط وغرب البحر الأبيض المتوسط، فنجد أنّ المسلمين سجلوا بفتوحاتهم في صقلية ومالطة وجزر البليار وغيرها سيطرتهم على حوض البحر الأبيض المتوسط الأوسط والغربي، ومن بين العوامل التي ساهمت في هذه السيطرة هو تأسيس دور الصناعة في العديد من المناطق مثل الخالصة وبلرم وشنّت ماركو ومالطة وغيرها، بالإضافة إلى إقامة قواعد

¹ - جودت باشا، المصدر السابق، ص 140، 141.

² - نفسه، ص 142.

³ - عبد الفتاح عبادة، المرجع السابق، ص 18.

بحرية في تلك الجزر لشن غاراتهم المتواصلة على سواحل إيطاليا الجنوبية والغربية والشمالية الغربية والشمالية الشرقية وعلى سواحل فرنسا الجنوبية، وتمكنوا في بعض الفترات من الاستيلاء على أجزاء مهمة من شبه جزيرة إيطاليا¹.

ونلاحظ هذا التطور كذلك في الأندلس خاصة في أيام المستنصر بالله (302-366هـ/ 915-976م) الذي ظهر في عهده عددا كبيرا من القادة الأندلسيين، الذين أبدوا نشاطا كبيرا في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، ومنهم عبد الرحمن بن محمد بن رماحس وغالب بن عبد الرحمن، وسعد الجزري وعبد الله بن شعيب، وعبد الله بن رياحين. ثم أنشأ المنصور محمد بن أبي عامر (938-1002م) أسطولا ضخما في قصر أبي دانس، وجهزه برجاله البحريين، وحمل الأقوات والأطعمة والأسلحة، وقد شارك هذا الأسطول في غزو مدينة شنت ياقب في سنة 387هـ، وبفضل هذا الأسطول أغار المسلمون على جزيرة شنت مانكش وغيرها².

وبعد سقوط إمارات الأندلس إمارة تلوى الأخرى بقيت مملكة غرناطة (1238-1492م) تدافع عن مكانتها بالأندلس، وتعتبر هذه المملكة دولة بحرية من دول البحر الأبيض المتوسط، ولقد ظلت عامرة بالأساطيل ودور الصناعة، وبرز في هذه البلاد العديد من القادة المهرة الذين تولوا قيادة الأسطول الغرناطي، ومن بينهم بنو الرنداحي في ألمرية مثل أبي العباس الرنداحي وأبو علي الرنداحي وغيرهم، ومن بين القادة الذين تولوا قيادة الأسطول الغرناطي عبد الله محمد بن سلبطور الهاشمي. ورغم المشاكل التي كانت تمر بها غرناطة من الداخل ومن الخارج إلا أنها كانت تمتلك قوة بحرية منظمة قادرة على حماية سواحلها وتجارها، ومع هذا لم تكن قوية بما يكفي عند مقارنتها بجيرانها الذين يتفوقون عليها عدة وعددا مثل أراغون وقشتالة والبرتغال والمغرب³.

¹ عبد العزيز سالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، د. ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1969م، ص 129.

² نفسه، ص 187-188.

³ نفسه، ص 302، 309.

وبالنسبة للمغرب العربي بشكل عام نجد أنه بعد فترة الازدهار خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين شهد منذ نهاية القرن العاشر الميلادي وبداية القرن الحادي عشر الميلادي الضعف والفتور وتزايد النفوذ المسيحي في البحر المتوسط على حساب الحضور الإسلامي عموماً، وبدأ التدهور في النشاط البحري الإسلامي يتراجع يوماً بعد يوم، وخاصة بعد فقدان جزر البحر الأبيض المتوسط مثل صقلية ومالطة، وظل هذا الانحطاط خاصة بعد سقوط دولة الموحدين سنة 1269م، وانقسام المغرب العربي إلى دويلات صغيرة متناحرة فيما بينها، فظهرت الدولة الحفصية في المغرب الأدنى (بتونس) والدولة الزيانية بالمغرب الأوسط (الجزائر) والدولة المرينية بالمغرب الأقصى، وهذا الصراع والانحطاط فتح المجال للقوى الأوروبية من أجل السيطرة على البحر الأبيض المتوسط، وعلى سواحل المغرب العربي خاصة بعد سقوط غرناطة سنة 1492م¹.

والمغرب الأوسط كغيره من دول المغرب العربي عرف تطوراً في فن الملاحة على مر الدويلات التي تعاقبت على حكمه، إلى أن أصبح قوة لا يستهان بها في البلاد العربية، وأصبح خلال الوجود العثماني بالجزائر سيد الحوض الغربي للبحر المتوسط أو البحر الأبيض المتوسط بشكل عام، وهو ما يؤكد ابن شنهو في قوله: "... لعبت الملاحة الجزائرية دوراً هاماً جداً في ذلك العهد² وربما لم تدركه دولة أخرى فيما قبل. وأبدى الجزائريون مهارة عظيمة في الملاحة حتى أصبحوا لا يغلبهم أحد في حروب البحر واتخذوا لهم المراسي الأحسن مناعة في الساحل الجزائري والتونسي من جربة إلى قرب مستغانم وأخذوا يغيرون على البلاد المسيحية..."³.

¹ - إبراهيم سعيود، "القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية نموذجاً"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، الجزائر، المجلد 04، العدد 11، 30 جوان 2011م، ص 146 - 147.

² - يقصد به العهد العثماني 1519 - 1830م.

³ - عبد الحميد بن زيان بن شنهو، المرجع السابق، ص 97، 99.

2- الظروف والعوامل:

إنَّ الأسطول الجزائري لم يكن وليد الوجود العثماني فحسب بل له تاريخ حافل وعريق منذ فترات زمنية طويلة، ولكن نجد أنَّه قد برز للوجود بعد انضواء الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية سنة 1519م، وأصبح قوة لا يستهان بها، بل أصبحت الدول الأوروبية تهابه وتخشى مواجهته، وقد شكل القاعدة الأساسية لقوة البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني والتي وصفها مولود قاسم نايت بلقاسم في قوله: "إنها البحرية، التي يجمع المؤرخون الأوروبيون والأمريكان على أنها كانت منظمة أحسن تنظيم، زيادة على شجاعة أهلها"¹.

وهذه القوة البحرية الجزائرية لم تأت من فراغ، ولم تكن مجرد أسطورة كأساطير القدماء، بل كانت قوة فعلية أرخ لها المؤرخون وانبهر بها الأعداء قبل الأصدقاء، ولنكن صريحين مع أنفسنا أنَّ المكانة التي وصلت لها البحرية الجزائرية كانت بفضل دعم الدولة العثمانية ومساندتها ماديا ومعنويا خاصة في البدايات الأولى لتشكل الإيالة الجزائرية، دون أن ننسى الدور البارز الذي لعبه الإخوة بربروس وخلفائهم في هذا الجانب، بالإضافة إلى الفئات الأخرى التي ساهمت بشكل كبير في إبراز الدور الريادي لهذه البحرية، التي أصبحت أعجوبة زمانها إن صح التعبير، لا سيما وأنها وصلت إلى مكانة قوية جدا في ظرف وجيز رغم الصعوبات التي كانت تواجه الإيالة الجزائرية داخليا وخارجيا.

ومما لا شك فيه أن هذا الدور الريادي للبحرية الجزائرية جاء نتيجة إحساس مسؤولي الإيالة الجزائرية بمهمة حماية سواحل بلادهم التي تعرضت للهجمات الإسبانية مع بداية القرن السادس عشر الميلادي. وقبل ذلك كان على عاتق خير الدين بربروس الذي كان له الشرف في ربط الجزائر بالدولة العثمانية تنظيم البحرية الجزائرية والسير بها قدما لتحقيق آمال الشعب الجزائري وكل الشعوب الإسلامية المساندة له، لذلك استعان خير الدين بربروس وخلفاؤه من

¹ - مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج 1، ط 2، دار الأمة، الجزائر، 2007م، ص 69.

بعده بالدولة العثمانية من أجل بناء النواة الأولى للأسطول البحري الجزائري، فبعدما كان يضم أربع قطع بحرية فقط، تم تدعيمه فيما بعد بقطع أخرى، وهو ما جعله يتطور ويُصبح من أقوى الأساطيل في البحر الأبيض المتوسط¹ في العصر الحديث. ويمكن إيجاز الأسباب والعوامل الرئيسية لظهور وبروز البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني في النقاط التالية:

- التحرشات الإسبانية على سواحل بلاد المغرب الأوسط، الذي انجر عنها انحصار التجارة الجزائرية وفقدان العديد من الموانئ المهمة على الشريط الساحلي، بالإضافة إلى تدهور الحياة الاجتماعية والسياسية، مما فتح المجال لبروز الصراعات السياسية والانقسامات الداخلية.

- ممارسة الجهاد البحري، وذلك بُغية تتبع سفن القراصنة المسيحيين والحصول على الغنائم والأسرى².

- الظروف الدولية المتمثلة في التنافس بين الدول الأوروبية، وما صاحبها من توترات وصراعات، مثل توتر العلاقات بين فرنسوا الأول ملك فرنسا والإمبراطور شارلكان عاهل إسبانيا وجرمانيا، بالإضافة إلى التنافس الهولندي - الفرنسي - الإنجليزي لاكتساب المستعمرات والسيطرة على التجارة العالمية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر الميلاديين³.

- الإيمان بحق الدفاع عن دار الإسلام بعد انهيار الأندلس وحلول الإسبان بالسواحل الجزائرية، ولا يكون ذلك إلا بتأسيس جيش قوي ومتطور خاصة الجيش البحري الذي أسندت إليه مهمة مواجهة الأساطيل الأوروبية وردعها⁴.

¹ مجهول، "الأسطول البحري الجزائري"، موقع شبكة بحوث وتقارير ومعلومات، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 24 - 11 - 2021م، مُتاح على الرابط التالي: <https://arbyy.com/detail1316779123.html>

² محمد ابنسعيدان، "الأسطول البحري ودوره في إيالة الجزائر خلال القرن 11هـ / 17م"، مجلة قضايا تاريخية، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر، المجلد 02، العدد 07، 2017م، ص 103.

³ حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط 1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2007م، ص 45.

⁴ يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500 - 1830، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م، ص 24.

- ويمكن إرجاع قوة وبروز الأسطول الجزائري خلال العهد العثماني إلى عدة عوامل ساهمت بشكل كبير في وصوله إلى هذه المكانة، ومن بينها نذكر:
- الموقع الجغرافي للجزائر المتميز وطبيعة سواحلها المفتوحة على البلدان الأوروبية، بالإضافة إلى طول الشريط الساحلي الذي يمتد على مسافة 1200 كلم، ما جعلها من أهم الدول المتحكمة في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط طيلة ثلاثة قرون، بالإضافة إلى دورها البارز في توجيه محور الصراع بين دول ضفتي البحر الأبيض المتوسط شمالا وجنوبا¹.
 - تضاريس مدينة الجزائر التي تطل على البحر وتوجد بها مرتفعات كثيرة، ومنحدرات شديدة الانحدار، بالإضافة إلى سهل ساحلي ضيق وشواطئ رملية واسعة مواتية للهبوط. كما توجد بها سلسلة من الحصون المنتشرة في جميع أنحاء المدن الساحلية الجزائرية وخاصة مدينة الجزائر، والتي تشكل قوة دفاعية يصعب على سفن الأعداء من السيطرة عليها².
 - تجنيد الأوروبيين المعروفين بالأعلاج في البحرية الجزائرية، وقد وصل عدد منهم إلى مراتب قيادية متقدمة، بعد اعتناقهم الدين الإسلامي وارتباطهم بالإيالة الجزائرية رغم اختلاف أصولهم وأعراقهم، ونجد منهم الكورسيكيون والإغريق والإسبان والمايورقيون والفرنسيون والإنجليز وغيرهم، حيث شكلوا ثلثي الشخصيات القيادية في الأسطول الجزائري، وقد كان لهم دور كبير على مستوى الأسطول البحري الجزائري³.
 - مشاركة المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية ودعمهم لنشاطها، من خلال صقل تجاربهم وخبراتهم في مختلف مؤسسات البحرية، هذا بالإضافة إلى تطوعهم لركوب البحر بُغية

¹ - حنفي هلايلي، "التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، المجلد 22، العدد 02، 15 ديسمبر 2007م، ص 255-256.

² - Safia Benselama-Messikh, "Les fortifications ottomanes d'Alger (1516-1830)", site Web Hal open science, Publié le 26-10-2016, Accédé le 02-01-2022, Citation du lien suivant: <https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-01309755>

³ - طارق عزيز فرحاني، "البحرية الجزائرية خلال الفترة العثمانية (1518-1830م)"، يومية أقلام الوسط (إلكترونية)، تم الاطلاع عليها بتاريخ: 01-01-2022م، مُتاح على الرابط التالي: <https://cutt.us/pvQEp>

مواجهة سفن النصارى وبالأخص السفن الإسبانية، نظرا لما عانوه على يد هؤلاء المسيحيين في إسبانيا من تشرد وظلم وتهجير.

- وجود العديد من البحارة البارزين الذين كان لهم شأن كبير في نشأة وتطوير الأسطول الجزائري طيلة العهد العثماني، وكانت لهم حنكة ودراية كبيرة في تسيير الأسطول ومواجهة الأعداء، بالإضافة إلى فرض شخصيتهم في البحرية الجزائرية نظرا لما حققوه من إنجازات عسكرية وحتى اقتصادية واجتماعية على مستوى الأسطول الجزائري، فبالإضافة إلى مؤسسي البحرية الجزائرية العثمانية الأخوين عروج وخير الدين بربروس، سطع نجم العديد من الرياس وذاع صيتهم داخل الإيالة الجزائرية وخارجها، أمثال صالح رايس وعلي والرياس علي بتشيني والرياس حميدو والرياس عمر والرياس محمد والرياس مصطفى وغيرهم كثير¹.

- دعم الدولة العثمانية للبحرية الجزائرية بالرجال والعتاد ومساندتها في حروبها البحرية باعتبارها ولاية عثمانية تابعة لها خاصة في الفترات الأولى من الحكم العثماني للجزائر.

لكن هذه الريادة التي حضي بها الأسطول الجزائري لم تمش على نسق واحد بل كانت تتخللها فترات من الضعف والتراجع خاصة في السنوات الأخيرة من الوجود العثماني بالجزائر، فنلاحظ تلك الريادة خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين لتتراجع تدريجيا خلال القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر، وتتطفا فلولها في النهاية مع الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830م.

ونلاحظ أيضا أنّ البحرية الجزائرية تراجعت قوتها ونفوذها بشكل جلي بعد معركة نافارين سنة 1827م، وخلال الحصار الفرنسي على الجزائر بين سنتي 1827م و1830م، وهو ما أدى إلى تحطم معظم قطع البحرية الجزائرية، فعند استيلاء الفرنسيين على مدينة الجزائر سنة 1830م لم يجدوا سوى 35 قاربا صغيرا وثلاث قاليوطات على وشك صناعتها، و2500 بحار

¹ - يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500 - 1830، المرجع السابق، ص 24.

أغلبهم غير قادر على ركوب البحر ومواجهة الأعداء¹. وهذا الانحصر والتراجع في الأسطول البحري الجزائري يعود إلى الأسباب التالية²:

- الخسائر الفادحة التي لحقت بالأسطول الجزائري نتيجة الحملات الأوروبية على سواحل مدينة الجزائر، خاصة الحملات الإسبانية سنوات 1775م و1783م و1784م، وكذلك حملة اللورد إكسماوث على مدينة الجزائر سنة 1816م، والذي ألحق خسائر فادحة بالسفن الجزائرية المتواجدة بالميناء.

- مساعدة الأسطول الجزائري للأسطول العثماني في حروبه البحرية خاصة ضد روسيا واليونان، بالإضافة إلى إبرام الجزائر معاهدات السلم مع العديد من الدول الأوروبية والذي من شأنه قلل حركة الجهاد البحري.

- تراجع الأسطول الجزائري مقارنة بالأسطول الأوروبي الذي شهد تطورا كبيرا في المعدات الحربية، خاصة أثناء القرن التاسع عشر نتيجة الثورة الصناعية التي تولد عنها ظهور السفن البخارية سنة 1807م، عكس السفن الجزائرية التي بقيت تراوح شكلها التقليدي.

ثانيا: عتاد الأسطول:

كانت البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني تتكون من العديد من القطع البحرية، وكان يزداد تعدادها من سنة إلى أخرى، إلى غاية حلول القرن التاسع عشر أين بدأت تتراجع نظرا للظروف الدولية المحيطة بها، كتراجع الصناعة المحلية على حساب الصناعة الأوروبية، وكذلك الحملات الأوروبية على الجزائر التي دمرت معظم وحداتها، وكان مصدر القطع البحرية في الجزائر يرجع إلى عدة ينابيع، والتي هي في الأساس تكونت من القطع المصنوعة محليا والقطع التي تُشترى من الخارج أو يتم مصادرتها أثناء عمليات الجهاد البحري، أو التي كانت

¹ ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العثماني، د. ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م، ص 45-46.

² حليم سرحان، "نظرات حول السفن الحربية الجزائرية في العهد العثماني (دراسة هيستوريوغرافية)"، المرجع السابق، ص 180.

تُقدم عن طريق الإتاوات والهدايا من الدول الأوروبية وأمريكا، وكذلك السفن التي كانت تُقدمها الدولة العثمانية للجزائر نظير الاتفاقيات والمعاهدات الثنائية¹، خاصة وأنّ الجزائر كانت تابعة للباب العالي.

وقد شكل موضوع التجهيز الحربي للأسطول الجزائري خلال العهد العثماني محور اهتمام كبير لدى السلطة آنذاك، وذلك لدرايتهم بمدى أهمية تكوين أسطول قوي ومتماسك في جميع الجوانب نظرا للظروف الدولية المحيطة بهم ونظرا للأهداف المتوخاة منهم تحقيقها، فلا يمكن أبدا تحرير كل السواحل الجزائرية أو حتى بعضها من الاحتلال الإسباني باستخدام أسطول صغير أو قليل التجهيز.

وتماشيا مع هذه الغاية ركزت الإيالة الجزائرية على الصناعة بمختلف أشكالها وبالخصوص الصناعة العسكرية منها لما تقتضيه من أهمية كبيرة نظرا للأوضاع التي كانت سائدة في تلك الفترة والتي ميزتها الصراعات والحروب المستمرة، فكان واجبا عليها الاهتمام بهذه الصناعة وتوسيعها من أجل بناء أسطول قوي يجوب البحار ويواجه الأعداء، ومن بين أهم الصناعات العسكرية نجد صناعة السفن وصيانتها، وصناعة الأسلحة وما يتعلق بها، بالإضافة إلى مختلف المعدات الأخرى اللازمة للسفن أو للأسطول البحري بشكل عام. ومن بين أهم المعدات المكونة للبحرية الجزائرية نذكر ما يلي:

1- السفن:

تُعتبر صناعة السفن وتجهيزها من أهم وأبرز الصناعات في الجزائر خلال العهد العثماني، نظرا لأهميتها ومدى انعكاسها على قوة البحرية الجزائرية، وارتكزت هذه الصناعة على عاملين أساسيين هما: عامل السرعة في البحر بحيث كانت الأولوية للوحدات السريعة القادرة على الكر والفر، وعامل الخفة وذلك باستخدامهم المراكب الخفيفة وتجنب المراكب

¹ - حليم سرحان، "صناعة السفن الحربية بالجزائر في العهد العثماني من خلال المخطوطات"، المجلة المغربية للمخطوطات، جامعة الجزائر 02، الجزائر، المجلد 07، العدد 01، 30 ديسمبر 2011م، ص 51-52.

الفخمة البطيئة التي لا تصلح للمعارك البحرية نظرا لصعوبة تحركها، ولهذا الغرض استخدموا الغليون والغليظة والغليرة والشباك، لأن هذه الأنواع صغيرة الحجم وخفيفة الوزن¹، بالإضافة إلى هذه الميزة اشتهرت كذلك معظم المراكب الجزائرية بأنها منخفضة من حيث حجمها، لكي لا يمكن اكتشافها في البحر بكل سهولة، وهذه الميزات جعلت من المراكب الجزائرية تُعتبر من أقوى المراكب في البحر المتوسط حتى أنها تفوقت على المراكب الأوروبية حسب ما ذكره المؤرخون الغربيون أنفسهم، وهو ما يتضح جليا في تفوق البحرية الجزائرية في معظم معاركها وقلما تهزم². مثل ما حدث للأدميرال الإنجليزي ناربروك Narberouc الذي قام بالهجوم على الساحل الجزائري على أمل الحصول على تلك المراكب الجزائرية الخفيفة، لكنه فشل في ذلك ولم يستطع إلحاق أي ضرر يذكر بالسفن الجزائرية، والسبب في ذلك يرجع إلى دقة تصميم السفن وخفة حجمها وسلاسة إبحارها مما جعلها تفر بسرعة من العدو دون اللحاق بها³.

وهذه الميزة أي ميزة السفن المنخفضة التي لها القدرة على الإبحار ومواجهة الأعداء خاضعة لشرط هام وهو قدرتها على مقاومة المياه، وهذا راجع بالأساس إلى استخدام الدهن الجيد، من خلال طلي هيكل السفينة الخارجي بالشحم والقطران، بحيث يصير الغلاف أملسا ومصقولا، بالإضافة إلى مهارة الجرافين وانضباطهم⁴.

بينما ترى كورين شوفالييه أنّ السفن الجزائرية خلال العهد العثماني كانت "قليلة الفعالية لأنها كانت على العموم أكثر انخفاضا فوق الماء من تلك التي يريدون اقتناصها، إلى درجة

¹ - مولاي بلحميسي، "صناعة السفن في الجزائر أيام الأتراك (ق. 16 - 19)"، مجلة الدراسات الأثرية، جامعة الجزائر 02، المجلد 02، العدد 03، 10 نوفمبر 1995م، ص 48 - 49.

² - مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 3، د. ط، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د. ت، ص 126.

³ - Moulay Belhamissi, **marine et marins D'Alger (1518- 1830)**, T 1, bibliothèque nationale d'Algerie, Alger, 1996, p 63.

⁴ - حليم سرحان، "صناعة السفن الحربية بالجزائر في العهد العثماني من خلال المخطوطات"، المرجع السابق، ص 61.

أن ظهر السفينة كان دائما مبللا بلجج البحر...¹. وعلى العكس من ذلك يرى عزيز سامح ألتز أن الجزائريين قد أعطوا "... أهمية كبرى لسفنهم، وعملوا باستمرار على تطويرها وتنظيمها، واعتمدوا في معظم حروبهم على الكادرات، فالأضرار التي ألحقها الرياس بأعداء تركيا، يصعب بل يستحيل تقديرها أو حساب النتائج التي ترتبت عنها...².

وبين هذا وذاك يُمكن القول أن المراكب الجزائرية كانت مراكب راقية وفي المستوى المطلوب في ذلك الوقت، خاصة وأنها اجتمعت فيها ميزتي الخفة والسرعة، وهذان الميزتان هما المطلوبتان في ركوب البحر وهما الفيصلان بالإضافة إلى قوة الأسلحة وحسن التخطيط في حسم المعارك البحرية والتفوق فيها. ومن بين أحسن الأوصاف التي أطلقت على السفن الجزائرية وصف الأب دان الذي يذكر بأنها كالنسور المحلقة بأجنحتها البيضاء، التي تسبق الريح في سيرها على ظهر الأمواج.³

ومن حيث عدد الوحدات التي كانت مكونة للأسطول الجزائري فإنه قد بلغت سنة 1510م خمسة وأربعين سفينة، وبحلول سنة 1531م أصبح يضم الأسطول ستين سفينة، وفي سنة 1553م خرج صالح باشا بحوالي أربعين قطعة لغزو البرتغال، كما أنه جهز أسطولا صغيرا مكون من ثلاثين سفينة أهبة لتحرير وهران من يد الإسبان سنة 1556م، أما في سنة 1563م بلغت القطع الراسية في الميناء اثنتين وثلاثين قطعة أغلبها شواني، وقد تطور الأسطول الجزائري في عهد قيلج علي حتى أصبح يتكون من ستين شانية شاركت جميعها في معركة ليبانت سنة 1571م.⁴

¹ - كورين شوفالبيه، المرجع السابق، ص 51.

² - عزيز سامح ألتز، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م، ص 149.

³ - حليم سرحان، "صناعة السفن الحربية بالجزائر في العهد العثماني من خلال المخطوطات"، المرجع السابق، ص 61.

⁴ - حليم سرحان، "تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين (920-1246هـ) (1514-1830م) من خلال المصادر التاريخية والأثرية"، رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 2008م، ص 118-119.

وحسب عزيز سامح أَلتر فإنَّ عدد السفن التي كانت عاملة بالأسطول الجزائري سنة 1580م قد بلغت خمسا وثلاثين قادرغة وخمسا وعشرين فرقاطة بالإضافة إلى عدد من السفن الأخرى¹. وهو نفس الرقم الذي ذكره مولاي بلحميسي ولكن في السنة الموالية أي في سنة 1581م، وبعد سبع سنوات من هذا التاريخ كان يمتلك الأسطول الجزائري خمسة وثلاثين من القوادم العاملة في البحرية².

ويذكر جون ب وولف أنَّ أسطول البحارة الجزائريين خلال القرن السادس عشر كان يتألف من غليونيات مدفوعة بالمجاديف ومن سفن ابريقية ومن فرقاطات وكذلك الشبيكات وغيرها من السفن الأصغر حجما، واستمر استخدام هذا النوع من السفن التي تقودها المجاديف إلى نهاية القرن الثامن عشر، ومنذ سنة 1600م أصبح البحارة الجزائريين يستخدمون السفن المسماة بالبرتون Bertone وغيرها من أنواع السفن الأخرى المعروفة بالمستديرة³، وفي سنة 1612م قُدر عدد السفن العاملة بحوالي سبعين سفينة من مختلف الأحجام، وبحلول سنة 1624م وصل تعداد القطع البحرية إلى أكثر من مائة وستين قطعة بحرية⁴.

ويُعتبر القرن السابع عشر قرن التطور والازدهار للبحرية الجزائرية، ونلمس هذا الجانب من خلال ما ذكره جون ب وولف في كتابه المُترجم الجزائر وأوروبا بحيث قال: "... وخلال العقد التالي، أي عشرية الأربعين من القرن السابع عشر، ربما يكون أسطول البحارة - القراصنة قد وصل إلى أقصى تطوره، فقد كان الجزائريون عندئذ يجوبون البحر الأبيض، من البحر الأدرياتيكي إلى مضائق جبل طارق، بل إنهم اجتازوه إلى المحيط الأطلسي واتخذوا من جزر

¹ - عزيز سامح أَلتر، المرجع السابق، ص 149.

² - Moulay Belhamissi, marine et marins D'Alger (1518- 1830), T 1, op. cit, p 93.

³ - جون. ب. وولف، الجزائر وأوروبا 1500- 1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، طبعة خاصة، دار الرائد، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص 184- 185.

⁴ - حليم سرحان، "نظرات حول السفن الحربية الجزائرية في العهد العثماني (دراسة هيستوريوغرافية)"، المرجع السابق، ص 179.

الكناري منطلقا في اتجاه شواطئ الصيد لنيوفاوندلاند Newfoundland. وقد نزلوا في أراضي إيرلندا وإنكلترا والدنمارك والبرتغال وإسبانيا وأخذوا منها الأسرى والغنائم. لقد أصبح الأسطول الجزائري عندئذ بعيدا كل البعد في حجمه عن تلك القطعة الصغيرة من السفن التي أحضرها عروج في فاتح القرن السابق"¹.

ويؤكد هذا القول مولاي بلحميسي في قوله: "كان العصر الذهبي لهذه البحرية بلا شك خلال القرن السابع عشر أو على الأقل الأرباع الثلاثة الأولى منه. بحيث كانت هذه الفترة فترة ازدهار هذه القوة الهائلة. ولم يتوان المسافرون الأوروبيون والقساوسة والدبلوماسيون عن ذكر ذلك..."².

وفي سنة 1738م انخفض عدد سفن الأسطول إلى ست بواخر مسلحة³، ويلاحظ كذلك استغناؤه عن قاذفات الحجارة نظرا للتطور الحاصل في البحرية الأوروبية والأمريكية، كما تقلص عدد المدافع في السفينة الواحدة بحيث أصبح يتراوح بين ستة وثلاثة وعشرين مدفعا⁴. بالإضافة إلى ذلك تراجع عدد البحارة إلى 5300 بحار سنة 1769م، لكن نلاحظ أنه قد تحسنت أوضاع البحرية بعض الشيء في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر الميلادي، نتيجة انشغال الدول الأوروبية بالثورة الفرنسية وغزوات نابليون، بالإضافة إلى ظهور بعض البحارة المشهورين مثل الرايس حميدو⁵، الذين كان لهم دور في

¹ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 186.

² - Moulay Belhamissi, marine et marins D'Alger (1518- 1830), T 1 op. cit, p 94.

³ - ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 45.

⁴ - حليم سرحان، "نظرات حول السفن الحربية الجزائرية في العهد العثماني (دراسة هيستوريوغرافية)"، المرجع السابق، ص 179.

⁵ - الرايس حميدو هو بحار جزائري الأصل - بعض المراجع تذكر أن له أصول أندلسية - وُلد بمدينة الجزائر سنة 1770م، وقد حاول أبويه الذي كان خياطا أن يعلمه حرفة الخياطة عندما وصل إلى عمر 10 سنوات، وتنفيذا لذلك قام باصطحابه إلى أشهر الخياطين في مدينة الجزائر، لكنه كان يغيب كثيرا عن ورشة الخياطة ويتوجه إلى البحارة العائدين من الرحلات البحرية، بحيث كان يجالسهم ويستمتع لرواياتهم ومغامراتهم، فأعجب بعملهم وترك حرفة الخياطة ليتجه نحو ركوب البحر، فاشتغل في =

هذا التطور الملحوظ للأسطول الجزائري، ولهذه العوامل ارتفع عدد القطع البحرية للأسطول الجزائري إلى 41 قطعة بحرية مختلفة الأشكال وذلك سنة 1815م، والتي منها 5 فرقاطات و4 قليوبات، وبريك واحد وبارجة وغيرها من القطع الأخرى، ولكن بعد حملة اللورد إكسموث على الجزائر سنة 1816م تراجعت قوة البحرية الجزائرية، وهذا بسبب الخسائر التي خلفتها هذه الحملة، فقد أحرقت أغلب السفن ودمرت جزءا من مرسى الجزائر وقتل 1500 من السكان وأطلق سراح كل الأسرى، وقُدرت الخسائر في مجموعها بـ 1015625 جنيه إسترليني¹. ورغم محاولات تجديد الأسطول والمتمثلة في شراء بعض السفن أو بناء سفن أخرى، بالإضافة إلى المساعدات التي تلقتها البحرية الجزائرية من طرف الباب العالي وسلطان المغرب الأقصى وباشا طرابلس، والتي تمثلت في إمدادهم بالسفن الحربية²، إلا أنّ قوة البحرية الجزائرية بقيت متواضعة، فقدر عدد قطع الأسطول سنة 1825م بـ 14 قطعة، منها 3 فرقاطات و5 قليوبات وبولاكر واحد وشباك واحد و2 حراقتين وبعض الزوارق الصغيرة³. ويحصى لنا وليام شالر عدد السفن الحربية المتواجدة في الجزائر خلال هذه السنة فيما يلي⁴:

=البداية بحارا في سفينة أحد القراصنة، وشيئا فشيئا بدأ يتعلم مهنة ركوب البحر ويزداد خبرة وهو ما أهله ليكون بحار متمكن، وقام بالعديد من العمليات العسكرية البحرية، والتي منها المعركة التي شنّها ضد السفن الأمريكية سنة 1793م، واستطاع من خلالها أن يستولي على سفنها وغنم منها الكثير من الغنائم والأسرى، وهذه المعركة زادت من شهرته، ونظرا لأدائه المتميز قام الداي حسن بن حسين (1791-1798م) باستدعائه إلى ديوانه وأسند له رئاسة مركب من المراكب الضخمة التي تدعى الشباك تاركا له الحرية المطلقة في ارتياد أي جهة من البحر يفضلها، وقام بالعديد من المعارك والتي نجح في معظمها، والتي أكسبته شهرة كبيرة في أوساط مختلف الأساطيل البحرية، وبعد مشوار طويل ضمن العمل البحري في البحرية الجزائرية استشهد بعد المعركة التي خاضها ضد الأسطول الأمريكي سنة 1815م، وكانت نهايته أليمة بعدما تعرض لضربة قوية من قذيفة مدفع قسمته إلى نصفين. ينظر: رشيدة سباك، "الرايس حميدو (1770-1815) وإنجازاته العسكرية"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري، المجلد 04، العدد 01، 21 فيفري 2022م، ص 56، 60.

¹ ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 45-46.

² وليام شالر، المصدر السابق، ص 62.

³ ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 45-46.

⁴ وليام شالر، المصدر السابق، ص 69-70.

- بارجة وتتطوي تحتها: سفينة مفتاح الجياحه ذات 62 مدفعا، ابن الحواس ذات 50 مدفعا، نفر إسكندر ذات 36 مدفعا.
 - حراقة وتتطوي تحتها: مظهر اسطيفسي ذات 36 مدفعا، فاسية ذات 46 مدفعا.
 - سفينة ذات ثلاث صواري وتتطوي تحتها: نعمة خودة ذات 18 مدفعا، موجراس ذات 16 مدفعا.
 - سكونة (ذات صاريتين) وتتطوي تحتها: فضل الإسلام ذات 24 مدفعا، جيارن ذات 14 مدفعا، طونعردة ذات 14 مدفعا، ثورية بدون مدافع، سياد داريا بدون مدافع.
 - بولاكر (مربعة الأشرعة) وتتطوي تحتها: زاغزا ذات 20 مدفعا.
 - اكسيبيكس (ثلاثية الصواري) وتتطوي تحتها: ميورقة ذات 10 مدافع.
 - إضافة إلى هذا يوجد ثلاث سفن من نوع سكونات في طريقها للبناء في أحواض بناء السفن الجزائرية، و35 زورقا حربيا من الحجم العادي.
- وعلى مر ثلاثة قرون من الزمن كانت البحرية الجزائرية تمتلك العديد من أنواع السفن، واشتهر منها كثير من المراكب الحربية مثل: ديك الحصن، والجناح الأخضر، والحظ السعيد، والظافر ونصر الإسلام والثريا وحامي الديوان، وطريق الخلاص وهول البحر والغزالة ومفتاح الجهاد ونفير الإسكندر¹ وغيرها، هذه تسميات كان يُطلقها الجزائريون على سفنهم، أما الأوروبيون فقد أطلقوا على السفن الجزائرية تسميات أخرى مستندين في ذلك على الصور التي تُرسم أو توضع في الجزء الخلفي من ظهر السفن الجزائرية، ومن بين تلك الأسماء نذكر: الأسد، شجرة البرتقال، النجوم السبعة، شجرة الصنوبر، الوردة الحمراء، الشمس الذهبية²، الزهرة الذهبية، الغزلان الكبيرة³، وغيرها من التسميات الأخرى.

¹ يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، المرجع السابق، ص 24.

² جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 186.

³ - Moulay Belhamissi, marine et marins D'Alger (1518- 1830), T 1, op. cit, p 107.

أ- أنواعها:

هناك العديد من أنواع السفن التي كانت مكونة للأسطول الجزائري خلال العهد العثماني، وسنحاول في الصفحات التالية ذكر أهمها وأشهرها، ولعل من أهمها نذكر:

- **الجفن:** هي سفينة كبيرة وبطيئة الحركة، وهي أشبه بالقصعة أي سفينة دائرية¹، ويُعرفها درويش النخيلي بأنها: "... أشبه شيء بالقصعة، وبذلك تتحد أبعادها، فهي سفينة دائرية. والجفنة من سفن الغزو والحرب..."². واستخدمت في شمال أوروبا منذ القرن 11م وفي البحر المتوسط منذ سنة 1218م، وكانت من أشهر المراكب البحرية في العصور الوسطى، وقد قُدرت حمولتها بمائتي طن³، وهناك من تصل حمولتها إلى ألف وخمسمائة طن، وعدد بحارتها

¹ - حليم سرحان، "نظرات حول السفن الحربية الجزائرية في العهد العثماني (دراسة هيستوريوغرافية)"، المرجع السابق، ص 182.

² - درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، د. ط، مطابع الأهرام التجارية، مصر، 1970م، ص 23.

³ - يمكن القول أن الموازين في العهد العثماني تختلف عن الموازين المتعامل بها حالياً، فلا يعني أن الرطل أو القنطار أو الطن هو نفسه في الوقت الحاضر، ففي الوقت الحالي يقدر القنطار ب 100 كغ، أما كيل القنطار في العهد العثماني يختلف عليه، وفي نفس الوقت لا يوجد ميزان موحد للقنطار في تلك الفترة، وتختلف موازين القنطار من حالة لأخرى، فهناك القنطار العطارى الذي يساوي 54.608 كغ، والذي يستخدم عند العطارين أو باعة التوابل وما يتعلق بها، وهناك القنطار الخضاري الذي يساوي 61.434 كغ، وهذا مخصص لكيل الخضار والفواكه والخبز وغيرها، وهناك القنطار الكبير الذي يساوي 92.151 كغ وهو مخصص للأوزان الثقيلة، وهذه الأرقام ليست مضبوطة في كل وقت ولا في كل مكان وإنما تختلف سواء بالزيادة أو النقصان من مكان لآخر ومن فترة لأخرى، لهذا من الصعب تقدير الرقم الحقيقي لأنواع الكيل والتي منها المكايل التي تستخدم في وزن حمولة السفن ومعدات، فهناك من المؤرخين من يذكر أن القنطار العادي الذي استخدم في مدينة الجزائر كان يساوي 133 رطلا مرسيليا، وهناك من يذكر أن القنطار كان له نوعين الصغير والكبير، ويتراوح كيله بين 100 و 150 رطلا حسب كل نوع، وربما يكون مقدار القنطار الذي تقدر به حمولة السفن ومعدات يتراوح بين 100 و 150 رطلا، وربما يزيد على ذلك بقليل مثل ما وضعه أونال تاسكين الذي أعطى لنا معلومات مهمة حول المكايل في الجزائر خلال العهد العثماني، بحيث ذكر أن مقدار القنطار الذي يوزن به الحديد والقصدير يساوي 81.075 كغ، ومن المرجح أن يكون هذا المقياس هو نفسه الذي يستخدم لحساب حمولة السفن خاصة المعدات الثقيلة، أما المعدات الأخرى كالخضر واللحوم والعسل فلها أوزان أخرى متقاربة فيما بينها كما ذكرنا ذلك آنفا. يُنظر: جميلة شرفي، ودان بوغفالة، "الأسواق في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني (1519 - 1830)"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، الجزائر، المجلد 08، العدد 01، جوان 2017م، ص 138 - 139. ويُنظر أيضا: =

يصل إلى مائة بحار. وقد ساهم عروج وأخيه خير الدين بربروس بصناعة هذا النوع من السفن في الجزائر، في حين قام القرصان الهولندي سيمون دي دانسر بجعل الأجفان أكثر استدارة ومتانة من ذي قبل، وهو ما ساعد البحرية الجزائرية في ازدهارها، وقد تمكنت الجزائر في عهد كرد عبيد باشا سنة 1724م من صنع خمسين جفنا بعضها يحمل خمسين مدفعا، والبعض الآخر يحمل أربعين مدفعا وآخر ذو ثلاثين مدفعا¹.

- **قادرغة:** تُعتبر هذه السفينة من بين أهم السفن المكونة للأسطول العثماني، وتتكون من 25 مقعدا و 40 مجدافا، ويُحرك كل مجداف أربعة أو خمسة مجدفين، وتتميز بأنها طويلة وضيقة وسريعة، بحيث يبلغ طولها من 165 إلى 168 قدم، وعرضها ما بين 21 إلى 22 قدما، وارتفاع مؤخرتها يصل إلى 18 شبرا ومقدمتها تصل إلى 11 شبرا، ويتكون طاقمها من قبطان خبير في استعمال البوصلة، ورئيس تحت إمرته 20 بحارا من المهنين، واثنان موجهان لدفة السفينة، ورئيس للشرع تحت إمرته 35 بحارا، و 196 مجدافا، ومائة مقاتل، وهذا بمجموع كلي يصل إلى 356 فردا، وفي أواخر القرن الخامس عشر كانت تحمل كل قادرغة عشرة مدافع كبيرة، وأربع قاذفات، وثمانية مدافع صغيرة².

- **الشباك:** أصل كلمة شباك إيطالية، وهي مشتقة من لفظ الشبكة التي تُستخدم لصيد الأسماك، ومن هنا أطلق على نوع من السفن الحربية له مقدمة وجؤجؤا³ ينتهي بمهماز⁴، ومؤخرته تقوم

=Ünal TAŞKIN, "OSMANLI DEVLETİ'NDE KULLANILAN ÖLÇÜ VE TARTI BİRİMLERİ", YÜKSEK LİSANS TEZİ, TARİH ANABİLİM DALI, SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ, FIRAT ÜNİVERSİTESİ, Türkiye, 2005, p 54.

¹ - حليم سرحان، "نظرات حول السفن الحربية الجزائرية في العهد العثماني (دراسة هيستوريوغرافية)"، المرجع السابق، ص 182-183.

² - نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 241-242.

³ - الجؤجؤ هو الصدر، ويقال جؤجؤ السفينة أي صدرها.

⁴ - مجداف يدفع السفينة.

على أرضية خارجية مكونة من خشبة بين جناحين، جاعلة المتراس¹ ممتدا ومحاطا بممر، ويتكون من ثلاثة صواري، إحداهما في المقدمة والآخر في الوسط والثالث في المؤخرة، وتتكون كذلك من ثلاثة أشرعة وبعضها يُقاد بأشرعة مربعة على صاريات تكون قطعة واحدة، وبذلك تكون مكونة من ثلاث قطع في السفينة، وتتراوح حمولة الشباك ما بين 200 و400 طن، وطوله يبلغ 40.40 م أما عرضه يصل إلى 10.50 م، وعمقه أقل من 3.80 م، ويصل عدد البحارة على متنه إلى 200 بحار².

- البركنتي: هي من السفن الحربية تشبه سفينة الغليوطة شكلا لكنها أقل حجما، وقد استعملها العثمانيون بكثرة، وتختلف قطعها حسب طولها وعرضها، فهناك التي تكون بشراع واحد وأخرى بأكثر من شراع، يتراوح عدد المجدفين بها بين ثمانية إلى ستة عشرة مجدفا، وبإمكانها استيعاب ما بين سبعين إلى مائة بحار، وتحتوي ما بين عشرة إلى عشرين مدفعا³، وتتراوح حمولتها ما بين مئتين إلى ثمانمائة طن وذلك باختلاف الطول والقصر. ونلاحظ أنه بحلول القرن 19م اضمحل وتراجع استعمال هذا النوع من السفن. وقد كانت البركنتي تُصنع في ورشات شرشال، وهي من أهم وحدات الأسطول الجزائري لسنوات 1510م و1557م و1634م، وكان يُصنع منها قطعتان في السنة الواحدة، ثم تقلص العدد إلى واحدة مزودة بستة مدافع وعشرين قاذفة حجارة⁴.

¹ - المتراس هو خشبة توضع في السفينة للاحتماء من العدو.

² - حليم سرحان، "صناعة السفن الحربية بالجزائر في العهد العثماني من خلال المخطوطات"، المرجع السابق، ص 55.

³ - زهرة محجوبي، "أهم مراكز الصناعة البحرية الحربية الجزائرية خلال العهد العثماني (1529-1830م) وتفاعلها مع جوانب الحياة"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري، الجزائر، المجلد 01، العدد 01، جانفي 2019م، ص 50.

⁴ - حليم سرحان، "تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين (920-1246هـ) (1514-1830م) من خلال المصادر التاريخية والأثرية"، المرجع السابق، ص 123-124.

- الطراد: وجمعها طرادات وهي سفينة حربية صغيرة الحجم سريعة الجري¹، وتُعد من أكثر المراكب الحربية شبحاً بالبرميل الكبير من حيث شكلها، وقد استعملها الافرنج في حروبهم وأطلقوا عليها مسميات قريبة من بعضها، فأطلق عليها الإسبان اسم Tarida وأطلق عليها الإيطاليون اسم Tartana وعند الفرنسيين يُطلق عليها اسم Tartan². وهي من بين السفن التي كانت تُستخدم في العصور الوسطى عند المسلمين لحمل الخيول والفرسان، واستخدمت في البحر الأبيض المتوسط للنقل بشكل عام ولتنقل الخيول بشكل خاص، بحيث يحمل على متنها أربعون فرساً للحرب، وهي مفتوحة في الظهر لكي تسهل عملية شحن وتفريغ الخيول، بالإضافة إلى حملها للناس والمؤن والخشب والمعدات الحربية. وقد تم تصنيع هذا النوع من السفن في الجزائر، غير أنّ استخدامها كان قليلاً في البحرية الجزائرية، وقد تطور هذا النوع من السفن بداية من القرن 17م في البحر المتوسط، وكانت تتكون من صار واحد يحمل شراعا لاتينيا³.

- الشلندي: هي من بين المراكب الحربية الكبيرة، وتُعرف باللغة اللاتينية باسم CHelandium، ويطلق عليها العثمانيون اسم ماعونة، وتُعرف عند البنادقة باسم Mahon، ولها صارتان أو ثلاثة، ويبلغ طولها 195 قدماً وعرضها 33 قدماً، ومجهزة بـ 24 مدفعاً، ويمكن النقل على متنها 600 بحار⁴.

- الفرقاطة: وجمعها فراقط وفراقيط وفرقاطات، ويُطلق عليها بالإيطالية والإسبانية لفظ fregata وبالفرنسية لفظ frégate، وهي من نوع السفن الحربية الخفيفة والمتوسطة الحجم. استعملت من طرف الأوروبيين والعثمانيين في البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود منذ

¹ عبد الفتاح عبادة، المرجع السابق، ص 06.

² نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 230.

³ حليم سرحان، "تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين (920-1246هـ) (1514-1830م) من خلال المصادر التاريخية والأثرية"، المرجع السابق، ص 140-141.

⁴ نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 230.

أوائل القرن السابع عشر الميلادي، وكان هذا النوع من السفن يسير في البداية بالشرع ثم أصبح يسير بالبخر، ويتم تزويد الفرقاطة بخمسين أو ستين مدفعا، وكان يتم استخدام هذه السفن كذلك في عمليات المراقبة والكشف والحراسة¹.

- **البريك:** هي من بين السفن الشراعية المكونة للأسطول الجزائري، تتميز بأنها ذات عمودين، ولها مستودع، وتعتبر من أسرع السفن في تلك الفترة، ويتكون أفراد طاقمها من تسعة رؤساء، ورئيس مدفعية ويساعده ثلاثة مدفعيين وثمانية ضباط وأربعة نجارين، بالإضافة إلى سبعين شخصا من المتطوعين، ويمكن لهذه السفينة أن تستوعب أكثر من هذا العدد خاصة في حالة أوقات الحرب².

- **الحراقة:** هي من بين السفن التي عرفها العرب واستعملوها منذ العصر الإسلامي المتأخر³، وسُميت بهذا الاسم لأنها اختصت بقذف العدو بالأسلحة النارية وأنابيب النفط، وتُعتبر من السفن الخفيفة، وتمتاز بوجود المجانيق على متنها من أجل قذف العدو بالنار المحرقة أو السهام⁴، وقد انتشر بشكل كبير هذا النوع من السفن خلال العصر الوسيط في مختلف أنحاء العالم الشرقي والغربي، وكان بها ما يقارب مئة مجدف، وهي تتسع لألف راكب بما فيهم المكلفون برمي النفط، وقد استخدم هذا النوع من السفن في الجزائر خلال العهد العثماني⁵.

- **الغراب:** وهي من المراكب الحربية القوية، وقد اعتمدت على المجاديف والأشرعة، ويرجع أصله إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط، بحيث يُسمى في النصوص اللاتينية باسم Guarapi، وفي اللغة الإسبانية باسم Corebeta، وربما ترجع أصولها إلى الإيطاليين أو

¹- درويش النخيلي، المرجع السابق، ص 115.

²- نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 244.

³- مصطفى عبد الكريم الخطيب، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996م، ص 140.

⁴- توفيق مزاري عبد الصمد، "الجهاد البحري في عهدي المرابطين والموحدين"، رسالة مكملة لنيل متطلبات الدكتوراه في العلوم الإسلامية، تخصص تاريخ وحضارة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، دفعة 2008م، ص 325.

⁵- زهرة محجوبي، المرجع السابق، ص 51.

القرطاجيين، وقد استعمل الغراب في نقل المسافرين وفي الرحلات الترفيهية¹، وتمتاز هذه السفينة بطولها وبمقدمتها الحادة، ومجاديفها تخرج من خلال ثقب على جوانبها، ولها جزء مرتفع عن سطح السفينة وذلك لحماية البحارة من سهام ورصاص العدو².

- **الشيبي:** وجمعها شواني وهي من بين الزوارق الكبيرة وتسمى باللاتينية Galley، ويقابلها بالفرنسية اسم Galese، وفي الإيطالية اسم Galera، وهناك من يعتبرها ذات أصل عربي. وتعتبر من أقدم أنواع السفن المعدة للجهاد، وكانت من أهم القطع التي يتكون منها الأسطول الروماني والإسلامي، كما أنها كانت من بين أكبر وأكثر السفن المعدة لحمل البحارة المحاربين، بحيث يصل متوسط حمولتها إلى أكثر من 150 رجلا، في حين يقوم 100 رجل بعملية الجذب، كما كان يُبنى فيها أبراج وقلاع تُستخدم للدفاع والهجوم، واستخدمه العثمانيون في حروبهم وكانت جزءا من الأسطول البحري العثماني³.

- **الجلسة:** مصطلح مُعرب عن اللفظ الفرنسي Galeasse، وهي من بين السفن الحربية الكبيرة، تسير بالشرع والمجاديف وهي أثقل وأقوى من سفينة الشيني، وقد كانت شائعة الاستعمال في البحر الأبيض المتوسط منذ فترات زمنية طويلة، فقد عُرِفَت عند القرطاجيين والرومانيين وغيرهم، واستخدمت ضمن الأساطيل العثمانية في العصر الحديث ولم يتغير شكلها⁴.

- **القراقير:** جمع قرقور، وهي من السفن الكبيرة التي تحمل الزاد والمتاع للأسطول البحري⁵.

¹ عبد السلام الجعماطي، دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012م، ص 61، 63.

² نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 241.

³ نفسه، ص 230.

⁴ نفسه، ص 230.

⁵ عبد الفتاح عبادة، المرجع السابق، ص 06.

- **الزورق:** هو مركب بحري صغير، يتم استخدامه في حالات الطوارئ مثل إنقاذ الأنفس من الغرق أو في حالة الفرار من العدو، واستخدم كذلك لنفي الأشخاص غير المرغوب فيهم من مدينة معينة¹.

- **الفلائك:** جمع فلوكة وهي من توابع الأسطول، مثلها مثل القوارب².

ب- تجهيزها:

لقد ازدهرت صناعة السفن في الحضارة الإسلامية منذ القدم، وازدهرت معها حركة الملاحة البحرية خاصة مع اتساع رقعة العالم الإسلامي، ونظرا لهذا الاتساع الجيوسياسي للعالم الإسلامي والذي احتوى على الكثير من البحار فإنه اختلفت أنواع السفن التي استخدمها المسلمون واختلفت طرق صناعتها من منطقة لأخرى، ومن بين أهم البحار التي برزت خلالها هذه الصناعة البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط. ورغم تقاربها في صناعة السفن كالهيكل الخارجي والتسليح والحمولة إلا أنها اختلفت في بعض الأمور كنوعية الخشب والأشعة وبعض الأمور الأخرى، ففي البحر الأحمر كانت السفن حسب وصف ابن جببر الأندلسي: "... ملفقة الإنشاء لا يُستعمل فيها مسمار البتة إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار، وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيظ ويفتلون منه أمراسا يخيظون بها المراكب ويخللون بها بدسر من عيدان النخل، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش، وهو أحسنها... ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب المعترضة في هذا البحر"³.

بينما يذكر لنا آدم متر أنّ الرحالة ماركو بولو كان له وصف آخر للمراكب الإسلامية التي كانت تشغل البحر الأحمر خلال القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) بأنها:

¹ عبد السلام الجعماطي المرجع السابق، ص 60.

² عبد الفتاح عبادة، المرجع السابق، ص 07.

³ ابن جببر الأندلسي، رحلة ابن جببر، د. ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 2007م، ص 47.

"... كانت من أسوأ صنف ومعرضة من يركبها للمهالك؛ وذلك راجع إلى أنه لا يستطيع استعمال المسامير في بنائها، وإنما كانت تنقب الألواح قرب أطرافها بأقصى ما يمكن من العناية بمثقاب من الحديد؛ ثم توضع في الثقوب مسامير من خشب تصل بعضها بعض، فإذا تم ذلك حزمت أو على الأصح خيطت بعضها ببعض بنوع من الليف يُصنع من قشر جوز النارجيل، ولا يطلى المركب بعد ذلك بالقار؛ بل بزيت يُتخذ من دهن الحوت..."¹.

أما مراكب البحر الأبيض المتوسط فهي تختلف عن نظيراتها في البحر الأحمر وذلك لاستخدامها المسامير في تركيب قطع السفن، ويذكر آدم متز أيضا أنّ مفتش الضرائب تشاو جو كوا قد أعجب بسفن البحر الأبيض المتوسط في أوائل القرن الثالث عشر الميلادي، وقال عنها: "... كيف أن سفينة واحدة تحمل بضعة آلاف من الرجال، وعلى ظهرها حوانيت لبيع الخمر والطعام وفيها مغازل..."².

ويختلف نمط تركيب سفن القرون الوسطى عن سفن العصر الحديث، بحيث تميزت السفن العربية في القرون الوسطى بأنها كانت تخاط ألواح هيكل السفينة بعضها ببعض، وكانت لا تشد بالمسامير، ويتم إمداد الشراع على طول السفينة، وكانت حادة المقدمة والمؤخرة، أما السفن في العصر الحديث فكانت تُثبت عادة بالمسامير ومؤخرة السفينة مربعة الشكل في الغالب، وكانت السفن العربية تستمد تسمياتها من شكل هيكلها، فمن بين التسميات التي سُميت بها السفن العربية نجد: البغلة، القنجة، السنبوق، الجهازى وغيرها، كما أنه كان يتم نقش بعض الأشكال في مؤخرة السفينة³، وهذا ربما لغرض تزيينها أو لإخافة الأعداء وسط البحار أو ربما هي تعبير عن ثقافة مالكي تلك السفن سواء كانوا خواصا أو تابعين لدولة ما.

¹ - آدم متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبوريد، أعد فهارسه رفعت البدرائي، ج 2، ط 5، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت، ص 427.

² - نفسه، ص 428.

³ - جورج فضلو حوراني، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب، د. ط، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، د. ت، ص 241 - 242.

وعن طريقة صناعة السفن في تلك الفترة تذكر سعاد ماهر أنها تتم بعد ترك الخشب مدة معينة ليحجف وذلك بعد تقطيعه وتسويته حتى تظهر الشقوق واضحة، ثم يتم بعد ذلك ملء تلك الشقوق بالقار أو الشمع المذاب، وفي بعض الأحيان يتم ملؤها بمعدن القصدير المذاب الذي يحل محل القار أو الشمع، ثم تكسى الألواح من الخارج بطبقة من القار أو الشمع أو مع بعضهم البعض، ويتم إذابة الشمع على النار حتى يصير قوامه سائلاً ثم يضاف إليه لونا معينة وبعدها تطلّى به السفن بواسطة فرشاة، وهذه العملية تساهم في حماية السفينة وذلك لمنع تسرب الماء إلى الأخشاب¹.

وقد كان يوضع الهراب أولاً على الأرض ثم تُربط إليه ألواح أفقية على كلا الجانبين بخيوط من الليف، ثم تُشد هذه الألواح ببعضها البعض بنفس الخيوط، وكانت الخيوط تغرز من خلال ثقوب يتم حفرها على أبعاد معينة قرب أطراف الألواح المتجاورة، وتشد هذه الخيوط بقوة من الداخل وتلف فوق قطع ضيقة طويلة من الخشب، هذه الطريقة كانت تُستخدم عند العرب وبالأخص في جزء الغربي من المحيط الهندي قبل القرن الخامس عشر الميلادي، عكس الدول الأوروبية التي كانت تعتمد على المسامير الحديدية في عملية شد الألواح وتركيب السفن، ومع بدايات عام 1500م أصبحت الدول العربية ودول المحيط الهندي تعتمد على المسامير الحديدية في عملية تركيب السفن في معظم الأحيان².

ومن الناحية الجمالية فإنه يتم إضفاء لون جميل على مظهر السفينة، ومن بين الألوان التي كانت تُستخدم في طلاء السفن والتي في مجملها تقارب سبعة ألوان وهي: القرمزي والبنفسجي والأزرق والأصفر والأخضر والأبيض بدرجتيه الناصح والمائل إلى اللون الزبدى، ثم ظهر بعد ذلك اللون الذي يضاهي لون الأمواج، وقد استخدم هذا اللون بالأخص في

¹ - سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 171.

² - جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص 248، 252.

سفن القراصنة وسفن الاستطلاع والاستكشاف الحربي وسفن التجسس، وذلك من أجل تعقيم ظهورها في البحر¹.

وعندما تكون السفن الحربية راسية في الميناء، تُجرد من جميع أجهزتها ومعداتّها، بما في ذلك الأحجار والرمل الذي يوضع في السفينة للتحكم في موازنتها، فإنه ينزع من ظهرها ويوضع في المخزن التابع لها، ولكل سفينة مخزن خاص بها، ولا يبقى على ظهر السفينة سوى السارية والخشبة التي تشد إلى السارية لتثبيت الأشرعة، والسفينة ترسو في الميناء بالرأس والمؤخرة، أما السفن الصغيرة فإنها ترسو بجانب السفن الحربية الكبيرة، وفيما يخص السفن التجارية التابعة لمختلف الدول فإنها ترسو بنفس الطريقة، وأما البوارج والسفن الكبيرة التي تنقل الهدايا المختلفة إلى الداى فإنها ترسو عند مقدمة الميناء، وبالنسبة لمدخل الميناء فإنه يُحرس باستمرار عن طريق سفينتين كبيرتين تسييران بالمجادف، ويكون على متن كل واحدة منها واحد وعشرون بحاراً، وتكمن مهمة هاتين السفينتين في منع العبيد من محاولة الفرار بالسفن أو قوارب الصيد².

وحيثما يصدر الداى أمراً بتجهيز الأسطول لخروجه، فإنه يمنع خروج السفن التجارية من الميناء، ويتم حبس العبيد حتى لا يتمكنوا من الفرار، ويعين لكل سفينة حربية خبير من أجل معاينة الأشرعة وإصلاحها، ويساعده في هذا العمل ثلاثة من البحارة أو أكثر في الوقت الذي تهيأ فيه السفن للإبحار، وبعد استكمال الاستعداد للإبحار يأتي الشيخ أو المرابط ليقرأ الفاتحة ويدعو للسفينة أن تُحقق نجاحاً في عملياتها ضد الأعداء، ثم يقوم بعد ذلك العبيد بوضع ثقل الموازنة للسفينة والذخيرة والمؤونة وجميع لوازم الرحيل على متن السفينة، بالإضافة إلى المواد الغذائية التي تُشحن عليها كالخل والزيتون وبعض السمن القديم والمحمصة، والبرغل

¹ - سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 171.

² - كائكار، مذكرات أسير الداى كائكار قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة عن الإنجليزية وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، د. ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م، ص 77.

(الكسكس)¹ بكميات كافية، وذلك لضمان توفير وجبة ساخنة للبحارة مرة كل أسبوع، ويتم تزويد السفن الحربية بالمواد الغذائية بكميات لا تتجاوز ما يتم استهلاكه في مدة أربعين يوما، إلا في بعض الحالات التي يمكن التزود بأكثر من ذلك، وعادة ما يتم وضع الأغذية في مؤخرة السفينة باستخدام الجرات والسلات، بالإضافة إلى براميل المياه المعبأة بالمياه العذبة².

وبعد كل هذه التجهيزات التي تدوم عادة ما بين ثلاثين إلى أربعين يوما³، يتم وضع علم الإيالة الجزائرية، ثم علم الداوي وبعده أعلام كبار شيوخ الطرق، إلى جانب أعلام الدول التي هي في حالة حرب مع الجزائر، خصوصا علم الدولة التي خرج الأسطول للبحث عن سفنها، وتوضع كلها على شراع السارية الأولى للسفينة، وبعدها يتم إطلاق عدة طلقات باستخدام المدافع، إيذانا بأن الأسطول على استعداد تام، وكذلك إنذار للبحارة من أجل الالتحاق بسفن الأسطول، كما يزودون البحارة أنفسهم ببعض الأسلحة ومنها البندقية والمسدس والتي هي من نفقتهم الخاصة، أو مما استولوا عليه من سفن البلدان المعادية. ويمكن أن يكون البحارة يمارسون العديد من المهن مثل الإسكافة والخياطة والحلاقة وغيرها، ويتكونون من مختلف الطبقات سواء من المدن أو من الأرياف⁴، وفي أول الأمر كان البحارة هم الجنود المكلفون

¹ - البرغل هو نوع من الحبوب، وهو شبيه كثيرا بطبق الكسكس الحالي الذي يتم تحضيره في الأقطار المغاربية، ويُعد عن طريق سلق القمح وتجفيفه ومن ثم طحنه لأحجام مختلفة، مما يجعله من الحبوب سريعة التحضير، ويمكن أن يصنع البرغل من أي نوع من القمح، إلا أنه عادة ما يصنع من القمح القاسي. يُنظر: بانا ضمراوي، "ما هو البرغل"، موقع موضوع، تاريخ النشر: 4- 12- 2017م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 29- 01- 2022م، مُتاح على الرابط التالي:

<https://cutt.us/w8QhC>

² - كائكاريت، المصدر السابق، ص 77- 78.

³ - عائشة حنفي، "تجهيزات السفن الحربية بالجزائر في العهد العثماني"، حولية الاتحاد العام للأثاريين العرب "دراسات في آثار الوطن العربي"، اتحاد الجامعات العربية، المجلد 17، 2014م، ص 334.

⁴ - كائكاريت، المصدر السابق، ص 78- 79.

بالحرب هجوما ودفاعا بواسطة العديد من الأسلحة مثل البنادق والخناجر والسيوف وغيرها، ثم بعد ذلك أصبحت فرق من الإنكشارية تشارك البحارة في الحروب البحرية¹.

وفي معظم الأحيان يتم جلب البحارة إلى السفن بواسطة القوة، وعندما تمتلئ السفينة بالبحارة والضباط يجلس ضابط في طرف السفينة وفي يده وعاء من الخشب مملوء بحبات الفول، ويجلس ضابط آخر في الطرف الآخر من السفينة وفي يده وعاء فارغ، ثم يؤمر أفراد السفينة بأن يأخذ كل واحد منهم حبة من الفول الموجود بالوعاء المملوء ثم يذهب به ليضعه في الوعاء الفارغ، ويدور في طريقه بالسارية الرئيسية للسفينة، ويتم العمل بهذا الشكل حتى يتأكد الضابط من استيفاء العدد المطلوب في السفينة وهو عادة لا يتجاوز 500 بحار لكل سفينة أو على حسب طاقة كل سفينة²، مائة منهم من الأتراك الذين تتكون منهم هيئة الضباط³، ويتم إعادة الباقي إلى البر خاصة الشيوخ والعاطلين، ثم يقوم العبيد بحل سلاسل الرسو، ويسير قبطان الميناء ومساعديه إلى مقدمة السفينة، ويرشدونها حتى تخرج من الميناء وتدخل في عرض البحر، وعندما تمر بجانب قبة أحد الأولياء تطلق عدة طلقات بالمدافع للتحية ثم تختفي⁴.

ومن بين العادات كذلك التي كان يقوم بها الرياس قبل مغادرة الميناء زيارة ضريح سيدي عبد الرحمن الثعالبي ولي مدينة الجزائر، بالإضافة إلى توقف السفن قرب باب الجهاد لتقديم التحية قبل الإبحار لوكيل الحرج، بالإضافة إلى بعض العادات الأخرى التي كانت شائعة في ذلك الوقت كأن يقوم البحارة برمي الزيت في البحر ووضع القناديل على فوهة المدافع لتفادي الكوارث والعواصف البحرية! حسب اعتقادهم⁵.

¹ عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 101.

² كائكار، المصدر السابق، ص 78-79.

³ وليام شالر، المصدر السابق، ص 63.

⁴ كائكار، المصدر السابق، ص 78-79.

⁵ حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 145.

ومن العادات الأخرى التي ذكرها هايدو هي أنه في اليوم الذي سوف تنطلق فيه السفن لركوب البحر والجهاد يقوم الرياس أو قائد الرحلة البحرية بإعطاء وجبة للعمال بما فيهم العبيد المسيحيين الذي جُلبوا من أجل المساعدة في عملية الانطلاق، وتماشيا مع ذلك يقترب قائد المهمة من الماء بالقرب من الميناء ثم يصعد إلى السفينة ويذبح شاة أو ثلاثة شياه ويتم رمي دم تلك الشياه في الماء وفي أجزاء من هيكل السفينة مباشرة بعد الذبح بحيث يكون الدم ساخنا، وبعدها يقومون بدفع السفينة في الماء ثم يقوم الولي أو الشيخ برمي تلك الذبيحة في الماء، وفي نفس اللحظة تُطلق من أعلى المدينة بضع طلقات من المدافع، وفي هذه اللحظات يقوم البحارة بالاحتفال وصناعة اللوائم وسط جو تملؤه الفرحة والسرور، وهذه العادة هي اعتقاد منهم حسب هايدو أنها تجلب الخير وتُعتبر فال لنجاح الجهاد البحري¹. ومن بين الأمور العجيبة والتي كان يعمل بها بعض البحارة العرب أثناء رحلتهم البحرية وضع آنية مملوءة بالأرز والدهن في المراكب وذلك كل يوم من أجل إطعام الملائكة التي تحرس المركب!².

وعند خروج السفن من الميناء يقوم العبيد بجمع السلاسل الخاصة بكل سفينة والحبال التابعة لها، ويضعونها في المخزن حتى تعود السفن إلى الميناء³، وكان يسود السفن نظاما صارما من حيث التسيير والخدمات، وبما أن سير السفن كان يعتمد بشكل شبه كلي على التجديف فإن القيادة كانت تولي أهمية قصوى لهذا الجانب، بحيث يختار المسؤولون المجدفون من الأشخاص ذوي البنية الجسدية القوية ويكونون مدربين ومطيعين، وكانوا يُربطون إلى أماكنهم ولا يتحركون أثناء عملية التجديف⁴.

وكان عدد البحارة الذين يتم حشدهم في السفن كبيرا، بحيث كانت السفن ذات طاقة تسليح من عشرين إلى أربعين مدفعا يحمل عليها من ثلاثمائة إلى أربعمائة وخمسين رجلا،

¹– diego de haëdo, op. cit, p 90.

²– آدم متر، المرجع السابق، ص 431.

³– كائكار، المصدر السابق، ص 78-79.

⁴– كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 51.

والذين من بينهم بحارة يكونوا قادرين على قيادة السفن المأسورة والرجوع بها إلى الجزائر، يساعدهم في ذلك بحارة لهم دراية في إدارة مثل هذه السفن، بالإضافة إلى هذا كان على متن السفن العديد من رجال الإنكشارية، الذين يحملون معهم سيفاً قصيراً أو مسدساً، ويساعدهم زملاؤهم في مهامهم مسلحين بالبنادق أو مقاذف الحجارة، وكانوا على استعداد لمهاجمة السفن التي تهاجمهم¹.

وكانت تدوم الرحلة أو عمليات الجهاد البحري حوالي خمسين يوماً ونادراً ما تصل لهذه المدة بل أغلب الأحيان تدوم وقتاً أقل في رحلتها، ولا يخرج البحارة في فصل الشتاء نظراً لتقلبات الطقس وما ينتج عنه من هبوب الرياح القوية واندفاع الأمواج الهائلة وسط البحر، بالإضافة إلى أنه يتم استغلال هذه الفترة في عمليات إصلاح السفن وتفقدتها².

وبعد عودة السفن بعد استكمال مهامها تشرع في إطلاق المدافع بمجرد ما تصبح على مرأى من المدينة، وهي تحمل العديد من الأعلام ترفرف في الهواء، وفي مقدمتها علم الدولة التي أسرت سفنها وهو مقلوب عاليه سافله³، ويبدو أنّ عرض علم الدولة بهذه الطريقة هو بُغية إذلالها ونتيجة السيطرة على سفنها وإخضاعها لهم. وبعدها يخرج قائد الميناء ومعه مساعده والعديد من العبيد، في زورق لاستقبال السفينة العائدة وإرشادها إلى الميناء حيث ترسو في مكانها التي كانت فيه قبل انطلاقها، وبعدها تُقام العديد من الاحتفالات التي يسودها جو من السرور والفرحة، وذلك عند جلبها العديد من الأسرى والغنائم، وعندما ترجع السفينة دون غنائم فإنه لا تُطلق القذائف من المدافع ولا تُنظم الاحتفالات، وقد تبدو على وجه كل شخص علامات الخيبة والحزن، وربما يتعرض رباني هذه السفن إلى تحويلهم إلى رُتب أقل من رتبهم، وفي كثير من الأحيان يُجلدون ويسجنون وربما يتم عزلهم من القيادة نهائياً⁴.

¹ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 188 - 189.

² - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 51 - 52.

³ - كانتارت، المصدر السابق، ص 80.

⁴ - نفسه، ص 80.

وبالنسبة لمستحقات أفراد السفينة فإنهم كانوا لا يتقاضون راتباً معيناً، ولكنهم يكافئون على الغنائم التي استحوذوا عليها أثناء عمليات الجهاد البحري، ولا يتم تسديد المستحقات بشكل عشوائي ولكن وفق نظام مُحكم، بحيث يقوم كاتب السفينة مع الرئيس والموظفون الأساسيون بجرد مختلف البضائع التي توجد في السفينة وبيعها كلها بأثمان جيدة، ثم تتم عملية توزيع المستحقات على أفراد طاقم السفينة كل حسب حالته ومرتبته، وبالنسبة للسفن المستولى عليها فإن الدولة تحتفظ بقائد السفينة والكاتب وكذلك بهيكل السفينة، وعتاد السفينة الحربي مثل المدافع والذخيرة، بحيث يحتفظ الباشا بـ 12% من البضائع والعبيد، وتخصص 1% من هذه الغنائم لصيانة الرصيف والميناء، و1% لصيانة المساجد، أما باقي الغنائم فإنها تُقسم إلى قسمين: قسم يعود إلى مُجهز السفينة (صاحبها) وإلى كل من ساهموا في تجهيز نفقات العملية، ويدخل في هذا الجانب مساهمة السكان المدنيين في تمويل عمليات الجهاد البحري بأموالهم، آملين في استردادها مع الحصول على الأرباح، وحتى النساء شاركن في هذه العملية بخليهن بُغية الحصول على جزء من أرباح الغنائم، وقسم آخر يعود إلى طاقم السفينة والجنود، بحيث يحصل الرئيس (قائد السفينة) على 40 حصة من الغنائم، ويحصل البحارة والملاحون على ثلاثة حصص والجنود على نصف حصة¹.

وحول الترسانة البحرية والبحارة الجزائريين يذكر شالر وليام: "والسفن الجزائرية التي تُعتبر سفن حربية لا تستحق أي اهتمام، وبحارتها يجهلون طرق المناورة في المعارك البحرية، وأما روح الجرأة الخارقة التي تعزى إليهم، فهي إنما خلقتها مؤامرات الدول الأوروبية وجشعها، ومع ذلك، فإن مقدرة الجزائريين على تجهيز الأساطيل وتسليحها للقتال لا تفوقها مقدرة أي شعب آخر في العالم..."².

¹ - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 52 - 53.

² - وليام شالر، المصدر السابق، ص 63.

من خلال هذا القول لشالر وليام فإنه يتبين أنّ سفن الأسطول الجزائري لم تكن في مستوى جيد خاصة عند مقارنتها بالسفن الأوروبية التي كانت مجهزة بشكل جيد، وهذه النظرة من وليام شلر تبقى نظرة ضيقة لا ترقى للمستوى الحقيقي الذي تميزت به السفن الجزائرية حينذاك، وهناك الكثير من المؤرخين الذين ساروا عكس هذا الاتجاه، ومن بينهم مولاي بلحميسي الذي يصف الجزائر وبحارتها في العهد العثماني، والذي كانت له نظرة استشرافية بعيدة عن الذاتية تصف حال البحرية الجزائرية إلى أبعد قدر ممكن إن صح التعبير، وهذا في قوله: "... ومرساها عامر بالسفن ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في بلادهم. فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو..."¹.

ومهما قيل عن السفن الجزائرية خلال العهد العثماني إلا أنها لعبت دورا كبيرا في الملاحة الجزائرية، وكانت تهابها العديد من الأساطيل الأخرى وتخشى مواجهتها، وخير دليل على ذلك هو تفوقها في العديد من المعارك البحرية، والشيء الأهم من ذلك هو حنكة وشجاعة البحارة الجزائريين، الذين عرفوا كيف يسيرون الأسطول البحري والتصدي للهجمات الأوروبية وملاحقة سفنها بكل براعة وشجاعة، وأحسن مثال للسفن الجزائرية التي كانت ضمن الأسطول البحري، السفن التي اتخذها الأخوين عروج وخير الدين بربروس لهما، فهي تُعتبر من أحسن السفن وأجملها وأسرعها ضمن سفن الأسطول الجزائري، وقد وصف ابن اشنهو واحدة من أحسن تلك السفن وهي سفينة خير الدين بربروس، التي وصفها بأحسن الأوصاف وأدقها فقال عنها: "وعندنا وصف سفينة خير الدين التي كانت تُدعى «الجزائرية» يعرفها العدو من بعيد فيفر عندما يراها وكانت عظيمة ضخمة من نوع القليلة تُرفرف على أعلى صاريها الراية الحمراء ذات النجمات الثلاث. وفي مؤخرها بيت خير الدين الفخم المزخرف بالنقوش على الخشب

¹ - مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، د. ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص 57.

النفيس يدخله الضوء والشمس من ثلاث نوافذ عريضة حيطان البيت مغشاة بثقوب من الحرير الأحمر الرائع ومعلقة عليها لوحات زيتية من أشهر رسامي إيطاليا وإسبانيا إذ ذاك... وفي وسط الحائط الأمامي للبيت لوحة عليها كتابة شعار القرصنة «ننتصر بحول الله» وفي مدخل البيت فانران جميلان عليهما النقش الفني الرائع أحدهما من الفضة والآخر من البرونز. وإذا سافر خير الدين لمهمة طويلة فإنه كان يحمل معه حشمه وحرمة يأويهم في هذا البيت المتسع الأطراف¹.

وبالنسبة لحركة تنقل القناصل الأجانب نحو الجزائر، فإنه من العادة عندما يرسو أسطول أو سفينة حربية أجنبية في ميناء الجزائر تطلق المدافع الجزائرية واحد وعشرون طلقة كتحية، وفي المقابل يقوم الأسطول أو السفينة الحربية الأجنبية بإطلاق عدد مماثل من طلقات المدفع لرد التحية، وعندما ينزل القائد أو القنصل الأجنبي إلى البر فإنه يتم إطلاق خمسة طلقات بالمدفع تحية له، وهذه التحية تُكرر عندما يرحل نهائياً، وعندما تستمر إقامة الأسطول الأجنبي في الميناء لمدة ثلاثة أيام، فإنها تقوم السلطات بإرسال هدايا إليه، وتتمثل في عدد من العجول والدجاج والخبز والفواكه والخضر، وهذه الهدية غير مجانية فإنه يتم دفع قيمتها من طرف القنصل التابع لذلك الأسطول، وتقدر بـ 40 دولاراً للتحية و14 دولاراً في مقابل الهدية².

وهناك رواية للراهب الفرنسي بيير دان الذي زار إيالة الجزائر خلال القرن السابع عشر الميلادي، يذكر فيها مراسيم الاستقبال التي حضي بها وأهم الإجراءات التي طبقت عليهم في الميناء أثناء وصولهم للجزائر وذلك في قوله: "في ذلك اليوم انعقد الديوان الأعظم أو مجلس الولاية الذي جمع هيئته بعد إخطاره بوصولنا، وأرسل بعض الضباط على وجه السرعة لاقتيادنا إليه من أجل القيام باستقبالنا. وبعدما قام السيد لوباج بعرض الغرض الرئيسي لمهمته ولرغبة

¹ عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 103.

² وليام شالر، المصدر السابق، ص 66.

الملك أمامه¹ خصصوا لنا استقبالا جيدا، الأمر الذي لم يمنع على كل حال من أن يتم اقتراح داخل الديوان يقضي بضرورة نزع علم فرنسا المثبت فوق أعلى مكان من مركبنا، وبرروا دوافعهم في ذلك بأن إظهار العلم بتلك الصورة في مراسمهم يدل على عدم السيادة، وبالتالي لا يجب التأذي من ذلك لأنه خص شرفهم. لم تكن دوافعهم هذه أقوى من دوافع السيد لوباج الذي عرف كيف يقنعهم، حيث أنه طيلة المدة التي قضيناها بالجزائر ظل العلم مثبتا على المركب. حقيقي أنه لزم علينا نزع الدفة والأشرعة من على السفينة ووضعها في البر بمستودع الحارس الذي يخفر الميناء. إذ جرت العادة أنه منذ الساعة التي تبلغ فيها إحدى السفن الرصيف أكانت مسيحية أو تركية أو تجارية أو غيرها، يتم حجز الأشرعة ومقبض الدفة خوفا من اختطافها من طرف المستعبدین والفرار على متنها...².

ج- مستلزماتها:

- **جسم السفينة**³: يمثل جسم السفينة الهيكل العام للسفينة والذي يتطلب معرفة ودراية بكيفية صنعه وفق نوع وحمولة كل سفينة، لذلك كان مهندس بناء السفن حريصا جدا على اختيار نوعية الخشب ومراقبة مختلف القطع الخشبية المكونة للسفينة، وما يوضح هذا الحرص هو مرافقة معظم المهندسين للعمال عندما يقومون بجلب الخشب لهذا الغرض⁴، ولصناعة جسم السفينة كان لا بد من توفر جميع القطع اللازمة، واستنادا إلى ما ذكره إسماعيل جودي فإن تلك الأجزاء تتكون أساسا من⁵:

- الكرينة أو الغاطس وهي عارضة رئيسية تمتد على طول قعر المركب.

¹ - حسب الراوي نفسه - بيير دان - فإن تلك المهمة التي جاؤوا من أجلها تتمثل في تحقيق السلم في إطار التبادل والافتداء والصلح بين الطرفين.

² - حسن أميلي، "تاريخ بارباريا وقراصنتها للراهب بيير دان"، تعريب وتقديم حسن أميلي، المجلة التاريخية المغربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، العدد 106، السنة التاسعة والعشرون، فيفري 2002م، ص 221.

³ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 241.

⁴ - إسماعيل جودي، المرجع السابق، ص 211-212.

⁵ - نفسه، ص 212.

- الموج أو القطع المقعرة تستخدم لبناء صدر السفينة وحاملة السكان (قطعة خشبية أو حديدية تُشكل مؤخرة الغاطس).
 - الرابية يتم تركيبها من جوانب السفينة إلى خط العوم.
 - الحازم أو الداعمة تساعد في تقوية وتمتين جوانب السفينة.
 - الكرسيّة تمثل جوانب السفينة من تحت خط العوم إلى حواف متراس السفينة.
 - الصاري أو الجذع الذي يكون في وسط السفينة.
 - ألواح مدورة الشكل بالإضافة إلى الرافدات والعارضات والألواح الأخرى الأقل حجما.
- ويستلزم صنع سفينة واحدة العديد من الألواح الخشبية، فمثلا سفينة قادرة يستلزم صنعها أربعمئة لوحة خشبية، طول كل لوحة اثني عشرة ذراعا، وتكون مصنوعة من جذور شجرة الصفصاف أو الزان، وكلما كانت الألواح جافة وسليمة كانت أفضل، ويملا الأركان بمائتين وخمسين ضلعا، وما يقرب من ثلاثين قطعة خشبية لأرضية عنبر السفينة، وستة أذرع من القضبان الخشبية، وخمسة وعشرين لوحة من أخشاب الأرز، طول كل واحدة منها ستة عشرة ذراعا، ودفتا إحداها احتياطية، وعمودان وثلاثة أعواد خشبية عرضية يُربط إحداها، أما الأخرى مثل الأجنحة تكون متحركة، وخمسة وسبعين من المجاديف، خمسون منها توضع في أماكنها، وخمسة وعشرون توضع في العنبر احتياطيا¹.
- ومن أشهر أنواع الخشب الذي كانت تُصنع منه سفن البحر الأبيض المتوسط والبحار الشمالية أخشاب الصنوبر، وخاصة السفن التجارية الكبيرة فقد كانت تُصنع من هذا النوع من الخشب، بالإضافة إلى ألواح خشب البلوط الذي يغطي خشب الصنوبر حتى تتحمل السفن عملية الشد والجذب إلى الشواطئ والموانئ، وفيما يخص السفن الحربية فإنها كانت تُصنع في

¹ - كاتب جليبي، المصدر السابق، ص 241، 247.

الغالب من خشب البلوط ثم تُغطى بطبقة من خشب الزان، أما السفن الصغيرة فإنها تصنع من خشب الزان مباشرة¹.

وهناك بعض السفن الأخرى يتم صنعها من خشب الساج أو خشب جوز الهند الذي يعتبر من أنفس أنواع الخشب المعروفة جميعا، فهو شديد الاحتمال بحيث عند استخدامه لا ينشق أو يتقلص أو يتغير شكله، ومن مميزاته كذلك أنه ليس بشديد الصلابة وإنما يسهل استعماله، وقد اشتهر هذا النوع من الخشب عند العرب الذين استوردوه من آسيا خاصة من جنوب الهند وبورما وإندونيسيا، وذلك لمميزاته ولطول بقائه، بحيث يصل إلى أكثر من 200 سنة دون أن يُتلف إذا ظل في الماء².

وبالنسبة لشكل السفينة فإن مهندسي السفن استمدوه من شكل بعض الطيور مثل العقاب، ومنها ما صُنعت على شكل بعض أنواع الأسماك والحيتان وبعض الحيوانات الأخرى كالفيل والأسد والفرس والدلفين، ورغم تعدد أشكالها إلا أن جُزأها الغاطس صمم على شكل الحوت³، وهذا راجع إلى طبيعة البحر، وربما إلى أن هذا الشكل هو الأمثل لسير السفينة ومواجهتها للأمواج، مستمدين الفكرة من شكل الحوت الذي يتميز بسرعته وخفته داخل الماء.

- **المسامير:** تُعتبر المسامير من الأدوات المهمة لتثبيت الألواح ببعضها البعض، ولكل سفينة طاقة استهلاك معينة من مسامير، فمثلا سفينة القادرغة تحتاج مائة قنطار من المسامير، وفي بعض الأحيان تستهلك ثمانين قنطارا، وهناك بعض السفن تستهلك خمسمائة قنطار من المسامير⁴.

- **حدايد مرساة السفينة:** تحتاج السفينة إلى مراسي، وكل مرساة أو كما تسمى الأنجر يتطلب صنعها ما بين سبعة وتسعة قناطر من الحديد، وكل سفينة ولها ما تحتاجه من حدايد المراسي،

¹ - سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 168.

² - جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص 244 - 245.

³ - نبيل عبد الحي رضوان، المرجع السابق، ص 229.

⁴ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 241، 247.

فمثلا سفينة ماوونا تحتاج إلى مرساة ذات خطافين، وكل مرساة تزن 16 قنطارا، وتحتاج كذلك إلى أربع مراسي ذات أربعة خطاطيف وكل واحدة منها يزيد وزنها عن اثني عشر قنطارا¹، وكانت المرساة غليظة لا دقة فيها، وهناك بعض المراسي كانت تُصنع من الحجر ويتم من خلالها حفر ثقب للحبال، كما هو شأن مراسي سفن الخليج العربي (الخليج الفارسي) في القرن السابع عشر الميلادي، وقد احتوت السفن العابرة للمحيط في القرن العاشر الميلادي مراسي عدة تصل حتى ستة مراسي².

- **حبال السفينة:** يوجد لكل سفينة مجموعة من الحبال منها الغليظة وأخرى رفيعة، ويصل وزن الحبال الغليظة إلى ثمانية قناطير، وتُستخدم الحبال الغليظة في ربط المراسي وربط السفينة بالبر، ويلزم ربطها بالبر أربعة حبال طول كل واحد منها سبعون ذراعا ويزن أربعة قناطير، ويبدو أن الحبال التي كانت تُستخدم هي من الحديد ويقال لها غربانا، فمثلا سفينة قادرة تحتوي على خمسة حبال، تُغير ثلاثة منها واثنان تظل سنة كاملة، وبالنسبة للحبال التي تربط المراسي أو تربط السفينة بالبر فإنها تُغير اثنين منها ويبقى اثنان كل سنة، هذا بالنسبة للحبال الغليظة، أما بالنسبة للحبال الرقيقة فإنها تُغير كل سنة مرة، وفيما يخص الحبال القصيرة التي تُربط بالأشرعة فإنها تُغير مرة في كل سنتين³. وكان للحبال دور كبير في تقوية هيكل السفينة، وذلك بربطها بمجموعة من الحبال تُعرف باسم الحزام أو الزنار، وهذا الحزام يُربط في وضع أفقي وخاصة في المقدمة والمؤخرة، وفي بعض الأحيان كانت هذه الحبال تربط العمود التي تتوسط السفينة وتصلها بالمقدمة والمؤخرة حتى لا تتأرجح⁴.

- **الصواري:** جمع صارية أو كما سُمي في المحيط الهندي باسم الدقل، وهي عبارة عن أعمدة طويلة يتم تركيبها في وسط أو على طول السفينة، لتشد من خلالها الحبال والأشرعة، وكانت

¹ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 241، 247.

² - جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص 262.

³ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 241، 247.

⁴ - سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 168.

تُصنع في القرون الوسطى من شجر جوز الهند، وصُنعت كذلك من خشب الساج، ويوجد في السفينة صار واحد وبعضها يوجد فيها أكثر من صارٍ، ويجب أن يكون الصاري شديد الطول بالنسبة إلى طول السفينة، وقد يصل طول الصاري إلى خمسين ذراعاً أو أكثر¹.

- **الأشرعة:** لكل سفينة عدد معين من الأشرعة، وقد تختلف المادة الأولية لصنع الأشرعة من سفينة إلى أخرى، فهناك بعض الأشرعة تُنسج من أوراق جوز الهند أو سعف النخل، وهذا النوع من الأشرعة وُجد في المشرق العربي وفي المحيط الهندي، أما في البحر الأبيض المتوسط ودول أوروبا فإنه انتشر الشراع القطني بشكل كبير²، وبالنسبة لعدد الأشرعة التي تحتاجه كل سفينة فإنه يختلف من سفينة إلى أخرى، فمثلاً سفينة قادرغة لها ثلاثة أشرعة، الشراع الكبير ويطلق عليه "منجي الأرواح" يفتحونه لرفع السفينة الجامحة على الرمل، لكي لا يدخل الرمل أسفل السفينة، ويتكون من إحدى وسبعين قطعة، ويُصنع من قماش طوله 1400 ذراع، وقد ألغي هذا الشراع فيما بعد نظراً لعدم منفعته، والشراع الأوسط والذي يُصنع من قماش طوله 1200 ذراع، ويُسمى "شراع العواصف" وذلك لاستخدامه عند هبوب العواصف، وهو مستدير الشكل ويبدو من بعيد أنه مثلث، وشراع في العمود الأمامي للسفينة، مربع الشكل، ويُصنع من قماش طوله 600 ذراع، وهذا الشراع يُستخدم دائماً³.

- **قوارب النجاة:** كانت كل سفينة تحمل فوق ظهرها مراكب صغيرة، وتتمثل في نوعين وهما القارب والدونيغ، ويُعتبر القارب أكبر حجماً من الدونيغ، بحيث يستطيع القارب حمل خمسة عشر رجلاً مقابل أربعة في الدونيغ، وتُستعمل هذه المراكب للنجاة في حال غرق السفينة أو تعرضها للهجوم، واستخدمت هذه القوارب كذلك في عملية جر السفينة من دفتها بعد نزع صواريخها، وبالنسبة للدونيغ فهو صغير وخفيف لذلك استعمل للملاحة على الشاطئ أو النجاة⁴.

¹ - جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص 263 - 264.

² - نفسه، ص 265.

³ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 241، 247.

⁴ - جورج فضلو حوراني، المرجع السابق، ص 263.

- **السكان:** ويُسمى أيضا الخيزرانة أو الكوئل أو الدفة، والسكان هو من أجزاء المركب الخلفية، بحيث يُعتبر دفة السفينة التي في مؤخرها، وقيل لها سكان لأنها تسكن به عن الحركة والاضطراب الذي يصيب السفينة¹، أو يمكن القول أنه يساعدها في التوازن أثناء الإبحار.
- **المظلة:** تحتاج معظم السفن الحربية إلى مظلتين، وكل واحدة منها تُصنع من قماش غليظ، وكل منها يحتاج إلى خمسة وستين قطعة قماش، وكل قطعة تساوي خمسة عشر ذراعا، وفي وقت نزول المطر غالبا ما يبسطون مظلة فوق مظلة، والمظلتين تُجدد إحداها كل سنة وتظل الأخرى من غير تجديد².
- **الخيمة:** هي عبارة عن غطاء يأتي في مؤخرة السفينة، وطوله يصل حتى سبعين ذراعا، ويكون قماشها من المخمل الأخضر والأحمر أو الجوخ الأحمر، وتُغير كل سنتي مرة³.
- **القنديل:** هي عبارة عن مصابيح تُضيء السفينة، ولكل سفينة مجموعة من القناديل توضع فوق مؤخرتها، ويُعلق على العمود الأمامي إما علم أو قنديل، وتُقدم الدولة للسفن كل عام عدة صناديق من شمع العسل الذي يُستخدم للإنارة، ويُعطى للربان مجموعة من القناديل في كل عام، بحيث تحتوي على خمسة وعشرين شمعة من شمع العسل الأصفر، وكل شمعتين تزنان أوقية واحدة أو حوالي 200 غرام، ويُعطى لكل سفينة في كل سنة حوالي قنطارين من زيت الكتان لتوقد في العنابر في ثلاثة أماكن⁴.
- **المدفع:** تُزود كل سفينة حربية بمجموعة من المدافع، فمثلا سفينة قادرغة تُزود بثلاثة مدافع، واحدا منها في المقدمة وطوله أربعة عشر شبرا أو خمسة عشر، ويطلق قنبلة تزن اثنتي عشرة أوقية أو أكثر من ذلك، ويزن هذا المدفع حوالي أربعين قنطارا، بالإضافة إلى مدفعين في

¹ - سعاد ماهر، المرجع السابق، ص 167.

² - كاتب جليبي، المصدر السابق، ص 243.

³ - نفسه، ص 244.

⁴ - نفسه، ص 244.

جانبي السفينة، ولا يقل طول ماسورة كل واحد منها عن عشرة أشبار، وهناك بعض السفن تصل المدافع التي تحملها إلى أربعة وعشرين مدفعا أو أكثر¹.

وفي هذا الصدد يذكر حنيفي هلايلي أنّ عمليات تسليح السفن الجزائرية منذ القرن السابع عشر الميلادي طرأ عليها تطور كبير أدى إلى رفع قوتها المدفعية، ومثال على ذلك الشبيكات التي وصل تسليحها إلى الأربع والعشرين مدفعا، والغليوطات إلى العشرين مدفعا، وفي سنة 1657م كانت تمتلك البحرية الجزائرية سفنا يتراوح تسليحها ما بين الثلاثين والخمسين مدفعا، وخلال منتصف القرن الثامن عشر كان يوجد بالجزائر سفن حربية يصل تسليحها إلى ستين مدفعا، مثل سفينة الذانزيك ذات الثماني والخمسين مدفعا، وسفينة الغزال ذات الخمسين مدفعا، وكذلك سفينة القصر ذات الخمسين مدفعا².

- البارود: يُمنح لكل سفينة كل ما تحتاجه من مادة البارود، فمثلا تُزود سفينة قادرغة بعشرين قنطارا من البارود، وهناك من تُزود بأكثر من ذلك، ويُستخدم البارود في دفع القنبلة عبر المدافع أو في الأسلحة الخفيفة كالبنادق المستخدمة في ذلك الوقت³.

- الأعلام: كانت السفن القيادية وسفن نائب القائد في الأسطول تُزود بأعلام الدولة، وكانت تُرفع في مؤخرة السفينة وفي مقدمتها، وتوجد أيضا رايات خاصة لبيان توجه الرياح، وفيما يخص باقي السفن فإنّ الدولة تمنحها رايات خاصة ذات ألوان صفراء وحمراء وتوضع في مؤخرة السفينة، وفي بعض الأحيان توجد أعلام أخرى كان يشتريها الربان من ماله الخاص، وكانت تُصنع هذه الأعلام المختلفة من مادة الحرير، بالإضافة إلى ذلك كان يأخذ الربانة معهم الإبرة والخيط من مخزن الحكومة⁴، لخياطة الأشرطة أو الأعلام أو حتى الثياب بعد تمزقها.

¹ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 245.

² - حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 56-57.

³ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 245.

⁴ - نفسه، ص 245.

وفي ذات السياق يذكر مولاي بلحميسي أنّ الإيالة الجزائرية كان لها العديد من الأعلام أو الرايات سواء داخل البلاد أو ضمن السفن التي تجوب البحار، فكان العلم لونه أحمر يحمله عمودا طويلا تعلوه كرة نحاسية هذا في السفن، أما في البر على مستوى الموانئ فإنه يتخذ نفس اللون والشكل¹، وهذا اللون للعلم لم يكن ثابتا في كل مراحل الحكم العثماني للجزائر وإنما كان يتغير من فترة لأخرى بحيث يتغير تصميمه وألوانه.

- **الخبز والماء:** يُعطى لكل شخص في السفينة وعاء كبير من الماء، ويُعين لكل بحار وجداف نصف أوقية من الخبز²، وبالنسبة للمجدفين والذين يتميزون بقوة جسدية كبيرة تساعد في عملية التجديف فإنهم يتحصلون على حصة يومية من الطعام مكونة من ثلاث قطع من البسكويت أو الخبز وكمية من الماء مخلوطة بالخل³. وكان الجندي الإنكشاري عندما يلتحق بالبحرية الجزائرية يأخذ معه مؤونة تتمثل في الزيت والخل والزيتون والتمر والتين المجفف، ونظرا لطول المدة التي تقضيها السفن في البحر فإنه يتم تزويدها بكميات إضافية من المواد الغذائية لتغطية نفقات الجنود والرياس من الأكل والشرب، كالبسكويت والأرز والبرغل أو الكسكس والزيت والزبدة والزيتون والزبيب، بالإضافة إلى كميات من الماء الصالح للشرب⁴.

أما هايدو فيذكر أنّ الحصة اليومية من الغذاء للبحارة تختلف حسب رتبة كل بحار أو فئة، فإمدادات الغذاء لكل سفينة تتكون من البسكويت والأرز والبرغل والزيت والجبن والزبدة والزيتون والزبيب، فيأخذ البحارة المجدفون والحرفيون من بلاد الشام كمية صغيرة من البسكويت وقليل من الخل الممزوج بالماء وبضع قطرات من الزيت، أما بالنسبة للمسيحيين فعادة ما يكون لديهم البسكويت فقط ولا شيء آخر، وفيما يخص الرياس الأعلاج والأتراك والذين يمارسون الجهاد البحري وكذلك التجارة فإنه ليس لديهم رواتب ولا تخصص لهم نفقات كبقية البحارة،

¹– Moulay Belhamissi, marine et marins D'Alger (1518– 1830), T 1, op. cit, p 110.

²– كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 241، 247.

³– كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 51.

⁴– حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 140 – 141.

وإنما يعتمدون على أنفسهم من خلال توفير غذائهم ومستلزماتهم الخاصة، مستفيدين في ذلك من الغنائم البحرية، ويتحدون في مجموعات مكونة من 10 إلى 12 بحار من أجل توفير غذائهم واقتسام الغنائم البحرية¹. وتوزع حصص الغذاء على البحارة ثلاث مرات في اليوم، ولا يأخذون معهم أسرة ولا خزائن، وبالنسبة لغطائهم أثناء النوم عادة ما يغطون بلباس البرنوس خاصة المغاربة منهم والذي يرتدونه وفي نفس الوقت يغطون به، وبعضهم يُعطى له بطانية من الصوف².

ويُعتبر الكُسكس هو الطبق الرئيسي عند الجزائريين منذ القدم، حيث تناوله البحارة في معظم الأوقات نظرا لسهولة طهيه ومذاقه اللذيذ، وقد تحدث العديد من المؤرخين والقناصل وغيرهم عن هذا الطعام ومختلف عادات الجزائريين خلال العهد العثماني، ومن بين هؤلاء جيمس ويلسن ستيفن الذي وصف لنا الأكل التقليدي أو الأكل المعتاد في ذلك الوقت في قوله: "وطعامهم التقليدي هو الأرز والطحين الرقيق الذي يُعد في حبات صغيرة مثل رصاصة، ويُطلقون عليه الكسكس، حيث يُحضر باللحم ولحم الديك أو الدجاج وغالبا ما يأكلون معه الفواكه والأعشاب"³.

وهذه الوجبة ليست هي نفسها في كل الأساطيل البحرية الأخرى وليست كذلك هي نفسها في كل الأوقات فهي تختلف من مكان إلى آخر وتختلف من زمان لآخر، ولكن تبقى الوجبة الغالبة عند البحارة في ذلك العصر⁴. وبالنسبة لتوزيع حصص الوجبات على البحارة في اليوم الواحد يذكر حنفي هلايلي: "... فوجبات الأكل على ظهر السفينة كانت تُوزع على شكل

¹– diego de haëdo, op. cit, p 92.

²– Laugier de Tassy, **Histoire du Royaume D'Alger**, harvard college library, Amesterdam, Hollande, N. D, p 267– 276.

³– جيمس ويلسن ستيفن، الأسرى الأمريكيان في الجزائر: 1795 / 1796م، ترجمة علي تابليت، د. ط، منشورات ثالة، الجزائر، 2007م، ص 159.

⁴– مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص 126.

حصص: وجبة الفطور تتضمن القهوة والسجائر وأحيانا تناول الخبز والزيتون، بينما وجبة الغذاء فهي عبارة عن حساء مغلي ولحم جاف من نوع (خُلِيع) مغلي بالزيت. أما وجبة العشاء غالبا ما تكون من نوع الكسكسي...¹.

- **الجلفطة² والزيت:** بعد صناعة جسم السفينة يُجلفطونه أولا بحرق بعض النباتات، وكان يستهلك في الجلفطة الأولى اثنا عشرة قنطارا من الطلاء، وخمسة وعشرون قنطارا من الزيت أو أقل من ذلك حسب ما تستهلكه كل سفينة، ويستهلك في كل تزييت أربعة قناطير من الشحم، ويزيت كلما احتاجت السفينة للتزييت، وفي أغلب الأحيان تُزييت السفن ثلاث مرات في كل سفر، بحيث تزييت أول مرة في الترسانة ومرتين في الطريق، وعندما تزييت السفن من الخارج تستند كل سفينتين على بعض، ويتم تزييتهما من طرف ستة أشخاص يقومون بسد شقوقها، وتحتوي كل سفينة على مراجل (قدرات) للزفت وأخرى للزيت، بالإضافة إلى وجود مغارف للغرف³.

- **الأسكانديل (مقياس عمق البحر):** يوجد لكل سفينة مقياس لمعرفة عمق البحر، ويتكون من سبعين أو ثمانين ذراعا من الحبال، ويُربط في نهايته رصاصة أو حجرة مسطحة تزن ثلاث أوقيات، وعند اللزوم يمسح سطح الحجر بالشحم، ويربطون طرف الحبل في مؤخرة السفينة، ويلقونها في البحر، ويقوم شخص واقفا في المؤخرة بالمقياس، ولما تصل الرصاصة إلى قاع البحر يخرجونها وينظرون إلى مكانها، فإذا كان المكان ذا حجارة يرون في الشحم الموضوع

¹ - حنفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 148.

² - الجلفطة هي مادة تستخدم لسد الشقوق والفتوحات التي تتكون بين ألواح السفينة وموضع المسامير. يُنظر: قاموس المعاني الجامع، "تعريف ومعنى جلفط"، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 11- 02- 2022م، مُتاح على الرابط التالي:

<https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%AC%D9%84%D9%81%D8%B7>

³ - كاتب جلبي، المصدر السابق، ص 246.

على سطح الرصاصة شقوق، أما إذا كان القعر رمليا فإنه يلتصق الرمل بالشحم، أما إذا كان شيء آخر كالنباتات وغيرها فإنهم يعرفون ذلك وفق علامات معينة¹.

- **الخريطة والبوصلة:** تُعتبر الخريطة والبوصلة أدوات مُهمة في الملاحة، وذلك لمعرفة الأماكن والاتجاهات، والخريطة هي عبارة عن جلد كُتب عليه ورُسمت عليه صورة البحر، أما البوصلة فهي التي تُبين اتجاه القبلة، ويضعونها فوق الخريطة، ويعثرون على النجوم ويعرفون اتجاه السير ومهب الرياح، ويوجهون دفة السفينة وفق هذه المعطيات، ويستخدمون الرياح المناسبة، وإذا كان السير ليلا يوقدون القنديل ليطلعوا على الساعة، وإذا كان في الطريق أماكن صخرية يتحاشونها، وإذا هبت رياح معاكسة وقامت العواصف واتجهوا نحو طريق غير طريقهم ينظرون إلى البوصلة ويصححون خط سيرهم، وفي كل سفينة رئيسان يقومان بهذه الأعمال، كما يوجد في سفن الربابنة والقادة منظار مُقرب يُستخدم عند الحاجة، ولكل هذه الأجهزة والأشياء صندوق صغير، وعندما يصل الأسطول إلى مقره أو إلى الميناء يضعون هذه الأشياء في ذلك المخزن بعد استلامها ويسجلونها في الدفاتر².

- **الصابورة:** وهي ثقل يوضع على السفينة للحفاظ على توازنها، بحيث يضعون على السفينة صابورة من الحصى، وعند اللزوم يفرغون الحصى ويضعون بدلا منه البضاعة، وذلك لأن بعض السفن تسير وهي مستوية، وبعضها الآخر تسير إذا كانت مؤخرتها منخفضة، أما إذا كانت مقدمتها منخفضة إلى الأسفل فإنها لا تسير، فيحافظون على اتزانها من خلال وضع صابورة الحصى أو غيرها في مكانها المخصص³.

¹ - كاتب جليبي، المصدر السابق، ص 246.

² - نفسه، ص 247.

³ - نفسه، ص 247.

2- التجهيزات الحربية:

كانت السفن الحربية تُجهز بالعديد من المعدات المهمة وذلك لتسهيل عملها خاصة حين الهجوم والسطو على مراكب العدو، وتختلف تلك العدة من فترة إلى أخرى ومن سفينة إلى أخرى، فخلال العهد العثماني برزت السفن الحربية للوجود ومنها السفن الجزائرية، التي ساهمت بشكل كبير في سير عمليات الجهاد البحري وإنقاذ المسلمين في عرض البحر الأبيض المتوسط وفي أماكن اضطهادهم، وكذلك مواجهة الحملات الصليبية والتصدي لها، فكانت هناك العديد من التجهيزات سواء الخاصة بسير السفينة في البحر أو الخاصة بعمليات الهجوم على الأعداء، وكذلك المعدات الخاصة بالمقاتل من أسلحة وألبسة وغيرها.

ومن أهم تلك المعدات التي تحتاجها السفن الحربية الزرد¹ والخوذات والدرق والتروس والرماح والكلاليب والباسليقات - عبارة عن سلاسل في رؤوسها رمانة حديدية - والعرايدات². وكان البحارة في غالب الأحيان مسلحين بسيوف الشمشير (المقوسة) ومناجل ذات مقبض بحيث تستخدم هذه الأخيرة في قطع الحبال وربما لضرب العدو إن اقتضت الحاجة لذلك، بالإضافة إلى أسلحة أخرى كقاذفات السهام والرماح وبعض الأسلحة النارية الأخرى مثل البندقية³.

ويذكر بعض من اهتموا بهذا الجانب أنّ البحار الجزائري في تلك الفترة كان يقتني سلاحه من نفقته الخاصة والذي يتمثل في سيف يطغان وبندقية ومسدس، أما الضباط فبعضهم

¹ - الزرد وجمعها زرود وهي عبارة عن دروع حديدية شاع استخدامها بين فرسان القرون الوسطى وكذلك عند الجنود المسلمين، ومن مميزاتها أنها تتسم بمقاومة شديدة تساعد الجندي في حماية نفسه من ضربات وطعنات السيف أو الخنجر. ينظر: لوران أورجياس، "علم المواد: منسوجات تتحوّل من الحالة المرنة إلى الصلبة تحت تأثير الضغط"، مجلة nature، تم نشره بتاريخ: 23-08-2021م، تم الاطلاع عليه بتاريخ، 07-01-2023م، متاح على الرابط التالي:

<https://arabicedition.nature.com/journal/2021/08/d41586-021-02116-2>

² - زيدان جرجي، تاريخ التمدن الإسلامي، ج 1، د. ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م، ص 222-223.

³ - إسماعيل جودي، المرجع السابق، ص 33.

يحمل بندقية من نوع بلندربوس وهي من بين البنادق واسعة الفم وتُطلق عدة طلقات متوالية شبيهة بتقنية الرشاش الحالي. وهناك من يذكر أنّ السلطة الجزائرية في ذلك الوقت كانت تزود الجندي الجديد ببندقية وسيف يطغان وزوجا من المسدسات وذلك على شكل استعارة، وفي حالة ضياع أو عدم إرجاع تلك الأسلحة فإنه يتم اقتطاع قيمتها من راتبه الخاص¹.

ويُمكن القول أنّ السلاح البحري لا يختلف كثيرا عن السلاح البري نظرا لتشابه أنواع الأسلحة في تلك الحالتين، إلا أنه في البحر يتم الاعتماد بشكل كبير على الأسلحة القاذفة والحارقة نظرا لصعوبة التحرك ولضيق المساحة التي يوجد بها الجنود على متن السفن. ومن المؤكد أنّ الحرب في البحر صعبة جدا ومكلفة إذا ما قارناها بالحرب البرية، وذلك لعدة أسباب يُجملها عبد الله عروي في قوله: "إن الحرب في البحر شديدة صعبة مفسرة لأمر منها أن المجال ضيق ولا تكاد السهام والأحجار تخطئ... ومنها اختلاف الرياح بما يضر أو سكونها عند وقت الحاجة إليها ومنها أنه لا يمكن فيه الهرب والفرار إن اقتضت المصلحة ذلك ولا الاستتار..."².

وأمام هذه الصعوبات حاول البحارة دائما اختراع وسائل تساعد في حروبهم البحرية وتقلل من خسائرهم المادية والبشرية، فبالإضافة إلى هيكل السفينة وما تحتويه من معدات لسيورها في البحر فإنه توجد معدات أخرى تُستخدم لأغراض حربية، ومن بين تلك المعدات التي كانت تُستخدم قديما على متن السفن نذكر ما يلي:

- المدافع: تم شرحها أعلاه ضمن جزء مستلزمات السفن.
- القسي (القوس): وهي تعتبر من أقدم الأسلحة القتالية، وقد استخدمت في البداية للقتال البري ثم استخدمت في القتال البحري نظرا لفعاليتها في كلا الحالتين، وهي مصنوعة من الخشب ولها عدة أنواع، ومنها التي تُشد باليد وأخرى تُشد بالرجل وتُسمى القوس العقارة وهي

¹ - إسماعيل جودي، المرجع السابق، ص 80.

² - عبد الفتاح عبادة، المرجع السابق، ص 16.

أكبر من الأولى من حيث الحجم، وكان رُماة القسي العقارة يتمركزون في قلاع السفن والأبراج وتُجذب أوتارها باللوالب¹.

- **المجانيق:** هي عبارة عن آلة من الخشب لها جانبان بينهما عمود طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف، ويُربط بهذا العمود كفة المنجنيق التي توضع فيها الحجارة أو المواد الأخرى التي يراد قذفها نحو العدو، وتتم هذه العملية باستخدام حبال لولبية حيث يشد طرف العمود الذي به الكفة حتى ترفع أسافله على عاليه، وبعدها يتم إفلات الحبل فترتفع الذنب الذي به الكفة مما يؤدي إلى اندفاع الحجارة أو غيرها اندفاعا شديدا صوب العدو، والمجانيق تتفاوت أحجامها وتسمياتها بحسب استخدامها، فهناك من تُستخدم لقذف الحجارة وأخرى يتم من خلالها قذف النفط أو الزيت المغلي أو خرق الكتان الحارقة، وفي كثير من الأحيان تُخصص له مركب لحمله وحمل حجارته أو مواد أخرى بالإضافة إلى الجنود الذين يعملون عليه².

- **العردات:** هي آلات أصغر من المنجنيق وتُستخدم في رمي الحجارة، بالإضافة إلى السهام بعيدة المدى وقُدور النفط وغيرها من المواد الأخرى³.

وهناك أسلحة أخرى أقل تأثيرا من سابقتها كالمساحي والمعاول والحبال والدروع والرماح والسيوف⁴. ومن بين التقنيات الأخرى التي كان يستعملها البحارة في حروبهم ضد العدو أنهم كانوا يجعلون في أعلى الصواري صناديق مفتوحة من أعلاها يُسمونها التواييت، يصعد إليها الرجال قبل ملاقات العدو ويقيمون فيها، ويأخذون معهم حجارة صغيرة في مخللة معلقة بجانب الصندوق، وذلك بغية رمي العدو بهذه الحجارة وهم يستترون بالصناديق، وقد يكون معهم بدل

¹ - توفيق مزارى عبد الصمد، المرجع السابق، ص 328.

² - نفسه، ص 328 - 329.

³ - نفسه، ص 329.

⁴ - نفسه، ص 330.

هذه الحجارة قوارير النفط¹ للإشعال، أو جرار النورة - وهي عبارة عن مسحوق ناعم من مزيج الكلس والزرنيخ -، بحيث يرمونها في اتجاه الأعداء فتعميهم بغبارها، وقد تلتهب عليهم إذا تبددت، وأحيانا أخرى يرمون على سفن العدو قُدور الحيات والعقارب أو قدور الصابون اللين لكي يزلق أقدامهم ويسقطون، وكانوا يُعلقون خارج سفنهم الجلود أو اللبود المبلولة بالخل أو الماء والشب والنظرون لدفع أذى النفط، وكل هذه المواد تقاوم مفعول النفط².

ومن احتياطاتهم أيضا في الحرب أنهم إذا جنّ عليهم الليل لا يشعلون في مراكبهم نارا ولا يتركون فيها ديكاً، وإذا أرادوا المبالغة في الاختفاء أسدلوا على سفنهم قلوفا زرقا كي لا تظهر عن بُعد، وفي مقدمة المراكب كانوا يضعون أداة كالفأس يُسمونها "اللجام" وهي عبارة عن حديدة طويلة محددة الرأس جدا وأسفلها مجوف كسنان الرمح، تدخل من أسفلها في خشبة كالقناة بارزة في مقدمة المركب تُسمى الإسطام، فيصير اللجام كأنه سنان رمح بارز في مقدمة المركب، ويستخدمونه لطعن مراكب الأعداء، فإذا أصاب جانب المركبة بقوة خرقها ثم يدخل الماء في جوفها، فيطلب بحارتها الأمان، وهو ما يجعل الاستيلاء عليها بسهولة. بالإضافة إلى ذلك توجد العديد من الكلايب وتستخدم في إلقاءها على سفن العدو لشدها، ثم يرمون عليها مجموعة من الألواح لتصبح كالجسر ويدخلون من خلالها إلى سفينة العدو ويقاثلون بحارتها، أما إذا كان العدو قويا فإنهم يبطلون فعل الكلايب بفأس ثقيلة من الفولاذ يضربون به تلك الكلايب فتقطع³.

¹ - النفط البحري ويسمى أيضا القير، وهو مصطلح يطلق على صفة قار Bitumen، ويكون لونه في الطبيعة أبيض وأحيانا يوجد باللون الأسود، ومن خصائصه اجتذاب النار عن بعد دون أن يلمسها مباشرة، إذا أخلط بمواد أخرى كالدهان والزيت والكبريت وغيرها، فإنه يشتد التهابه ولزوجته. كان هذا المزيج يضرم النار في كل شيء وكان يقذف به على مراكب العدو، ويتولى إطلاقه شخص متخصص في ذلك يسمى النفاط أو الزراق، بحيث يطلق هذه النار على هيئة النفط بواسطة أنبوبة نحاسية تسمى النفاطة أو الزراقة أو المكحلة، وكثيرا ما يطلق النفاطون هذا المزيج بواسطة النشاب والسهم وأحيانا بالمجانيق.

ينظر: عائشة حنفي، المرجع السابق، ص 340.

² - توفيق مازري عبد الصمد، المرجع السابق، ص 330.

³ - زيدان جرجي، المرجع السابق، ص 222 - 223.

ومن بين الأمور المهمة في الملاحة البحرية إصلاح الأعطاب التي تطرأ على السفن أثناء ملاحتها، وليس كل من يركب السفينة له دراية بهذا المجال بل هناك أفراد متخصصين ولهم خبرة في عملية الإصلاح، ومن بين هؤلاء: الغواصون، مع أننا لم نجد بالضبط معلومات عن كيفية إصلاح السفن التابعة للأسطول الجزائري خلال العهد العثماني ولكن أخذنا المعلومة من من تحدثوا عن هذا الجانب خلال القرن الثامن الهجري (الرابع عشر الميلادي)، بحيث ذكر أحد رجال البحر العرب أنه خلال هذه الفترة كان في مراكب البحر الهندي عادة أربعة من الغواصين، فإذا نفذ الماء في المركب وعلا فيه، عمدوا إلى أجسامهم وطلوها بزيت السمسم، وسدوا أنوفهم بالشمع، ثم أخذوا يسبحون حول المركب في مسيره، ويسدون ثقوبه بالشمع، ويمكن أن يسدوا ويصلحوا من عشرين إلى ثلاثين ثقباً في اليوم، وحتماً هذه الطريقة تكون هي نفسها أو تشبهها في أساطيل البحر الأبيض المتوسط نظراً للتقارب الزمني والجغرافي¹.

ومن الأمور الأخرى التي تساعد البحارة في الملاحة البحرية خاصة قضية التواصل بين الأساطيل البحرية المتحالفة أو بينهم وبين الهيئة الحاكمة في البلاد، استخدام الحمام الزاجل في نقل الأخبار، بالإضافة إلى استخدامه في قياس المسافات، فقد يستطيع هذا النوع من الحمام أن يطير لبضعة آلاف من الأمتار لقياس المسافات².

¹ - آدم متز، المرجع السابق، ص 431.

² - نفسه، ص 431.

ثالثا: البنية التنظيمية للجيش البحري.

يتشكل الجيش البحري أساسا من طائفة الرياس، وتُعتبر هذه الطائفة أهم طائفة في الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني، وذلك من خلال دورها الفعال في ازدهار اقتصاد الجزائر وتطوير أسطولها البحري، وكذلك كان لها الدور البارز في مواجهة التحديات وتحقيق الأهداف المُسطرة، فخلال ثلاثة قرون من الزمن استطاعت أن تُبرز مكانتها المحلية والدولية بعد أن واجهت مختلف الصعوبات المحيطة بها، خاصة التحرشات الأوروبية ومشكل القرصنة البحرية وقضية تحرير المدن المغاربية المحتلة، ورغم ذلك فإنها حققت أهدافا كثيرة ولعل من أهمها تحرير السواحل الجزائرية من الغزو الإسباني، وتحقيق الرفاه الاقتصادي والسياسي للإيالة الجزائرية التي أصبحت سيدة البحر المتوسط دون منازع خاصة في الجزء الغربي منه.

وتُعتبر هذه الطائفة الأكثر استحواذا على الحكم في الجزائر إذا قارناها بالجيش الإنكشاري البري، وهذا راجع لعدة عوامل وأسباب، والتي من أبرزها نفوذهم الاقتصادي وخبرتهم في مجال التسيير، بالإضافة إلى ميل المجتمع الجزائري لهذه الطائفة في غالب الأحيان. وهذه العوامل كلها ساهمت في بروز البحرية الجزائرية وشيوع سمعتها، وهذه المكانة التي حظيت بها مؤسسة البحرية انعكست إيجابا على طاقمها العسكري والإداري، خاصة بعد انخراط العديد من البحارة من جنسيات مختلفة والمتشكلة أساسا من الأتراك والأعلاج والموريسكيين وبدرجة أقل الأهالي الجزائريين.

ويورد لنا محمد بن ميمون الجزائري كلاما مهما حول هذه الطائفة في قوله: "لم تكن هذه الطائفة خاضعة خضوعا تاما للنظام الإداري، بل كان لها حكم خاص. فهي بمثابة النقابة لربابينة البحر. وكانت هذه الطائفة تتمتع بمحبة تامة، واحترام كبير لدى جمهور الشعب، لأنها كانت تحمي البلاد من غزوات العدو البحرية، كما أنها كانت غنية جدا بسبب الغنائم التي تأخذها من العدو في عرض البحر..."¹. وهذا الكلام قريب جدا من الواقع التي كانت تعيشه

¹ - محمد بن ميمون الجزائري، المصدر السابق، ص 42.

البحرية الجزائرية خاصة في بداياتها الأولى، ففي عهد عروج وخير الدين بربروس التقى الكثير من سكان الجزائر لهؤلاء الرياس وساندوهم بالمال والرجال، وتكرر الأمر على الحكام الذين أتوا بعدهم، ولو أنه يعاب عنهم أنهم أهملوا أهالي الجزائر ولم يشاركوهم في مؤسسات البحرية الجزائرية والجهاد البحري، ما عدا فئة قليلة خاصة ذو الجاه والمال الذين كانت لهم علاقات وطيدة مع الرياس، ورغم ذلك برزت شخصية جزائرية قوية في أواخر الوجود العثماني بالجزائر، وهو البحار الشهير الرياس حميدو (1770-1815م)، الذي برز كقائد قوي وبحار مشهور ضمن البحرية الجزائرية، وقام بالعديد من المعارك ضد الأعداء وعُرف بسمعته الطيبة وشخصيته القوية في أوساط البحرية الإسلامية وفي أوساط البحرية المسيحية كذلك.

وكانت هذه الطائفة تُجند رجالا من مختلف فئات الشعب، بالإضافة إلى إتاحتها الفرصة لمختلف الفئات للولوج للعمل ضمن البحرية الجزائرية سواء في الجهاد البحري أو في مجال الصناعة والتجارة وغيرها، ومن بين تلك الفئات نجد الأتراك، الأعلاج، الكراغلة، الأندلسيين، بالإضافة إلى السكان المحليين¹، وهناك فئات أخرى رغم أن عملها كان محدودا إلا أنها شكلت عنصرا مهما في ازدهار وتطور البحرية الجزائرية وتتمثل في فئة الأسرى المسيحيين الذين عملوا في المصانع وفي مهنة التجديف، بالإضافة إلى كونهم يُعتبرون قيمة مالية من خلال بيعهم أو الحصول على قيمة فدائهم.

ويذكر حنفي هلايلي أن أعداد الرياس في مدينة الجزائر قد بلغ ستة آلاف قرصان سنة 1564م حسب تقرير لجاسوس إسباني، ليرتفع هذا العدد سنة 1632م إلى ثمانية آلاف قرصان حسب الأب دان، فإلى جانب الأتراك برزت فئة تبوأ مكانة مهمة ومرموقة في مؤسسة البحرية الجزائرية والتي تتمثل في فئة الأعلاج الذين كان يزداد عددهم من سنة إلى أخرى، حتى وصلوا في عهد الداوي مصطفى باشا (1798-1805م) إلى أعداد كبيرة جُندت في البحرية الجزائرية. ومن أشهر الرياس الأعلاج علي بتشين (1560-1645م)، الذي ينحدر أصله من إيطاليا،

¹ - عائشة حنفي، المرجع السابق، ص 335.

وقد ترقى في المراتب ليصل ما بين سنتي 1641 و1645م لأعلى المراتب في البحرية الجزائرية، وأصبح الرجل القوي النافذ في مدينة الجزائر حتى وفاته سنة 1645م¹.

وهذه المكانة التي وصل إليها الأتراك والأعلاج وبدرجة أقل الأندلسيين الذين استقروا بالجزائر لم يحض بها الجزائريون، وهذا راجع لسياسة الحكام آنذاك القائمة على استبعاد الأهالي من المناصب العليا والحساسة، وذلك لطبيعة التغيرات الدولية المحيطة بالمنطقة التي تتطلب حنكة ودراية كبيرة بأمور البحر خاصة الصراع المسيحي الإسلامي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وهذا ما لم يكن متوفر لدى الجزائريين حسب اعتقادهم، أو من جانب آخر هو خوف الحكام العثمانيين على مكانتهم التي ربما تتزعزع وتُصبح في أيدي الجزائريين، وهذا الإشكال يبقى مطروح لدى المؤرخين للفصل فيه، لكن هذه النظرة لفئة الأهالي من طرف الحكام بدأت تتراجع وتقل حدتها في العقود الأخيرة من التواجد العثماني بالجزائر، ونلمس ذلك من خلال ما ذكره بن جبور محمد الذي استند في كلامه على ما ذكر في بعض المصادر الفرنسية التي تُبين أنه من بين ألف وخمسمائة بحار كانوا يمارسون عملهم في ميناء الجزائر سنة 1820م كان ثلثهم من الرعية والباقي من الأوجاق، ونجد أنه من بين تسعة سفن خرجت إلى البحر في أكتوبر 1804م كان رؤساء أكبر ثلاث سفن منها من الرعية، ومن أشهرهم الرئيس حميدو².

ولم يكن الرئيس يهتمون بصناعة السفن وزيادة عددها فحسب بل كان اهتمامهم أيضا بتعلم بعض القواعد النظرية لفن الملاحة، كقراءة البوصلة ومعرفة حركة النجوم واتجاهات الرياح وفهم الخرائط الملاحية أو الاهتداء بالجمال عند الحاجة³، وفي هذا الجانب يقول وليام

¹ - حنيفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 48.

² - محمد بن جبور، "البحرية الجزائرية في أواخر العهد العثماني"، مجلة عصور، جامعة وهران، الجزائر، المجلد 07، العدد 02، 30 ديسمبر 2008م، ص 116.

³ - حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال المؤتمر الدولي الرابع عشر للدراسات الموريسكية - الأندلسية "مهداة إلى الأستاذ الإسباني ميكال دي إيبالنا"، منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ماي 2011م، ص 104، 106.

شالر: "وبعض الرياس والقادة البحريين وربابنة السفن تعلموا من الأجانب تحديد العروض وقاموا بترجمة الجداول الفلكية إلى العربية، وهم يستعملونها لهذه العمليات في البحر الأبيض. ولكنهم حينما يجتازون مضيق جبل طارق للملاحة في المحيط الأطلسي، يضطرون إلى الالتجاء لأول سفينة مسيحية تصادفهم لتعير لهم بحارة يوجهونهم حتى يعودوا إلى البحر الأبيض..."¹.

في حين يذكر الجغرافي شهاب الدين أحمد بن ماجد بعض المعارف والعلوم التي يجب أن تتوفر في الملاح لكي يقوم بالملاحة بشكل جيد، فيذكر: "اعلم أيها الطالب أن لركوب البحر أسباب كثيرة فافهمها فأولها معرفة المنازل والأخنان والدير والمسافات والباشيات والقياس والاشارات وحلول الشمس والقمر والأرياح ومواسمها ومواسم البحر وآلات السفينة وما يحتاج إليه وما يضرها وما ينفعها وما يضطر إليه في ركوبها وينبغي تعرف المطالع والاستوايات وجلسة القياس وترتبه ومطالع النجوم ومغاربها وطولها وعرضها وبعدها وممرها إن كان معلما ماهرا وينبغي أن تعرف جميع البرور وندخاتها وإشاراتها كالطين والحشيش والحيات والحيتان والموارز والأرياح وتغير الأمواه ومد البحر وجزره في كل طريقه ويكمل جميع الآلة ويتفقد في أحصان السفينة وآلاتها ورجالها ولا يشحنها غير العادة ولا يطلع في مركب لا يطاع فيه ولا مركبا بغير اعتداد ولا في موسم ضيق ويحترز عن الأخطار في مثل عدة ورجال وغيره وينبغي للمعلم أن يعرف الصبر من التواني ويفرق بين العجلة والحركة عارفا عالما بالأشياء عازما فتاكا لين في قوله عادلا لا يظلم أحدا لأحد مقيم الطاعة لربه متق لله تعالى لا يغصب التجار على حقوق إلا على شيء وقع عليه القول أو جرت به العادة كثير الاحتمال عالي الهمة صبارا مقبولا بين الناس لا يسعى فيما لا يصلح له أديبا لبيبا وإلا فليس هو معلم..."².

¹ - وليام شالر، المصدر السابق، ص 81 - 82.

² - شهاب الدين أحمد بن ماجد (ت: 906 هـ / 1501م)، الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد، الفائدة الثانية، الورقة 16.

تم جلب الكتاب من موقع: archive.org

وبالنسبة لتسيير البحرية الجزائرية فإنها كانت تُسير وفق نظام مُحكم مبني على التسلسل الهرمي للسلطة البحرية، بحيث يبدأ من أعلى مرتبة إلى غاية البحارة العاديين، ولتسيير هذه المؤسسة وفق نظام مُحكم ومنضبط خاضع لمبدأ تسلسل الرتب والمهام فإنه قسمت الإدارة البحرية إلى قسمين؛ القسم الأول المكلف بإدارة البحرية الجزائرية وهي الإدارة العامة والتي ترجع لها الأوامر والقرارات الرئيسية لتسيير وتنظيم البحرية، والقسم الثاني الذي يُكلف بإدارة السفن وتسييرها في عرض البحر، ومهمتها كذلك تتطلب حكمة ورصانة في التسيير، لأنه يقع على عاتقها حماية البحارة والسفن من الهلاك، ومواجهة الأعداء وممارسة الجهاد البحري وجلب الغنائم وغيرها من أمور الملاحة البحرية، فكان لكل سفينة أو مركب رئيس يترأسه ويُختار من بين رجال البحر الماهرين الشجعان ذوي البطولة المفرطة ولهم خبرة كبيرة في مجال الملاحة البحرية.

وهذا النظام المُحكم الذي تميز به الأسطول البحري الجزائري نلمسه في قول ابن اشنهو الذي ذكر أن نظام البحرية: "... شديد وعنيف لا فتور فيه ولا انحلال. يحتوي على عدة وحدات مجهزة بالمدافع والعتاد الحربي والشرائع والمجاذيف يقودها البحارة أو الرياح أو هما معا إذا كانت الريح غير كافية أو مضادة لسير المركب"¹.

ويمكن أن نوجز هذا التنظيم الإداري للبحرية الجزائرية فيما يلي:

1- إدارة البحرية الجزائرية: ويتكون طاقمها من:

- **وكيل الحرج:** ويُعتبر وزير البحرية، وتمثلت مهامه في إدارة شؤون البحرية والعلاقات الخارجية، وقد كانت الصناعة البحرية والتسليح والغنائم وصيانة الميناء وحل الصراعات بين الرياس والمتطوعين وكل ما يتعلق بالتجارة الخارجية والنقل البحري كلها من اختصاصه²، وهو

¹ عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 99-100.

² حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرثا"، المرجع السابق، ص 262.

مسؤول رفيع المستوى، يتمتع بالكثير من الاحترام، ويتم تنصيبه من طرف الداي الذي يختاره عادة كبير السن ومن ذوي الخبرة في البحرية ويتمتع بشخصية قوية¹.

ويساعده اثني عشرة بولكباشيا يسهرون على حراسة المخازن وتموينات الأسطول²، وأخذ كل المعلومات التي يحتاجونها من كل السفن التي تصل للميناء ثم يُبلغونها على الفور إلى الحاكم، ومن مهام وكيل الحرج أيضا مسؤوليته عن زيارة جميع سفن القوى المسيحية، وكذلك له الحق في حل مختلف النزاعات التي تقع في الميناء³، ويتولى كذلك قيادة قبطانات الميناء وقبطانات الحملات والرياس ويقدم لهم التعليمات⁴.

وبفضل هذا المنصب الرفيع في البحرية الجزائرية تمكن وكيل الحرج من تشديد قبضته على أقوى مؤسسة في الإيالة الجزائرية والتي تتمثل في البحرية الجزائرية، وهو ما سمح له بالارتقاء في كثير من الأحيان إلى منصب حاكم الإيالة أو خزانجي⁵، ورغم أهمية وظيفة وكيل الحرج في تسيير الشؤون البحرية، إلا أن مكانته قد تضاءلت وتقلصت صلاحياته إثر ضعف القرصنة واشتداد الضغط الأوروبي على الجزائر وتزايد نفوذ آغا العرب والخزانجي⁶.

- **القبودان:** يُعد القبودان من أبرز ضباط البحرية الجزائرية، وذلك باعتباره القائد العام للأسطول البحري عند خروجه إلى عرض البحر⁷.

¹- SHAW (docteur Thomas), **Voyage dans la régence d'Alger au XVIIIe siècle**, traduit de l'anglais par E. Mac Carthy, chez Marlin éditeur, Paris, France, 1830, p 172.

²- حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرّبا"، المرجع السابق، ص 262.

³- SHAW (docteur Thomas), op. cit, p 173.

⁴- حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرّبا"، المرجع السابق، ص 262.

⁵- نفسه، ص 262.

⁶- ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 17.

⁷- حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرّبا"، المرجع السابق، ص 263.

- **قائد المرسى (ليمان رئيسي):** وهو قائد الميناء وتتمثل وظيفته في المراقبة والتفتيش، وقد خصصت له الإيالة سفينة خاصة يجوب بواسطتها المياه الإقليمية لمدينة الجزائر، بُغية تفقد شواطئها ومراقبة دخول وخروج السفن التي تأتي إلى الميناء والتعرف على هويتها وطبيعة مهامها، ومن وظائفه كذلك جمع الأخبار من السفن القادمة من مختلف الدول إلى الجزائر، واستلام الرسائل المبعوثة إلى الباشا أو أحد أعضائه¹.

ونظرا لأهمية وظيفته فإنه كان يدخل عند الباشا عدة مرات في اليوم، ليُطلع على كل التقارير، وقد كان بعض الباشوات يُكلفون قائد الميناء بإرسال رسائل إلى الدول، مثلما فعل عمر باشا (1815-1817م) بتكليف أحد القائمين على إدارة الميناء بحمل تقرير إلى السلطان العثماني محمود الثاني (1785-1839م) لإخباره عن الحملة البريطانية على مدينة الجزائر سنة 1816م².

- **واردان باشي:** يُعتبر من أبرز الموظفين في البحرية الجزائرية، بحيث يشرف على الأعمال التي يقوم بها الخدم في الميناء، وكذلك يُعين العدد الكافي من العمال لكل سفينة³.

- **المزوار:** وهو رئيس شرطة الأخلاق العامة⁴.

2- الطاقم المساعد والمرافق للأسطول البحري:

لقد كان الأسطول البحري الجزائري خلال العهد العثماني يُسير وفق طاقم منظم، وهذا الطاقم ينضوي تحت الطاقم الأول أو الهيئة العامة لتسيير البحرية، ويضم عدد كبير من

¹ - حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المرجع السابق، ص 264.

² - محمد بن جبور، المرجع السابق، ص 115-116.

³ - حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المرجع السابق، ص 265.

⁴ - هجيرة غراف، "السلطة والمؤسسة العسكرية في الجزائر خلال العهد العثماني (1519م-1671م)"، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث (ل. م. د) في التاريخ الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران 1، الجزائر، دفعة 2021م، ص 146.

- الموظفين من قائد السفينة إلى غاية المجدفين، وهذا وفق نظام تسلسل المهام لكي يسهل تسيير الأسطول وضبطه، ويتمثل الطاقم المساعد فيما يلي:
- **القبطان رايس:** وهو قائد السفينة¹، ويتم اختيار القبطان رايس بعد إجرائه لاختبار أمام رجال البحر المسنين ذوي الخبرة والحنكة في أمور الملاحة البحرية².
 - **باش رايس:** وهو المساعد الأول لرايس السفينة، وتتحصر مهامه في توزيع المهام على البحارة والسهر على الانضباط والتنظيم داخل السفينة³.
 - **موصو رايس:** وهو نائب ثاني لقائد السفينة⁴.
 - **القبطان (المعلم):** يُعتبر من بين أهم أفراد طاقم السفينة، وذلك لخبرته ومعرفته بالموانئ وأعماقها والدخول بالسفن إليها والخروج منها، بالإضافة إلى ذلك يكون له دراية تامة بالسفن في جميع البحار، وله دراية بعلم الفلك، ويقع على عاتقه قيادة السفينة إلى وجهتها وتجنبها الأخطار، بالإضافة إلى هذا تكون له معرفة وخبرة بالجبال والجزر وله معرفة بالبر وأماكن وجود ماء الشرب، وله معرفة بأسماء وأماكن الخلجان ومداخلها، وله علم بالسفينة وأجزائها⁵ وغيرها من الأمور المهمة التي تُسهل عملية الإبحار.

¹- طارق عزيز فرحاني، المرجع السابق.

²- عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 101.

³- حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المرجع السابق، ص 261.

⁴- طارق عزيز فرحاني، المرجع السابق.

⁵- حليم سرحان، "تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين (920-1246هـ) (1514-1830م) من خلال المصادر التاريخية والأثرية". المرجع السابق، ص 190.

- **رايس العسة:** وهو مفتش المركب والمشرف على صيانتته والعناية به¹، وكذلك يُرتب الحراسة على السفينة ليلا ونهارا، يتناوب فيها الحراسة أربعة أفواج من الحراس، وتدوم فترة كل حارس ست ساعات متوالية ثم يخلفه حارسا آخر، وهكذا يتم حراسة المركب ليلا ونهارا دون انقطاع².

- **باش طبجي:** وهو ضابط المدفعية في المركب يُشرف على صيانة المدافع واستعمالها في الحرب³.

- **باش دومانجي:** وهو ضابط الأشرعة في المركب ويشرف على كيفية استعمالها⁴.

- **البريطاجي:** المكلف بالشرع العليا للسفينة⁵.

- **القرداكابور:** المكلف بالشرع السفلية للسفينة⁶.

- **خوجة:** وهو كاتب السفينة ويُعتبر المحاسب والموثق، فهو يسجل مداخيل ومصاريف السفينة ويجرد الغنائم⁷.

- **الخنزاجي:** وهو محافظ خزانة الذخيرة الحربية والأموال اللازمة للصرف والأغذية⁸.

- **باش جراح:** وهو طبيب يسهر على علاج المرضى داخل السفينة⁹. وحسب مولاي بلحميسي فإن هذه الشخصية غالبا ما تكون من المتطوعين الذين لهم بعض الخبرة في هذا المجال،

¹ طارق عزيز فرحاني، المرجع السابق.

² عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 101.

³ طارق عزيز فرحاني، المرجع السابق.

⁴ حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرّبا"، المرجع السابق، ص 261.

⁵ عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 100.

⁶ نفسه، ص 100.

⁷ حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرّبا"، المرجع السابق، ص 261.

⁸ طارق عزيز فرحاني، المرجع السابق.

⁹ حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرّبا"، المرجع السابق، ص 261.

وغالبا ما يكون قد امتهن مهنة الحلاقة في السابق واكتسب بعض الخبرة والمعرفة في معالجة بعض الأمراض، ويقوم بالعديد من المهام داخل السفينة مثل عمليات البتر ومعالجة الأسنان والعظام وتنظيف الجروح وغيرها، وكان مُزود بصندوق يُخزن فيه المعدات الطبية البدائية مثل: المنشار، الخطافات، الإبر، المحاقن، الموقد، وبعض المنتجات الأخرى مثل: البودرة والعسل والأعشاب، والسكر وغيرها¹.

- **رايس الطريق:** وهو قبطان الغنائم، ونجد أنّ كل سفينة تضم اثنين من هؤلاء، بحيث يساهمون في السير الحسن لوصول الغنائم لمدينة الجزائر².
- **الأغا:** لا ندري رتبته ولكنه ضابط ذو رتبة عالية على كل حال³.
- **الإمام:** وهو المكلف بتطبيق تعاليم الشريعة الإسلامية وكذلك ترتيل القرآن على البحارة⁴.
- **قلفاط:** مسؤول على دهن المراكب بالقطران حتى لا تتشقق وتتكسر، فتدخل إليها المياه⁵.
- **الصندال رايس:** هو المسؤول على معدات القارب أو السفينة⁶.
- **رئيس الإنارة:** وهو الذي يُنظم الإشارات البحرية عند دخول السفينة إلى الميناء⁷.
- **الممون:** وهو الذي يقوم بتوزيع حصص الغذاء على البحارة ويشرف على حسن توزيع وتنظيم الذخيرة⁸.

¹- Moulay Belhamissi, marine et marins D'Alger (1518- 1830), T 1, op. cit, p 134.

²- طارق عزيز فرحاني، المرجع السابق.

³- نفسه.

⁴- حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المرجع السابق، ص 261.

⁵- طارق عزيز فرحاني، المرجع السابق.

⁶- حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المرجع السابق، ص 261.

⁷- نفسه، ص 261.

⁸- حليم سرحان، "تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين (920-1246هـ) (1514-1830م) من خلال المصادر التاريخية والأثرية"، المرجع السابق، ص 193.

- النجار: ويُدعى مسترداش، وتكمن مهمته في تصليح أي عطب يمكن أن يحدث للسفينة أثناء الإبحار¹.
- العنبرجي: وهو صاحب المخزن المُعد للمؤن والسلع².
- الدمامجي: مهمته مسك مقود المركب³.
- الوديان: ضابط من ضباط السفينة⁴.
- الياقنجي: الضابط المكلف بالأمور العامة للسفينة⁵.
- رئيس التراك: وهو المسؤول عن الغنائم ويقوم بإحصائها وحسابها والمحافظة عليها، وكان يترأس السفينة المسببة التي تُصبح منذ حجزها تحت عهده⁶.
- البحارة: وهم العمود الفقري لطاقم السفينة، وينقسمون إلى فوجين: الفوج البحري ويتمركز في مقدمة السفينة، والفوج الآخر في مؤخرة السفينة. وكانت كل سفينة مزودة بفرقة من جنود الطوبجية والتي كان يقودها طوباجي باشي، وفرقة أخرى من الإنكشارية يقودها بلوك باشي، ومن أهم الأعمال التي يقوم بها هذا الأخير مراقبة السفن أثناء إبحارها، وتسجيل كل التفاصيل في تقرير يقدمه للباشا بعد عودة السفن إلى الجزائر⁷، ويتراوح عدد البحارة في السفينة حوالي خمسمائة بحار في الفرقاطات، ويختلف هذا العدد من سفينة إلى أخرى، في حين كانت ثكنات

¹ - حليم سرحان، "تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين (920-1246هـ) (1514-1830م) من

خلال المصادر التاريخية والأثرية"، المرجع السابق، ص 193.

² - عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 100.

³ - نفسه، ص 100.

⁴ - نفسه، ص 100.

⁵ - نفسه، ص 100-101.

⁶ - نفسه، ص 101.

⁷ - محمد بن جبور، المرجع السابق، ص 116.

الميناء تُزود في معظم الأحيان باحتياط إضافي من البحارة يصل عددهم في حالة الطوارئ إلى ثلاثة آلاف رجل¹.

¹ - حنفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 51.

الفصل الثالث:

الدور الصناعي والدفاعي

للمهاجرين الأندلسيين

في البحرية الجزائرية

أولاً: مساهمتهم في التصنيع

1- تمهيد

2- صناعة الأسلحة وتحضير البارود

أ- صناعة الأسلحة

ب- صناعة وتحضير البارود

3- صناعة وتجهيز السفن

ثانياً: مساهمتهم في الدفاع

1- مشاركتهم في التصدي للحملة البحرية على الجزائر

2- مشاركتهم في بناء وتشيد العمارة العسكرية

أولاً: مساهمتهم في التصنيع.

1- تمهيد:

لقد اشتهرت الجزائر خلال العهد العثماني بانتشار الصناعة بمختلف أشكالها، وبالخصوص الصناعة العسكرية التي كانت ذات أهمية كبيرة نظراً لما كانت تواجهه الإيالة الجزائرية من تحديات داخلية وخارجية، لذلك كان لزاماً عليها السير قدماً في هذا المجال وتطويره ليواكب الدول المتقدمة حينئذ، ولعل خير الدين بربروس وخلفائه من بعده كانوا على دراية بهذا الجانب، لذلك عملوا على تطوير الصناعة بمختلف جوانبها وبالخصوص الصناعة العسكرية منها، معتمدين في ذلك على التقنية التي كانت تستخدمها الدولة العثمانية وبعض الدول الأوروبية، ومعتمدين كذلك على كفاءة العمال في هذا النشاط كفئة الأتراك وهم أقلية وفئة الأعلّاج الذين دخلوا الإسلام ونقلوا خبرتهم ومعارفهم إلى بلاد المسلمين في شتى المجالات، وفئة الأسرى الذين ينحدرون من مختلف الدول الأوروبية وبعض الدول الأخرى كالولايات المتحدة الأمريكية، وفئة أخرى لعبت دوراً مهماً في هذا المجال والمتمثلة في جماعة المهاجرين الأندلسيين.

وهذا التطور الملحوظ في المجال الصناعي لم تفرضه التحديات الخارجية فقط ولكن هناك عوامل أساسية كان لها الدور الفعال في انتشار وتطور هذه الصناعة، ومن أبرز تلك العوامل الحضور الأندلسي بالجزائر، فرغم أن أفراد هذه الفئة هُجروا وسُلبت أملاكهم والأكثر من ذلك سقوط بلادهم الأندلس بيد المسيحيين الإسبان، إلا أنهم نقلوا معارفهم وخبرتهم إلى البلاد التي انتقلوا إليها، ففي الجزائر ساهموا بشكل فعّال وملحوظ في جميع المجالات والتي من بينها الصناعة العسكرية المتعلقة بالبحرية الجزائرية.

وعن هذا التواجد الأندلسي في الجزائر وأثره الحضاري يذكر أبو القاسم سعد الله: "... قد حل بمعظم المدن الساحلية الجزائرية عدد كبير من المهاجرين الأندلسيين الفارين من اضطهاد الإسبان الذين استولوا على أملاكهم وديارهم وهددوهم في عقيدتهم ولغتهم... وقد وجد

هؤلاء المهاجرون في الجزائر أرضا كأرضهم وأهلا كأهلهم فاستوطنوا وأسهموا في الحياة الاجتماعية بإدخال عنصرين رئيسيين، الأول مضاعفة الكفاح ضد الأسبان في البحر والثغور دفاعا عن النفس، والثاني نشر أنماط حضارتهم بين الجزائريين...¹.

وكان للمهاجرين الأندلسيين المستقرين بالجزائر دور كبير في تنشيط الحركة الاقتصادية بالإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني، وبالأخص في الفترات الأولى من التواجد العثماني بالجزائر، فبعد استقرارهم بمناطق عديدة بالجزائر حاولوا أن يتأقلموا مع وضعهم الجديد وإيجاد مكان لهم في هذا البلد، فشاركوا الصناع الجزائريين وطوروا مختلف الصناعات التي كانت سائدة في ذلك الوقت، لكن نظرا للظروف المحيطة بهم ونظرا للتطورات التي تشهدها الجزائر خاصة مواجهة التحرشات الإسبانية والنزاعات والتمردات الداخلية كان الاهتمام بشكل كبير بصناعة الأسلحة بمختلف أشكالها وأنواعها، بالإضافة إلى تحضير البارود الذي يعتبر مادة أساسية في تجهيز الأسلحة، وتماشيا مع موضوعنا هذا والذي يتمحور حول دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية سنركز على الصناعات العسكرية المتعلقة بالبحرية سواء المتعلقة بالأسطول أو المتواجدة عبر الموانئ.

وقبل أن نستعرض في ذكر تلك المجهودات التي قام بها المهاجرون الأندلسيون سواء كانت مجهودات فردية أو جماعية وجب أن نذكر بأن هذه الفئة لم تتواجد في الجزائر مع بداية انضمام هذه الأخيرة للدولة العثمانية فحسب ولكن كان تواجدها أقدم من ذلك بكثير، ولكن يختلف عدد هؤلاء المهاجرين من فترة لأخرى، ولعل النزوح الديموغرافي الكبير كان بعد سقوط غرناطة وأثناء الهجرة الأندلسية الأخيرة ما بين سنتي 1609م و1614م، أين شهدت العائلات الأندلسية طفرة كبيرة في النزوح من بلدها الأندلس إلى العديد من مناطق العالم وأبرزها بلاد المغرب العربي وهذا ما تطرقنا إليه سابقا.

¹ - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م، ص 148.

فالتواجد الذي سبق تأسيس الإيالة الجزائرية مع بداية القرن السادس عشر كان تواجدا مُحْتَشِما نوعا ما إذا استثنينا الفترة الزمنية ما بعد سقوط غرناطة، وقد صاحب هذا التواجد جلب التقنية والخبرة المهنية التي تميز بها هؤلاء المهاجرون في بلادهم للبلدان التي استقبلتهم والتي منها المغرب الأوسط، هذا الأخير الذي احتضنهم بكل ود ومكنهم من العيش في مناطقه والاستفادة منها وكأنهم أهل البلاد دون تمييزهم أو إشعارهم أنهم غرباء، ومع كل هذه الامتيازات التي حضي بها هؤلاء من طرف السلطة والسكان معا أحدثوا ضجيجا إيجابيا ولافتا في مختلف الميادين وفي العديد من ثغور ومناطق بلاد المغرب الأوسط خاصة في عهد الدولة الزيانية. فمن بين تلك النشاطات التي مارسها هؤلاء الوافدون من الأندلس النشاط الصناعي، الذي احتل بمختلف تفرعاته مرتبة مُعْتَبَرة من حيث الأهمية في اقتصاد الدولة، فكان هذا النشاط يستقطب شريحة كبيرة من اليد العاملة، وعلى رأسها فئة الأندلسيين الذين كانت تزداد أهميتهم يوما بعد يوم، وهو ما جعل حُكَّام الدولة الزيانية يهتمون بهم ويستدرجونهم لتولي مختلف القطاعات وعلى رأسها الصناعة كما ذكرنا سابقا، ونلاحظ هذا الاهتمام في عهد أبي حمو الأول (707-718هـ / 1307-1318م) وكذلك في فترة حكم ابنه الأمير أبو تاشفين (718-737هـ / 1318-1336م) اللذين أعطوا أهمية كبيرة للصناع والحرفيين من أهل غرناطة، هؤلاء الذين توافدوا بشكل كبير فيما بعد نحو المغرب الأوسط خاصة بعد تهجيرهم من بلادهم الأندلس وهذا ما ساعد على نمو الحرف في البلاد¹.

وقد واصل هؤلاء نشاطاتهم في الجزائر خلال العهد العثماني، فلم يتركوا مجالا من المجالات الاقتصادية إلا وولجوا إليه، فعلى غرار التجارة والزراعة والبناء والتشييد كان للأندلسيين نشاط متنوع وبارز في المجال الصناعي، فلم يكتفوا بالصناعات المنزلية بل امتهنوا

¹ - عمر بلشير، "جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى من القرن 6 إلى 9هـ / 12-15م من خلال كتاب (المعيار) للنوشرسي"، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر، دفعة 2010م، ص 213.

صناعات أخرى أكثر تعقيدا وأكثر أهمية، والتي تمثلت في الصناعات الحربية كالسلاح والبارود والسفن وغيرها، وهناك العديد من الباحثين والمؤرخين الذين أسالوا كثيرا من الحبر حول هذا الموضوع وأشادوا بالدور الفعّال لفئة الموريسكيين في تنشيط ودعم النشاط الاقتصادي بالجزائر خلال العهد العثماني، ومن بين هؤلاء الأسير هايدو الذي تُعتبر كتاباته حول تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني ذات قيمة معرفية كبيرة، والتي ألقى في بعضها الضوء على فئة الموريسكيين ونشاطاتها المختلفة في الإيالة الجزائرية، ومن بين مؤلفاته كتاب طبوغرافيا تاريخ الجزائر العام، الذي تطرق في بعض صفحاته لهذه الفئة، وذكر أدوارها الاجتماعية والاقتصادية في إقليم إيالة الجزائر، واعتبرها جزءا مهما في المجتمع الجزائري في ذلك الوقت، وفي خضم ذلك قسم المجتمع الجزائري ديموغرافيا إلى أربع فئات والتي من بينها الموريسكيين الذين وفدوا إلى الجزائر من غرناطة وأراغون وفالنسيا وكاتالونيا، وينقسم هؤلاء بدورهم إلى فئتين: فئة الموديجار (les Mudejares) الذين غادروا غرناطة، وفئة التجارين (les Tagarins) الذين نزحوا من أراغون وفالنسيا وكاتالونيا، ويصف هؤلاء بأنهم يتميزون ببشرة بيضاء وبشكل جميل مثل سكان إسبانيا، وكانوا يرتدون ملابس مثل الأتراك، بالإضافة إلى ذلك كانوا يمارسون العديد من المهن مثل: صناعة الأحذية والخزف، ومنهم صانعو الأقفال والنجارين والبنائين والخياطين، كما كانت لهم دكاكين يبيعون فيها بضاعتهم¹.

ومما لا شك فيه أنّ الفئات الدخيلة على المجتمع الجزائري والتي على رأسها الأتراك والأعلاج والموريسكيين والأسرى المسيحيين، كان لها تأثير واضح في الحياة العامة للمجتمع الجزائري، وربما بفضلهم ظلت الجزائر سيدة البحر المتوسط لثلاثة قرون من الزمن، وذلك لما قدّموه من خدمات كبيرة لتطوير الاقتصاد الجزائري من جميع النواحي. ويوضح لنا أبو القاسم سعد الله بشكل أدق هذا الجانب في قوله: "هناك ثلاثة عوامل خارجية أثرت في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال العهد العثماني، الأول هجرة الأندلسيين التي بدأت

¹– diego de haëdo, op. cit, p 495, 518.

خلال القرن التاسع وتقوت خلال العاشر. والثاني الوجود العثماني نفسه. ويمكننا أن نظيف إلى ذلك عاملاً ثالثاً وهو الوجود المسيحي واليهودي...¹.

ونلاحظ أنّ الاقتصاد الجزائري خلال العهد العثماني شهد طفرة غير مسبوقة خاصة في القرنين الأولين من الحكم العثماني للجزائر، وهذا من خلال المساهمة الفعالة للفئات التي ذكرناها سابقاً، والتي من بينها الموريسكيين، الذين بذلوا النفس والمال والخبرة وحتى العزيمة والإرادة في تنمية وتطوير هذا القطاع، فعلى غرار المجال الفلاحي والبناء والتعمير فإنّ هؤلاء لم يدخروا أي جهد لتطوير القطاع الصناعي الذي شهد قفزة نوعية بمختلف تفرعاته، خاصة الصناعات العسكرية، وهو ما ساعد في تطوير الموانئ خاصة من ناحية التسليح والدفاع، التي تُشكل القاعدة الأساسية للأسطول البحري، وكل هذا التطور انعكس بشكل إيجابي على تقدم وازدهار البحرية الجزائرية² طيلة ثلاثة قرون من الزمن.

ويُمكن أن نشمن هذا الدور الذي لعبته تلك الفئة من خلال ما ذكره العديد من الباحثين الذين لم يكتفوا أبداً ما قامت به تلك الفئة في مختلف الأصعدة، ومن بين هؤلاء الذين آثروا وتأثروا بتاريخ الموريسكيين مارمول كربخال الذي قال في حق هؤلاء: "... إلى أن جاز عدد من الأندلسيين إلى إفريقيا... وشيئاً فشيئاً قام العمران بهذا السهل (يقصد شرشال) على أيدي المدجنين وأهل تاكارت ومسلمي الأندلس المتصفين بالشهامة والحق... حتى إنك تجد اليوم بهذه المدينة أكثر من خمسة آلاف دار تستطيع أن تُعبئ وتُجهز عند الحاجة أزيد من ألف مقاتل من حملة القذافات والبنادق..."³.

وكذلك رواية جون ب وولف الذي أكد من خلالها الدور الفعال لهؤلاء المهاجرين في إيالة الجزائر في قوله: "... كان الحرفيون عادة من الحضر (البلدية)، والموريسكيين والشغريين

¹ - سعد الله أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، المرجع السابق، ص 148.

² - Arezki CHouitem, op. cit, p 35.

³ - مارمول كربخال، المصدر السابق، ص 356.

(التغاريين) اللاجئين من الأندلس، والكراغلة، واليهود. وكثير من الكتاب يصرون على أن اللاجئين من الأندلس قد أغنوا مدينة الجزائر كثيرا بمهاراتهم...¹.

وبدوره حنفي هلايلي - الذي له العديد من الدراسات حول الموريسكيين وأدوارهم المتنوعة في الجزائر - سار أيضا في نفس طريق من سبقوه في الاعتراف بالدور المهم الذي لعبته تلك الفئة في بناء وتطوير الاقتصاد الجزائري خلال العهد العثماني (1519-1830م) بقوله: "استطاع أفراد الجالية الأندلسية بفضل نشاطهم الاقتصادي الواسع، تكوين ثروات ضخمة، ساهمت في فعاليات اقتصاد إيالة الجزائر. وكان الأندلسيون يمارسون المهن المعروفة آنذاك، حيث تخصصوا في مختلف الحرف السائدة في مجتمع الجزائر... وقد امتد نشاط أفراد الجالية الأندلسية في الجزائر إلى كافة مجالات الأنشطة الاقتصادية واستطاعوا أن يلجوا أبواب معظم الحرف المهنية والحرفية واحتكروا الاشتغال بها..."².

ورغم ذلك إلا أنه دائما تواجهنا مشكلة أو هفوة تاريخية حول تاريخ هذه الفئة في الجزائر، بحيث لم تغط الدراسات التاريخية - في حدود علمنا - حقهم الكافي لما قاموا به من مجهودات فعّالة في مختلف النشاطات، مُستمدين قولنا هذا من خلال ما قمنا به من محاولة بحث ورصد مختلف المعلومات التاريخية المتعلقة بهذه الفئة، وكذلك مستمدين قولنا من بعض الروايات التاريخية التي أبدت تأسفها حول نُقص المعلومة في هذا الموضوع، مثل ما أشار إليه بروديل حيث قال: "من المؤسف أنه ليس لدينا حتى الآن دراسة دقيقة للأسلحة والمعدات المستخدمة في الحملات الإفريقية"³. ولو أنّ بروديل أشار إلى نقص المعلومات التاريخية بصفة عامة إلا أنّ نُقص المعلومة حول دور الموريسكيين في مجال صناعة الأسلحة كان أكثر ندرة من سابقه.

¹ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 151.

² - حنفي هلايلي، "الحضور الأندلسي بالجزائر في العهد العثماني على ضوء سجلات المحاكم الشرعية"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، العدد 25، أوت 2002م، ص 316.

³ - Braudel Fernand, op. cit, p 189.

وهذا الشغور الذي ربما سقط هفوة من الكتاب والمؤرخين المصدريين أو لم يُذكر عمداً إلا أنه لا ينبغي أن تلك الجماعة لم تساهم ولو بالقليل في تنشيط الحركة الصناعية بالجزائر، وهو الأمر الذي ذكره بعض المؤرخين الذين عاصروا تلك الفترة أو الذين كانوا بعدها، فإنهم تطرقوا لمجهودات هؤلاء المهاجرين وأثنوا على ما قاموا به من خدمات لصالح البلاد والعباد، حتى أنه أعجب بعضهم بالأداء الراقي لتلك الفئة في مجال الصناعة، وحتى وإن زدنا هؤلاء المؤرخين بإشارات طفيفة حول مسار هذه الفئة ونشاطاتها المختلفة دون الغوص في التفاصيل إلا أننا حاولنا أن نجمع بعض المعلومات المتفرقة هنا وهناك لنعطي تلك الفئة حقها التاريخي من خلال دورها في مختلف المجالات وبالخصوص البحرية منها.

وهناك العديد من الباحثين الذين أثنوا ثناءً حسناً حول الدور الذي لعبه المهاجرون الأندلسيون في قطاع الصناعة بشكل عام في الإيالة الجزائرية، ومن بين هؤلاء درياس لخضر الذي بيّن في خضم أطروحته المقدمة لنيل درجة الدكتوراه حول موضوع المدفعية الجزائرية في العهد العثماني، أن قطاع الصناعات الحربية قد ازدهر في الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني، ويرجع هذا الازدهار إلى عاملين أساسيين وهما: استقرار الجاليات الأندلسية بالجزائر وامتلاكها الخبرات الفنية في هذا المجال، وعامل آخر متمثل في توفر المواد الضرورية لهذه الصناعة خاصة المعادن بأنواعها والأخشاب وغيرها من المواد الضرورية الأخرى¹.

ولقد اهتمت السلطة الحاكمة بالجزائر خلال العهد العثماني بقطاع صناعة الأسلحة وأولت لها اهتمام كبير، وذلك لدرايتها بأهمية هذه الصناعة في تطوير الجيش والنظام العسكري للإيالة. لذلك أسندت هذه المهمة إلى العمال الذين لهم خبرة ودراية بهذه الحرفة التي تتطلب صبراً ومعرفة كبيرة ودقة في الإنجاز، فعلى غرار المهندسين العثمانيين والأعلاج وفئة الأسرى المسيحيين خاصة الذين لهم دراية بهذا المجال نجد أن فئة المهاجرين الأندلسيين هي الأخرى

¹ - لخضر درياس، "المدفعية الجزائرية في العهد العثماني"، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 1990م، ص 56.

واكبت هذا النشاط وكونت علاقات وطيدة مع السلطة، هذه الأخيرة التي دعمتها ووفرت لها كل الوسائل للمضي قدماً في تقديم كل ما تملك من خبرة ومعرفة في هذا المجال، خاصة وأنّ الأندلسيين عُرفوا بمدى خبرتهم وتفوقهم في مجال الصناعات العسكرية في الأندلس قبل سقوطها.

ومن المعلوم أنّ حكام الجزائر خلال العهد العثماني قد أولوا أهمية كبيرة بالصناعة العسكرية خاصة المتعلقة بالبحرية نظراً للظروف التي كانت تمر بها الجزائر، ونظراً للدور الذي كانت تلعبه البحرية الجزائرية على الصعيد الداخلي والخارجي، خاصة مساهمتها في تحرير السواحل الجزائرية وتوسيع نطاق الجهاد البحري الذي كان يُدر بأموال وغنائم طائلة للجزائر، وهو ما ساهم في تطوير اقتصاد الجزائر لفترات زمنية طويلة، في إطار ذلك كان لا بد من أن يجلبوا اليد العاملة ذات الكفاءة والقدرة اللازمة لتنشيط هذه الحرفة وتطويرها، على غرار الفئات الأخرى كان للأندلسيين الذين اشتهروا بمهاراتهم وجودة صناعاتهم الكلمة المسموعة والدور الفعال في هذا الجانب.

وإلى جانب الدعم الذي حظي به الأندلسيون من طرف السلطة الحاكمة في الجزائر، تلقوا بالإضافة إلى ذلك دعماً مادياً ومعنوياً من طرف رياس البحر، الذين حفزوهم وفتحو لهم المجال للولوج لمختلف مؤسسات البحرية خاصة المتعلقة بالصناعة والتجارة والجهاد البحري، وهذا الدعم المتواصل سمح لفئة الصناع والحرفيين من الأندلسيين بالولوج لهذا القطاع بكل أريحية، خاصة وأنها كانت تحاول دائماً إيجاد مكانة لها في وسط المجتمع الجزائري، والتقرب من الحكام والعمل على إرضائهم.

وهناك بعض المؤرخين ذكروا أنّ الدور الذي لعبه الموريسكيون في إيالة الجزائر خلال بداية تواجدهم بها كان محتشماً، خاصة في مدينة الجزائر التي يوجد بها العديد من الأسرى المسيحيين، هؤلاء الأسرى الذين تم توزيعهم في مختلف النشاطات مما أدى بالاكتماء على مستوى العمال، وهو ما صعب من الحصول على مناصب عمل للأندلسيين رغم ذكائهم

ودرايتهم بالعديد من الأعمال، وهذا ما أدى بهم إلى إرسال طلب إلى الباب العالي يشكون فيه إلى السلطان العثماني سليم الثاني تردي أوضاعهم الاجتماعية والاقتصادية بإيالة الجزائر وأن ينظر في قضيتهم هذه، فاستجابت السلطة العثمانية لهؤلاء وقامت بإرسال العديد من الفرمانات إلى السلطة الحاكمة بالجزائر، ومن أهم تلك الفرمانات الفرمانين الذين أرسلتهما إلى حاكم الجزائر البيلرباي عرب أحمد باشا (1572-1574م)¹، الأول في 28 جويلية 1571م والثاني المكمل للفرمان الأول في 14 نوفمبر 1573م والذين يقضيان بطلب دمج هؤلاء الموريسكيين في وظائف تناسب مؤهلاتهم وخبراتهم المهنية، فقد جاء في نص الفرمان الأول عبارات توجي في مضمونها عن أهمية إنصاف هذه الفئة وتوظيفها على أساس الاستحقاق والجدارة، فمن ضمن تلك الرسالة نذكر: "... قامت جماعة أهل العلم والصلاح الذين قدموا من الأندلس بإرسال مبعوث عنهم على أساس أنه عندما طلب هؤلاء العلماء والصلحاء توظيفهم، فإن أهالي رفضوا ذلك ومنعهم على أساس أنهم جاؤوا من الخارج، وعليه فإن الحكم والأمر السلطاني يكون بإعفاء الوظيف والشغل إلى مستحقه والجدير به ..."².

¹ - حسب ما ذكرته خيرة بن بلة فإن عرب أحمد باشا تولي الحكم في الجزائر من 1572 إلى 1574م، وحول هذا التاريخ توضح أنه هناك من يرى أن هذا الأخير حكم الجزائر قبل سنة 1572م مدة أربع سنوات، وذلك خلفا للبيلرباي علج علي الذي استدعي إلى القسطنطينية لتولي رئاسة القيادة العليا للأسطول العثماني، ثم التحق به بعد ذلك عرب أحمد باشا سنة 1574م، ولذلك نرى أن الفرمان الذي أرسله السلطان العثماني للجزائر سنة 1571م كان في فترة حاكمها عرب أحمد باشا ولو بصفة غير رسمية. ينظر: خيرة بن بلة، "حكام الجزائر في العهد العثماني من خلال الكتابات الأثرية"، مجلة الدراسات الأثرية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، المجلد 11، العدد 02، 16 ديسمبر 2013م، ص 33-34.

² - حنيفي هلايلي، "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء الفرمانات العثمانية (1492-1614)"، مجلة الحوار المتوسطي، جامعة الجيلالي ليايس سيدي بلعباس، الجزائر، المجلد 05، العدد 06، 15 مارس 2014م، ص 24، 26.

وحسب ما ذكره مرسيدس غارثيا أرينال Mercedes García-Arenal وجيرارد ويجر Gerard Wiegers أنّ هذه الفرمانات وجهت إلى السلطة في الجزائر من أجل توظيف هؤلاء المهاجرين وإعفائهم من الضرائب لمدة ثلاث سنوات¹.

ويوضح حنيفي هلايلي في هذا الشأن أنّ السلطة الجزائرية رفضت فئة معينة من الأندلسيين وليس كلهم، والتي تتمثل في فئة العلماء والنخبة المقيمة بمدينة الجزائر، وهذا الرفض ليس كرها ولا تمييزا لهؤلاء وإنما راجع إلى صعوبة حصول هؤلاء على بعض الوظائف، خاصة المتعلقة بالشؤون الشرعية والتعليمية مثل القضاء والإمامة والتعليم وبعض الوظائف الأخرى كالوظائف الإدارية، وهذه الوظائف كان يمارسها سكان الحضر المحليين بمدينة الجزائر، فلذلك شكلوا عائقا ومزاحمة لهم².

لكن رغم ذلك حاولت السلطة الحاكمة بالجزائر النظر في قضيتهم وإيجاد عمل لهم يوفر لهم متطلبات الحياة الكريمة، ففتحت لهم باب الولوج لمختلف القطاعات والمساهمة فيها بكل ما يملكون من خبرة، خاصة القطاع الصناعي والتجاري والذي تفوقوا فيه إلى حد كبير خاصة المساهمة العسكرية في البحرية الجزائرية، ما عدا المهام العليا أو الحساسة التي لم يصل إليها الموريسكيون إلا في حالات نادرة، وهذه القوانين لم تكن حِكرا عليهم ولكن حتى الفئات الأخرى طُبقت عليها كذلك كفئة الأهالي والكراغلة، دون أن ننسى ما قامت به السلطات الحاكمة من فتح المجال للعمل أمام فئة اليهود خاصة النازحين منهم من الأندلس الذين لقوا الدعم والمساندة، مما فتح لهم الباب بمصراعيه للولوج في مختلف القطاعات وعلى رأسها القطاع التجاري الذي اشتهروا به واحتكروه بنسبة كبيرة حتى عُرفوا بهذا النشاط داخل الجزائر وخارجها.

¹– Mercedes García-Arenal and Gerard Wiegers, **The Expulsion of the Moriscos from Spain**, Translated by Consuelo López-Morillas and Martin Beagles, Volume 56, Brill, Boston, w. d, p 339.

²– حنيفي هلايلي، "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء الفرمانات العثمانية (1492-1614)", المرجع السابق، ص 24، 26.

2- صناعة الأسلحة وتحضير البارود.

أ- صناعة الأسلحة:

لقد اكتسب هذا القطاع على غرار القطاعات الأخرى أهمية كبيرة في اقتصاد الجزائر خلال العهد العثماني، لذلك نلاحظ أنّ السلطة كانت حريصة على تطوير وازدهار هذا القطاع لمواجهة التحديات المحيطة بها، خاصة التكالبات الأوروبية والتنافس البحري الكبير ضد أساطيلها وموانئها، ولتحقيق تلك الغاية ومواجهة تلك التحديات قامت بفتح المجال لكل من يملك الخبرة أو المال لتدعيم هذا القطاع والمضي قدماً في تطويره ليواكب الدول المتقدمة في ذلك الوقت.

فمن بين الذين دخلوا وأغنوا هذا القطاع المهاجرين الأندلسيين الذين كانوا يتمتعون بالكفاءة والخبرة العاليتين، فقد كانت لهم دراية في مجال صناعة الأسلحة وتحضير البارود ومعالجة المعادن، فبعد استقرارهم بالعديد من مناطق الجزائر واصلوا نشاطهم الحرفي مستغلين وجود المادة الخام وتشجيع الحكام لهم، وحفزهم في ذلك أيضاً أماكن استقرارهم، بحيث استقروا بالعديد من المدن الساحلية أو القريبة منها، وهذه المدن كانت غنية بالمادة الخام لمختلف الصناعات كصناعة الأسلحة وما يتعلق بها من معالجة الحديد وبعض المعادن الأخرى ونجارة الخشب، بالإضافة إلى تحضير البارود المادة الأساسية لصنع القذائف، ومن بين تلك المدن التي استقر بها الأندلسيون بشكل كبير مدينة شرشال والجزائر والبليدة وبجاية وغيرها، وفي هذا الصدد تذكر كورين شوفالييه أنّ هؤلاء المهاجرين حافظوا على تقاليدهم وعاداتهم في البلدان التي هاجروا إليها، كما كانوا يتقنون العديد من الحرف كصناعة الأسلحة والبارود وغيرها من الصناعات الأخرى¹.

ومن بين المدن التي شكلت إشعاعاً حضارياً ورُقياً اقتصادياً قديماً وحديثاً مدينة شرشال التي تعتبر من بين أهم المدن التي استقطبت الأندلسيين خلال العهد العثماني، هذه المدينة

¹ - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 16 - 17.

التي تمكن فيها الصناع المحليون بتحويل فلزات (معادن) مناجم حديد زكار إلى نوع جيد من الحديد يشبه الفولاذ، واستعمل هذا النوع من المعادن بالخصوص في صنع البنادق والأبواب والشبابيك والشرفات والنوافذ¹، ومن المحتمل أن يكون للأندلسيين دور في هذا النشاط نظرا لتواجدهم الديموغرافي الكبير بهذه المدينة، ونظرا لأن المهاجرين الأندلسيين قد عُرف عنهم بامتثالهم مختلف الصنائع ومنها تلك الصناعة.

وليس ببعيد عن شرشال نجد أنّ الأندلسيين قد ساهموا في مدينة الجزائر ببناء دار النحاس² أو كما تسمى أيضا دار البارود خلال سنة 1517م بحي القصبة، التي تعرضت لعدة تغييرات والعديد من عمليات التشييد والبناء، فبعد حوالي 100 سنة من العطاء والنشاط المتواصل تم تدميرها في عهد الباشا مصطفى سنة 1617م، لكن بعد سنوات قليلة تم إعادة بنائها وذلك سنة 1629م³. وهي عبارة عن فرن لصهر النحاس، كان في البداية موجه لإنتاجه لصنع الأدوات المنزلية ثم تطور خلال القرن السابع عشر وأصبح مكانا لصناعة الأسلحة⁴. ومن أهم النشاطات التي كانت فيه سبك أنواع بسيطة من المدافع الخفيفة، وكان يساعد العمال الأندلسيون في هذه الدار الأسرى المسيحيين، وبعض التقنيين الأوروبيين مثل المهندس

¹ - ناصر الدين سعيدوني، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب)"، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 31، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الكويت، 2010م، ص 32-34.

² - نفسه، ص 32-34.

³ - هجيرة غراف، المرجع السابق، ص 213.

⁴ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 114.

الفرنسي دوبون¹. ومن أهم الصناعات التي تم إنجازها في هذا المكان صناعة المدفع الشهير بابا مرزوق² سنة 1542م³ (يُنظر الملحق رقم 07).

كذلك نجد أنّ الأندلسيين كانت لهم مشاركة في صناعة الأسلحة خاصة البنادق في قلعة بني راشد القريبة من مدينة معسكر الواقعة غرب مدينة الجزائر، والتي ولجت إليها هذه الفئة منذ القرن 16م، وخصصت بها العديد من الورشات لهذا الغرض، وهو ما انعكس إيجابا على ازدهار صناعة الأسلحة بها وبالجزائر عموما، ويُضيف إلى ذلك جودي إسماعيل الذي استند في قوله على رواية الدكتور شاو بأنه وُجد في وسط مدينة مستغانم آثار لقصر موريسكي قديم الذي يوحي هيكله المعماري أنه بُني خصيصا لصناعة الأسلحة النارية، والتي من بينها البنادق ذات نوع الأركبوز⁴.

وبدوره يُثمن ناصر الدين سعيدوني هذا الدور الذي قامت به تلك الفئة في إيالة الجزائر بقوله: "ومن أهم مراكز صنع الأسلحة النارية بهذه المناطق قلعة بني راشد التي حافظت عليها العائلات الأندلسية والتركية بها على صناعة البنادق منذ القرن السادس عشر، وقلعة بني عباس وقرى فليسة حيث كانت تصنع البنادق الجيدة المرصعة بالفضة والمرجان، وكذلك قرى

¹ ناصر الدين سعيدوني، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب)"، المرجع السابق، ص 32-34.

² حول هذا المدفع يذكر علي خلاصي: "تم صبه سنة 1552 (هذا التاريخ الذي ذكره علي خلاصي غير صحيح ربما هو خطأ مطبعي لأن تاريخ صناعة هذا المدفع كان سنة 1542م أي بعد عام من الحملة الشهيرة على الجزائر بقيادة شاركان الإسباني التي انهزم فيها شر هزيمة على يد القوات الجزائرية المرابطة في ميناء مدينة الجزائر) تخليدا لتسليح دار الصناعة الحربية بعد حملة شارلكان، يبلغ طول هذا المدفع 7 أمتار، ويبلغ مدى رمايته أكثر من 4800 م. لهذا المدفع ذكرى أليمة عند الفرنسيين حيث أعدم بواسطته القنصل لوفاشي (lev/ Acher) سنة 1683 حينما كانت قوات الحملة الفرنسية بقيادة ديكان تقبل الجزائر سنة 1683 وعندما جاءت الحملة الفرنسية الموالية بقيادة الأميرال ديستري سنة 1688 لقي القنصل بيول نفس المصير (Piolle)، ونظرا لهذه الذكريات الأليمة فإن قوات الحملة الفرنسية الأخيرة في 1830 وبعد أن تمكنت من احتلال ميناء الجزائر أخذته القيادة الحربية إلى مدينة بريست حيث نصب كمعلم تاريخي". ينظر: علي خلاصي، الجيش الجزائري في العصر الحديث، ط 1، دار الحضارة، الجزائر، 2007م، ص 156-157.

³ - Moulay Belhamissi, marine et marins d'Alger (1518- 1830), T 01, op. cit, p 72.

⁴ - إسماعيل جودي، المرجع السابق، ص 71، 83.

وادي ميزاب ومدينة توغرت وبوسعادة التي اختصت بها عشر محلات في صنع الأسلحة النارية¹.

ويُضيف إلى ذلك ما تميزت به أسواق مدينة الجزائر من حركة صناعية وتجارية متواصلة من طرف الموريسكيين خلال العهد العثماني، بحيث ذكر في هذا الشأن: "وقد كان أغلب الإنتاج الصناعي للأندلسيين الموريسكيين يتم في ورشات بسيطة خُصصت لها الطوابق الأرضية من المنازل وجعلت لها أبواب على الأزقة لتسهيل التعامل وصرف السلع الجاهزة، وقد تجمعت كل صناعة منها في مكان مخصص له بحيث عُرف كل زقاق أو ساحة أو حومة بالصناعات الموجودة به، وقد شاركته في ذلك بعض الطوائف الأخرى من السكان من الحضر واليهود، ففي مدينة الجزائر مثلا اشتهرت أسواق الشواشي والنجارين... والشقماقية (أو باعة السلاح) وغيرها"².

وهناك من ذَكَر أنَّ المهاجرين الأندلسيين الذين استقروا بسواحل المغرب العربي قد أنشؤوا ورشات لصناعة الأسلحة وغيرها من المصنوعات المختلفة التي كانوا يصنعونها في الأندلس³. ونلاحظ أيضا هذا النشاط وهذه الحركية الصناعية والتجارية من خلال ما ذكره أسير الداى القنصل كاثكارت في مذكراته التي جاء فيها أنه: "في الطريق إلى السقيفة تقع ورش صناعة النحاس ومشغل النجارة وأحواض بناء السفن، والحدادين إلخ..."⁴. ومن جهة أخرى يذكر علي خلاصي أنَّ التقارير الإسبانية التي تحدثت عن القدرات الحربية للجزائر في بداية

¹ ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 64.

² ناصر الدين سعيدوني، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط 2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م، ص 46-47.

³ جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 180، 181.

⁴ كاثكارت، المصدر السابق، ص 74.

القرن السادس عشر الميلادي ذكرت أنه يوجد عدد كبير من الجزائريين يستعملون الأسلحة النارية بكفاءة عالية ومن بين هؤلاء من نزح من الأندلس¹.

وهذا النشاط البارز للموريسكيين في الجزائر لم يكن جديدا عليهم بل كانوا يمارسون مثل تلك النشاطات في الأندلس قبل هجرتهم، فمعظم أو جُل الكُتاب والمؤرخين الذين عاصروا العهد الأندلسي يثنون على المجهود الكبير الذي قام به الأندلسيون في مجالات الحياة العامة ومن بينها الصناعات العسكرية والصناعات المنزلية، وخير دليل على ذلك ما ذكره أحمد المقري في كتابه "نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب" حيث قال: "وإلى مصنوعات الأندلس ينتهي التفضيل، وللمتعصبين لها في ذلك كلام كثير، فقد اختصت ألمرية ومالقة ومرسية بالوشى المذهب الذي يتعجب من حسن صنعه أهل المشرق إذا رأوا منه شيئا... ويُصنع في مرسية من الأسرة المرصعة والحصر الفتانة الصنعة وآلات الصُفر والحديد من السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلك من آلات العروس والجندي ما يبهر العقل، ومنها تجهز هذه الأصناف إلى بلاد إفريقية وغيرها"².

ب- صناعة وتحضير البارود:

لقد برز الأندلسيون في مجال آخر ضمن المجالات العسكرية والذي يكتسي أهمية كبيرة في تطور الجيش سواء البحري أو البري، والمتمثل في صناعة وتحضير البارود، فهذه المادة تُعتبر المادة الأساسية للأسلحة بمختلف أشكالها وأنواعها، بحيث تُستخدم في صنع الرصاص للبنادق والقذائف للمدافع وكمتفجرات وغيرها، ونلاحظ أنّ هذه الصناعة كانت موجودة بالفعل في بلاد المغرب الأوسط ولم تكن محتكرة للدولة فقط وإنما اشتهرت الكثير من القبائل بهذه الصناعة، ولكن زادت أهمية هذه المهنة بروزا بعد استقرار الحكم العثماني بالجزائر، الذي شجع هذه الصناعة باعتبارها من بين الأركان المهمة لقوة الجيش، وتماشيا مع ذلك قامت السلطات

¹ - علي خلاصي، الجيش الجزائري في العصر الحديث، المرجع السابق، ص 209.

² - أحمد المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 201-202.

الحاكمة ببناء العديد من المراكز لمثل هذه الصناعة والصناعات المتعلقة بها كصناعة الأسلحة، وأسندت هذه المهام للعمال الذين يملكون الكفاءة والخبرة في هذا الجانب.

ومن بين هؤلاء العمال الذين أثبتوا وجودهم وقدرتهم على هذا العمل المهاجرين الأندلسيين، هؤلاء الذين برعوا في العديد من المجالات في الأندلس وواصلوا حرفتهم في إيالة الجزائر ليس من أجل جمع المال وقضاء حاجاتهم اليومية فحسب ولكن حبهم لإخوانهم في الدين وضعينتهم وكرهم للمسيحيين الذين طردوهم من بلادهم، كل هذا جعلهم يولجون إلى هذا المجال بكل فخر واعتزاز، دون ادخار أي جهد أو أي معرفة لتطوير وترقية هذه الصناعة في الجزائر.

ورغم أن الكتابات التاريخية حول هذا الجانب كانت هي الأخرى مُجففة وشحيحة بحسب علمنا إلا أن بعض الكتابات والشواهد التاريخية تُبين مدى مساهمتهم الفعالة في هذا النشاط، وسنحاول ضمن الصفحات التالية جمع ما هو مشتت في الكتابات التاريخية حول مساهمة هؤلاء المهاجرين في مجال صناعة وتحضير المادة الخام لصنع القذائف والمتفجرات والمتمثلة في مادة البارود أو كما كان يُسمى قديما الثلج الهندي.

وقبل التطرق إلى مساهمة هذه الفئة في مجال تحضير البارود وددنا أن نذهب في إطلالة تاريخية حول كيفية صنع أو تحضير هذه المادة خلال العهد العثماني أو قبله بقليل، فيذكر لنا الشقراني بعض المعطيات التاريخية المهمة حول اكتشاف البارود واستعماله في الحروب وذلك في قوله: "البارود شيء يُتخذ بالمعالجة ولم يكن في الدهر الأول وإنما أحدث في نيف وستين وسبعمائة¹ وذلك أن حكيمًا يعالج صنعة الكيمياء فعالج ذلك ففرقع له فأعجبه

¹ - هذا التاريخ الذي ذكره الشقراني يوافق حوالي سنة 1364 ميلادي، وحسب اطلاعنا على تاريخ ظهور هذه المادة التي استخدمت قديما تحت مصطلح النفط أو النفط الإغريقي أو الثلج الصيني وغيرها من المصطلحات المشابهة، فإنه يرجع اكتشافها إلى حوالي القرن الحادي عشر ميلادي أو قبله بقليل وذلك في الإمبراطورية الصينية في عهد حكم أسرة سونج الذين تولوا زمام الحكم سنة 960م. ينظر: جاك كيلي، البارود تاريخ المادة المتفجرة التي غيرت العالم، ترجمة صلاح عويس، ط 1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2016م، ص 23-24.

فاتخذة آلة للحرب وبذلك بطل المنجنيق وهو آلة من عمل المتقدمين بصك الحجارة العظيمة...¹.

ولهذه المادة العديد من التسميات كانت متداولة في الكتب التاريخية، ولعل منها مصطلح نفط ويقال أيضا القير والبابلي في بلاد ما بين النهرين، وأطلق عليه في اللغة الفارسية مصطلح نفت، وهو جزء من النار الإغريقية² التي كانت تستخدم لحرق سفن الأعداء، وعُرف عند الصينيين بمصلح ملح البارود، وأقدم اسم أطلق عليه في الأندلس كان مصطلح "النفط" وذلك حوالي سنة 724هـ/ 1324م، وفي بلاد تونس أطلق عليه "كسكي" وفي بلاد القبائل مصطلح "كسكو أبر كان" أو الكسكس الأسود، وفي ليبيا أطلق عليه باروك إلى جانب كلمة بارود، أما في اللغة التركية فغالبا ما كان يُطلق عليه لفظ باروت³.

هذا وقد أُطلقت عليه العديد من التسميات الأخرى كمصطلح ملح البحر وملح الدباغين وثلج صيني وزهرة حجر أسبوس وغيرها، كما اشتقت منه العديد من التسميات الأخرى كمصلح بارودة والتي تعني البندقية. وقد تطور استعمال ملح البارود عبر الزمن فاستخدم في البداية كمسحوق للإشعال في الألعاب النارية، واستخدم كذلك عند العرب كدواء أو عقار خاصة في تركيب مادة الكحل بحيث يستخدم كعلاج يقوي البصر، ويجلو العين، وقد استخدمه أهل الريف في شمال إفريقيا في الألعاب النارية خاصة في ألعاب الفنتازيا، بحيث يتم حشو البنادق بالبارود

¹ - أحمد بن عبد الرحمن الشقراني الراشدي، المصدر السابق، ص 74.

² - النار الإغريقية هي عبارة عن مزيج من الكبريت وبعض الصمغ والدهون، وهي من بين الوسائل التي استخدمها البحارة قديما لمواجهة سفن الأعداء أثناء حروبهم، ويرجع اختراعها إلى كالينوس البعلبكي ثم نُقلت إلى القسطنطينية أين استخدمها البيزنطيون في حروبهم البحرية، وبعدها اتخذها العرب في حروبهم. وآلية استخدامها ليست صعبة إن صح القول، بحيث يقوم البحارة بوضع ذلك السائل ذات التركيبة السابقة في أسطوانة نحاسية ثم يشعلونه ويقذفونه على سفن الأعداء، أو يرمونه على هيئة كرات مشتعلة. ينظر: أمال رمادلية، "الأسلحة المحفوظة بمتاحف الجزائر (دراسة أثرية فنية)"، رسالة مكملة لنيل متطلبات الماجستير في الآثار العثمانية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، الجزائر، دفعة 2012م، ص 48.

³ - كولان، البارود عند المسلمين، ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، ط 1، دار الكتب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، 1984م، ص 11، 18.

الكاذب ثم يحملونها ويمتطون الخيل ويقومون بالسباق ويلعبون بتلك البنادق وأثناء الجري يطلقون البارود الذي يزرع في نفوس الحاضرين البهجة والسرور¹.

وهناك العديد من المؤرخين والباحثين الذين زدونا بمعلومات مهمة حول كيفية صنع البارود قديماً، واخترنا بعض النماذج التي تُبين بشكل دقيق مراحل ومجريات هذه الصناعة، والتي من بينها المعلومات التي زدونا بها أحمد بن غانم الأندلسي الذي يُعتبر من المؤلفين المصدرين الذين تحدثوا في هذا الجانب، بحيث روى لنا كيفية هذه الصناعة في قوله: "... يؤخذ خمسة أرطالا ملح بارود خالص ورطلا واحدا من كبريت خالص غاية ونقي من الرغبة ورطلا واحدا من فحم محروق جدا جميعه ويوضع في المهراس للدرس ولا يكون فيه شيء من التراب وأما الكبريت فيذوب وتخرج منه الرغبة وما يكون فيه من التراب يخرج من قعر السطلة بمغرفة النحاس المثقوبة ثم يَلْت² ملح البارود وحده في المهراس بماء ويدق والفحم كذلك وحده والكبريت كذلك يلت بالماء ويدق ..."³.

وجاء في رحلة الأغواطي بأن صناعة البارود تتم بالشكل التالي: "يُجمع التراب من الأرض أو من الملاط في القرى المهدامة. وهذا التراب الذي كان في الأصل من مادة مألحة يوضع في ماعون ويصب عليه الماء... ثم يغلي الماء إلى أن يصبح خاثراً. ثم يؤخذ رطل منه ويخلط مع أربعة أرطال من الكبريت وأربعة أرطال من الفحم المستخرج من شجرة الدفلى. وهذه العناصر المختلفة تخلط جميعاً في غضون أربع ساعات، فتصير باروداً..."⁴.

¹ - كولان، المرجع السابق، ص 19، 24.

² - "يلت" بمعنى يُدق أو يُسحق. يُنظر: وصف ومعنى وتعريف كلمة يلت، موقع كلمات، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 18-

02- 2023م، مُتاح على الرابط التالي: <https://kalimmat.com/define/%D9%8A%D9%84%D8%AA>

³ - أحمد بن غانم الأندلسي، العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1511، الجزائر، د. ت، ص 116 - 117.

⁴ - سعد الله أبو القاسم، مجموع رحلات "رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية"، ترجمة وتحقيق أبو القاسم سعد الله، ط خاصة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م، ص 90 - 91.

أما الباحثون المتأخرون الذين تطرقوا لكيفيات وتقنيات هذه الصناعة نجد درياس لخضر الذي ذكر بأنه: "بعد تحضير ملح البارود والفحم والكبريت وتنقيتها من الشوائب يتم مزجها بمقادير معروفة، وتوضع في المهراس للدرس. ومن المستحب أن يكون المهراس من الحجر أو الرخام أو الخشب. وتدق هذه العناصر كلها مع بعضها دقا جيدا، وينبغي أن تكون يد المهراس من خشب البلوط أو عود الشوك أو النشم أو من الدردار، وخاليا من أي مسمار تجنبنا لاشتعال النار"¹.

وكذلك رواية علي خلاصي الذي ذكر في هذا الشأن بأنه: "تطحن (مكونات) البارود على حدة في مهريس خاصة بذلك... ثم تجمع المادة بعد دقها وطحنها، وتخلط بإضافة قليل من الماء في مهراس توضع فيه عادة حوالي 10 كغ من المادة، أي 7.5 كغ من ملح البارود و1.25 كغ من فحم الخشب يضاف إليها 1.5 كغ من الماء، وتدق من جديد لكن بعناية ورفق، ترفع يد المهراس إلى حوالي 0.40 م ويدق حتى يصبح البارود ناعما وقابلا للاستعمال..."².

وفيما يخص مساهمة الموريسكيين في هذا النشاط الحيوي في مؤسسات البحرية الجزائرية فإنه كان واضحا وبارزا على مستوى مراكز الصناعة العسكرية، فرغم أن الكثير من الكتابات التاريخية لم تعط حقهم في هذا الجانب حسب ما وصلنا إليه من بحث وتقصي وتحري للمعلومات المتعلقة بدورهم ومساهماتهم في صناعة البارود ومعالجته، إلا أن هناك العديد من الكتابات التي تطرقت لهم وذكرت مساهماتهم في المجال العسكري للإيالة الجزائرية، وبما أن هذه الحرفة كانت مرتبطة في غالبيتها بصناعة السلاح فكان الحديث عام عند الباحثين فيذكرون بأن الأندلسيين ساهموا بصناعة الأسلحة وتحضير البارود دون الغوص في التفاصيل خاصة فيما يتعلق بتحضير البارود. وهنا نطرح العديد من التساؤلات مثل: من هي العائلات أو

¹ - لخضر درياس، المرجع السابق، ص 27.

² - علي خلاصي، قصبة مدينة الجزائر، ج 1، ط 1، دار الحضارة، الجزائر، 2007م، ص 120 - 121.

الشخصيات التي اشتهرت في هذا المجال؟ وهل كان لهؤلاء مراكز خاصة بهم لصناعة البارود؟ وإلى أي مدى يمكن اعتبار صناعتهم ذات إسهام فعال في تطوير وازدهار النشاط العسكري للبحرية الجزائرية؟ كل هذه الأسئلة وأخرى كانت دائما تراودنا وتحفزنا في نفس الوقت للبحث أكثر وللوصول إلى إجابات مقنعة بخصوص هذا الأمر، لكن رغم ذلك توصلنا إلى بعض المعلومات المهمة التي تنصف هؤلاء وتُشيد بالدور الذي قام به المهاجرون الأندلسيون في نشاط تحضير البارود.

ولعلّ أبرز ما قام به هؤلاء الأندلسيون في مدينة الجزائر هو تشييد مصنع دار البارود (دار النحاس) كما ذكرنا ذلك في الجزء الخاص بالأسلحة، وعن هذه الدار يذكر درياس لخضر أن روزي من خلال رحلته في الجزائر مع بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر قد وصف هذه الدار وصفا دقيقا حيث قال: "مصنع البارود الخاص بالداي عبارة عن بناء واسع يتكون من عدة قاعات مقببة آية في الجمال، تحتوي كلها على ورشات مجهزة بالمعدات الخاصة بتحضير البارود غاية في الروعة"¹.

ويشاطرنا في هذا الرأي إسماعيل جودي الذي تحدث عن الأسلحة والبارود في الجزائر خلال العهد العثماني ومدى مساهمة الأندلسيين في هذه الصناعة الحيوية بقوله: "إن اختراع الأسلحة النارية قد يكون مستحيلا في حالة عدم وجود البارود... فلا يمكن الفصل إذن بين صناعة الأسلحة النارية وصناعة البارود. وكما هو الشأن بالنسبة للمدافع، فنحن نجهل بداية صناعة البارود في الجزائر، إلا أنّ الشيء المؤكد أن التقارير الإسبانية للقدرات الحربية الجزائرية في بداية القرن 16م، تشير إلى العدد الكبير من الجزائريين الذين يستعملون الأسلحة النارية بكفاءة عالية، منهم من نزع من الأندلس. والراجح أن انتشارها كان على يد الأندلسيين النازحين في القرن 5م..."².

¹ - لخضر درياس، المرجع السابق، ص 43.

² - إسماعيل جودي، المرجع السابق، ص 126 - 127.

ورغم كل ذلك فإنّ مساهمتهم كانت واضحة خاصة في مدينة الجزائر التي كانت تكثر بها مراكز الصناعة مثل دار النحاس كما أشرنا إلى ذلك سابقا، التي كانت من بين المصانع النشيطة، بالإضافة إلى مركز الصناعة بقلعة بني راشد وغيرها.

ولم تنحصر مساهمة الأندلسيين في العمل الميداني فقط ولكن كانت لهم مساهمة أخرى لا تقل عن سابقتها، بل يُمكن اعتبارها هي أساس صناعة البارود التي لا يمكن المُضي في هذه الصناعة دون الاعتماد عليها، والمتمثلة في الجانب المعرفي أو الفكري، فلا يمكن لصانع البارود أو الأسلحة أن يعمل بعشوائية أو دون دراية بكيفيات تلك الصناعة، خاصة وأن تلك الصناعة من بين الصناعات الحساسة التي تتطلب دراية وخبرة كبيرة في مجال التصنيع العسكري، لأن أي خطأ يمكن أن يؤدي بحياة هؤلاء العمال أو على الأقل تُصبح الصناعة فاسدة ولا يمكن استخدامها في الحروب، ومن هذا المبدأ حرصت السلطة الجزائرية على توظيف من هم أكفاء ولهم دراية وخبرة بهذا المجال، واعتمدت كذلك على جلب مختلف العلوم والمعارف المتجددة في هذه الصناعة، ومن أبرز تلك المعارف التي استخدمها الجزائريون وإلى جانبهم الأندلسيين الكتب المتخصصة في هذا المجال، ولعل من أبرز تلك الكتب كتاب "كتاب العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بآلات الحروب والمدافع" لمؤلفه ذو الأصل الأندلسي إبراهيم بن أحمد غانم بن محمد بن زكرياء الأندلسي، الذي يحتوي على معلومات قيّمة في مجال صناعة البارود وكيفية معالجته، ويُعتبر أيقونة وركيزة علمية كان يعتمد عليها الصناع المغاربة ومن بينهم الجزائريون في تحضير البارود بشكل جيد ودقيق، ورغم أنّ هذا المؤلف لم يستقر بالجزائر وإنما استقر بتونس¹ إلا أنّ مؤلفه هذا كان بمثابة الدليل الساطع والمصدر المهم في ممارسة مهنة صناعة البارود في كامل بلاد المغرب العربي ومن بينها الجزائر.

¹ - إسماعيل جودي، المرجع السابق، ص 104.

3- صناعة وتجهيز السفن:

تماشياً مع قطاع الصناعات في الجزائر خلال العهد العثماني والمتعلق بالبحرية الجزائرية فإننا سوف نتحدث في الصفحات الموالية عن قطاع آخر مهم لا يقل في أهميته عن القطاع السابق المتعلق بصناعة الأسلحة وتحضير البارود، والمتمثل في قطاع صناعة وتجهيز السفن، هذا القطاع الذي شكل هاجز كبير لدى السلطة والشعب كذلك باعتباره المحرك الأساسي للقوة العسكرية البحرية الجزائرية، والمحور المهم والرئيسي لاقتصاد الإيالة الجزائرية، خاصة وأنّ هذا الأخير كان ازدهاره مرتبطاً بعمليات الجهاد البحري، الذي هو كذلك مرتبط بمدى تطور السفن ودقة صناعتها وتسليحها، وتُعتبر هذه الصناعة من أهم الصناعات وأوسعها نطاقاً في الجزائر، وذلك لمكانتها المهمة ودورها الفعّال في تطوير الأسطول الجزائري، ونظراً لما كانت تواجهه الإيالة من مشاكل وصراعات ضد الهجمات الأوروبية.

ولقد تميزت صناعة السفن بحُسن صناعتها ودقة تصميمها، وهذا راجع إلى عدة عوامل وظروف ساهمت بشكل كبير في تطوير هذه الصناعة، ومن بين تلك العوامل مساهمة الأسرى الأوروبيين الذين عملوا بجد وكانوا يسارعون في إنجاز أحسن الوحدات البحرية من ناحية الهندسة والتصميم والحمولة والسرعة، وهذا من أجل الحصول على المال وفداء أنفسهم من العبودية، وهو ما يؤكد المستوى التقني العالي لديهم¹. والذي انعكس إيجاباً على صناعة السفن بشكل خاص والصناعة ككل بشكل عام، وهناك عامل آخر مهم ساهم في تطور هذه الصناعة وهو دور السكان الأصليين الذين ساعدتهم في ذلك وجود العثمانيين بالإضافة إلى الأسرى الأوروبيين².

¹ - حليم سرحان، "صناعة السفن الحربية في الجزائر خلال العهد العثماني دراسة مستمدة من النصوص التاريخية والوثائق"، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة المسيلة، المجلد 01، العدد 05، 30 ديسمبر 2017م، ص 41.

² - خير الدين يوسف شترة، "أضواء على النشاط البحري للأسطول الجزائري خلال العهد العثماني"، مجلة الآداب، جامعة بغداد، العراق، العدد 133، جوان 2020م، ص 173.

وإلى جانب هؤلاء برزت فئة أخرى ساهمت بشكل كبير في تطوير الصناعة العسكرية والتي من بينها صناعة وتجهيز السفن الحربية والتجارية، ونقصد بتلك الفئة المهاجرين الأندلسيين، الذين لم تدفعهم العبودية لتحرير أنفسهم كما حال الفئة السابقة والمتمثلة في فئة الأسرى الأوربيين، ولكن دفعهم حبهم للإسلام وغيرتهم على إخوانهم المسلمين الذين هم كذلك تعرضوا للغزو المسيحي في بعض المدن الشمالية من بلاد المغرب الأوسط، وكذلك حقدهم الدفين الذي يُكُونُه ضد المسيحيين وجيوشهم الهمجية، التي طردتهم من بلادهم وحرمتهم من وطنهم وممتلكاتهم بل وحتى ضربتهم في دينهم ومعتقداتهم، إلى الولوع لهذه الصناعة وغيرها من الحرف، وقد استفادت البحرية الجزائرية من خبرة الموريسكيين في إنتاج السفن ومختلف الأدوات التي يحتاجها البحارة على متن الأسطول البحري، كما استفادت من أبرز خبراء صناعة السفن الأندلسيين في البحر الأبيض المتوسط، الذين واصلوا على هذا المشوار عند هجرتهم نحو الجزائر¹.

فإنه كان للمهاجرين الأندلسيين بالجزائر دور هام في صناعة وتجهيز السفن، ولا يقل هذا الدور في أهميته عن مجال صناعة الأسلحة والبارود، خاصة في البدايات الأولى للحكم العثماني للجزائر، أين كان الأسطول يملك عددا قليلا من السفن، لذلك فتح الباب بمصراعيه لهذه الصناعة التي لقيت رواجاً كبيراً في الجزائر، والتي أتت أكلها وأصبح الأسطول الجزائري من بين أقوى أساطيل البحر الأبيض المتوسط عدة وعتادا خاصة خلال القرنين الأولين من التواجد العثماني بالجزائر.

ومما ساعد هؤلاء المهاجرين على الولوع لهذا القطاع المهم الدعم المتواصل من طرف الحكام ومن طرف القائمين على شؤون البحرية الجزائرية، وعلى رأسهم طائفة رياس البحر التي لعبت دورا بارزا في تطوير هذه الصناعة وتدعيمها ماديا ومعنويا لتواكب مصاف الدول الرائدة في هذا المجال بل ولكي تتفوق عليها كيفاً وكماً، وبخصوص هذا الجانب يوضح مبارك الملي

¹ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 104.

مدى اهتمام هذه الطائفة بمجال صناعة السفن وتطويرها وازدهارها، ومدى العمل الذي قامت به من أجل بناء العديد من المراكز المتخصصة في هذا الجانب وهذا من أجل زيادة الإنتاج وتطويره إلى الأحسن، وفي ذلك يقول: "... وقد تطورت هذه الطائفة بعد استقرار الحكم العثماني في الجزائر، وازدهرت صناعة السفن والبواخر في الجزائر، فكانت توجد حظائر لبناء المراكب البحرية الضخمة في باب الواد، وحظائر أخرى في باب عزون لبناء السفن الأقل منها أهمية"¹. ومع تواجد الأندلسيين بالجزائر فإنهم أحيوا وطوروا هذه الصناعة خاصة في المراحل الأولى للحكم العثماني في الجزائر²، فإلى جانب الفئات الأخرى كان الأندلسيين "... يصنعون المراكب بأيديهم ويصوغونها على حسب آرائهم وخبرتهم وتجاربهم ليمنحوها الخفة والسرعة والإحكام اللازم للقيام بالغزو في البحر ومواجهة الأخطار أمام العدو اللدود المتكالب... في أوروبا تحت ظل البابوية وكانت عند الجزائريين ورش الصناعة البحرية في جيجل وبجاية وشرشال..."³.

ولقد تركت هذه الصناعة انبهارا واعجابا كبيرين في نفوس الأعداء قبل الأصدقاء، نظرا لما كانت تتصف به من اتقان في التصنيع والتركيب لمختلف قطع السفن، ولمختلف معداتها الحربية أو المتعلقة بالسير على مستوى البحار، وممن شد انتباهه وأبدى مدى اهتمامه واعجابه بهذه الصناعة أسير الداوي كاثكارت⁴ الذي قال في شأنها: "وفي حوض بناء السفن التابع

¹ - مبارك بن محمد الهاللي الملي، المرجع السابق، ص 126.

² - مباركة مخطاري، "التحولات الاقتصادية بالجزائر العثمانية 1830 - 1518م"، مذكرة مكملة لنيل متطلبات الماستر في تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، جامعة سعيدي، الجزائر، دفعة 2013م، ص 42.

³ - عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 99.

⁴ - لقد ذكر خالد الباطني أن جيمس كاثكارت James Cathcart وقع أسيرا في يد البحارة الجزائريين الذين تمكنوا من أسر السفينة الأمريكية ماريا Maria أو ماري Mary في 25 جويلية 1785م، التي كان على متنها طاقم مكون من ستة أشخاص، فإلى جانب البحار جيمس كاثكارت، يوجد البحارة: جورج سمث، وجون جريجوري، وجورج هورمت، وقبطان السفينة إيزاك ستيفنز، ومساعد أليكساندر فورسايد. وإلى جانب هذا القول فإن ابنة جيمس كاثكارت ذكرت في مقدمة كتابه المترجم إلى العربية الذي ألفه عن الجزائر تحت عنوان "مذكرات أسير الداوي كاثكارت قنصل أمريكا في المغرب" أن أبيها وقع أسيرا على يد البحارة الجزائريين الذين استولوا على السفينة الأمريكية "ماريا بوسطن" في جويلية 1785م والتي تعتبر أول سفينة يستولي =

للبحرية، وهو طويل الشكل، توجد بارجة وسفينة حربية شراعية ذات صاريين وجليوطة وأربعون زورقا حربيا، وهذا أكبر عدد رأيت في حياتي للسفن التي يجري بناؤها وإصلاحها في نفس الوقت، والحوض ممتلئ بحيث لم يعد يوجد فيه مكان لسفينة واحدة أخرى¹.

وكانت توجد العديد من المراكز الخاصة بالصناعة البحرية، وتفاوتت أيضا عن مثيلاتها بشمال إفريقيا، بسبب النظام الصارم المحكم وكذلك كفاءة المهندسين ومسؤولو الترسانة الذين يراقبون قطع الخشب المجلوبة من الغابات، خاصة من منطقة القبائل ومنطقة شرشال، وبفضل هذه المراكز تطور الأسطول الجزائري وفرض هيمنته على البحر الأبيض المتوسط².

ومن بين الأدوار التي قام بها هؤلاء المهاجرون في هذا الميدان صناعة السفن بمختلف أشكالها وأنواعها بمدينة شرشال التي توجد بها ترسانة لهذه الصناعة نظرا لتوفر الأخشاب بها³، ومن بين أهم المراكز المتواجدة بها مركز الصناعة البحرية، الذي شهد نشاطا واسعا لصناعة السفن خاصة في بداية العهد العثماني، وذلك لعدة عوامل ومنها شساعة ميناء شرشال وسهولة استعماله، وموقعه الاستراتيجي الذي كان محميا من الرياح القوية، نظرا لوجود حواجز طبيعية

= عليها البحارة الجزائريين، في موضع يقع على مسافة ثلاثة أميال إلى الجنوب الشرقي من رأس سانت فاسانت (جزيرة في البحر الكاريبي الواقع في المحيط الأطلسي)، ورغم أسره في الجزائر إلا أنه لم يدم طويلا في هذا الوضع ليصبح موظفا مسيحيا ومديرا لمكتب الداى في الجزائر، وعمل كذلك كوسيط بين الداى والسفراء الأجانب. وفي سنة 1796م رجع إلى الولايات المتحدة الأمريكية على حسابه الخاص وعمل لصالح بلاده كقنصل في العديد من البلدان العربية والأوروبية، ليستقر أخيرا في أمريكا ويعمل في منصب المراقب الإداري في واشنطن من سنة 1823م إلى غاية وفاته سنة 1843م. ينظر: خالد الباطنى، "عبيد في الجزائر: أسرى الولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر 1785-1797"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر، المجلد 80، العدد 5، جويلية 2020م، ص 217 - 218. وكتاب: كاثكارت، المصدر السابق، ص 9-10.

¹ - كاثكارت، المصدر السابق، ص 76.

² - زهرة محجوبي، المرجع السابق، ص 48.

³ - حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 53-54.

كجزيرة جوانفيل في الجهة الغربية ورأس تيزيرين في الجهة الشرقية، بالإضافة إلى توفر المنطقة على ثروة غابية¹.

وحول هذه الصناعة يذكر هايدو أنّ سفن القراصنة الجزائريين والتي من بينها الفرقاطات ذات ثلاثة عشر مقعدا التي كانت تُبنى في شرشال أين توجد كميات كبيرة من الخشب، كان يقوم ببنائها الموريسكيون المهاجرون من غرناطة وفالنسيا وأراغون². وهو ما يؤكد لوي كاردياك في قوله الذي بين فيه أنّ الأندلسيين: "... كانوا يصنعون في شرشال (Sargel) على بُعد عشرين فرسخا من الجزائر العاصمة، بعض السفن الشراعية أو فرقاطات من الخشب..."³. هذا ويذكر فهيم لقوارة أنّ الأندلسيين قد ساهموا في بناء ترسانة قريبة من مدينة الجزائر والتي تتمثل في ترسانة مدينة شرشال، وكانت تُبنى فيها السفن من نوع الفرقاطة والبركانطي (يُنظر الملحق رقم 09) ذات 8 إلى 13 مقعدا⁴.

وغير بعيد عن مدينة شرشال توجد مدينة الجزائر التي تُعتبر من بين أهم المدن وأكثرها نشاطا لهذه الصناعة، وكان للأندلسيين مساهمة أخرى بهذه المدينة التي كانت تحتضن العديد من ورشات صناعة وتركيب السفن، والتي هي الأخرى احتضنت العديد من المستودعات والمخازن والأجهزة المختلفة من أجل القيام بهذه المهام وهي صناعة وتركيب السفن بمختلف أحجامها ومهامها، ويعمل داخل هذه المنشآت مجموعة من الأسرى المسيحيين المختصين في النجارة والحدادة والحبال، بالإضافة إلى وجود مجموعة من الأهالي والأندلسيين من أهل الخبرة

¹ - زهرة محجوبي، المرجع السابق، ص 49.

² - diego de haëdo, op. cit, p 101.

³ - لوي كاردياك، المرجع السابق، ص 85.

⁴ - فهيم لقوارة، ميناء مدينة الجزائر ودوره الاقتصادي في العهد العثماني (ق 10 - 11هـ / 16 - 17م)، د. ط، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2021م، ص 120.

والتجربة في هذا المجال¹. ومن أهم المراكز المختصة بهذه الصناعة نجد مركز الصناعة البحرية، الذي يُعتبر من أبرز ورشات الصناعة البحرية بالجزائر، تأسس في القرن 16م وعرف العديد من التغييرات خلال الفترة العثمانية، وهو بدوره يتشكل من وحدتين للصناعة: واحدة تقع في باب الوادي وتختص بصناعة السفن الكبيرة، وأخرى تقع بباب عزون وتصنع فيها السفن الأقل حجما².

واحتضنت مدينة بجاية هي الأخرى هذه الصناعة وفتحت المجال أمام الأندلسيين للعمل في مصانعها، خاصة وأنّ هذه المدينة قد اشتهرت بنوعية الخشب الجيدة مثل العديد من مناطق الإيالة الجزائرية، ونستشف ذلك من خلال قول الحميري الذي ذكر بأنه يوجد بها "... دار صناعة لإنشاء الأساطيل لأن الخشب في أوديتها وجبالها كثير..."³. وهذه المادة الحيوية (الخشب) هي أساس صناعة السفن، التي تعتمد قوتها أو ضعفها أساسا على نوعية الخشب ودقة صناعتها، ومن بين السفن التي كانت متواجدة في موانئ بجاية والتي كانت تزود الأسطول الجزائري في حروبه أو خرجاته عبر البحار والتي دون شك قد ساهم في صناعتها المهاجرون الأندلسيون السفن الحربية، وهو ما أخبرنا به حسن الوزان (ليون الأفريقي) في قوله: "... كان أهل بجاية على قدر عظيم من الغنى، يُسلحون العديد من السفن الحربية المختلفة ويرسلونها لغزو شواطئ إسبانيا..."⁴.

وتضيف إلى ذلك محجوبي زهرة إلى أنّ مدينة بجاية هي الأخرى كان يوجد بها مركز لصناعة السفن بمختلف أشكالها وأنواعها، والذي يتمثل في مركز الصناعة البحرية، الذي يُعتبر

¹ - مولاي بلحميسي، "صناعة السفن في الجزائر أيام الأتراك (ق. 16 - 19)", المرجع السابق، ص 51 - 52.

² - زهرة محجوبي، المرجع السابق، ص 48 - 49.

³ - محمد بن عبد المنعم الحميري (ت: 900هـ / 1495م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984م، ص 81.

⁴ - حسن بن محمد الوزان الفاسي، المصدر السابق، ص 50.

من المراكز المهمة لصناعة السفن في الجزائر خلال العهد العثماني، وذلك لتوفره على المواد الأولية لهذه الصناعة كالخشب والزفت والقطران¹.

كما شارك الأندلسيون في صناعة وتكريب مختلف القطع المتعلقة بهذه الصناعة وقاموا بإنشاء مستودعات لذلك، كمستودعات الخشب ومركز معامل لصنع البشاط والحبال والشرع والأجفان والمجاديف، وكانت تُصنع هذه الأدوات بالخصوص في المدن المجاورة للغابات الكثيفة والتي تحتوي على الخشب الصالح لصناعة السفن، مثل غابات جيجل والقل وبجاية التي يوجد بها شجر الصنوبر والأرز وبلوط الفلين الذي يُسمى الكروش، وكان يُدير ورشات الصناعة اختصاصيون مسلمون يساعدهم في عملهم فئات أخرى كالمسيحيين والأندلسيين وغيرهم².

وكانت مهنة بناء السفن تعتمد بشكل أساسي على الأخشاب المحلية التي تُصنع منها غالبا الأدوات المنزلية مثل الخزائن والصناديق والقصاع والموائد وغيرها، وقد يتم اللجوء في بعض الأحيان إلى جلب الأخشاب الجيدة من الخارج خاصة من أوروبا³. وبما أن صناعة السفن تعتمد بشكل أساسي على الخشب فإن الإيالة الجزائرية أولت اهتماما كبيرا بهذا الجانب، فقامت باستغلال الغابات الموجودة بالجزائر واختيار الأنواع الجيدة من الخشب المستخدم في هذه الصناعة، مثل شجر البلوط الذي يُستخدم كذلك لإصلاح أسرة المدافع⁴. وحسب فيرو "Feraud" فإن حكام الجزائر عملوا على تزويد البحرية الجزائرية بأخشاب الغابات الموجودة بمنطقة جيجل⁵.

¹ - زهرة محجوبي، المرجع السابق، ص 50.

² - عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 99.

³ - ناصر الدين سعيدوني، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب)"، المرجع السابق، ص 35 - 36.

⁴ - ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 255.

⁵ - Feraud Charles, "Histoire des villes de la province Constantine", (Bougie) Constantine, 1989, p 177.

وتوضح لنا أكثر عائشة غطاس آليات التمويل بالمواد الأولية وعلى رأسها الأخشاب لصناعة السفن في قولها: "أما بالنسبة للمواد الأولية التي كانت تُستعمل لصناعة هذه السفن، فقد كانت الأخشاب تُنقل إلى ترسانة الجزائر من نواحي شرشال. كما كانت غابات القُل الغنية بأشجار البلوط الأخضر تُمول هي الأخرى ترسانة الإيالة بالأخشاب الضرورية لصناعة السفن. ولا تماثلها سوى غابات اليدوغ وبني صالح والقالة وضواحي السييوس التي تمول ترسانة الجزائر بالأخشاب والراتنج خاصة. وكانت أخشاب غابات القالة أكثر ملائمة لصنع أقفاص السفن لقابليتها للانحناء والتقوس"¹.

أما فيما يخص بعض المواد الأخرى اللازمة لصناعة السفن مثل الصواري والشرع والحبال وغيرها فإن أغلبها كانت أوروبا تزود بها الجزائر، في مقابل الجزية التي كانت تفرضها عليها سنويا، أو يشتريها منها الجزائريون أو يعوضونها ببضائع أخرى عن طريق المقايضة². وقد اهتمت السلطة الحاكمة بهذا الجانب مع مراعاة استيراد النوعية الجيدة والملائمة لصناعة السفن الجزائرية، ويندرج هذا الاهتمام في تغطية النقص الحاصل في هذه المادة الضرورية، خاصة وأن ترسانة الأسطول الجزائري تزداد يوما بعد يوم، وفي هذا الشأن قامت مؤسسة البحرية الجزائرية باستيراد الأخشاب من الأناضول وحبال أزميز بتركيا وإسكندرونة والبلقان، بالإضافة إلى دعم هولندا للجزائر بهذه المادة رغم ممانعة بعض الدول الأوروبية لهذه العملية وإصدار قوانين صارمة في عدم تعامل التجار الأوروبيين مع الإيالة الجزائرية، إلا أن هولندا كانت لا تكتثر لهذه القوانين، وأرسلت إلى الجزائر الصواري والحبال والبارود والمجاديف والأخشاب³، وكمثال على ذلك نجد أنها قامت في 30 أفريل 1679م بإرسال ثمانى قطع من

¹ - عائشة غطاس، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، ط خاصة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م، ص 100.

² - عبد الحميد بن زيان بن اشنهو، المرجع السابق، ص 99.

³ - حليم سرحان، "صناعة السفن الحربية في الجزائر خلال العهد العثماني دراسة مستمدة من النصوص التاريخية والوثائق"، المرجع السابق، ص 76 - 77.

المدافع بوزن خمسين رطلاً مع ملحقاتهم، وأربعون صارياً، وخمسمائة برميل من البارود، وخمسة آلاف كرة وسفينة مليئة بالكابلات ومشابك مختلفة وغيرها إلى الجزائر¹.

ويذكر آدم متز أنّ أعلى أصناف الخشب التي كانت تُصنع منه السفن في تلك الفترة هو خشب شجر اللبخ الذي لا ينبت إلا بأنصنا²، وهو عبارة عن عود تُنتشر منه ألواح السفن، وتتميز بطولها وغلاء ثمنها، ومن مميزاتها أنها إذا شد لوحا بلوح وطُرح في الماء ستة أيام صار لوحا واحدا³.

وقد كان للأندلسيين الفضل في جلب نوع جديد من السفن إلى الجزائر وتمثل في السفن المستديرة المدفوعة بالشرع (يُنظر الملحق رقم 08) وذلك بعد طردهم من إسبانيا سنة 1609م⁴. ويذكر دي فولكس أنّ هذا النوع من السفن أُدخل إلى الجزائر سنة 1606م عن طريق القرصان الفلمنكي سيمون دانسر، ثم تطور وانتشر هذا النوع من السفن في الجزائر بعد وصول الموريسكيين إلى الجزائر سنة 1609م⁵. بينما يرى روجي كواندرو أنّ أحد المنشقين الهولنديين يُدعى سيمون دي دانسر Simon de Danser قد أقام بالجزائر سنة 1606م وعلم الجزائريين الفن الحديث لبناء السفن والملاحة بالشرعيات الحقيقية المسماة "المراكب الدائرية"⁶. ويخالفه في هذا التاريخ ناصر الدين سعيدوني الذي ذكر أنّ سيمون دي دانسر قد جلب هذه التقنية أي

¹– Moulay Belhamissi, marine et marins d'Alger (1518– 1830), T 01, op. cit, p 74.

²– مدينة تقع في بلاد مصر، وقد ذكرها ياقوت الحموي في قوله: "... مدينة أزلية من نواحي الصعيد على شرقي النيل...". ينظر: ياقوت الحموي، المصدر السابق، ص 265.

³– آدم متز، المرجع السابق، ص 429.

⁴– حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المرجع السابق، ص 266.

⁵– Albert Devoulx, "la marine de la régence d'Alger", op. cit, p 390.

⁶– روجي كواندرو، المرجع السابق، ص 79.

بناء السفن الدائرية إلى الجزائر سنة 1627م وحافظ عليها المهندسون الأوروبيون العاملون بالترسانة الجزائرية مثل جوفروا وأنطونيو مايسترو¹.

ونلاحظ من تلك الروايات أنّ القرصان سيمون دي دانسر هو الذي أدخل هذا النوع من السفن الذي ساهم في تطور الأسطول وإعطاء الدفع القوي لعمل البحرية الجزائرية خاصة بعد وصول الموريسكيين إلى الجزائر الذين عملوا على تطوير تلك السفن، وصقل خبرتهم وتجاربهم التي اكتسبوها في بلادهم أو من تجاربهم في ركوب البحر، وهذا الحرص الذي بذله هؤلاء أعطى ثماره على المدى القريب والبعيد في تطور الأسطول الجزائري والترسانة العامة لبناء السفن في البحرية الجزائرية، ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل رافقوا المهندسين الجزائريين في تحويل المراكب التجارية التي يستولون عليها إلى مراكب حربية²، وزودوها بترسانة حربية وفق حجم ونوع السفينة المراد تسليحها، فهناك من تحمل ستة عشر مدفعا وأخرى تحمل ثلاثين مدفعا، وبعضها يسير بالمجاديف والبعض الآخر يسير بالأشرعة³.

كما برعوا كذلك في مهنة أخرى متعلقة بالمهنة السابقة والتي تتمثل في حرفة النجارة والنحت على الخشب، التي كانت تولي لها الحكومة أهمية باعتبارها تمثل الجانب الجمالي للمراكب وملحقاتها، وكذلك تُرسخ مبدأ الإلتقان في صناعة السفن، مثل ما ذكرته كورين شوفالييه أنّ هؤلاء المهاجرين قد أتقنوا العديد من الحرف والتي من بينها حرفة النجارة والنحت⁴.

ويذكر مولاي بلحميسي أنّ النجارين استخدموا في البداية خشب البلوط والصنوبر ذو النوع الجيد الذي تم جلبه من ضواحي شرشال، ثم في منتصف القرن السابع عشر تقريباً، تم جلب الخشب من منطقة بجاية، ولتسهيل هذه المهمة تعاملت الحكومة مع الشخصيات المحلية

¹ - ناصر الدين سعيدي، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب)"، المرجع السابق، ص 35-36.

² - مبارك بن محمد الهاللي الميلي، المرجع السابق، ص 126.

³ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 187.

⁴ - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 17.

المؤثرة في المنطقة، خاصة العائلات المرابطية، وذلك مقابل منحها امتيازات واسعة، ومن بين تلك العائلات التي تعهدت بقطع الأشجار وإرسال الأخشاب إلى مراكز صناعة السفن وما تعلق بها عائلة أمقران بمنطقة مجانية، والتي حظيت في المقابل بحصولها على الأراضي الزراعية الواقعة بين سطيف ووادي زناتي. هذا بالإضافة إلى منطقة جيجل والقل التي ساهمت في هذه الأنشطة. بالإضافة إلى ذلك اعتمدت الحكومة على خشب أشجار البلوط المتواجد بغابات قسنطينة، والذي يُسمى "زين" من قبل سكان المنطقة. ويمتاز هذا النوع من الأشجار بصلابته وكبر حجمه وكذلك ارتفاعه الكبير¹.

ثانيا: مساهمتهم في الدفاع.

1- مشاركتهم في التصدي للحمالات البحرية على الجزائر:

لقد كان للأندلسيين المتواجدين بالجزائر دور آخر مهم ضمن البحرية الجزائرية والذي تمثل في مساهمتهم في الدفاع عن السواحل الجزائرية من خطر الحملات الأوروبية المتكررة طيلة التواجد العثماني بها، وهذا الدور الذي لعبه هؤلاء وضَّحوا من خلاله أنهم مستعدون للتضحية بالنفس والنفيس من أجل التصدي لأي عدوان خارجي، ومساعدة إخوانهم المسلمين بكل ما يملكون من خبرة من أجل دحر أي هجوم قد تعرضت له سواحل الإيالة الجزائرية. وهذه العزيمة التي تحلى بها هؤلاء كان من ورائها عدة دوافع ساهمت كلها بإعطاء دفع قوي لهؤلاء المهاجرين من أجل تأكيد حضورهم على مستوى العمل البحري، مستغلين في ذلك خبرة سنوات عديدة في مجال ركوب البحر والدفاع والعمل بشكل عام في البحرية الأندلسية قبل سقوطها، ومستفيدين كذلك من تجاربهم التي عاشوها في إسبانيا المسيحية بعد سقوط آخر معاقلهم غرناطة سنة 1492م إلى غاية الجلاء الأخير بين سنتي 1609 و1614م.

ونلاحظ تلك المهارة في الدفاع وركوب البحر من خلال بروز البحرية الأندلسية وتطورها لفترات طويلة، هذه الأخيرة التي ساعدها الموقع الجغرافي لشبه الجزيرة الإيبيرية التي يحيط بها

¹ – Moulay Belhamissi, marine et marins d'Alger (1518– 1830), T 01, op. cit, p 65.

الماء من ثلاث جهات (البحر المتوسط والمحيط الأطلسي)، بالإضافة إلى تعرضها للعديد من الغارات والغزوات البحرية من الجهة الشرقية الشمالية بالخصوص، ونُضيف إلى ذلك نقطة مهمة ساعدت على نشوء وازدهار البحرية الأندلسية والتي تتمثل في تركيبة المجتمع الأندلسي وما يحمله من موروث في هذا الميدان، خاصة المولدين من أهل البلاد الأندلسية وكذلك عرب اليمن الذين استوطنوا الأندلس، وكان لهذه الفئات خبرة كبيرة في ركوب البحر منذ زمن طويل، وأمام هذا الوضع كان لزاما عليها أن تنشأ بحرية تواجه مختلف التحديات التي تتعرض لها الأندلس وتكون في مستوى تطور البحريات الأخرى.

أما على مستوى الجزائر فقد كان العمل البحري أكثر جدية وربما أكثر صعوبة نظرا للتحديات التي كانت تواجه الجزائر خلال العهد العثماني، خاصة الأطماع الأوروبية التي كانت دائما تنتظر الفرصة الملائمة للإطاحة بها وكسر شوكتها التي عانت منها كثيرا. وأمام هذا الأمر كان لزاما على البحرية الجزائرية أن تكون في مستوى تطلعات طاقمها وكل من ينتسب إليها، وتلك التطلعات لم تكن على مستوى البحر فقط بل تعدت حدود ذلك، فعلى غرار الاهتمام بالجهاد البحري والصناعة البحرية كان الاهتمام بأمر الدفاع عن السواحل الجزائرية من الضروريات الحتمية التي سهرت مؤسسة البحرية على الاهتمام بها أكثر من غيرها، لاعتبار أن السواحل أو الموانئ البحرية هي قاعدة تحرك الأسطول وهي مركز صناعة وتكوين البحارة ومركز تجمع وحدات الأسطول ومركز الانطلاق والرجوع.

فكانت مسألة الدفاع من بين المسائل المهمة، والتي حاولت دائما السلطة النظر إليها واختيار من هم أكفاء لهذا العمل، خاصة وأنّ الجزائر كانت تتعرض للعديد من الحملات الأوروبية بين الفينة والأخرى، فكان لا بد من تحصين تلك القواعد والدفاع عنها، ومن بين هؤلاء الذين كان لهم الشرف بالولوج لهذا المجال والذي وضعت فيهم السلطة ثقها ومنحتهم العمل في هذا الميدان الجالية الأندلسية، التي تعدت حدود العمل في مجال الصناعة والبناء والتشييد إلى الولوج إلى مهمة الدفاع عن موانئ وسواحل الإيالة الجزائرية، سواء من خلف

الطبانات والقلاع المطلّة على البحر أو من خلال السير بالقرب من الساحل بواسطة السفن الحربية المُعدة لذلك أو المواجهة العسكرية المباشرة التي استعمل فيها السيف والبارود ومختلف الأسلحة التي تصدى بها هؤلاء المهاجرون رفقة إخوانهم الجزائريين للغزاة الماكرين.

ومن بين الأدوار الدفاعية التي قام بها هؤلاء في هذا الجانب حسب ما ذكره سامح عزيز ألتز مساعدتهم لعروج بُغية الدفاع عن مدينة الجزائر، وذلك حينما تحالف الإسبان مع بعض القادة المحليين بالجزائر والذين من بينهم أمير تنس وحاكم تلمسان، وبعض السكان من عرب متيجة الذين تحالفوا مع الجنود الإسبان المقيمين بحصن البنيون، وهذا من أجل توجيه ضربة قوية للقضاء على الوجود التركي بالجزائر، وذلك في صيف 1516م، حينما أصدر الوكيل الإسباني الكاردينال خزيمينيس أمرا بإرسال خمسة وثلاثين سفينة على متنها خمسة عشر ألف جندي تحت قيادة ديبغو ديفيرا، والتوجه بها نحو الجزائر ومحاصرتها، ورغم ذلك فإن عروج وبمساعدة الأتراك والمهاجرين الأندلسيين تمكن من دحر هذا الهجوم وإفشاله. ويُبين سامح عزيز ألتز في ذات السياق مدى ضغينة الأندلسيين ودورهم في مواجهة الإسبان في قوله: "استعد عروج مع الأتراك والمهاجرين الأندلسيين - الذين احترقت قلوبهم من ظلم الإسبان - للتصدي للأعداء ومقاومتهم، يساندهم بعض الأهالي والقبائل"¹.

وحسب رواية خير الدين بربروس فإنّ هؤلاء الأندلسيين كان لهم حضور أيضا في إحدى المعارك التي قادها عروج². وربما يقصد بها الحملة التي قادها عروج في صيف عام 1517م حينما حقق انتصارا كبيرا في وادي شلف على المتمردين كما ضم ميناء تنس³. ومن الأدلة الأخرى كذلك على أهمية وبروز الأندلسيين في ميدان الدفاع والعمل العسكري خاصة البحري منه، التقرير السري الإسباني الذي يصف حالة الجزائر، والذي بُعث

¹ - عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 54 - 55.

² - خير الدين بربروس، المصدر السابق، ص 77.

³ - Heers Jacques, **Les Barbaresques**, Perrin, Paris, France, 2008, p 56.

من بجاية إلى إسبانيا في 29 مارس 1535م، وتضمن أنه يوجد في مدينة الجزائر خلال هذه الفترة 2000 من الأتراك وسبعة أو ثمانية آلاف من مهاجري الأندلس موزعين في العديد من المدن والتي منها مدينة الجزائر ومليانة، هذه الأخيرة وضع بها خير الدين بربروس حاميات عسكرية أندلسية¹. وفي السنة الموالية أي سنة 1536م بقي نفس تعداد القوات العسكرية سابقة الذكر، ثم ارتفع هذا العدد بعد عشرين سنة إلى 15000 جندي من الجنود الرماة والذين من بينهم 6000 أندلسي من الجنود الجيدين جدا حسب ما ذكره عبد القادر الميليقي².

وكما هو معلوم فإنّ الجزائر قد تعرضت للكثير من الحملات الأوروبية طيلة العهد العثماني³، والتي باءت كلها بالفشل إلا الحملة الأخيرة سنة 1830م التي نتج عنها الغزو الفرنسي للجزائر بعد حصار دام ثلاث سنوات، وهذه الحملات هي كثيرة وتعددت غايتها وأسبابها وأظهرت في كل مرة للأعداء بأنّ الجزائر تمتلك قوة كبيرة وليس من السهل احتلالها، مثل ما فعل شارلكان الإسباني الذي رمى تاجه في البحر بعد انهزامه أمام الجزائر في معركته الشهيرة سنة 1541م، مُعترفاً بذلك أنّ الجزائر دولة قوية، وغبي من يفكر في احتلالها أو ارضاخها لمتطلباته.

ولا شك أنّ معظم هذه الحملات أو يُمكن القول كلها قد شارك في صدها المهاجرون الأندلسيون، خاصة الحملة آنفة الذكر أي حملة شارلكان سنة 1541م، والتي شارك فيها الوافدون الأندلسيون في مدينة الجزائر، وأكدوا مدى حضورهم وحرصهم على الدفاع عن هذه المدينة، التي أظهرها فيها الروح القتالية العالية والمعرفة الكبيرة في مجال تقنيات الحرب، وهذا

¹ - حنيفي هلايلي، "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء الفرمانات العثمانية (1492-1614)", المرجع السابق، ص 23.

² - عبد القادر الميليقي، "الأندلسيون المواركة وحضورهم في الصناعة البحرية بالجزائر في العهد العثماني"، المجلة المغاربية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، المجلد 09، العدد 01، جوان 2018م، ص 11-13.

³ - للتوسع أكثر في موضوع الحملات الأوروبية ضد الجزائر طيلة الوجود العثماني بها يُنظر: يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830.

حسب ما ذكرته سامية شرقي، التي استندت في ذلك على مجموعة من الوثائق الأرشيفية المتواجدة بأرشيف سيمانكاس Simcas¹. ويشاطرها في هذا الرأي إسماعيل جودي الذي ذكر أن من بين القوات التي تصدت لهذه الحملة 5000 مقاتل من الجزائريين أغلبهم من الأندلسيين الذين لهم خبرة في مجال الرمي ببندقية الإسكوبيت واستعمال النبال الحديدية، والتي تحذوها روح العزيمة² والاندفاع من أجل التصدي للعدو ودحره بعيدا عن الديار الإسلامية.

بينما يذكر فوزي سعد الله أن القوات الجزائرية التي تصدت لهذه الحملة كانت تتألف من 15 ألف مقاتل في مقابل 40 ألف جندي مسيحي، وكان من ضمن القوات البحرية الجزائرية فيلق من الأندلسيين مكون من ستة آلاف مقاتل، وبعد انتهاء هذه المعركة التي انهزم فيها شاركان وجنوده هزيمة نكراء سقط الآلاف من القتلى في صفوف القوات الجزائرية ومن بينهم خمسة آلاف أندلسي³.

ويبدو أن الرقم الذي ذكره إسماعيل جودي قليل مقارنة بالعدد الذي ذكره فوزي سعد الله فيما يخص المقاتلين الأندلسيين في هذه المعركة الكبيرة، ورغم ذلك لا يمكننا ذكر العدد بالضبط نظرا لغياب الوثائق الرسمية أو الروايات الرسمية لدينا، والأهم من ذلك هو أن هذه المشاركة للأندلسيين سواء كانت قليلة أو كثيرة إلا أنها جسدت مبدأ الأخوة والتعاون بين المسلمين، وأكدت الحضور الفعلي لهذه الفئة في الدفاع عن موطنهم الجديد المتمثل في الجزائر، ومشاركة إخوانهم المسلمين في أزماتهم كما شاركوهم في أفراحهم وانتصاراتهم.

وكان التواجد العسكري الأندلسي حاضرا بشكل جلي على مستوى البحرية الجزائرية خاصة في عمليات الدفاع، ونؤكد هذا القول من خلال ما ذكره حنفي هلايلي في إحدى بحوثه المتعلقة بالتواجد الأندلسي بالجزائر، بحيث ذكر أن الملك فيليب الثاني قد بعث برسالة إلى

¹ - Samia Chergui, "Les morisques et l'effort de construction d'Alger aux XVIIe et XVIIIe siècles", cahiers de la mediterranee, journals openedition, N 79, 2009, Vu le: 6- 2- 2023, Citation du lien suivant: <https://journals.openedition.org/cdlm/4932>

² - إسماعيل جودي، المرجع السابق، ص 33 - 34.

³ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 105.

سفير فرنسا بمديرد مؤرخة في 6 جويلية 1566م، وجاء في محتوياتها أنّ إيالة الجزائر يوجد بها حوالي 15 ألف جندي جيد التنظيم والتسليح، من بينهم ستة آلاف موريسكي¹.

وهذا الحضور اللافت لهؤلاء دفع حكام الجزائر بالاستعانة بهم والاستفادة من خبراتهم في مجال الدفاع، وقد وضحت مريم بوخاوش هذا الطرح في قولها: "والشيء الذي دفع العثمانيين الاعتماد على القوة الأندلسية في الجزائر ما امتازت به هذه الطائفة على المستوى العسكري، من صبر على الجهاد، وخبرة في الدفاع ورد الهجمات الإسبانية، وقد قال الملك الإسباني فيليب الثاني لسفير فرنسا في بلاطه "فوكفوليس" واصفا رجال الأندلس المهاجرين: "يوجد بمدينة الجزائر 15 ألف ممن يحسنون استعمال الأسلحة النارية، من بينهم عشرة آلاف رجل من العرب الذين نزحوا من إسبانيا في السنوات الأخيرة وهم من خيرة الجنود"².

وقد استعان بهم حكام الجزائر في الكثير من الأحيان من أجل استتباب الأمن والدفاع عن المدن الجزائرية خاصة الساحلية منها، والتي تتعرض من فينة لأخرى إلى التحرشات الأوروبية، ومن أمثلة ذلك قيام البيلرباي عالج علي (1568-1577م) بطلب عون الأندلسيين من أجل مواجهة القوات الإسبانية وإرباكها، ومهاجمة وهران، ثم التحرك بعد ذلك نحو السواحل الإسبانية³.

وفي سنة 1573م كان لهم دور آخر في دعم ومساندة الجزائريين في الدفاع عن سواحلهم وتحريرها من الغزاة المسيحيين، ولو أنها كانت خارج الجزائر إلا أنها تُحتسب لهم وتُعتبر من ميزات التآخي والمساندة بين الموريسكيين المتواجدين بالجزائر والموريسكيين

¹ - حنيفي هلايلي، "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء فرمانات العثمانية (1492-1614)", المرجع السابق، ص 22.

² - مريم بوخاوش، "آثار سقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط 6. 10 هـ / 12. 16م"، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ، المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة، الجزائر، دفعة 2015م، ص 195.

³ - نفسه، ص 195.

المتواجدين بإسبانيا، وتجلّى ذلك من خلال الأنباء التي وصلت إلى السلطات الإسبانية التي بيّنت خلال هذه السنة أنّ أمراء الجزائر وتلمسان يُجهزون حملة بحرية لمهاجمة المرسى الكبير الذي كان في هذا الوقت تحت الاحتلال الإسباني، يُعاونهم ويساندونهم فيها موريسكيو بلنسية بالثورة ضد السلطات الإسبانية، فقامت هذه الأخيرة بنزع السلاح من الموريسكيين في إقليم بلنسية¹.

وفي الأخير يُمكن إيجاز أدوارهم الدفاعية في عنصرين أساسيين - حسب ما ذكره حنفي هلايلي - هما²:

- مساهمتهم الفعالة في تسليح وتموين السفن بالإضافة إلى تكوين الفرق البحرية.
- دورهم الهام في تلقين سكان الجزائر فنون أوروبا العسكرية، وحتما هذه الفنون ساعدتهم كثيرا في صد هجمات الحملات الأوروبية ومعرفة أهم التقنيات العسكرية التي كانوا يستخدمونها في خططهم الحربية.

2 - مشاركتهم في بناء وتشيد العمارة العسكرية:

لقد اهتمت السلطة الحاكمة بالجزائر خلال العهد العثماني بتطوير العمارة العسكرية وتحسينها من أجل مواكبة التحديات التي كانت تواجهها، ونظرا لأنّ هذا الجانب يتطلب نوع من الخبرة والإتقان فإنهم استعانوا بشكل خاص بالعديد من الفئات الوافدة على الجزائر، سواء الأوروبية أو المنحدرة من البقاع الإسلامية وعلى رأسها الأناضول، ومن بين تلك الفئات التي ساهمت في بناء وتشيد العمارة العسكرية المتعلقة بالبحرية الجزائرية فئة المهاجرين الأندلسيين، التي تركت بصمة واضحة في عمليات بناء وتشيد العديد من القلاع والحصون وكذلك

¹ - محمد عبد الله عنان، المرجع السابق، ص 382.

² - حنفي هلايلي، "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء الفرمات العثمانية (1492-1614)"، المرجع السابق، ص 22-23.

الطبانات¹، عبر العديد من الموانئ البحرية، خاصة الموانئ الرئيسية منها، مثل موانئ مدينة الجزائر وبجاية وشرشال وتنس وغيرها.

ومما لا شك فيه أنّ هؤلاء الأندلسيين قد تركوا بصمة راسخة في المنشآت العمرانية بالعديد من مدن الإيالة الجزائرية وعلى رأسها مدينة الجزائر، في مختلف جوانبها كالمنشآت الدينية ومنشآت الري والمنشآت العسكرية، وهو ما جعلها بأن ترقى إلى منطقة حصينة منيعة وقفت في وجه مدافع العدو والحملات المتكررة عليها. ويؤكد هذا الطرح فوزي سعد الله في قوله: "أما التحصينات المبكرة التي شهدتها العاصمة الجزائرية العثمانية الناشئة آنذاك، والتي حولتها من مدينة تحت رحمة القصف المدفعي الإسباني من حصن البنيون المحتل إلى مدينة/ قلعة ليس فقط لا تُقهر بل تهاجم أعداءها في عقر دارهم... فقد أشرف على إنجازها مدير أشغال آخر من أصل أندلسي... ينحدر من مدينة ألمرية (Almeria) الإسبانية"². ويُمكن تدعيم هذا القول بما ذكره أندريه ريمون الذي بيّن أنه: "... في الجزائر تمكنت أسرة من المعمارين الأندلسيين من أن تُضيف إلى مآثرهم القيام بتشييد النكات والبوابات والمنشآت العسكرية، وهي أسرة موسى³ الأندلسي وعلي وإبراهيم موسى..."⁴. وهو ما يؤكد فتحي زغروت في قوله: "وهكذا نلمس دور الموريسكيين واليهود واضحا في البناء الحضاري والثقافي في

¹ - البطارية وجمعها بطاريات وتسمى كذلك طبانات أو طبخانات وهي معادل للمدفعية في الأسوار والحصون والأبراج وكذلك في التراب بعد حفر حفرة وإحاطتها بأكياس من التراب أو الرمال. ينظر: بلبراوت بن عتو، "المنشآت الدفاعية بمدينة الجزائر ومينائها خلال العهد العثماني"، مجلة الحضارة، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، المجلد 11، العدد 14، 01 جويلية 2010م، ص 160 (الحاشية السفلية).

² - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 81.

³ - حسب المعلومات التي لدينا ربما تكون هذه الأسرة هي نفسها أسرة الأوسطى موسى الأندلسي التي لها العديد من الإنجازات في مختلف المجالات والتي تطرقنا لها في العديد من المواضع في فصول هذه الأطروحة.

⁴ - أندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، ط 1، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1991م، ص 44.

المغرب العربي فهم أصحاب حِرَف فنية وأصحاب معمار حربي ومدني على مستوى رفيع من الفن ولا يمكن أن ننكر دورهما في هذا المجال...¹.

وهذه الإنجازات المعمارية التي قام بها الأندلسيون بعد استقرارهم بالجزائر لا تدخل في نطاق التحكيمات العسكرية المتعلقة بالجيش الإنكشاري فحسب بل تُعتبر نقطة اشتراك بين المنشآت المتعلقة بالجيش البري الإنكشاري والمنشآت المتعلقة بالجيش البحري، فهي تُعتبر القاعدة الأساسية التي تُزود وتحمي الأسطول الجزائري وهي كذلك درع واقٍ للهجمات البحرية ضد الجزائر.

وهذه المنشآت العسكرية تركت في مجملها أثرا جميلا وانطبعا باهرا في نفوس كل من رآها، وذلك لدقة تصميمها وقوة تحصيناتها وجمال منظرها، ومن بين هؤلاء الذين تأثروا بهذه المنشآت وتركوا لنا انطبعا جميلا حولها سيمون بفايفر، الذي زار الجزائر في أواخر الوجود العثماني بها، ووصف لنا العمارة العسكرية بمدينة الجزائر وأبدى مدى إعجابه بها في قوله: "وتوجد أمام المدينة قلاع وحاميات رهيبة، تحيط بالميناء كله..."².

وكتب لنا قبل ذلك القنصل كاثكارت واصفا مدينة الجزائر بأنّ التحصينات فيها تُشكل سلسلة من صفين من المدافع الثقيلة معظمها من النحاس الأحمر، وجميع الأبراج لا تملك خطا أماميا من الألغام والمواقع المحصنة، ويبقى الدفاع الوحيد الذي يقوم به الجنود هو إطلاق نيران المدافع والبنادق من فتحات الأسوار، ويذكر أيضا أنّ رجال المدفعية الثقيلة والخفيفة لا يملكون علما ولا تدريباً، بالإضافة إلى أنّ الجنود العرب والكراغلة والأتراك الذين يقعون تحت

¹ - فتحي زغروت، العثمانيون ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس (898هـ - 1115هـ) = (1492م - 1609م) منذ سقوط غرناطة حتى الطرد النهائي، ط 1، الأندلس الجديدة، مصر، 2011م، ص 271.

² - سيمون بفايفر، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تقديم وتعريب أبو العيد دودو، د. ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م، ص 13.

أوامرهم تنقصهم الطاعة والنظام، وضباطهم يجهلون التكتيك العسكري مثلهم، وأنّ معظم الأبراج والحصون مبنية بحجر هش ولا تتمتع أسوارها بالمتانة الضرورية¹.

ويبدو أنّ كاثكارت قد جانب الصواب، ولم يعط للمنشآت العسكرية بمدينة الجزائر حقها، وربما أطلق حكمه على كل المنشآت لمشاهدته البعض منها فقط، وربما لم يقرأ تاريخ الجزائر الحافل بالبطولات والإنجازات، ولم يسمع عن مدينة الجزائر المدينة التي أرهقت كل الغزاة، ولم يصله خبر هزيمة شاركان في مدينة الجزائر سنة 1541م، بعد أن جرّد حملة مسيحية ضخمة لإسقاط هذه المدينة الأسطورية، التي نُسجت حولها العديد من القصص التي تخللتها بطولات ومغامرات، يقودها بحارة أشداء زرعوا في نفوس كل من يرتاد البحر الخوف والهلع. ومع أنه ليست لنا القدرة الكافية ولا المعلومة الوافية للرد عليه بكل الأدلة الشافية الواضحة إلا أننا نستند في كلامنا السابق لما قاله وليام شالر الذي بيّن أنه كانت: "... جميع منافذ مدينة الجزائر تحميها تحصينات منيعة مسلحة بالمدافع الثقيلة التي تجعل كل محاولة مباشرة للسفن الحربية للهجوم على المدينة محاولة ميؤوسا منها..."².

ومما لا شك فيه أنّ تلك المنشآت العسكرية قد ساهم فيها ثلّة من المهندسين الأندلسيين الذين وفدوا على الجزائر وصقلوا خبرتهم ومعارفهم في هذا الجانب، ولهم العديد من الإنجازات في المجال العسكري سواء بناء الحصون أو الطابانات أو القلاع أو غيرها. وتوضح في هذا الصدد سامية شرقي أنّ الجالية الأندلسية بالجزائر قد ساهمت في العديد من الإنجازات الحضارية كالبناى والدفاع وغيرها، ومن أبرز الأندلسيين الذين اشتهروا في مجال البناء المعلم موسى (موسى اليسري الأندلسي الحميري)، الذي اشتهر من بين أهم مهندسي البناء بالجزائر خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، ويُنسب إليه المشاركة في بناء الثكنة العسكرية التي بُنيت مقابل مسجد شعبان خوجة، بالإضافة إلى إشرافه على بناء البطارية

¹ - كاثكارت، المصدر السابق، ص 74 - 75.

² - وليام شالر، المصدر السابق، ص 72 - 73.

الأندلسية والتي تُسمى أيضا بالبطارية الجمركية، وبرز كذلك ابنه علي وإبراهيم في هذا المجال وكانوا من بين المهندسين الرئيسيين للكثير من الإنشاءات، فقد كان لهم الشرف في بناء الثكنات القديمة الواقعة بالقرب من سوق الخضار، بالإضافة إلى ترميم العديد من البنايات الأخرى كترميم باب البحر¹.

ونظرا لهذا العمل الدؤوب لهؤلاء تمت ترقية علي الثغري بن موسى سالف الذكر إلى منصب كبير المهندسين سنة 1633م، وبعد ثلاث سنوات عينه حاكم الجزائر علي باشا للإشراف على استكمال بناء ثكنات الخضرون، والمعروفة كذلك باسم دار الإنكشارية الجديدة أو الثكنة الفوقانية (العلوية)، هذا بعدما قام ببناؤها أبيه الأوسطى موسى قبل عشر سنوات من ذلك، والتي كانت تُسمى دار الإنكشارية القديمة. وبرزت شخصية أخرى في هذا المجال وهي شخصية الحاج برهوم الابن الثاني للأوسطى موسى، والذي أسندت إليه العديد من الإنجازات المعمارية سواء المدنية أو العسكرية، ومن بينها إشرافه على تشييد برج السردين أو حصن السردين بمدينة الجزائر سنة 1666م بأمر من الحاج علي آغا².

وحتى الأمور البسيطة فإنه كانت لهم المساهمة في إنجازها مثل مقابض الطرق التي تستخدم في الثكنات والمنازل والقصور وغيرها، والتي كانت تسمى "الغانجو" Gancho وهي من بين المفردات الإسبانية الأندلسية التي دخلت للجزائر مع المهاجرين الأندلسيين³.

وبالإضافة إلى ذلك سنحاول في الصفحات الموالية سرد أهم ما أنجزه هؤلاء المهاجرون في هذا المجال حسب ما توصلنا إليه من معلومات تاريخية، ويُمكن إيجاز تلك الأعمال في العناصر التالية:

¹– Samia Chergui, op. cit.

²– ibid.

³– فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 85 – 86.

- **قلعة شرشال:** تُعتبر قلعة شرشال أو حصن شرشال من بين الإنجازات المعمارية التي ساهم الأندلسيون في تشييدها، وهذا الحصن يُعد من بين التحصينات المهمة التي دَعَمَت النظام الدفاعي لمدينة شرشال الساحلية، بحيث تصدى للعديد من الحملات الأوروبية وكان حصنا منيعا في وجهها، وكمثال على ذلك استطاع الجيش الجزائري بالتصدي لحملة أندريا دوريا Andrea Doria على شرشال سنة 1530م¹ بفضل هذا الحصن المنيع، الذي يُعتبر فخر الإنجازات المعمارية الدفاعية الأندلسية في مدينة شرشال.

- **برج الفنار (البنيون):** يُعتبر هذا البرج من بين الأبراج التي ساهم في بنائها الأندلسيون، وذلك ليكون بمثابة برج مراقبة ومنارة (فنار)، وقد تم بناؤه على قاعدة صخرية دائرية يبلغ قطرها 96 متر²، وذلك قبل أن يستولي عليه الإسبان، وربما يكون دور للمعلم موسى في ترميم هذا البرج مع بدايات القرن السادس عشر، الذي أصبح منارة شامخة استتارت به طيلة قرون المراكب التجارية المحلية والدولية، التي كانت ترسو بمدينة الجزائر على حد تعبير فوزي سعد الله³.

وقد طُرأت على هذا البرج عدة تعديلات، منها ما قام به الوالي عرب أحمد في سنة 1572م بإحاطته من جهة البر بخندق عرضه خمسة أمتار، وأضاف له طابقان ثالث ورابع مزودين بفتحات للمدفعية، بالإضافة إلى ذلك قام بتدعيم وتحصين الطابقين السفليين من البرج⁴.

- **برج المول (الجمرك):** سُمي كذلك بطبخانة الأندلس نسبة إلى الأندلسيين الذين شاركوا في بنائه، كما أنه اشتهر كذلك بطبخانة الجمرك لأنه كان يقع بالقرب من مبنى الجمارك⁵. ويقع

¹ - هجيرة غراف، المرجع السابق، ص 110.

² - فهيم لقوارة، المرجع السابق، ص 63-64.

³ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 83-84.

⁴ - فهيم لقوارة، المرجع السابق، ص 63-64.

⁵ - نفسه، ص 71.

في مرتفعات مدينة الجزائر، وكانت له فعالية كبيرة في التصدي للحملات الأوروبية خاصة الفرنسية والدانماركية والهولندية والإسبانية التي كانت تشن حملاتها على مدينة الجزائر من فترة لأخرى، وقد قام ببناء هذا البرج أو البطارية المعلم موسى الأندلسي¹.

ويُعتبر من أهم الأبراج في مدينة الجزائر، بحيث بني أعلى باب الجزيرة، وتم تشييده من طرف قايد صفا ما بين سنتي 1551م و1552م، وكان يتم حراسته من طرف جُند الإنكشارية، ومن حيث هندسة بنائه فإنه أخذ أبعاد مختلفة من حيث الطول والعرض، فكان طوله يصل إلى ثلاثين قدما وعرضه يُقدر بأربعين قدما، ومُحاط بحاجز يمتد على طول الميناء، وقد نُصب عليه حوالي 8 مدافع تحتوي على 23 فوهة نارية².

- **برج الأندلس:** قام ببنائه المعلم موسى الأندلسي في الفترات الأولى من القرن السابع عشر الميلادي، ويُعتبر هذا البرج من بين التحصينات العسكرية المتواجدة في مدينة الجزائر، الواقع في أسفل المدينة تحت الجامع الجديد مُطلا على باب البحر، وكان يوجد به مدفع يحتوي على سبعة فوهات³.

- **قشلة أوسطى موسى:** بُنيت في شارع ميدي (Rue Médée) المحاذي لشارع باب عزون، وقد شُيّدت هذه الثكنة من طرف المعلم موسى كذلك⁴.

- **برج السردين:** من بين أبراج مدينة الجزائر، يُطل على البحر في أسفل المدينة، قام بإنجازه الحاج إبراهيم بن موسى الثغري الأندلسي ما بين سنتي 1666م و1667م⁵.

- **دار أوسطى موسى:** وكانت تُسمى كذلك "دار الإنكشارية تاع دروج"، وهي عبارة عن ثكنة بُنيت في شارع البحرية أسفل الجامع الكبير، ومحاذية كذلك لباب الجزيرة "الذيرة"، وهي كذلك

¹ - فهم لقوارة، المرجع السابق، ص 83.

² - هجيرة غراف، المرجع السابق، ص 218-219.

³ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 83.

⁴ - نفسه، ص 84-85.

⁵ - نفسه، ص 87.

من بين الإنجازات العمرانية العسكرية التي قام بها المعلم موسى الموريسكي الحميري¹، ويعود بناء هذه الثكنة إلى عام 1674م².

¹ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 85.

² - إبراهيم بن يحيى البوسعيدي وآخرون، "الدور العسكري لموريسكي الأندلس في الدفاع عن الجزائر العثمانية حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي"، حوليات آداب عين شمس، جامعة عين شمس، مصر، المجلد 50، عدد جانفي- مارس 2022م، ص 221.

الفصل الرابع:

الدور الجهادي والتجاري للمهاجرين
الأندلسيين في البحرية الجزائرية

أولاً: الدور الجهادي (الجهاد البحري)

ثانياً: الدور التجاري (مساهمتهم في

تنشيط التجارة وتمويل حركة الجهاد البحري)

أولاً: الدور الجهادي (الجهاد البحري):

من المعلوم أنّ الجهاد البحري في الجزائر خلال العهد العثماني قد اكتسب مكانة مهمة جدا في وسط الحكام والسكان وحتى الوافدون على الجزائر من عرب وعجم، وأصبح يُشكل منبع الاقتصاد الأول خاصة في الفترات الأولى للوجود العثماني بالجزائر، وشكل أيضا الدرع الواقي والسلاح المهيمن الذي واجه الأعداء على مستوى الموانئ وفي عرض البحر، ومما يُحسب له أيضا دوره في إنقاذ مسلمي الأندلس من الاضطهاد الإسباني.

فرغم أنّ الغرب يعتبرون رُواده بالقراصنة إلا أنّهم انبهروا بما أنجزه البحارة الجزائريون على مستوى البحار، وعلى رأسهم طبعاً مؤسسي هذا العمل الأخوين عروج وخير الدين بربروس، ثم واصل بعدهم الجهاد البحري رجالا ذوي كفاءة وخبرة وعزيمة عالية كالمرتدين (المهتدين) الذين سُموا بالأعلاج، والفئات التي انحدرت من الأناضول، وفئة الأهالي الجزائريين، والفئة التي نحن بصدد التطرق لها فئة المهاجرين الأندلسيين، هذه الفئة التي لعبت دورا مهما في هذا العمل البحري الكبير، ورغم عدم وصولهم للمناصب العليا في البحرية الجزائرية إلا أنّ عملهم كان له شأن كبير في دفع عجلة الجهاد البحري واستمراره لفترات زمنية ليست بالقصيرة، وكذلك كان لهم دور كبير في مساعدة البحارة الجزائريين في التصدي للعدو ودحر الغزو الإسباني الذي ألقى ببرائته على العديد من المناطق الساحلية الجزائرية، مثل ما أشار إليه في هنري ليون (Fey Henri-Léon) حينما ذكر أنّ المهاجرين الأندلسيين قاموا بالانضمام إلى قراصنة البربر الذين كانت سواحلهم تحت الغزو، وقاموا بمساعدتهم¹. ويُمكن اعتبارهم أيضا الرجل الخفي الذي ظل يعمل في الخفاء من أجل بروز وازدهار البحرية الجزائرية في جميع المجالات وعلى رأسها الجهاد البحري.

وقبل التطرق إلى دور هؤلاء في هذا المجال لا بد من عرض إطلالة تعريفية وتاريخية حول الجهاد البحري وكشف اللبس الذي لحق به عند الباحثين والمختصين في هذا الشأن،

¹– Fey Henri-Léon, op. cit, p 55.

وهذا في حدود علمنا ومعرفتنا المتواضعة في هذا الجانب، وتماشيا مع ذلك يُمكن تعريف الجهاد البحري أو القرصنة (الحرابة) على أنها من: "... الكلمات المُعرّبة الدخيلة إلى اللغة العربية فهي مأخوذة من المصطلح الإيطالي كورسال (Corsale, Corsaro)، ثم أصبحت باللغة العربية (قرصنة وقرصان)، إذ استبدلت اللام بالنون. وتنطق كلمة (Corsaro) على كل سفينة مسلحة رُخص لملاحيتها أن يجوبوا البحار ويقاتلوا سفن الأعداء المُغيرة على سواحلهم. والمصطلح الأكثر صحة لكلمة قرصان في العربية، هو الذي أُخذ من اللفظ اللاتيني (Pirata)، والذي يعني المغامر في عرض البحر، يجوبه أيام السلم للنهب واللصوصية، والذي اشتق منه لفظي (Piraterie) بالفرنسية و (piracy) بالإنجليزية، وانحصر معناها في لصوصية البحر فقط"¹.

وقد تطور مصطلح القرصنة عبر العصور وكان يُشكل نوعين أساسيين، بحيث يتمثل النوع الأول في القرصنة القائمة على النهب والسلب، ويطلق عليه الفرنسيون اسم Piraterie، أما النوع الآخر فيتمثل في القرصنة ذات الحروب البحرية الدفاعية ويُطلق عليها مصطلح Course². ويبدو أن النوع الثاني هو الذي اتخذه المسلمون أو كما يُسمى الجهاد البحري، وذلك بكونه قائم على الدفاع ومحاربة القراصنة ونشر الدين الإسلامي والجهاد في سبيل الله، عكس النوع الأول الذي اتخذه معظم الغربيين الذين كان هدفهم السلب والسطو من أجل إشباع رغباتهم المادية، والتمتع باستحقاق وسلب الضعفاء في عرض البحر وعلى مستوى الموانئ والجزر النائية كذلك.

بينما يُعرف لنا القرصنة الراهب ببيير دان بأنها مأخوذة من اللفظ الأصلي قرصان (corsaire) أو كلمة كورسيكي (corse)، وهذا نسبة إلى شعوب جزيرة كورسيكا الذين يتميزون

¹ - كريمة سليمان الجداية، "القرصنة وحركة الجهاد البحري (لخير الدين بربروسا واخوانه) في شمال إفريقيا (1510م-

1546م)"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر، المجلد 77، العدد 02، أبريل 2017م، ص 07.

² - نفسه، ص 08.

بطباع فظة ومتوحشة، وأكثر شيء يهتمهم هو الاستحواذ على متاع الآخرين، ثم يذكر أنه من المحتمل جدا أن تكون لفظة قرصان مُشتقة من المصطلح اللاتيني (currere) والذي يعني "جرى"، لأن هؤلاء اللصوص المُقبلين على هذا العمل يرصدون دائما أهدافهم ويقومون بعمليات قرصنة مستمرة، كما أنهم يلاحقون كافة السفن التي يرصدونها من أجل الاستيلاء عليها. كما أن مصطلح القرصنة يُشتق منه لفظ آخر وهو "لص البحر" (pirate) والتي ربما تكون هي الأخرى مشتقة من اللفظ (pyra) والتي تعني ما يفيد النصب والاحتيا، وهو ما منح لليونانيين بتسمية من يركبون البحر ويقومون بعمليات الخداع والسرقة بـ "لصوص البحر"، ثم شاع هذا المصطلح كذلك لدى الأمم الأخرى وأصبح يُطلق على كل من يجوبون البحار ويستولون على ممتلكات الآخرين¹.

وهناك مدلول آخر للكلمة عكس التفسير السابق، بحيث يذكر بيير دان أن لفظ "لصوص البحر" ربما تعني الحُراس والمدافعين، مستندا في ذلك على ما قام به الملك الإنجليزي "ألفريدوس" (Afedus) منذ سنة 897 م بوضع بعض السفن لحراسة سواحلِه وممالك ممتلكاته من عمليات الدماريين القرصانية، وقد أورد ذلك الأسقف الإنجليزي أسريوس (ت 909م) بإطلاق لفظ "لصوص البحر" على البحارة الذين يقودون تلك السفن المدافعة عن سواحل إنجلترا، وبالطبع لا يُمكن أن يكون لفظ لص البحر أو قرصان على من يدافع عن وطنه ويواجه المخاطر المحيطة به، بل أن أسريوس قصد بهؤلاء البحارة الإنجليز بالحراس والمدافعين².

وأمام هذا الغموض واللُبس الحاصل في تبيان المعنى الحقيقي لمصطلح القرصنة يذكر الراوي نفسه - بيير دان - "أنه كيفما فسرنا كلمتي القرصان ولص البحر كانتا تؤخذان من جانب سلبي في كل اللغات ومن طرف كافة الشعوب، وخاصة من قبل الرومان واليونانيين،

¹ - حسن أميلي، المرجع السابق، ص 189 - 190.

² - نفسه، ص 190 - 191.

إذ يجب حقا الاحتياط من استعمالها تعسفيا، وألا يدرج في عداد لصوص البحر من يمتنون الخروج للقرصنة في سبيل الصالح العام، لا من أجل منافعهم الخاصة"¹.

أما كورين شوفالييه فتُعرف القرصنة بأنها: "... حرب مشروعة تتم بواسطة بيان صريح للحرب أو ترخيص يتم بموجبه تجهيز سفينة حربية، جوازات، سفر، لجان وتعليمات والقرصنة لها قوانينها وأنظمتها وعاداتها الحية وتقاليدها. إن بحريات الدولة الرسمية تفتح صفوفها للقرصنة فتارة ينجون، وأخرى لا ينجون. إن القرصنة ليست عملا خاصا بل هي عمل الدولة، والقرصنة والنشاط الاقتصادي مترابطان فهذا يرتفع وذاك يستفيد من الازدهار والتقدم، لأن القرصنة تقتضي حلقة مبادلات... ومدينة الجزائر لن تكون ميناء كبيرا للقرصنة إلا إذا أصبحت مركزا تجاريا نشيطا وكل واحد فيهما يعتمد على الآخر"².

ونجد أنّ معظم الكتاب الغربيين يرون أن القرصنة ازدهرت وتطورت عند العرب، بحيث كان همهم الاستيلاء على الناس الضعفاء وهمهم ملء بطونهم واحتكار الطرق التجارية والاستيلاء على كل ما هو مسيحي، وللأسف هذا الطرح يؤيده الكثير من المؤرخين والباحثين الغربيين وينعتون العرب والمسلمين بالقرصنة والهجم خاصة خلال الفترة العثمانية، وخلال بروز الجزائر كدولة قوية على مستوى الحوض الغربي للبحر المتوسط. لكن الحقيقة عكس ذلك تماما، وهو أنّ القرصنة انتشرت بشكل كبير عند المسيحيين وما كان على المسلمين إلا الدفاع عن أنفسهم وعن ممتلكاتهم وفق منهج الجهاد البحري.

ومن المؤرخين الذين رضخوا للواقع واعترفوا بهذا الأمر أو كتبوا بنوع من الموضوعية إن صح القول روجي كواندور الذي ذكر في كتابه " قرصنة سلا " أنّه "... مهما يكن الإقرار بالحقيقة شاقا وصعبا فإن بعض الملاحظات تفرض نفسها لإتمام دراسة الخطوط العامة للقرصنة المتوسطية - فمن الخطأ الاعتقاد بأن لصوصية البحر كانت وفقا على

¹ - حسن أميلي، المرجع السابق، ص 190 - 191.

² - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 49.

البربريسكيين... إن أغلبية المؤلفين متفقون على أن القرصنة كانت تنمو بصورة متوازنة عند المسيحيين والمسلمين فقد كانت معروفة ومحددة من قبل المسيحيين والعرب - وكانت الآفة الدائمة التي لا علاج لها في القرون الوسطى - ولهذا يجب رفض الأحكام المسبقة التاريخية التي تضع على كاهل العرب وحدهم أعمال النهب لقرصنة البحر الأبيض المتوسط فقد كان شرا عالميا¹.

بينما يرى عزيز سامح أتر أن معظم المؤرخين أطلقوا صفات دنيئة على البحارة الجزائريين، معتمدين في ذلك على مختلف الإشاعات التي أطلقها الإسبان سوا كانوا مؤرخين أو عسكريين أو حتى رجال الدين، متناسين في ذلك الأعمال الشنيعة التي مارسها هؤلاء المسيحيون ضد المسلمين، وذلك في قوله: "... لقد كذب مؤسس الأسطول الجزائري الشائعات والتهم التي أطلقها عليهم البعض حينما وصفوهم بلصوص البحر. فمصدر هذه الشائعات الكاذبة جاءت من المؤرخين الإسبانين، وهذا الوصف كونه من الاسبان فهو شهادة على أن الجزائريين أصحاب حق ومدافعون عنه، ألم يفكر الاسبان وحلفاؤهم بما فعلوه من قتل وتدمير للسواحل الافريقية، فنسبوا الصفات البشعة إلى قرصنة الجزائر والبربر وتناسوا عن قصد حقدهم وكراهيتهم وقتلهم للنساء والأطفال المسلمين، فاعتمد بقية المؤرخين على ما كتبه المؤلفون الاسبان، ونشروا ما تـكون لديهم من معلومات هي في الأساس معلومات لا أساس لها من الصحة، ومغالطة تماما للحقيقة والواقع بأن واحد².

بينما يعطي لنا يحي بوعزيز قولاً مفصلاً وتفسيراً منطقياً لما كانت تقوم به البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني من دفاع وجهاد في سبيل الله، عكس ما اعتقده المؤرخون الغربيون الذين تهمجوا على أعمال البحارة الجزائريين في البحر المتوسط واعتبروهم قرصنة ولصوص بحار، وعلى العكس من ذلك تماماً يقول يحي بوعزيز: "لقد دأب الأوروبيون على

¹ - روجي كواندرو، المرجع السابق، ص 21 - 22.

² - عزيز سامح أتر، المرجع السابق، ص 149 - 150.

نعت نشاط البحرية الجزائرية في العصر الحديث بالقرصنة، ووصف رجالها بالقراصنة، وهو ادعاء مُغرض بعيد عن الحقيقة والواقع. لأن أول من مارس أعمال القرصنة وتوسع في تطبيقها بكل وحشية، وشراسة، هم الأوروبيون أنفسهم في أعقاب الحروب الصليبية، وبداية التراجع الإسلامي بالأندلس، وذلك بدافع من الحقد الديني، وروح الانتقام، والرغبة في الغنم البحري المادي... وفي مطلع العصر الحديث، اشتدت هجمات القراصنة الأوروبيين ضد الجزائر، وبلدان المغرب الإسلامي الأخرى، بسبب نجاح الإسبان في عملية استرداد الأندلس، ووصول المد التركي الإسلامي إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط، واضطرت الجزائر لإنشاء أساطيل بحرية مماثلة لتدافع عن نفسها، وترد العدوان، وتقاوم سياسة التنصير والتسميح، وتتخذ المسلمين من الأسر، والتعذيب، والسلب، والنهب، والتخريب، والقتل، والتشريد... وكان عمل البحرية الجزائرية مقاومة ضد العدوان، وجهادا ضد إرادة التنصير والتسميح، وليس قرصنة كما ادعى وزعم الأوروبيون. وحتى مع التسليم بأنه قرصنة في بعض الحالات والفترات، فإن الأوروبيين هم الذين سبقوا إليه ومارسوه كحركة للغنم، والسلب، والنهب، وهم الذين أرغموا الجزائريين على عمل المثل في إطار رد الفعل¹.

ومن هنا يتضح لنا أنّ عمليات الجهاد البحري التي كانت تقوم بها البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني لم تكن قرصنة، وذلك أن سُفن الأسطول الجزائري لم تعتد على سفن الدول التي كانت معها اتفاقيات ومعاهدات - في حدود علمنا - إلا إذا اخترقت تلك المعاهدات من الطرف الآخر، وإنما كانت تمارس الجهاد البحري لصد الهجمات الأوروبية وإنقاذ الموريسكيين وحماية حدودها الجغرافية التي تتطلب منها تقوية أسطولها وترسانتها الحربية، بل والأكثر من ذلك أنها كانت تساعد الشعوب الأخرى غير المسلمة، من حيث نشر السلم بها أو من حيث مساعدتها اقتصاديا مثل ما فعلت الجزائر مع فرنسا طيلة العهد العثماني تقريبا.

¹ - يحي بوعزيز، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500 - 1830، المرجع السابق، ص 25، 27.

ونلاحظ كذلك أنّ الجزائريين خلال العهد العثماني كانت لهم رغبة في الجهاد البحري وذلك لصد التحرشات الإسبانية ومساعدة إخوانهم الموريسكيين المضطهدين في إسبانيا، بالإضافة إلى ذلك الوقوف جنبا إلى جنب مع الدولة العثمانية في حروبها، باعتبار أنّ الجزائر كانت تابعة لسلطة الباب العالي، وهو ما يوضحه لنا عزيز سامح ألتز في قوله: "كانت القرصنة تُشكل أساس الأوجاق الغربي، وكانت غزواتهم تُعتبر نوعا من أنواع الجهاد. وباتحاد رياس البربر مع الرياس الأتراك غدت البحرية العثمانية قوة ضاربة يُحسب حسابها، ففي بادئ الأمر وجه الرياس اهتمامهم بالدرجة الأولى لإنقاذ المسلمين من ظلم الإسبان، والقضاء على التجارة الإسبانية في البحر، وضرب سواحلها وإلحاق الأضرار بها... كذلك فقد كانوا يتسارعون لتلبية إرادة السلطان في كافة الحروب التي خاضها، ووقفوا خلال هذه المعارك في الصف الأول، كما حدث في حرب مالطا وتونس وليبانتو، فكسبوا بشجاعتهم ومواقفهم الإنسانية ثقة الجميع، وعمت الشهرة مختلف الأرجاء والأصقاع"¹.

ويوضح ألبير دي فولكس أنّه لا يمكن اعتبار عمليات القرصنة البحرية التي مارسها الجزائريون على مدى عدة قرون ضد الأساطيل المسيحية الصغيرة والكبيرة بمثابة قرصنة، ولكن هي فعل عرضي ارتكبه قلة من البحارة الجزائريين المنبذين من طرف سكان الجزائر بسبب هذا الفعل، وينتقد هؤلاء حكومتهم التي تنطلق من مبدأ الشريعة الإسلامية والحد التقليدي ضد المسيحيين². لكن ديفولكس رغم أنّه يعتبر الشعب الجزائري رافضا للقرصنة وأن هذه الأخيرة بفعل شذمة من البحارة الذين تؤيدهم حكومة الأتراك، إلا أنّه أخطأ عندما ربطها بالإسلام واعتبره الدين المُحرد لهذا العمل، ونحن نعتبر أنّ الدين الإسلامي بريء مما يقوله، بل نعتبر أنّ الدين الإسلامي يحث على التعايش السلمي واحترام النفس البشرية، ورغم ذلك لا

¹ - عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 148 - 149.

² - Albert Devoulx, **le registre des pricses maritimes**, traduction: document Authentique et inédit, R. A, Alger, 1872, p 02.

يُمكن اعتبار ما قامت به البحرية الجزائرية قرصنة كما وضعنا ذلك سابقا ولكن هو جهاد بحري وحرب مشروعة ضد القراصنة ولصوص البحر المسيحيين.

وأكد الكثير من الباحثين على أنّ نشاط الجهاد البحري أو القرصنة هو ظاهرة عامة مارستها الشعوب المطلة على البحر الأبيض المتوسط¹، وذلك منذ القدم، فالإغريق بحكم موقعهم الجغرافي الممتاز وطبيعة شواطئ بلادهم قد مارسوا القرصنة لقطع الطرق التجارية بشرق البحر المتوسط، وقد نافسهم في ذلك الفينيقيين الذين يُعتبرون أول الملاحين المحتكرين للتجارة في هذا البحر، وانجر عن هذا التنافس حدوث صراع فيما بينهم، وبعد التحطيم الكلي لقرطاج من طرف الرومان عرف هذا النشاط ازدهارا واسعا، كما أنّ القرصنة البحرية زاد نشاطها بعد ازدهار التجارة في فترة الحروب الصليبية، واستمر نشاط القرصنة في القرون الوسطى حتى القرن الرابع عشر، وتُعتبر هذه الفترة من أعظم مراحل القرصنة نموا وازدهارا، ثم استمرت بصورة استثنائية في بدايات القرن الخامس عشر، وذلك ببروز إسبانيا على مسرح الحوادث وسقوط الأندلس نهائيا سنة 1492م²، بالإضافة إلى ظهور الدولة العثمانية وبروزها كقوى عظمى في شرق البحر المتوسط وغربه، كل هذا أدى إلى انتشار وتطور نشاط القرصنة عند الأوروبيين وقابلة انتشار الجهاد البحري عند المسلمين³.

ويُبين عبد الحميد بن زيان بن أشنهو أنّ المسيحيين هم أول من مارس القرصنة وذلك في قوله: "وكان النصارى هم البادئون بالحروب البحرية، فكانوا يسبون المسلمين ويأخذون الفئى ويسترقون الأسرى ويبيعونهم في أسواقهم ويفدونهم بأثمان باهظة أو يعمرّون بهم سفنهم المجذافية والشراعية، ويستعينون بهم في جوب البحار وفي اكتشاف الأراضي البعيدة على السواحل الإفريقية والآسيوية حتى الصين. تلك الحروب التي أطلق عليها في القرن الخامس

¹ الطاهر قدوري، "مسألة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي: دراسة مقارنة"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، الجزائر، المجلد 10، العدد 2، جوان 2020م، ص 132.

² روجي كواندرو، المرجع السابق، ص 15 - 16.

³ عبد الحميد بن زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 17.

عشر الميلادي اسم قرصنة ما هي إلا ابتكار من طرف المسيحيين إنما بلغت أشدها في عهد الأتراك...¹.

ويُمكن إنهاء هذا الجدل القائم في مسألة الجهاد البحري وما يتعلق به من ركوب البحر ومن نشاطات اقتصادية وعسكرية، بين المؤرخين الغربيين والمؤرخين المسلمين، من خلال ما ذكره الطاهر قدوري في قوله: "... المسلمون لا يعتبرون تلك الحملات الكبرى² سوى استمرارا لخطتهم البرية التي انطلقت من الجزيرة العربية لتبليغ رسالة الإسلام، والشيء نفسه كانت تراه مؤسسة الكنيسة التي كانت تنظر إلى الحملات البحرية الأوروبية أنها استمرار لنشر المسيحية، واسترجاع للمواقع التي فقدتها مع بداية زحف الفاتحين المسلمين. ومن ثم فإن الحملات البحرية بين الطرفين كانت تدخل في إطار الحرب المعلنة؛ فكل طرف يتوقع هجوم الطرف الآخر، إلا إذا أنه كانت بين دولتين تنتميان لديانتين مختلفتين (الإسلام والمسيحية) مواثيق ومعاهدات سلم وتجارة؛ فإن العمليات الحربية التي تعترض سفنها تتدرج في إطار عملية القرصنة"³.

ونستخلص من مختلف حوادث العصر الحديث التي مرت بها الجزائر وكذلك بلدان المغرب العربي أنّ الجهاد البحري لعب دور أساسي في التصدي للغزو والزحف الصليبي، والذي وصل بالفعل إلى بعض المناطق الساحلية، ولكن محاولته في تمسيح واحتلال المنطقة باءت بالفشل، بسبب الروح الجهادية التي اكتسبها رجال البحر المسلمون، الذين اندفعوا وراء العمل الجهادي المتمثل في الجهاد البحري، الذي وقف في وجه مخططات الغرب الاحتلالية التي كانت تهدف لضم بلاد المغرب إلى حضيرة العالم المسيحي، فمن الطبيعي أن ينعت المؤرخون الغربيون الجهاد البحري بالقرصنة، وينعتونه بصورة بشعة، ويصفون رجاله بالبرابرة والقراصنة واللصوص وعديمي الشرف والمروءة ويفتقرون إلى التمدن والتحضر، كل هذا لأنهم

¹ عبد الحميد بن زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 17.

² يقصد بها الجهاد البحري.

³ الطاهر قدوري، المرجع السابق، ص 138.

ببساطة لم يرضخوا لهم ولم يسمحوا لهم بتنفيذ مخططاتهم¹، ووقفوا في وجههم وصدوا هجماتهم التي كانت تحمل من ورائها العنف والغزو واستغلال ثروات الآخر، ومحاولة القضاء على هويته وتاريخه.

وأمام هذه التعريفات والتفسيرات المختلفة لمصطلح القرصنة فإنّ معظمها تتفق على أنّ القرصنة عمل غير لائق مبدأه السلب والنهب والاستيلاء على أملاك الآخرين دون حق مشروع، عكس مصطلح الجهاد البحري الذي شاع في أوساط البحارة المسلمين والذي يرمي إلى حماية سواحل البلاد الإسلامية ومعاقبة لصوص البحر وقطاع الطرق البحرية، خاصة أمام الحملات الصليبية التي شهدتها البلاد الإسلامية خلال العصر الوسيط والحديث. ومهما تغير مفهوم هذا المصطلح عند المؤرخين والسياسيين والبحارة وغيرهم فإنه يبقى رهين الإطار الجغرافي والثقافي والتاريخي لأي منطقة من العالم التي مارست هذا العمل عبر فترات زمنية مختلفة.

وبالنسبة لحركة الجهاد البحري في الجزائر فإنّ أصوله ترجع إلى منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، وذلك بسبب الأزمة الاقتصادية والسياسية التي تعرض لها المغرب الأوسط خلال هذه الفترة، لكن مع توافد المهاجرين الأندلسيين واستقرارهم بالمناطق الساحلية بالمغرب الأوسط، انتعش الجهاد البحري وهو ما صاحبه انتعاش في اقتصاد الدولة، وهذا راجع إلى مساهمة الأندلسيين في تمويل سفن المجاهدين وتشجيعها على هذا العمل، الذي يعتبرونه يُشكل دور هام في الحماية، بالإضافة إلى حماسهم ورغبتهم في الانتقام ممن طردوهم من بلادهم الأندلس².

وهذا لا يعني أنّ سكان المغرب الأوسط لم تكن لهم خبرة في هذا المجال أو أنّهم أهملوه تماما، ولكنهم ساهموا بإمكانياتهم المتوفرة بإنشاء أسطول بحري لغرض الدفاع والجهاد البحري،

¹ - إبراهيم سعيود، "الأسرى المغاربة في إيطاليا" خلال العهد العثماني، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، دفعة 2010م، ص 109.

² - حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحرّبا"، المرجع السابق، ص 188.

إلا أنه بقي يُراوح مكانه نظرا لنقص الخبرة والإمكانات، فاستعانوا بالمهاجرين الأندلسيين ذوي الخبرة في هذا المجال واستغلوا حقدهم ورغبتهم القوية في مواجهة أعدائهم للولوج لهذا العمل وتطويره، وهي نفس السياسة التي سיתبعها الحكام العثمانيون في الجزائر من خلال توظيف هؤلاء المهاجرين وترغيبهم في العمل البحري لتحقيق أغراض اقتصادية وعسكرية مهمة.

وبعد تأسيس الحكم العثماني بالجزائر سنة 1519م، انبعث من جديد نشاط الجهاد البحري، وعرف تطورا كبيرا وبروزا ملحوظا على مستوى البحر الأبيض المتوسط، وزرع في نفوس الأعداء المسيحيين الرعب والخوف، بعدما أصبحت سفنهم محطة أنظار البحارة الجزائريين، خاصة بعد أن أصبحت الجزائر قاعدة عثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وبروز البحارة العثمانيين على مستوى هذه المنطقة وتنشيط حركة الجهاد البحري ومواجهة الغزو المسيحي لسواحل المغرب العربي، فأول من أنشأ الأسطول الجزائري العثماني الأخوين عروج وخير الدين بربروس ومن بعدهم خلفائهم أمثال: صالح رايس وايدن رايس ودرغوث، ومراد رايس وحسن فنزيانو، وقلج علي باشا¹ وغيرهم كثير، بحيث بذلوا جهدا كبيرا في إنشاء هذا الأسطول وتطويره ليصبح من أقوى الأساطيل التي تجوب البحر الأبيض المتوسط لمدة فاقت ثلاثة قرون، وهذا التطور الملحوظ في الأسطول الجزائري خلال العهد العثماني لم يكن من عمل الأخوين بربروس وخلفائهم من بعدهم فقط بل شاركت فيه العديد من الفئات الأخرى التي كان لها دور كبير في إنشاء وتطوير واستقرار هذا الأسطول لفترة زمنية طويلة، فعلى غرار الأهالي والأسرى المسيحيين نجد فئة الأندلسيين أو الموريسكيين الذين هاجروا نحو الجزائر وساهموا بشكل كبير في بناء هذا الأسطول نظرا لخبرتهم الكبيرة في هذا المجال خاصة الصناعة والجوسسة وتكتيك الهجوم والدفاع وغيرها، وكل هذا جعل من الجزائر تُسمى ببلد الجهاد.

¹ حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المرجع السابق، ص 189 - 190.

فلاحظ أنّ الجهاد البحري خلال العهد العثماني قد انتعش وازدهر بشكل كبير، أين أصبح أكثر تنظيماً وأكثر اندفاعاً، وأصبح العمود الفقري لاقتصاد الإيالة الجزائرية لعدة قرون، ولم تتوقف تلك الفوائد التي نتجت عن تزايد نشاط الجهاد البحري عند ازدهار الاقتصاد الجزائري فحسب، خاصة ما كان يُدرّ على الخزينة العمومية من غنائم كثيرة مثل المصنوعات والحلي والمفروشات، بالإضافة إلى الأسرى الذين كان يتم فدائهم بأموال كبيرة، ولكن كان له بُعد آخر والذي تمثل في البعد الدفاعي والجهادي، خاصة ما تعلق بملاحقة القراصنة الأوروبيين وتحرير المدن التي احتلها هؤلاء الغزاة، بالإضافة إلى مساعدة الأندلسيين الذين طُردوا من بلادهم الأندلس ونقلهم إلى وجهتهم التي ذهبوا إليها، وهذا العمل كان في البداية منظماً وتابعاً للسلطة، ثم ازدهر بعد ذلك الجهاد البحري الخاص، خاصة بعد هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانت سنة 1571م، بحيث أخذ رؤساء السفن يتحررون شيئاً فشيئاً من السلطة المركزية، وكانوا يدفعون ضريبة لهذه الأخيرة تُقدر بـ 10٪ من غنائمهم¹.

ومن المؤكد أنّ هذا النشاط انتعش أكثر بعد توافد الكثير من الموريسكيين على الجزائر واستقرارهم بها، كما أنّهم ساهموا بشكل كبير في ازدهار هذا النشاط خاصة في القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وكذلك بشكل أقل في القرن الثامن عشر، إلا أنّه تراجع في القرن التاسع عشر بشكل كبير، نظراً للتقيد بالاتفاقيات الدولية التي عقدها الجزائر مع العديد من الدول الأجنبية خاصة الأوروبية منها، وكذلك تراجع الصناعة البحرية وركودها بسبب نقص نشاط الجهاد البحري، وأهم سبب كان ظهور الثورة الصناعية في أوروبا، والتي أنتجت السفن البخارية وطورت العديد من الأسلحة، مما ساهم بشكل كبير في اختلال التوازن بين الدولة العثمانية بما فيها الجزائر والدول الأوروبية.

وقبل التعرض لدور هؤلاء المهاجرين في بناء البحرية الجزائرية وتطوير الجهاد البحري، سوف نُلقي الضوء على العمل البحري الأندلسي والذي من خلاله سنستخلص مدى خبرة هؤلاء

¹ - روجي كواندرو، المرجع السابق، ص 20.

الأندلسيين في هذا المجال، فيقال أنّ "فاقد الشيء لا يعطيه" فليس من الطبيعي أن يتولى هؤلاء المهاجرون العديد من المناصب والحرف في البحرية الجزائرية دون امتلاكهم خبرة في هذا المجال، الذي يتطلب العديد من المهارات سواء في التسيير أو في مجال الصناعة وفي المجال العسكري وغيرها من المجالات الأخرى التي تدخل في هذا الجانب.

وتماشيا مع ذلك نُوضح أنّه كان للأندلسيين عبر التاريخ دور هام في ركوب البحر من أجل التجارة والجهاد البحري، فالطبيعة التي يعيشون فيها وموقعهم الجغرافي حتم عليهم التأقلم مع هذا الوضع والاحتراف فيه، فكان لطبيعة الأندلس البحرية والجغرافية دور أساسي في ظهور قوة البحرية الأندلسية، وذلك لكونها منطقة معزولة عن العالم الإسلامي جغرافيا؛ وكونها شبه جزيرة يحيط بها البحر (البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي) من جهاتها الثلاث، بحيث تعرضت لغزوات بحرية من الجهة الشرقية الشمالية بالخصوص، وهذا ما أدى بها إلى الاهتمام بركوب البحر وبناء الأساطيل وتجهيزها للوقوف في وجه الغزاة¹.

بالإضافة إلى هذا العامل هناك عامل آخر وهو مهم، والذي يتمثل في تركيبة المجتمع الأندلسي وما يحمله من موروث في هذا المجال، والذي يتمثل في المولدين من أهل البلاد الإسبانية، وعرب اليمن الذين استوطنوا الأندلس، وبالنسبة لهذه الفئة كانت معروفة منذ القدم بحضارتها وبركوبها البحر وإليهم يُنسب أول أسطول عربي، وكانت لهم تجارة رائجة، كما أنّهم ساهموا في الربط بين المشرق والمغرب أي بين الهند والصين من جهة وبين الجزيرة العربية والشام ومصر من جهة أخرى².

ورغم هذه المهارة في ركوب البحر لدى الأندلسيين إلا أنّه كان الاهتمام أيضا بصناعة السفن من طرف أولئك الطموحين لشغف ركوب البحر والمغامرين، الذين كونوا جماعات وكيانات تشتغل بالتجارة والجهاد البحري لحسابها الخاص، بينما الدولة كان اهتمامها ضعيفا

¹ - رفيق خليفي، المرجع السابق، ص 131، 132.

² - نفسه، ص 132.

في هذا الجانب خاصة في مرحلتي الولاية والإمارة، لكن بعد الخطر الذي شنه النورمان على الأندلس سنة 229هـ / 843م أدى إلى تزايد الاهتمام الرسمي بالبحر، فعمد الأمير عبد الرحمن الأوسط (852-792م) بعد التخلص من خطرهم إلى بناء دار لصناعة السفن في إشبيلية سنة 230هـ، وقد أرسل سنة 234هـ أسطول مكون من 300 سفينة لتأديب أهل جزيرتي ميورقة ومنورقة وذلك عند خروجهم عن طاعته، وفي مطلع القرن الرابع الهجري زاد اهتمام الحكام بهذا الجانب، فالأمير عبد الرحمن الناصر (912-962م) أدرك أهمية الأسطول البحري وفعاليته، فأنشأ دُور الصناعة في كل من طرطوشة ومالقة ولقنة ودانية والجزيرة الخضراء وغيرها، ويعتبره المؤرخون هو المؤسس الحقيقي للأسطول الأندلسي¹.

وكما ذكرنا سابقاً أنّ المهاجرين الأندلسيين قد لعبوا دوراً بارزاً في هذا الجانب خاصة في القرنين الأول والثاني من الوجود العثماني بالجزائر، أي القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، وهو ما يؤكد روجي كواندرو في قوله: "... من المؤكد أن القرصنة عرفت تطوراً مفاجئاً بعد وصول الموريسكيين الإسبان إلى إفريقيا، فقد عوضت السفن الكبيرة والسريعة في وقت صغير السفن الحربية الصغيرة. وقد شاع استعمال الشراع، إضافة إلى السفن التي تعتمد على التجديف، مما وسع من مجال عمل القرصنة الذين أصبحوا أكثر جرأة وإقداماً"². ويعتبر أيضاً أنّ كل من مدينة الجزائر وبجاية ووهران كانت أهم ملاجئ للقرصنة أو القرصنة³، خاصة وأنّ الأندلسيين قد استقروا بشكل كبير في هذه المدن وهو ما ساعد دون شك البحارة المحليين من تطوير قدراتهم الجهادية بالاستعانة بالأندلسيين وبالتعاون معهم في هذا الجانب.

ويعتبر جون ب وولف أنّ الأندلسيين والفئات الأخرى الأكثر نشاطاً في هذا المجال كالأعلاج والسكان المحليين هم العمود الفقري لنشاط القرصنة في الجزائر وذلك بقوله: "...

¹ - رفيق خليف، المرجع السابق، ص 132، 134.

² - روجي كواندرو، المرجع السابق، ص 18.

³ - نفسه، ص 19.

وقبل أن يضع خير الدين جماعة القراصنة تحت حماية الباب العالي، كان المجندون الشرقيون والأندلسيون وسكان المغرب العربي الذين تولوا الحروب البحرية هم الذين يشكلون حقا العمود الفقري لقوة سفن القرصنة...¹. وهذا ما أشار إليه هايدو في كتابه طبوغرافية والتاريخ العام للجزائر حينما ذكر أنّ القراصنة في إيالة الجزائر هم خليط من الأجناس فمنهم الأتراك وبعضهم من الموريسكيين والجزء الأكبر كان من الأعلاج أو المرتدين عن المسيحية².

ومع أنّنا قمنا بالبحث في العديد من المصادر والمراجع المتعلقة بهذا الموضوع ولو أنّها تبقى بحوث متواضعة، فإنّ جُلّ الكتابات التاريخية قد أغفلت بشكل كبير دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، ولكن هذا لا يعني أنّه ليس لهم دور، وإنّما تذكر العديد من الكتابات خاصة الأجنبية منها أنّه كان لهم دور بارز رفقة الأعلاج في مؤسسات البحرية، خاصة في الفترة الممتدة من سقوط غرناطة سنة 1492م إلى غاية الجلاء الأخير للأندلسيين ما بين سنتي 1609 - 1614م، أين كان المهاجرون الأندلسيون حريصين على أخذ الثأر من السلطات المسيحية ومن يعاونها.

وأمام هذا الغموض الذي يُلقي بظلاله على الدور الحقيقي لتلك الفئة في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، والذي هو في نفس الوقت يحفزنا للبحث أكثر حول هذا الموضوع، وجمع ما هو مشتت هنا وهناك للتقرب من الحقيقة التاريخية التي تُنصف هؤلاء وتُبين دورهم الفعلي والحقيقي الذي بذلوه في البحرية الجزائرية وعلى رأسها الدور الجهادي.

والشيء الذي يُحفزنا أكثر هو أنّه كيف أن يتواجد أكثر من 60 ألف مهاجر أندلسي في الإيالة الجزائرية ومعظمهم يتمتع بمهارات عالية في شتى المجالات دون أن يكون لهم دور في قضية الجهاد البحري ضمن البحرية الجزائرية؟ وهو نفس الإشكال الذي طرحه عبد الجليل التميمي، الذي استغرب من هذا الأمر وذكر كيف لجالية أندلسية فاق تعدادها الآلاف وهي

¹ - جون ب وولف، المرجع السابق، ص 106 - 107.

² - diego de haedo, op. cit, p 88.

تتمتع بمؤهلات وخبرات كبيرة أن لا يكون لها دور أو وجود على مستوى العمل البحري وحتى الميادين الأخرى، على غرار الدول المجاورة للجزائر كتونس مثلا التي استقطبت أعدادا كبيرة من المهاجرين الأندلسيين، وكان لهؤلاء دور كبير وهام في جميع المجالات ببلاد تونس خلال العهد العثماني¹. وهذا الغياب التاريخي هو أقل حدة في المغرب الأقصى الذي ألفت حوله العديد من الكتابات الأجنبية والمحلية وقامت بإبراز هذه الفئة على مسرح الأحداث.

ورغم أن أدوارهم في البحرية الجزائرية لم ترق إلى الأدوار التي وصل إليها العثمانيون والأعلاج إلا أنهم ظلوا يشكلون العمود الفقري للبحرية الجزائرية وبالأخص نشاط الجهاد البحري، نظرا لخبرتهم ودراباتهم بأحوال الممالك المسيحية وخاصة إسبانيا منها، وهذا الأمر قد وضحه المنور مروش الذي قام بدراسات معمقة ودقيقة في تاريخ البحرية ومختلف الفئات الفاعلة فيها خلال العهد العثماني وذلك في قوله: "وسواء كان الدافع لديهم أمله في أن ينجح العثمانيون في تحرير وطنهم أو شعورهم بأنهم أجانب مضطهدون أحيانا في بعض المناطق المغاربية، فإن المكافحين الأندلسيين، ظلوا على نوع من التحفظ والانزواء في الصفوف الخلفية. ورغم أهميتهم العددية والتقنية، فإنهم لم يحاولوا أبدا أن ينازعوا الأتراك والعلوج على السلطة. يلاحظ مثلا أنه بين هؤلاء الأنصار الصامدين مع خير الدين، لم يحتل أحد منهم الصفوف الأولى في المسؤوليات إلى جانب المشاركة والعلوج من أمثال درغوث وصالح رايس وحسن آغة وعلج علي، إلخ. وحسب معلوماتنا حاليا، لم يبرز أي قبطان أندلسي على رأس الأسطول الجزائري قبل القرن السابع عشر فهل كانت سياسة الأتراك في استبعاد الأهالي عن مراكز السلطة تمتد إلى الأندلسيين رغم مساهمتهم الجماعية الكبيرة في تكوين جيش عثماني نظامي في الجزائر في القرن السادس عشر؟"².

¹ - مقابلة مع عبد الجليل التميمي، مقر مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، يوم: 5 جانفي 2023م، سا: 12:00 صباحا.

² - المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة الأساطير والواقع، ج 2، د. ط، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009م، ص 63.

هذه التساؤلات راودتنا منذ أن شرعنا في البحث عن هذا الموضوع، وحاولنا إيجاد ما يُشفي غليلنا ويجب على تلك التساؤلات المطروحة، ورغم كل ذلك فإننا وصلنا إلى معلومات تاريخية مهمة تعطي ولو بشكل قليل حق هؤلاء المهاجرين فيما قدموه من عمل بحري لصالح البحرية الجزائرية، وبالأخص نشاط الجهاد البحري الذي غُيب كثيرا عند المؤرخين إذا ما قورن بالنشاطات الأخرى كالاقتصادية والثقافية، وهو ما سنحاول سرده في الصفحات التالية من هذا البحث.

وتماشيا مع ذلك فإنّ المعلومات التي تحصلنا عليها توحى في مُجملها إلى الأثر البارز لهؤلاء المهاجرين في ممارسة الجهاد البحري خاصة في الفترات الأولى من التواجد العثماني بالجزائر، ونلاحظ أن هذا النشاط قد انتعش بعد مجيء المهاجرين الأندلسيين واستقرارهم بالجزائر، بحيث ساهموا في تطوير هذا النشاط وقاموا بزيادة فعاليته من خلال تمويل السفن وتشجيع حركة الجهاد البحري، وكان وراء هذه المشاركة الفعّالة في هذا النشاط العديد من الدوافع، ولعل أهمها حماية البلاد من أي خطر خارجي، وكذلك الانتقام من من طردوهم من بلادهم¹، ونعني بذلك السلطات المسيحية الإسبانية، وتتمثل هذه المساهمة بشكل خاص في تنشيط الحركة الصناعية ومشاركة اليد العاملة ذات الكفاءة العالية والخبرة الطويلة في هذا المجال.

وكان حتما على الحكام الجزائريين في تلك الفترة أن يطوروا الترسانة البحرية للأسطول الجزائري، لمواجهة الغزو الأوروبي وتحرير المناطق التي احتلها الإسبان في الإيالة الجزائرية، فيقال أنّ خير وسيلة للدفاع هي الهجوم، وباتباع هذه القاعدة كان لزاما على السلطة وسكان الجزائر المضي قُدّما لتطوير البحرية الجزائرية من جميع الجوانب خاصة الصناعة بمختلف تفرعاتها، وغيرها من الأمور المهمة الأخرى كالدراية بعمليات الجوسسة ومعرفة جغرافية البحر والطرق التجارية البحرية، وقد كان للمهاجرين الأندلسيين المكانة القوية في هذا النشاط،

¹ - حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 19.

والمساهمة في تطوير تلك المهام بكل احترافية ودقة، خاصة الجوسسة ومعرفة الأماكن الجغرافية القريبة من إسبانيا أو التابعة لها.

وتلك المميزات التي تميز بها الأندلسيون ترجع في الأساس إلى أمرين أساسيين، ويتمثل الأمر الأول في معرفتهم للغة القشتالية الإسبانية، خاصة وأنه يوجد لهم صلات عائلية ببعض أهالي إسبانيا الذين لازالوا لم يهاجروا بعد، وهو ما ساعدهم في كشف تحركات الجيش البحري الإسباني ومعرفة أسرارهم. والأمر الثاني المتعلق بالجغرافيا، وهو أن هؤلاء المهاجرين قد مكثوا بإسبانيا وعرفوا شعابها وجبالها ومسالكها وحتى الجزر المقابلة لها، كما يُقال: "أهل مكة أدرى بشعابها" كذلك بالنسبة لهؤلاء فهم أدرى بتلك المناطق وبتضاريسها، وهو ما ساعد كثيرا الأسطول الجزائري في تنفيذ مهامه الجهادية سواء في عمليات إنقاذ الموريسكيين، أو في عمليات القبض على اللصوص والأساطيل المعادية على مستوى البحر الأبيض المتوسط وبالخصوص الحوض الغربي منه.

وما يُلاحظ خلال الوجود العثماني بالجزائر أن الجيش المُكون للأسطول الجزائري وحتى الجيش الإنكشاري كان أغلبه من الفئات غير التركية، فقد كان الجنود الأتراك يُشكلون نسبة قليلة جدا مقارنة بالفئات الأخرى، المنحدرة من جنسيات مختلفة كاليونانيين والشراسة والرومانيين والألبانيين¹، والمسيحيين الذين اعتنقوا الإسلام ويُسمون باسم الأعلّاج، بالإضافة إلى فئة الأهالي الجزائريين، وفئة المهاجرين الأندلسيين الذين تراوح عددهم ضمن البحرية الجزائرية خلال سنة 1536م بين 7000 و8000 جندي، وبعد عشرين سنة من هذا التاريخ ازداد عددهم ليصل 15 ألف جندي موريسكي، منهم 6000 جندي من الجنود الجيدين جدا².

¹ - عبد الحميد بن زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 44.

² - المنور مروش، المرجع السابق، ص 62.

وما يُضاف إلى تلك الميزات التي تمتع بها هؤلاء في نشاط الجهاد البحري استخدامهم الجيد للبنادق سريعة الطلقات والمدافع الخفيفة في معاركهم¹. كما استخدموا في هذا الجانب سفن المطاردة والتي تتمثل في الغاليون الخفيف والفرقاطات وغيرها، التي تم صناعتها في مدينة الجزائر². وهذا وإن دل على شيء إنما يدل على مدى حرصهم في استخدام التقنية الجيدة في هذا العمل والمتمثلة خاصة في السفن الحربية والأسلحة الجيدة، وهذا ما يُثبت مدى نجاحتهم ونجاحهم في حروبهم البحرية ضمن الأسطول الجزائري.

ونظرا لتلك الميزات التي تمتع بها الأندلسيون استعان بهم عروج في حربه ضد الأعداء، وهذا نظرا لشجاعتهم وشدة بأسهم³، وبفضل هذه الميزات تمكن البحارة الجزائريون من بعده من شن ثلاثة وثلاثين غارة بحرية ناجحة على السواحل الإسبانية في الفترة الممتدة من 1528 إلى 1584م، وأنقذوا خلالها الكثير من الأندلسيين المعرضين للتتصير أو الموت، ومن أشهر تلك الغارات غارات إيدين رايس وصالح رايس سنة 1529م، التي تمكنوا خلالها من نقل 600 موريسكي من نواحي بلنسية إلى الجزائر⁴، بالإضافة إلى مساعدة الموريسكيين في انتفاضة غرناطة سنة 1562م⁵، وكذلك العمليات الحربية التي قام بها كل من مراد رايس وحسن فنزيانو، هذا الأخير الذي قام سنة 1584م بنقل حوالي ألفين من مسلمي الأندلس إلى الجزائر⁶.

وقد أعدت الإيالة الجزائرية 1008 سفينة للجهاد البحري ما بين سنتي 1737 و1799م، وبلغ مجموع الغنائم بين سنتي 1765 و1799م حوالي 376 غنيمة، أي بمعدل 11 غنيمة

¹ - حنيفي هلايلي، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال المؤتمر الدولي الرابع عشر للدراسات الموريسكية - الأندلسية "مهداة إلى الأستاذ الاسباني ميكال دي إيبالثا"، المرجع السابق، ص 103.

² - diego de haëdo, op. cit, p 495 - 518.

³ - عبد الحميد بن زيان بن أشنهو، المرجع السابق، ص 44.

⁴ - ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 44.

⁵ - Heers Jacques, op. cit, p 90.

⁶ - ناصر الدين سعيدوني، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، المرجع السابق، ص 44.

في السنة¹، ولا شك أنه من بين البحارة الجزائريين الكثير من الأندلسيين الذين لهم خبرة في هذا الجانب، إضافة إلى أنهم يعرفون الطبيعة الأندلسية ولغة سكانها مما ساعدهم في شن هذه الغارات ونجاحها.

وحول هؤلاء يؤكد ألبيرت دي فولكس أن القرصنة البحرية الجزائرية قد ازداد نشاطها زمنيا مع التواجد الأندلسي بالجزائر². ويسانده في هذا الرأي المنور مروش الذي بين أن الأندلسيين كان لهم دور كبير في مجال الملاحة البحرية خاصة المتعلقة بالقرصنة أو الجهاد البحري، خصوصا وأن هؤلاء قد حملوا معهم الحقد والضغينة تجاه من طردوهم من بلادهم الأندلس، بالإضافة إلى درايتهم بفنون ركوب البحر والقتال. ويؤكد في ذات السياق أن مساندة الأندلسيين لخير الدين بربروس كانت ذات أهمية كبيرة، مستندا في ذلك على مختلف المعطيات التاريخية في هذا الجانب خاصة ما ذكره المهدي البوعبدلي ضمن تحقيقه لكتاب الثغر الجمانى³، بحيث زود هذا الأخير مقدمة التحقيق بقصيدة طويلة للشيخ محمد التواتي الذي يدعو فيها المسلمون إلى الجهاد ضد الإسبان اعتمادا بالأخص على الأندلسيين باعتبارهم يمتلكون خبرة كبيرة بفنون الحرب⁴.

وحسب عبد الكريم غلاب فإن هؤلاء المهاجرين بعد استقرارهم بالجزائر قاموا بتكوين جماعات مناضلة هدفها الانتقام من هؤلاء الذين طردوهم من بلادهم الأندلس، وسعيا لتحقيق ذلك بدأ الكثير من هؤلاء القيام بعمليات التحريض والمشاركة ضمن الأسطول الجزائري في

¹ - حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط 1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2008م، ص 74.

² - Alpert Devoulx, "la marine de la régence d'Alger", op. cit, p 387.

³ - نقصد هنا كتاب: الثغر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني لمؤلفه أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي.

⁴ - المنور مروش، المرجع السابق، ص 61 - 62.

عملياته الجهادية، والتوجه نحو العديد من الشواطئ القريبة من الأندلس مثل شواطئ مالقا¹ من أجل تحقيق هدفهم الذي سطره.

وهو ما أشار إليه أيضا روجي كواندرو في قوله: "إن الموريسكيين الذين طُردوا من القارة الأوروبية بعد أن أقاموا بها قرابة 8 قرون حملوا معهم حقدا شرسا اتجاه الإسبانين. كما حملوا معهم إلى منفاهم رغبة عنيفة للانتقام وفي نفس الوقت لاسترداد قيمة أموالهم الضائعة بطريقة أو بأخرى..."².

وتذكر كورين شوفالييه أنّ المهاجرين الأندلسيين والذين من بينهم فئة "المودجار" التي هاجرت من غرناطة وبعض المناطق الأندلسية الأخرى والذين كانوا يتكلمون اللغة الإسبانية فيما بينهم قد حملوا معهم الحقد الدفين ضد المسيحيين الذين طردوهم من بلادهم، وعملوا بكل ما يملكون من قوة وخبرة من أجل الثأر من هؤلاء، ولتحقيق ذلك قاموا بتجهيز السفن وتزويدها بالأسلحة ومنحها لرجال البحر من أجل إلقاء القبض على سفن وعبيد المسيحيين كلما سمحت لهم الفرصة بذلك³.

ولم تدفعهم عزيمتهم وحقدهم فقط للهجوم على الأساطيل المسيحية وموانئها ولكن استخدموا طرقا ذكية من أجل تحقيق أهدافهم والتقليل من خسائرهم، ويوضح لنا هذا الأمر حنفي هلايلي في قوله: "... فقد انتظم موريسكيو شرشال في جماعات خاصة تقوم بهجمات سريعة وخاطفة على السواحل الإسبانية، إذ بمجرد ما تصل سفنها الصغيرة إلى الرمال، ينطلقون نحو الداخل لتخليص الأهالي وأسر المسيحيين الذين يُباعون في سوق الجزائر"⁴. وأضاف إلى

¹ - عبد الكريم غلاب، المرجع السابق، ص 336.

² - روجي كواندرو، المرجع السابق، ص 16.

³ - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 16-17.

⁴ - حنفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 53.

ذلك أنهم "... كانوا يُفضلون النزول ليلاً إلى سواحل إسبانيا، وهذه إحدى الحيل التي استعملها الأندلسيون في حركتهم الجهادية"¹.

وقد زودنا هايدو بمعلومات قيّمة حول تلك الحيل التي كان يستعملها الموريسكيون في هذا الجانب، وهي أنهم كانوا يذهبون إلى إسبانيا لزيارة أقاربهم وأصدقائهم ضمن سفنهم، وعند وصولهم للساحل الإسباني يحفرون حُفَر كبيرة في الرمال ويُخفون فيها سفنهم بعد تفكيكها، أو يقومون بإخفائها وسط جداول المياه أو خلف الأشجار إن كانت سفنهم صغيرة، لكي لا يراها الجنود المسيحيون من أعلى الأبراج، ثم يلبسون ثياباً مسيحية ويدخلون إلى البر الإسباني، ويتكلمون اللغة الإسبانية، ويذهبون إلى القرى، فيتم استقبالهم بشكل جيد من قبل الموريسكيين المقيمين هناك، وبهذه الطريقة يُمكنهم نصب الكمائن خاصة في الليل، ويقومون بالاستيلاء على جميع المسيحيين الذين قابلوهم في طريقهم، ويأخذونهم إلى شاطئ البحر أين يستخرجون السفن ويرجعون إلى بلادهم².

ومن موانئ الإيالة الجزائرية انطلق البحارة الأندلسيون رفقة الأعضاء الأخرى المكونة للبحرية الجزائرية للعمل على الجهاد البحري وملاحقة الجيوش الصليبية خاصة الإسبانية منها، التي كانت دائماً في صراع مع الجزائريين، بسبب طردهم واضطهادهم للأندلسيين، وكذلك بسبب استيلائهم على بعض المناطق الساحلية في الجزائر، لهذا كانت الهجومات متواصلة من طرف الجزائريين وحتى المسيحيون، واحتدم الصراع بينهما خاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر، ليتراجع هذا الصراع بشكل كبير بعد التحرير النهائي لوهران والمرسى الكبير سنة 1792م وإنهاء الوجود الإسباني بالجزائر. ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل راحت غايتهم إلى

¹ - حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 54.

² - diego de haëdo, op. cit, p 101.

أكثر من ذلك، بحيث وقفوا إلى جانب الحكام بالجزائر وحثوهم باستمرار على محاولة إعادة فتح غرناطة، حسب ما ذكره هيرير جاك Heers Jacques¹.

وهذا الفعل الذي قامت به تلك الجماعات لا يمكن اعتباره عمليات قرصنة ولصوصية ضد الآخر، كما يزعم جُل مؤرخي تلك الفترة التابعين للكنيسة المسيحية ومن ينضوي تحتها، وإنما كان رد فعل ضد من طردوهم وسلبوا ممتلكاتهم وأعز ما يملكون، والمُتمثل في وطنهم الذي يُعتبر الأم الثانية بعد الأم التي أنجبته، وهذا العمل يُحسب كذلك للبحرية الجزائرية باعتبارهم انطلقوا من موانئها وتحت رايتها وبمساندتها أيضا، ويُمثل عملا كبيرا لأعضاء البحرية الجزائرية ككل بما فيهم الأندلسيين.

وكانت أوقات ركوب البحر عند الأندلسيين المرافقين للبحارة الجزائريين تتم وفق نظام مُحكم خاضع لعدة عوامل وشروط، كطبيعة المناخ والوجهة التي يقصدها الأسطول والغاية من ذلك، والحرص على تحقيق الأهداف المتوخاة من ذلك. وفي هذا الصدد ذكر هايدو أنّ البحارة الجزائريين كانوا يركبون البحر خلال فصلي الشتاء والربيع دون أي خوف، يتجولون في البحر الأبيض المتوسط من الشرق إلى الغرب ويسخرون من السفن الإسبانية، والتي في الكثير من الأحيان ينقُضون عليها، وهذا بفضل مراكبهم المنتشرة بشكل جيد والخفيفة جدا، عكس السفن المسيحية التي هي ثقيلة وبطيئة الحركة، والبحارة الجزائريون كانت لهم مهارة في هذا الجانب وكانوا دائما في حالة نشاط، فرحلتهم خارج مدينة الجزائر لا تدوم إلا لبضعة أيام، ثم يرجعون مُحملين بالغنائم التي لا حصر لها وبالعديد من الأسرى، ويُمكنهم القيام بثلاث أو أربع رحلات في السنة أو أكثر من ذلك، وربما يبيعون تلك الغنائم في البلدان المجاورة للجزائر كالمغرب وتونس، بالإضافة إلى ذلك كانوا يقومون بتموين حاجاتهم ثم العودة للقرصنة من جديد. ويذكر أيضا أنّ البحارة الجزائريين كانوا يتجنبون ركوب البحر في بعض الأوقات مثل فترة الأيام السبعة التي تُسمى الحُسوم (El Housoum)، والتي تبدأ في اليوم الخامس والعشرين من

¹– Heers Jacques, op. cit, p 205.

فبراير وتُدوم سبعة أيام¹، بحيث تكون في هذه الأيام الأعاصير والرياح القوية وبالتالي لا يمكن الإبحار خلالها².

وقد زرعوا بنشاطهم هذا الرعب في نفوس البحارة المسيحيين، وعلى مستوى سكان الموانئ المسيحية، مثل ما بيّنه هايدو الذي ذكر أنّ الأندلسيين يُعتبرون من أشرس الأعداء للمسيحيين³. ونستشف هذا الأمر من خلال ما ذكره حنيفي هلايلي الذي بيّن أن أحد الكُتاب الغربيين قد عبّر عن الميزة التي اتصف بها الموريسكيين اتجاه المسيحيين في قوله: "إن الميزة المشتركة لدى الموريسكيين هو أنه يكرهون المسيحيين، وعندما تسمح لهم الفرصة وتتوفر الإمكانيات، يُجهزون سفنا، ويلقون القبض على السفن الإسبانية، ويتخذونهم أسرى، رغبة في الانتقام"⁴.

وحسب كورين شوفالييه فإنّ الجهاد البحري بدأ يأخذ طريق أحسن وينمو بشكل جيد مع وجود هؤلاء المهاجرين، وتؤكد بأن القرصنة قد ازدهرت بوصول القراصنة الموريسكيين إلى

¹ - أيام الحُسوم أو الحُسومات هي الأيام التي أهلك فيها الله قوم عاد بعد تجبرهم وكفرهم بالله، بحيث قال الله تعالى: (وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بَرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَنَعًا لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أُعِجَزُوا نُحْلُ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾). الحاقّة: الآية 6- 7. وتبدأ هذه الأيام تقريبا من اليوم العاشر إلى اليوم الثامن عشر أو العشرين من شهر مارس من كل سنة، وليس في شهر فيفري مثلما ذكره هايدو، ويتميز الطقس خلالها بهبوب الرياح القوية ويمكن القول أنها تعتبر الحد الفاصل بين فصلي الشتاء والربيع. وارتبطت هذه الأيام كذلك بالرزنامة الزراعية، بحيث يمتنع المزارعون عن بذر وخدمة أراضيهم خلال هذه الأيام نظرا للظروف الطبيعية غير المواتية، بالإضافة إلى أن تلك الفترة يبتعد فيها الفلاح عن محاصيله وهو ما يساعدها في عملية تلقيح الأشجار والزهور وغيرها من النباتات لينتج عنها الثمار، بسبب الرياح القوية التي تكون في تلك الأيام الحُسوم. ينظر: أحمد جودي، "ما هي أيام الحُسوم"، موقع عبارات وكلمات، نشر بتاريخ: 02- 20- 2018م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 19- 01- 2023م، مُتاح على الرابط التالي:

<https://www.kalimat1.com/vb/showthread.php?t=1372>

² - diego de haëdo, op. cit, p 94 – 95.

³ - ibid, p 60.

⁴ - حنيفي هلايلي، "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء فرمانات العثمانية (1492-1614)", المرجع السابق، ص 21.

بلاد المغرب، فقد انتعشت مدينة الجزائر وصارت مركزا للجهاد البحري في القرن الرابع عشر والقرون التي جاءت بعده خلال العهد العثماني¹.

وهو نفس الرأي الذي ذهب إليه جون ب. وولف، حينما ذكر أنّ المهاجرين الأندلسيين الذين استقروا بسواحل المغرب العربي قد ركبوا البحر وتقنوا في ملاحته، وحفزهم في هذا العمل عزيمتهم في الثأر لأنفسهم ولإخوانهم الموريسكيين من مضطهديهم الإسبان الكاثوليك. ويُضيف إلى ذلك أنّه لم يكن للمهاجرين الأندلسيين الأثر الكبير في عمليات الجهاد البحري قبل انضمام الجزائر للخلافة العثمانية، فقد كان دورهم عبارة عن شن هجمات متفرقة ضد السواحل الإسبانية مستخدمين في ذلك قوارب متواضعة، لكن بعد مجيء الإخوة بربروس وانضمام الجزائر للخلافة العثمانية تغير نمط وتفكير هؤلاء المهاجرين بالنسبة لحركة الجهاد البحري، فقد حدثت تطورات جديدة كان لها الأثر البالغ في حركة الجهاد البحري، وذلك بإدخال سفن أكبر حجما وأكثر تسليحا، بالإضافة إلى وجود البحارة العثمانيين الذين كانوا أكثر تدريباً على فنون الحرب وأكثر مهارة في ركوب البحر، وكانوا على دراية كبيرة من استعمال المدفعية والأسلحة الأخرى كالقوس والنشاب²، بالإضافة إلى مهارتهم الكبيرة في قيادة السفن وتسيير الأساطيل البحرية في عرض البحر.

وبالإضافة إلى ما سبق ذكره، يُمكن إضافة عامل آخر ساهم في شحن عزيمة الموريسكيين ودفعهم إلى الجهاد في سبيل الله ومواصلة الجهاد البحري ضد الأساطيل المسيحية، والمتمثل في الفرمانات التحفيزية التي تلقوها من طرف الباب العالي، ولعل من أهمها الفرمان الذي أرسله السلطان العثماني سليم الثاني (1566-1574م) المؤرخ في 16-04-1570م إلى حاكم الجزائر علي باشا (1568-1577م)، والذي يتضمن خطاباً موجه إلى الموريسكيين بالجزائر يحثهم فيه على الجهاد، ومما جاء فيه حسب ما ذكره سمير عبد الرسول

¹ - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 16-17.

² - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 180، 182.

العبيدي: "بمشيئة الله شرعنا في إرسال قواتنا المنتصرة نحو شواطئكم، فإن هذه القوات نراها ضرورية وهي من الآن على أهبة، وقد وجهنا أوامرنا الأميرية صارمة إلى حكامنا بالجزائر ليمدكم بكل ما تحتاجون إعانة؛ لأنكم برهنتم على إخلاصكم في الدفاع عن الإسلام، ولم تتركوا دينكم رغم معارك الكفار التي واجهتكم، فإله يعينكم، وقد برهنتم بحضوركم على شجاعتكم"¹. كل هذه المميزات والتحفيزات أعطت دفعا جديدا للموريسكيين على تطوير نشاطهم والعمل على تطوير البحرية الجزائرية، وتوجيه أساطيلها ضد القوى المسيحية في عرض البحر المتوسط. وهذا التحفيز والدعم المعنوي وحتى المادي الذي تلقوه من طرف الدولة العثمانية وحكام الجزائر أعطى لهم الدفع القوي من أجل مواصلة وتكثيف عمليات الجهاد البحري. ومن بين الحوادث التي تعرضت لها السفن الجزائرية والتي تُبين مدى فعالية العمل البحري لدى الأندلسيين، الحادثة التي تعرضت لها السفن الجزائرية في عرض البحر الأبيض المتوسط في 18 مارس 1621م، عندما استولى قرصان فرنسي يُدعى "بوليو بيرساك" على ثلاث سفن جزائرية تقل ثمانون جنديا وكان أكثرهم من الأندلسيين². وهذه الحادثة تُبين لنا أنّ الأندلسيين لم تكن غايتهم مواجهة السفن الإسبانية فحسب ولكن امتدت عملياتهم الجهادية ضد السفن الأوروبية الأخرى المعادية لهم كذلك.

ومما يبرز دورهم وأهميتهم في هذا النشاط أنهم ذُكروا ضمن المعاهدة الفرنسية الجزائرية سنة 1640م، بحيث حدد البند العاشر من بنود هذه الاتفاقية مسؤولية ما يلحق بالسفن الفرنسية من خسائر في عرض البحر جراء تعرضها لهجوم البحارة الأندلسيين المرافقين للسفن الجزائرية³.

¹ - سمير عبد الرسول العبيدي، المرجع السابق، ص 175.

² - Mikel de Epalza, "Los moriscos antes y después de la expulsión", Biblioteca Virtual, Posté sur 2019, Vu le: 25- 11- 2022, Citado del siguiente enlace: <https://www.cervantesvirtual.com/nd/ark:/59851/bmc0p100>

³ - حنيفي هلايلي، "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء فرمانات العثمانية (1492- 1614)", المرجع السابق، ص 23.

وعلى غرار الأدوار الجهادية ضد الأساطيل الأوروبية كان للمهاجرين الأندلسيين دور بارز ومهم في جانب دعم وتقديم يد المساعدة للموريسكيين المحصورين في إسبانيا أو في مناطق أخرى من أوروبا، خاصة خلال القرنين الأولين للحكم العثماني بالجزائر، أي خلال القرن السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، أين تزامنت هذه الفترة بنزوح أعداد كبيرة من الموريسكيين إلى الجزائر وشمال إفريقيا بشكل عام، وبالأخص أثناء الطرد الجماعي (1609-1614م) للموريسكيين من إسبانيا، أين كان للبحرية الجزائرية دور مهم في عمليات إنقاذ ونقل المهاجرين الأندلسيين من إسبانيا إلى سواحل المغرب العربي. ويؤكد في هذا الشأن فتحي زغروت أن الأندلسيين: "... ركبوا السفن ومسكوا الأسلحة لمواصلة الجهاد لإنقاذ المسلمين في الأندلس"¹. وهذا العمل الذي قام به هؤلاء يدخل ضمن إطار العمل الإنساني الخيري، فليس من ورائه قرابة هؤلاء بإخوانهم في الأندلس فحسب ولكن تعدى ذلك ليُصبح العمل الجهادي عملاً خيرياً وتعاوناً بين البحارة الجزائريين وإخوانهم المسلمين الذين تعرضوا للاضطهاد والظلم والاحتقار.

هذا وهناك أعمال أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها ساهمت بشكل كبير في إضفاء الطابع الإنساني والبعد الاجتماعي للإسهام الحضاري للمهاجرين الأندلسيين ضمن البحرية الجزائرية، ودائماً بمساندة ودعم باقي أعضاء البحرية الجزائرية، كما يُقال في العامية الجزائرية "اليد الواحدة لا تُصَفّق" أي لا يُمكن التصفيق بيد واحدة، وهو نفس الشيء بالنسبة للأندلسيين فهم جزء وليس كل أعضاء البحرية الجزائرية، لذلك كان التعاون والتشاور بينهم وبين مختلف البحارة والمسؤولين الآخرين أساس نجاح مختلف العمليات البحرية التي قاموا بها تحت راية الإيالة الجزائرية خلال العهد العثماني.

ومن أمثلة ذلك محاولة البحرية الجزائرية في توفير المتطلبات المادية للأندلسيين المحاصرين والجوعى في بلادهم، بالإضافة إلى التكفل بالمطرودين من بلادهم، ليس هذا

¹ - فتحي زغروت، المرجع السابق، ص 271.

فحسب بل رفعت البحرية شعار دعم المقاومة الأندلسية معنويا وماديا، خاصة خلال ثورة البشارات التي اندلعت في 15 أفريل 1568م بإسبانيا، التي دعمتها البحرية الجزائرية منذ الوهلة الأولى، حيث أرسل القائد علق علي سنة 976 هـ / 1568م لتنظيم حرب العصابات بجبال البشارات الواقعة في الأندلس، وفي العام التالي أرسلت الإيالة الجزائرية العتاد والذخائر مع المتطوعين الإنكشاريين لمساندة مجاهدي الأندلس في مقاومتهم ضد العدو الإسباني، وفي نفس الوقت كانت تقوم البحرية الجزائرية بإرسال حملات نحو السواحل الإسبانية، قصد الضغط على القوة الإسبانية وإضعافها¹، وذلك من خلال دعم المجاهدين في الداخل وضرب الموانئ البحرية الإسبانية على مستوى السواحل.

ويضرب لنا روجي كواندور بعض الأمثلة عن القراصنة الموريسكيين الذين مكثوا خارج حدود الإيالة الجزائرية وكان لهم حضور بارز على مستوى البحر الأبيض المتوسط، خاصة أولئك الذين استقروا بمنطقة سلا² بالمغرب الأقصى، وكوّنوا جمهورية أندلسية سُميت بجمهورية أبي رقرق³، وكانت لهم تجربة رفقة البحرية الجزائرية وعملوا لصالحها في بعض الأحيان، بل وحتى أنّ الإيالة الجزائرية دافعت عنهم واعتبرت جزءا من بحارتها مثل ما أشار إليه مولاي بلحميسي، حينما ذكر أنّ القنصل الفرنسي في الجزائر جون لوفاشي Jean LeVacher قد

¹ - مصطفى داودي، المرجع السابق، ص 279 - 280.

² - منطقة سلا هي مدينة مغربية تقع على ضفاف الساحل الأطلسي في الجهة الغربية للمغرب الأقصى بالقرب من العاصمة الحالية الرباط، وقد ارتبط اسمها تاريخيا بالمنفيين من الأندلس الذين وضعوا أساس هذه المدينة وراحوا إلى أبعد من ذلك فأسسوا جمهورية سلا أو جمهورية أبي رقرق، وذلك بعد الطرد النهائي للموريسكيين من إسبانيا مع بداية القرن السابع عشر الميلادي، ويرجع الفضل في تأسيسها إلى مراد رايس الأصغر الذي اشتهر بممارسته نشاط الجهاد البحري، وقد اشتهرت هذه الجمهورية بممارسة القرصنة خاصة في المحيط الأطلسي، كما كانت لها علاقة وطيدة بإيالة الجزائر خاصة في مجال القرصنة وركوب البحر وتجارة العبيد التي لقيت رواجا كبيرا خلال هذه الفترة، واستمرت في نشاطها البحري إلى غاية سقوطها أو إخضاعها سنة 1668م على يد السلطان مولاي رشيد العلوي. ينظر: يونس مسكين، "سلا.. أساطيل جمهورية القراصنة تحكم أعالي المحيط الأطلسي"، موقع الجزيرة الوثائقية، نشر بتاريخ: 02 - 02 - 2022م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 17 -

05 - 2023م، مُتاح على الرابط التالي: <https://cutt.us/xQILF>

³ - روجي كواندرو، المرجع السابق، ص 62 - 64.

كتب في إحدى رسائله سنة 1681م أنّ سلطات الجزائر كانت تسمح لقرصنة سلا بممارسة التجارة والحرية في استغلال موانئ الإيالة الجزائرية، وهو ما منح هذه الأخيرة قوة وازدهار. وتماشيا مع ذلك كان هؤلاء - قرصنة سلا - يبيعون في الجزائر ما يقومون بجلبه من القرصنة، وبالخصوص العبيد الفرنسيين الذين يستولون عليهم في عملياتهم القرصنية، وعندما قُدمت شكوى للسلطة الحاكمة في الجزائر بخصوص هذا الغرض، كانت تُجيب السلطة الحاكمة في الجزائر بأنّ هؤلاء القرصنة هم إخوانهم في الدين، وأنهم حينما يريدون استغلال موانئهم لهذا الغرض لا يمكن منعهم من ذلك¹.

ومن خلال هذه الحادثة يتبين لنا أنّ البحارة السلاويين الأندلسيين كانت تربطهم علاقة أخوة وتعاون بينهم وبين البحارة الجزائريين بحكم التقارب الديني والثقافي، خاصة وأنه كانت لهم صلة بالأندلسيين المتواجدين في الجزائر الذين يعمل العديد منهم في البحرية الجزائرية، وهذا وإن دل على شيء إنما يدل على حرص السلطات الحاكمة في الجزائر على حماية الأندلسيين سواء كانوا متواجدين ببلادهم أو خارجها، وتوفير الإمكانيات المادية والبشرية اللازمة لهم لممارسة نشاطهم بكل حرية. ويُمكن اعتبار أن هذا الفعل هو تأكيد منها لأجل ربط الصلة بين الأندلسيين المتواجدين بالجزائر والمتواجدين خارجها، وهو تأكيد أيضا للسلطات الفرنسية أو لغيرها بأنّ هؤلاء القرصنة هم جزء من بحارتها وأن الجزائر هي أرضهم حتى وإن كانوا سلاويين مُقيمين خارج الجزائر.

ولعل من أبرز هؤلاء البحارة السلاويين الذين عملوا لصالح البحرية الجزائرية القرصان سيدي عبد الله بن عائشة والذي كان يُلقب ببنعاش، الذي اكتسب شهرة كبيرة في المغرب العربي وكذلك في الأوساط المسيحية، نظرا لمغامراته وأعماله الكبيرة على مستوى البحر الأبيض المتوسط، وقد بدأ حياته على مستوى البحر حوالي سنة 1672م، وقد قام بالعديد من العمليات الجهادية، ولعل من بينها العملية التي قام بها في 12 مارس من سنة 1687م وهو يسير في

¹ - Moulay Belhamissi, marine et marins D'Alger (1518- 1830), T 2, op. cit, p 89.

البحر تحت راية إيالة الجزائر، وتمكن من خلالها من أسر الباخرة مرسية (Mercier) من فئة ستة مدافع مشحونة بالقمح إلى مرسيليا وسار بها إلى الجزائر. وكذلك العملية التي قام بها ما بين 11 و14 ماي من نفس السنة، واستولى من خلالها على ثلاث سفن مشحونة بالقمح وهي سفينة لنون بري (la non pareille) ولفرونسواز (la françoise) ونوتردامدي بونبارت (la notre dame ponapart)، أرسل واحدة منها إلى تطوان في حين سار بالبقية إلى الجزائر¹. وقد ازداد نشاط بن عايشة في أواخر القرن السابع عشر الميلادي رفقة أخيه عبد الرحمن، والذين حالفهما الحظ في 12 ديسمبر 1694م من حصولهما على غنيمتين، الأولى كانت سفينة إنجليزية من حمولة 100 طن مشحونة بالموز وبضائع أخرى، وقد أسرت بالقرب من مادر Mader والثانية سفينة فرنسية تُقدر حمولتها بـ 200 طن تحت قيادة القبطان ماتيوكوا Mathieu Crois مجهزة بأربعة مدافع وطاقم من 12 بحار، وتحمل العديد من البضائع كالسكر الخام والكاكاو والقرفة بقيمة مالية تقدر بـ 80.000 ليرة، وتم أسرها بين جزر الأسور ومادر، ويذكر الراوي نفسه - روجي كواندور - أنه "... في هاتين الحالتين كان يُعتقد أن القرصانين جزائريان..."².

ويُضيف إلى ذلك فوزي سعد الله بعض الأمثلة عن البحارة الأندلسيين بالجزائر الذي اكتسبوا شهرة في مجال ركوب البحر ومواجهة الأساطيل المسيحية، مثل الرايس بلانكو "بلانكيو"، والرايس أحمد بوعلي الأشبوني، والرايس مراد الكبير غواديانو (Guadiano)، والرايس سعيد الشويهد، وكذلك الرايس حميدو بن علي الحرّار الذي استشهد عام 1815م بعد صدامه مع مجموعة من السفن الأمريكية في مضيق جبل طارق مما أدى بوقوع معركة كبيرة استشهد على إثرها رفقة العديد من البحارة الجزائريين، الذي كانت تسري في عروقه دماء

¹ - روجي كواندور، المرجع السابق، ص 62.

² - نفسه، ص 64.

أندلسية حسب رواية فوزي سعد الله، الذي يستند في هذا القول على رواية أحد أقارب الرئيس حميدو، وغيرهم¹. ويُضيف حنيفي هلايلي لهؤلاء البحار جواد يانو من نيودال ريال².

ثانيا: الدور التجاري (مساهمتهم في تنشيط التجارة وتمويل حركة الجهاد البحري):

استكمالا للمساهمات التي قام بها الأندلسيون في البحرية الجزائرية والتي تركزت أساسا في العمل الصناعي والدفاعي والجهادي والتجاري، فإنه سنحاول التحدث ضمن الصفحات التالية على جانب مهم ولا يقل أهمية عن الجوانب السابقة، ويُعتبر كذلك مُحرك مهم لعملية الجهاد البحري والازدهار الاقتصادي في الإيالة الجزائرية، ونقصد بذلك النشاط التجاري، والمتعلق طبعاً بالبحرية الجزائرية أو النشاط التجاري البحري، الذي ساهم فيه الأندلسيون خاصة في عمليات بيع الأسرى وجلب السلع إلى الجزائر، أو المساهمة في تصدير مختلف السلع الجزائرية إلى البلدان الأجنبية، بالإضافة إلى ذلك قاموا بفتح الدكاكين في العديد من المدن الجزائرية لهذا الغرض. هذا الدور الذي لفت إعجاب العديد من الباحثين والذين من بينهم حنيفي هلايلي، الذي قال في شأنهم: "والحقيقة أن المنتبِع لدور التجار الأندلسيين وخاصة في مدينة الجزائر، واستثمار أموالهم في عمليات القرصنة (غنائم الجهاد البحري)، ليقف مندهشا لهذا الدور الذي لعبه هؤلاء في المجال التجاري! حيث اشتهروا بتحصيلهم للضرائب ومساعدتهم للأتراك في تنظيم موارد الخزينة العامة"³.

ويُعتبر عامل حيوية النشاط التجاري التي كانت تشهده سواحل المغرب الأوسط من بين أهم العوامل التي ساعدت التجار الأندلسيون على الاستقرار بالجزائر، خاصة في الموانئ الساحلية التي كانت تشهد نشاطا اقتصاديا كبيرا، مثل مرسى تنس ومرسى بني مزغنة، مرسى جيجل، مرسى بجاية، مرسى تامدقوست ومرسى وهران وغيرها من المراسي الأخرى التي ذكرها

¹ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 103 - 104.

² - حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 56.

³ - نفسه، ص 134.

العديد من الرحالة والمؤرخين مثل اليعقوبي والمقدسي والبكري والإدريسي وغيرهم، وقد ازداد نشاط الأندلسيين وازدادت حركية هذه الموانئ خلال الفترة الممتدة من القرن الثالث إلى غاية القرن السادس الهجري أي خلال حكم الموحدين لعدوتي المغرب والأندلس، ومن بين أهم مراسي المغرب الأوسط من ناحية الشرق في تلك الفترة نجد مرسى الخرز الذي اشتهر باستخراج المرجان الأحمر وتصديره إلى مختلف البلدان، واستقطب العديد من السماسرة التجار من الأندلسيين بشكل خاص، بالإضافة إلى مدينة بونة (عنابة) التي كان أكثر تجارها من الأندلسيين، وكذلك مرسى بجاية الذي شهد حركة تجارية واسعة خاصة في العهد الحمادي والذي استقطب هو الآخر التجار الأندلسيين. ومن أهم المدن التي قصدها الأندلسيون ونشطوا حركتها التجارية مدينة تنس، التي تُعتبر عُدوة الأندلسيين الذين يقصدونها بسفنهم وتجارتهم ويفضلونها على غيرها من المدن الأخرى¹.

وربما الطابع الذي تميز به سكان الجزائر هو الذي جلب التجار الأندلسيون والاستقرار بها، مثل ما بينته كورين شوفالييه التي وصفت سكان مدينة الجزائر بأنهم ذوو أخلاق طيبة، ولهم دراية كبيرة بالتجارة وممارسة القرصنة، كما أنهم برعوا في تجارة الذهب والعبود وبيع مختلف السلع كالزبدة والجلود والعسل وغيرها للبجارة الأجانب، ثم انضم إليهم بعد ذلك العنصر الموريسكي ومارسوا مختلف الأنشطة التجارية إلى جانب السكان المحليين².

وقد حفزت هذه الامتيازات الموريسكيين على الاستقرار وجلب رؤوس أموالهم وطُرق إنتاجهم الحديثة، وسمحت لهم هذه الامتيازات التي حصلوا عليها بالارتقاء في المجتمع الجزائري، وقد أتاح لهم هذا الاستقرار واستثمار رؤوس الأموال في تمويل عمليات الجهاد البحري، وكذلك دعم العمليات العسكرية ضد الغارات المسيحية.

¹ - رفيق خليفي، المرجع السابق، ص 131، 140.

² - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 16 - 17.

وعند الحديث عن النشاط التجاري البحري في الجزائر خلال العهد العثماني يلفت انتباهنا مدى اهتمام التجار وحتى البحارة الذين هم كذلك مارسوا التجارة بعمليات بيع الأسرى، والتي كانت تُدر عليهم بأموال طائلة نظرا لما يكسبونه من مداخيل كبيرة جراء هذه العملية، والتي مارسها كذلك البحارة الأندلسيين نظرا لأهميتها المالية الكبيرة، مثل ما ذكره حنفي هلايلي الذي بيّن أنه "... كان لهم نشاط بحري واسع في مدينة الجزائر، كما برعوا في تجارة الأسرى والغنائم...¹. كما أنّ العملية التجارية للمهاجرين الأندلسيين ضمن البحرية الجزائرية انعكست إيجابا على تمويل عمليات الجهاد البحري وتنشيطها، والذي انعكس بشكل إيجابي أيضا على الخزينة العمومية التي شهدت فائض مالي كبير في تلك الفترة.

وتماشيا مع ذلك فإنّه يعتبر العديد من الباحثين أنّ "القرصنة الجزائرية" تُعتبر المورد الوحيد لبيت المال، وأنّ المتاجرة بغنائم الأسرى تُعتبر العمود الفقري للتجارة بالجزائر، حسب ما ذكره حنفي هلايلي². فصحيح أن الجهاد البحري هو عمل عسكري ولكن عائداته كان لها أثر كبير في التجارة، ويُمكن اعتبار هذا النشاط من أهم وأوسع النشاطات التي برزت في الإيالة الجزائرية، وذلك لعائداته الاقتصادية على خزينة الإيالة وعلى القراصنة أنفسهم، الذين أصبحوا من أكبر أغنياء البلد، مثل ما بيّنه روجي كواندرو في قوله: "وقد توصل القراصنة الجدد بذكاء أن يشركوا معهم رؤساء المدن الساحلية في غنائمهم عن طريق أداء ضريبة على هذه الغنائم مقابل حمايتهم والسماح لهم ببيع بضاعتهم. وهكذا أصبحت القرصنة فرعا من التجارة أكثر منها ملاحه مغامرة"³.

وهذا العمل التجاري المهم الذي كان يقوم به البحارة الجزائريون رفقة البحارة الأندلسيين لا يدخل ضمن هدف توفير المال فحسب ولكن هناك من ذكر أنّه عامل مهم في إضفاء جو

¹ - حنفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 56.

² - حنفي هلايلي، "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، العدد 4، 2003م، ص 245-246.

³ - روجي كواندرو، المرجع السابق، ص 18.

من السرور والبهجة على الجميع سواء البحارة أو التجار، وهو ما يذكره عزيز سامح ألتز نقلا عن هايدو بحيث ذكر أنه "عندما كان الرياس يعودون من غزواتهم كانت المسرة والفرحة تعم الجميع، فالتجار يشترون الأسرى والمجوهرات والتحف الثمينة التي أحضرها القراصنة معهم، والتجار يبيعون الألبسة والأرزاق للقادمين الجدد، فيكسبون من جراء ذلك أرباحا كبيرة، وكان كل شخص من سكان المدينة يتذوق لذة الفرح والسعادة، وهذا ما دفع الجميع إلى إظهار حبهم وإخلاصهم للقراصنة..."¹.

ومما لا شك فيه أنّ هذا العمل قد ولج إليه الأندلسيون المستقرون بالجزائر وساهموا في انتشاره، وكونوا بذلك فائض مالي كبير، وهذا ما دفعهم إلى البحث عن ميادين وطرق أخرى لاستثمار أموالهم فيها، خاصة فئة الثغريين التي استقادت من مداخيل القرصنة وبيع الأسرى. ونلاحظ مدى أهمية هذه التجارة وانتشارها من خلال ما جاء في العديد من الإحصائيات المتعلقة بعدد الأسرى وكيفيات بيعهم أو افتدائهم في الجزائر خلال العهد العثماني، خاصة وأنّ هؤلاء الأسرى شكلوا دخلا ماليا مهما لخزينة الإيالة طيلة العهد العثماني، بالإضافة إلى ذلك شكلوا أهمية كبيرة بالنسبة للسلطة أو السكان، كونهم تم استغلالهم للعمل في مختلف الورشات والميادين، خاصة العمل في ورشات الصناعة وأعمال البناء، وكذلك استغلالهم في عمليات تجديد السفن بمختلف أنواعها، بالإضافة إلى ممارسة العمل داخل البيوت والقصور.

ففي الفترة الممتدة بين سنتي 1520م و1660م كان عدد الأرقاء المسيحيين في الجزائر كبير، بحيث تراوح بين خمسمائة ألف وستمائة ألف نسمة². وحسب جون ب وولف فإن عدد الأرقاء في مدينة الجزائر في الثلاثينيات من القرن السابع عشر يُقدر بخمسة وعشرين ألف، ثم انخفض هذا العدد بشكل حاد خلال القرن الثامن عشر³.

¹ - عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 150.

² - حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 133.

³ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 207.

وفي دراسة أجراها حنيفي هلايلي قدر من خلالها عدد الأسرى بـ 25 ألف أسير سنة 1578م بمدينة الجزائر، وفي سنة 1635م ارتفع العدد إلى 30 ألفاً، ليتراجع هذا العدد مع بداية القرن الثامن عشر، فمن 10 آلاف سنة 1700م انخفض إلى 2000 سنة 1738م، ثم ارتفع إلى 7 آلاف سنة 1750م، وإلى غاية سنة 1830م قُدر عدد الأسرى بين 500 و122 أسيراً¹.

بينما توجد دراسة أخرى أجراها سعيود إبراهيم حول عدد الأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني وذلك استناداً إلى الدراسات الأوروبية في هذا الجانب، الذي بيّن فيها أنّ عدد الأسرى في الجزائر كان يرتفع تارة وينخفض تارة أخرى، وذلك استنتاجاً لما ذكره هايدو الذي أحصاهم بأزيد من مائة ألف أسير، وما ذكره الراهب دان الذي أورد أنّ عددهم كان يتراوح بين ألفين وخمسمائة وثلاثة آلاف أسير منهم ألف ومائتي امرأة، وكذلك ما أورده الراهب دولا فاي De la Faye الذي ذكر أنه لم يبق في الجزائر سنة 1725م سوى أسيران مسيحيان اثنان².

ويُلخص لنا خليفة حمّاش كل هذه الأرقام ويزودنا بمعطيات مهمة ومختصرة حول عدد الأسرى في الجزائر خلال العهد العثماني في قوله: "... فبخصوص الأسرى فإن التقارير الأوروبية قدرت عددهم في عام 1587م بعشرين ألفاً، وفي أواخر القرن السابع عشر بين (35) و(40) ألفاً. ولكن ذلك العدد أخذ يتناقص بعد ذلك بشكل كبير حتى صار في أواخر القرن الثامن عشر نحو ألفين، ثم نزل إلى 500 (خمسمائة) فقط بسبب الوباء الذي اجتاحت المدينة بين عامي 178 (كذا)³ - 1790م. أما العبيد الزنوج فإن عينة من السكان في المدينة

¹ - حنيفي هلايلي، "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، المرجع السابق، ص 244.

² - إبراهيم سعيود، "جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال العهد العثماني (مقاربة تاريخية)"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، المجلد 17، العدد 01، 01 ديسمبر 2016م، ص 156 - 157.

³ - ربما يوجد خلل مطبعي أدى إلى عدم كتابة السنة بشكل صحيح. وربما كان يقصد سنة 1786م أو سنة 1787م لأنه خلال هذه الفترة ضرب وباء الطاعون مدينة الجزائر وخلف وراءه العديد من الضحايا. ينظر: صرهودة يوسف، "سياسة السلطة والمجتمع في مواجهة الأوبئة والمجاعات في إيالة الجزائر خلال القرن 18 - 19م"، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة المسيلة، الجزائر، المجلد 06، العدد 01، 30 جوان 2022م، ص 648.

في أواخر القرن الثامن عشر قدرها 1515 فردا وجد أنهم يشكلون منها 218 عبدا، ونسبة ذلك العدد هي (14 ٪)، ولكن أغلبهم كانوا من النساء (الإماء). وقد وصلهم إلى المدينة في أوائل القرن التاسع عشر بعدد يتراوح بين (150) و(500) في كل سنة¹.

ومن خلال هذه الإحصائيات نجد أنّ عدد الأسرى لم يعرف استقرارا بالجزائر طيلة العهد العثماني، فتارة يرتفع إلى أرقام كبيرة جدا خاصة في المعارك الكبيرة التي يخوضها الأسطول الجزائري، وبالأخص خلال الفترات الأولى للحكم العثماني بالجزائر، ويُمكن أن نحصرها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، أين كان نشاط البحرية الجزائرية في أوج قوته وبروزه على مستوى الحوض الغربي للبحر المتوسط، مثل ما جرى خلال الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر سنة 1514م التي شارك فيها الكثير من الأندلسيين، بحيث وقع عدد كبير من الأسرى قُدر بحوالي ثلاثة آلاف أسير بيد البحارة الجزائريين، وتارة يتراجع بشكل كبير خاصة في الفترات الأخيرة من الحكم العثماني للجزائر، بسبب طبيعة العلاقات السياسية والعسكرية بين الجزائر وأوروبا²، التي تتأرجح تارة بين العداوة وتارة أخرى بين الصداقة والتعاون، خصوصا وأنّ الجزائر في الفترات الأخيرة أصبحت تُقيدها العديد من الاتفاقيات والمعاهدات الدولية مما حدّ بشكل كبير من عدد الأسرى المتواجدين بها.

ونجد أن معظم الأسرى كانوا ينحدرون من جنسيات روسية وألمانية ومن مناطق الجزر البريطانية والبلاد الإسكندنافية³ والأراضي المنخفضة (هولندا) وشمال فرنسا وكان معظمهم

¹ - خليفة حمّاش، "الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري بقسنطينة، الجزائر، دفعة 2006م، ص 751.

² - سليمان دهان، "الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية لحركة البحرية الجزائرية خلال الفترة الحديثة"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، المجلد 22، العدد 01، 30 ديسمبر 2021م، ص 219.

³ - الدول الاسكندنافية هي الدول الواقعة شمال قارة أوروبا، والتي يجمعها التقارب التاريخي والحضاري والثقافي، وهي ستة دول: آيسلندا، جزر فارو، فنلندا، النرويج، الدنمارك، السويد. ينظر: ريما حسين، "كم عدد الدول الإسكندنافية"، موقع موضوع، نشر بتاريخ: 19 سبتمبر 2021م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 29 مارس 2023م، مُتاح على الرابط التالي:

<https://2u.pw/Yh9ueB>

بحارة أسروا وهم على متن سفنهم في عرض البحر، والبعض الآخر من القرويين الذين أسروا أثناء الغارات، وكانوا يتكونون من فئات عديدة منهم النبلاء والأغنياء وضباط السفن والتجار والمسافرين البرجوازيين وكذلك البحارة العاديين والفلاحين الفقراء، وكان مصير هؤلاء الأرقاء والأسرى بين تسريحهم عن طريق الافتداء وبالخصوص الأسرى الأغنياء وأصحاب الوجاهة، وبين استرقاقهم بشكل دائم ويمثل هؤلاء فئة الفقراء والبسطاء بشكل كبير¹. بينما الأسرى الذين لم يتم شراؤهم يُصبحون ملكا للدولة ويُستعملون في العديد من الأعمال كجمع الحجارة عبر طرق الإيالة أو العمل في دار الصناعة بالجزائر وورشات بناء السفن وغيرها².

وقد استفادت الإيالة الجزائرية من الأسرى والعبيد في تنمية اقتصادها وتطوير خدماتها في مختلف المجالات، خاصة وأن تجارة الأسرى المسيحيين قد شكلت أحد مصادر الدخل الرئيسية لخزينة الإيالة، فكلما ازداد عدد الأسرى ازداد دخل الخزينة عن طريق أموال الافتداء، والعكس صحيح، وكلما كان الأسرى ذو قيمة وذو مكانة مرتفعة كلما كان افتدائهم يتطلب أموالا كبيرة، عكس الفئات البسيطة التي يكون فداءها رخيص جدا أو في بعض الأحيان لا يتم افتدائهم إطلاقا كفئة الفلاحين والذين ليس لديهم أهل، وكذلك كبار السن الذين لا يستطيعون القيام بأي عمل معين.

وفي هذا الصدد يُخبرنا العالم الألماني هابنسترايت الذي زار الجزائر خلال القرن الثامن عشر الميلادي أنّ الأسير ذو رتبة قابودان والذي يُمثل قائد السفينة يتطلب إطلاق سراحه دفع ألفين وخمسمائة قرش، ويقل السعر بالنسبة لمعاونيه وكذلك صانع السفن أو الجراح بقيمة افتداء تصل لألف وخمسمائة قرش عن كل واحد منهم، أمّا البحار فيجب عليه تسديد ألف قرش من أجل إطلاق سراحه. وتختلف هذه النسبة كذلك بالنسبة لجنسيات الأسرى، فعادة ما يكون ثمن افتداء الأسرى الألمان أعلى من الأسرى الآخرين، وذلك راجع لمهارتهم في إدارة

¹ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 208.

² - حنيفي هلايلي، "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، المرجع السابق، ص 244.

شؤون البحرية¹. وكذلك بالنسبة للأسرى المسيحيين ذوي الطبقات الرفيعة مثل الرهبان واليهود والأغنياء والقادة، فعملية استرجاعهم أو تحريرهم كانت تتم مقابل دفع مبالغ باهظة جداً، والتي تُشكل مدخول وفير وهام لخزينة الدولة².

وهناك أمور أخرى تُخفض أو ترفع سعر العبيد المسيحيين كالشباب والقوة والجمال والصحة والحرف والصناعات التي يُتقنونها، بالإضافة إلى الفئات غير المرغوب فيها كفنّة كبار السن والمرضى والضعفاء والذين لا يتقنون أي حرفة، وهذه الفئة لا ينظر إليها كثيراً مثل الآخرين، أمّا بالنسبة للسعر فلا يوجد حد معين، فهو يعتمد بشكل مطلق على سادة العبيد، فهناك من يُباع بألف أو اثني عشر مائة إيكو³ écus أو أكثر، وهذا راجع إلى الثروة التي يمتلكها العبيد أو أسرهم، وكذلك لأنهم ذو نوعية جيدة من الأسرى، وهناك فئة أخرى تُباع بمائة وثلاثمائة أو أربعمائة إيكو وفي بعض الأحيان يُباعون بمائتي جنيه فرنسي⁴.

ويُعطي لنا حساني مختار أمثلة عن أسعار بيع العبيد على مستوى الموانئ الجزائرية خلال القرن السادس عشر الميلادي، والتي من بينها عبدة تُعرف باسم فاطمة عُمرها ما بين 12 و 13 سنة بيعت إلى أحد الإسبان بثمانين دينارا. وكذلك في سنة 1515م بيع عبد عُمره خمس عشرة سنة من وهران. وفي سنة 1551م بيع أحد العبيد من أراضي الدولة الزيانية عُمره ما بين خمس وعشرين وثلاثين سنة مع ابنته بمائة وعشرين دينارا⁵.

بينما يعطي لنا جون ب. وولف أمثلة عن بعض الأسرى وقيمة فدائهم في قوله: "... فهذا مثلاً دون مارتن القرطبي de Cordova، ماركيز كورتيز de Cortez، دفع إلى حسن

¹ - ج. أو. هابنسترايت، المصدر السابق، ص 42.

² - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 53 - 54.

³ - عملة فرنسية قديمة كانت متداولة في إيالة الجزائر.

⁴ - R. P. Pierre Dan, **Histoire de parparie et de ses corsaires**, Deuxième édition, paris, 1646, p 443.

⁵ - مختار حساني، المرجع السابق، ص 181.

باشا 23000 إيكو Ecus ذهباً. وهذا نبيل من كاتلان Catalan، اسمه غلاسيران دي بينوس de Pines وافق على دفع مائة قطعة حرير، ومائة ألف دوبات (doubles) ذهباً، ومائة حصان، ونفس المبلغ من البقر. وهذا أسقف غوفيا Govea دفع 16000 دوكا... أما صاحب الحرفة أو البحار العادي فقد يدفع لفدائه حوالي 500 ليفر...¹. ويُضيف إلى ذلك حنفي هلايلي معلومة تاريخية مفادها أنّ إسبانيا وحدها كانت تدفع ما قيمته 60 ألف قرش لافتداء أسراها البالغ عددهم ما بين 200 و300 أسير².

وحسب جون ب وولف فإنه يُفضل الشاري الرق الذي يكون من نفس لون بشرته أو حتى من نفس سلالاته وثقافته، وقد يوجد هناك مالكون قساة على حد تعبيره مثل الموريسكيين الذين كانوا يستخدمون العبيد للأعمال الشاقة. ومهما يكن فإنّ الرق كان تجربة قاسية لهؤلاء الرقيق سواء الرجال أو النساء³.

وكان معظم الأسرى يقعون دون معارك كبيرة أثناء عمليات الجهاد البحري، بحيث كانت معظم السفن المستولي عليها من السفن التجارية، لا تملك مدافع ولا حتى طاقمها مجهز بأسلحة يمكن من خلالها ردع وصد هجوم القراصنة في البحر، ومن جهة أخرى كان يملك رجال البحر المجاهدون سفناً على متنها أسلحة مثل المدافع وطاقمها مجهز بأسلحة مختلفة كالخناجر والسيوف والمسدسات، التي من خلالها يتفوقون على السفن دون مقاومة تُذكر، وهو نفس الشيء في البر بحيث ينزل البحارة المسلحون إلى بعض القرى ويقومون بالهجوم عليها من أجل الاستيلاء عليها وأخذ من فيها من رجال ونساء وأطفال، وقد كانت أسواق شمال إفريقيا ومن بينها الجزائر تُعج بالآلاف من الفلاحين الذين كانوا يُباعون كأرقاء حسب ما قاله جون ب. وولف⁴.

¹ - جون ب. وولف، المرجع السابق، ص 213.

² - حنفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 74.

³ - جون ب. وولف، المرجع السابق، ص 210 - 211.

⁴ - نفسه، ص 209.

والذي نلاحظه من كلام جون. ب. وولف أنّ رجال البحر غزاة ولا رحمة في قلوبهم خاصة رجال البحر العثمانيين وكذلك الجزائريين الذين يستولون على كل من في طريقهم، هذا حسب رأيه، ولكن في الحقيقة البحارة الجزائريين والعثمانيين بشكل عام كان هدفهم حماية البلدان الإسلامية من الغزو المسيحي وكذلك نقل الموريسكيين من بلدانهم التي تعرضوا فيها إلى الظلم بشتى أنواعه إلى وجهتهم التي يختارونها، ويبدو أنّ كلامه هذا ينطبق على القراصنة المسيحيين الذين لا وطن لهم ولا رحمة في قلوبهم، بحيث كان هدفهم جمع المال وزيادة ثروتهم وحبهم للاستعلاء والسيطرة.

ومن بين الإجراءات التي كان يقوم بها البحارة عند استيلائهم على سفينة ما هو إحصاء حمولتها ومسافريها، ثم يُسأل الأسرى مجموعة من الأسئلة لمعرفة أهميتهم والثروات التي يملكونها، وكان العلاج البحارة يتوددون إلى الأسرى ويتلطفون معهم من أجل أخذ معلومات كافية عنهم، وإن لم تجد هذه الطريقة نفعا فإنه يُسلط عليهم القانون، بحيث كان أعضاء الطاقم يُضربون من أجل إعطائهم المعلومات الكافية، وعند وصول السفينة أو السفن المستولى عليها إلى الميناء يُقاد الأسرى إلى قصر الجنيّة¹، ويُسمح للأسرى بالإقامة في القصر ليلة كاملة، وفي صباح يوم الغد يقدمون إلى الداى بواسطة رئيس الموظفين المسيحيين²، فيأخذ الداى حقه من الغنائم وهو بين 10 و12% من مجموع الأسرى³. وقد كان له الحق في الاختيار الأول من الأرقاء وشرائه حسب سعر السوق. ويُعتبر علي بتشين (1560-1645م) من أهم مالكي العبيد في منتصف القرن السادس عشر بالجزائر، والذين من بينهم 20 أمة كُنَّ يخدمن زوجته⁴.

¹ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 210-211.

² - كاتكارت، المصدر السابق، ص 80.

³ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 210-211.

⁴ - Robert C. Davis, **Esclaves Chrétiens, Maitres Musulmans L'esclavage blanc en Méditerranée (1500-1800)**, Traduit de l'anglais (Etats-Unis) par Manuel Tricoteaux, Éditions Jacqueline Chambon, Amsterdam, 2006, p 126- 127.

في حين تأخذ الدولة الأسرى الذين يتمتعون بكفاءات ويمارسون العديد من الأعمال والحرف مثل النجارون والمكلفون بالمدافع ومديرو دفة السفينة والسباكين وغيرهم من الفئات المهمة¹، ثم يُقَاد بقية الأسرى إلى البانيو bagno (السجن)²، ثم بعد ذلك يُعرضون للبيع في السوق الرئيسي أو البيزستان Bezestan، وقد يُجرد هؤلاء الأسرى من ملابسهم إلا ما يستر عورتهم ويُعرضون للبيع رفقة الإبل والبغال والماعز والأرانب والمهاري وغيرها، وفي الصباح يتم فحص الأسرى في أجسامهم، كفحص ظهورهم وأيديهم وأسنانهم وصحتهم، وبعد صلاة الظهر يقوم حارس الأسرى بعرض هؤلاء إلى المنصة واحد تلو الآخر، ثم يُعطي فكرة عامة حول القيمة الحقيقية لكل أسير، بالإضافة إلى القيمة المحتملة في الفداء، ثم يُباع الأسير إلى المشتري الذي يدفع أعلى قيمة³.

ويُوضح لنا روبرت شارلي دافيس Robert C. Davis حالة العبيد في الجزائر بقوله: "من بين كل المجهودات التي يُجبر الأسرى المساكين على تحملها، فإن الأسوأ هو بلا شك ما يعانونه في قوادم الأتراك والبربر. أليس هذا أمرا مثيرا للشفقة (...) إنه من شروق الشمس إلى غروبها، يعملون دون توقف في التجديف الذي ينتج عنه شعور بالألم في ذراعهم، وأن جسدكم شبه العاري تماما في جميع الأوقات وعليه آثار ضربات العصا"⁴.

وما زاد غرابة، حديث هايدو على هذه الفئة ومدى قسوة البحارة الجزائريين اتجاه العبيد المسيحيين، بحيث ذكر أنهم يتعرضون للضرب بالعصي والسياط والكلام الجارح والجوع والعطش دون تركهم لمدة نصف ساعة دون معاقبتهم، والأدهى من ذلك أنهم تُجرَح أكتافهم

¹ - كورين شوفالبيه، المرجع السابق، ص 54.

² - حسب جيمس ويلسن ستيفن فإن مدينة الجزائر خلال أواخر القرن الثامن عشر الميلادي كان يوجد بها سجنان فقط حيث يقيم فيهما العبيد، ويطلق على أحدهما سجن البايك والآخر سجن قلاو الجذافين، ومن حيث المساحة فإن السجن الأول أكبر بكثير من الثاني، بحيث يستقبل عددا يفوق ثلاثة أضعاف ما يستقبله السجن الأخير، ويقع كلي السجنين في الشارع الرئيسي للمدينة ما بين باب عزون وقصر الداوي. ينظر: جيمس ويلسن ستيفن، المصدر السابق، ص 215.

³ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 210-211.

⁴ - Robert C. Davis, op. cit, p 129- 130.

وتسيل دماؤهم ويضربون أعينهم ويكسرون أذرعهم وعظامهم ويقطعون أنوفهم وآذانهم بل ويقطعون حناجرهم ورؤوسهم!¹. بالإضافة إلى ذلك يذكر لوجي دي تاسي أنّ الموريسكيين أو فئة التغارين المنحدرين من إسبانيا ليس لهم مهمة سوى الاتجار بالعبيد، كانوا في بعض الأحيان يُعاملونهم بقسوة دون شفقة².

وحسب رأينا فإن هذا التصرف يخرج عن الحقيقة بل هو ضرب من الخيال وانحياز وراء العاطفة لأن مثل هذه التصرفات لا يقبلها العقل ولا الأخلاق ولا قبل ذلك الدين، وحتى وإن كانوا مسيحيين وعبيد فإنّ الطابع الإنساني هو موجود حتى في الحروب، وهذه التصرفات ربما كانت تُمارسها القبائل المتوحشة قديما، وربما هي حالات خاصة لا نعممها على معاملة الأسرى بشكل عام، وهذا واضح وجلي من خلال ما ذكرته بعض الكتابات المعاصرة لتلك الفترة أو حتى رواية الأسرى أنفسهم الذين أعطى معظمهم انطبعا جيدا حول تلك المعاملة، وخاصة الأسرى الذين يعملون في البيوت والمزارع، ونلاحظ كذلك أنّ العقوبات لا تمس الأسرى المسيحيين فقط بل تُطبق على كل من خالف أوامر القياد أو البحارة.

ومما لا شك فيه أنّ أغلبية الأسرى كانوا يعاملون في الجزائر بلطف وشفقة، وهذا راجع إلى العديد من الاعتبارات، والتي من أبرزها الجانب الإنساني، ومن جانب آخر يتمثل في خوف مُلاك العبيد على أملاكهم من الخراب والتلف والهلاك، وتذكر كورين شوفالييه أنّ من بين الذين مرّوا على هذه التجربة الأسير أرندا، الذي روى مُطولا عن معاملاته الأخوية ووجبات الطعام التي تناولها مع سيده بحيث قال: "أكلت مع سيدي في نفس الطبق الذي يأكل فيه وكنت جالسا إلى جانبه والأرجل متشابكة على طريقة التركية..."³.

¹– diego de haëdo, op. cit, p 96.

²– Laugier de Tassy, op. cit, p 278.

³– كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 56.

وبالنسبة للأسرى الذين تمت مبادلتهم بفدية كبيرة فإنهم مُنحوا الاستراحة والأمن حتى يحين وقت شرائهم ثانية¹. أمّا فيما يخص الأسرى الذين لا يُختارون للعمل كحراس أو خدم ولا يشتريهم الباعة فإنهم ملّا للدولة، ويقومون بالعديد من الأعمال كالخدمة في الحجارة عبر طرق الإيالة، وفي قرى المدينة، أو يعملون في دار الصناعة بالجزائر وفي ورشات صناعة السفن². وجاء في إحدى المراسلات التي أرسلها المبعوث الكنسي كروازيل Croiselle يستعطف فيها الكنيسة البابوية والجمعيات الدينية والمدنية من أجل جمع الأموال لافتداء الأسرى، ويُبين فيها حالة الأسرى في الجزائر، بحيث يذكر لنا سعيود إبراهيم مقتطف من هذه المراسلة في قوله: "بعد المقدمة التي تضمنت التحية والإجلال والتعظيم ذكر - يقصد كروازيل -... رأيت في مدينة الجزائر عددا هائلا من الأسرى المسيحيين، لأجل الرب، ولهؤلاء ألتمس عطفكم وحمايتكم المقدسة، فهم مدينون لكم بالرحمة، يوجد من بين هؤلاء الأسرى قساوسة، ورجال دين آخرون من رتب كنسية مختلفة، وكذلك من جمعيات دينية مختلفة، كذلك يوجد من بين هؤلاء ضباط عسكريون ذوي رتب عسكرية عالية، والجنود أيضا، وهناك أشخاص ذوي مهن مختلفة، منهم المهندسون وربابنة السفن، يوجد أسرى مسنون، وكذلك أسرى من فئة الشباب، توجد النساء أيضا، منهن السيدات والأوانس، كما يوجد الأطفال كذلك، كل هؤلاء الأسرى مكبلون في القيود، تبدو على وجوههم مظاهر الشقاء والغبن، رأيت في هذه المدينة أسرى مسيحيون من كل الأعمار والأقطار منهم الرومانيون، والجنويز، والنابوليتان، والإسبان، والبرتغاليون، والفرنسيون، والاسلنديون والبولنديون، وغيرهم من الأمم المسيحية، رأيتهم يعاملون كأنهم مجرمون، محتقرون مهانون، ومعدبون، يُضربون من طرف البرابرة الهمجيين، ضربا مبرحا من غير شفقة ولا رأفة"³.

¹ - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 56.

² - حنيفي هلايلي، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، المرجع السابق، ص 69.

³ - إبراهيم سعيود، "جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال العهد العثماني (مقاربة تاريخية)"، المرجع السابق، ص 159 - 160.

وتلك الحالة التي ذكرها كروازيل لا تدل على أنّ الأرقاء في الجزائر كانوا يُضطهدون لهذه الدرجة، وإنّما كانت معاملتهم في الإيالة الجزائرية وفي البلدان الإسلامية وفي شمال إفريقيا عموماً أحسن من معاملة الرقيق في أوروبا وأمريكا، نظراً لأنّ الدين الإسلامي يضع قواعد وقوانين لعدم انتهاك حرمة الآخر ومعاملته معاملة حسنة حتى وإن كان أسرى حرب، ولو افترضنا أنهم يعاملون بقسوة واحتقار فهذا في حالات نادرة أو شاذة لا يمكن تعميمها على كامل الأسرى أو في كل وقت.

وفي أوائل القرن السادس عشر كان مشاهير الضباط الأسرى يتم استخدامهم للتجديف، لكن بحلول القرن السابع عشر تغيرت نظرتهم لهؤلاء الأسرى بحيث أصبحوا يُشكلون مصدراً هاماً لمداخل الخزينة وذلك لقيمة فدائهم بأموال كبيرة، كذلك استغلال من هم ذوي خبرة في مجال التقنية التي يحتاجها سكان شمال إفريقيا في مختلف الميادين، ونجد كذلك أنّ القساوسة كانوا في أغلب الأحيان يعاملون باحترام، ذلك أنّ المسلمين كانوا دائماً يُحبون الأعمال الخيرية والإحسان حيثما وجدوها¹.

وفي الجزء الأخير من القرن السابع عشر كان الأرقاء البحارة هم الأكثر شراءً من طرف أغنياء الرياس والتجار والمالكيين الأقل أهمية والأقل ثراءً، وذلك لأنّهم ذوي قيمة خاصة بسبب حاجة الملوك المسيحيين والأوروبيين لأعمالهم المختلفة على مستوى الأساطيل البحرية، خاصة الجديدة منها والتي تحتاج إلى مسيرين ذو خبرة وكفاءة في هذا المجال. وكانت عملية الفداء طويلة في معظم الأحيان والمبالغ تكون ضخمة أحياناً².

وبالنسبة للغنائم ككل سواء السلع أو العبيد كانت بعد وصولها إلى الميناء تخضع لترتيب وإحصاء دقيق من طرف وكيل الحرج الذي يعتبر بمثابة وزير البحرية، وبعد ذلك يتم توزيع

¹ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 212.

² - نفسه، ص 212-213.

الغنائم لتأخذ الدولة الخمس (البنجق) منها والباقي (الفيء) يوزع على أصحاب السفن المساهمين في العملية¹.

ويذكر مبارك المليي أنّ الغنائم تُقسم إلى نصفين، فيأخذ صاحب المركبة المنتصرة نصف الغنائم سواء كان فرداً أو مجموعة أو واحداً من الرياس، أمّا النصف الثاني من الغنائم فإنّه يُقسم إلى مائة سهم، فيأخذ القبطان أربعين سهماً، ويأخذ الآغا ثلاثين، وعشرة توزع على الضباط، وعشرين سهماً الباقية توزع على البحارة واليولداش البسطاء².

ويوضح لنا حنفي هلايلي هذا التقسيم للغنائم بشكل مُفصل في قوله: "إن سُلّم تقسيم الغنائم بعد الحملة يوضح لنا عدداً من المسائل. ففي سنوات الثلاثين من القرن السابع عشر كان الداوي يأخذ 12 في المائة بمدينة الجزائر، وعشرة بالمائة بتونس، وواحد في المائة لإصلاح الرصيف البحري (المول)، وواحد في المائة للمرابط، والباقي، وهو من 88 إلى 86 في المائة يذهب نصفه إلى مُلاك السفن، والنصف الآخر إلى طاقم السفينة وجنودها، ويأخذ الرياس من هذا النصف الثاني، بين عشرة واثنين عشر سهماً، والآغا ثلاثة أسهم، والإنكشارية سهمين لكل منهم، ورئيس المدفعيين ثلاثة أسهم، والملاح ثلاثة أسهم، ورقيب الأشرعة ثلاثة أسهم، وقيم الباب سهمين والجراح ثلاثة أسهم، والبحارة سهمين. وإذا كان على ظهر السفينة رجال من أهل البلاد (الجزائريين) فلا يُعطون سوى سهم واحد، وإذا كان بين هؤلاء الناس أرقاء فإن السيد مالك الرقيق هو الذي يأخذ أسهمهم"³.

وقد استفاد الموريسكيون من مداخل الجهاد البحري وبيع الأسرى، وبفضل خبرتهم وقسوتهم على الإسبان واتساع نشاطهم المالي في الجزائر أصبحوا يُمثلون النخبة المدبرة لشؤون الجهاد البحري، وذلك من خلال تمويل السفن بالمال والرجال⁴. وهذا الجانب يُوضحه لنا جون

¹ حنفي هلايلي، "القرصنة وشروط اقتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، المرجع السابق، ص 246.

² مبارك بن محمد الهلايلي، المرجع السابق، ص 127.

³ حنفي هلايلي، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، المرجع السابق، ص 141-142.

⁴ حنفي هلايلي، "القرصنة وشروط اقتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، المرجع السابق، ص 246.

ب وولف في قوله: "والواقع أن المهاجرين من الأندلس، سواء كانوا ثغريين أو أندلسيين، كانوا أناسا أشداء، حسبما علم المهاجمون الإسبان الذين كانوا غالبا ما يضربون القرى الساحلية الأهلة بهذه العائلات المهاجرة. ورغم أن هؤلاء المهاجرين كانوا قلة في الجزائر فإنهم مع ذلك كانوا أغنياء جدا، في أغلبهم، وذلك ببيعهم الأرقاء إلى عائلاتهم المسيحية في أوروبا واستثمار النقود في سفن قرصنة جديدة لأسر أرقاء آخرين..."¹. وفي ذات السياق يذكر سمير عبد الرسول العبيدي أن المهاجرين الأندلسيين ساهموا في شيوع النقود الإسبانية بين سكان الجزائر، وجعلوها العملة المطلوبة في المبادلات التجارية بين إيالة الجزائر والدول الأوروبية².

ومن بين العائلات الأندلسية التي اشتهرت بممارسة التجارة بالجزائر عائلة ابن رامول وابن هني وابن زوان وبرحال وابن تشيكو وابن الشاهد وخوجة وابن الكبابطي³، وعائلة الشويهد التي برز منها سعيد الشويهد الذي يُعتبر من بين المؤسسين الأوائل لثروة هذه العائلة⁴، ليخلفه فيما بعد ابنه المهندس والتاجر الثري سليمان الشويهد الذي اشتغل في هذا المنصب من سنة 1609 إلى 1626م، والذي ذُكر في إحدى الوثائق الأرشيفية المتواجدة بسجلات المحاكم الشرعية التي اطلعت عليها عائشة غطاس، وكتبت لنا ما نصه: "... التاجر الزكي السيد الحاج سليمان بن المرحوم الرئيس السعيد الشويهد الأنصاري..."⁵.

وحسب عائشة غطاس فإن هذه الشخصية حظيت بمكانة مرموقة، بحيث أصبح سليمان بن الرئيس سعيد الشويهد تاجرا بارزا وتولى الإشراف الأعلى لجميع الفعاليات الاقتصادية في مدينة الجزائر، وحصد ثروة طائلة من أبيه سعيد الذي كان يعمل في الجهاد البحري، مما

¹ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 166.

² - سمير عبد الرسول العبيدي، المرجع السابق، ص 178.

³ - حنيفي هلايلي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، المرجع السابق، ص 135-136.

⁴ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 107.

⁵ - عائشة غطاس، "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية - اقتصادية"، أطروحة مكملة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 2001م، ص 184.

استثمر ذلك في تطوير نشاطه التجاري¹. ثم واصل بعده ابنه يوسف هذا النشاط². لتواصل هذه العائلة نشاطها بعدما تولى محمد بن يوسف الشويهد هذه المهنة، الذي كان عضوا في مجلس التجار بين سنتي 1697م و1705م³. وبعدها بسنوات تولى أحد أفراد هذه العائلة وهو مصطفى بن أحمد بن محمد الشويهد منصب أمانة الأمناء خلال سنة 1750م⁴.

ومن بين العائلات الأندلسية الأخرى التي برعت في هذا النشاط عائلة ابن عمار، التي برز منها التاجر سيدي أحمد بن الحاج عمار والذي نُصب على رأس الأمانة سنة 1778م، ثم خلفه ابنه في فترة لاحقة السيد محمد، الذي تولى منصب أمين الأمناء في أفريل من سنة 1804م⁵. وهناك أيضا عائلة بوضربة، هذه العائلة التي كانت من بين العائلات الموريسكية التي اشتهرت بممارسة التجارة الخارجية مع أوروبا. وعلى مستوى الشخصيات البارزة نذكر على سبيل المثال لا الحصر التاجر لويس ثاباتا (luis zapata)، ومحمد الجيار، وسيدي مورينو الذي كان يُسمى الثغري، ومحمد قاية، وأوسطى علي الجزائري، ومحمد غرانادينو⁶.

وفي إطار التعاون بين الموريسكيين المتواجدين في الجزائر والمتواجدين خارجها والذين عملوا لصالح البحرية الجزائرية، نجد قرصنة سلا الأندلسيين، هؤلاء الذين كانوا في كثير من الأحيان يلجؤون إلى موانئ الجزائر ويمارسون القرصنة، وذلك بدعم ومساندة البحرية الجزائرية، التي فتحت لهم المجال للولوج لهذا النشاط في إطار التبادل والتنسيق وتحقيق المنفعة والمصلحة المشتركة بين الطرفين، ومن أهم النشاطات التي تبرز هذا الجانب نشاط بيع الأسرى المسيحيين في أسواق الجزائر، ومن بين النشاطات التي تُجسد هذا العمل المشترك رحلة البحارة الجزائريين

¹ - عائشة غطاس، "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر..."، المرجع السابق، ص 185.

² - Samia Chergui, op. cit.

³ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 108.

⁴ - عائشة غطاس، "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر..."، المرجع السابق، ص 185.

⁵ - نفسه، ص 187.

⁶ - فوزي سعد الله، المرجع السابق، ج 2، ص 106 - 107.

رُفقة السلاويين التي انطلقت من الموانئ الجزائرية باتجاه الجزر الأطلسية البعيدة، والتي من بينها منطقة أيسلندا التي تقع في أقصى الشمال الأطلسي، بُغية الهجوم على هذه المناطق وقراصنتها وذلك في حدود سنة 1627م، وتحصلوا من خلالها على غنائم كثيرة¹.

وكذلك الغزوة التي قام بها البحارة السلاويين بقيادة مراد ريس في نفس الفترة إلى غرب إيرلندا، والتي نجحوا من خلالها وقاموا بأسر حوالي 100 إنجليزي كانوا مقيمين في إيرلندا، وقاموا ببيعهم في أسواق النخاسة المتواجدة في الجزائر. هذه الأخيرة التي تُعتبر نقطة ومركز أساسي لبيع الأسرى²، ومركز أساسي لانطلاق القراصنة الذين جابوا سواحل البحر الأبيض المتوسط، وتعدوا حدوده إلى سواحل المحيط الأطلسي في الكثير من الأحيان، كما تؤكد الغزوات البحرية الناجحة سابقة الذكر.

بالإضافة إلى ذلك اشتهر الأندلسيون بالعديد من المبادلات التجارية الأخرى مع الدول العربية والدول الأوروبية، ونلاحظ أنّ المدن الساحلية والداخلية الكبرى أصبحت مراكز رئيسية للتجارة، خاصة باستقرار الجُند والتجار واتصالها بالخارج، فهي تُعتبر محطات للتصدير ومستودعات للإنتاج المحلي، وكذلك مراكز لاستيراد السلع والبضائع من الخارج، ومن أهم السلع التي كانت تُستورد من الخارج خاصة من أوروبا المواد المصنوعة من الذهب أو الفضة، الأنسجة الحريرية المرسمة، الأقمشة، التوابل، الحديد، القصدير، الأواني النحاسية، الرصاص، الزئبق، حبال السفن، الكتان، الأرز، السكر، الصابون، القطن الخام، كبريتة الحديد، في حين يتم تصدير العديد من السلع الجزائرية إلى بقاع العالم، ومن بين تلك السلع: الزيت، الشمع، الجلود، الدرة، ريش النعام، السجاد، النحاس، وشاح الحرير، مناديل اليد، التمر، الأسرى المسيحيين³.

¹ - يونس مسكين، المرجع السابق.

² - نفسه.

³ - جيمس ويلسن ستيفن، المصدر السابق، ص 170 - 171.

ونجد شرح أكثر وتفصيل دقيق نوعا ما لهذا النشاط في حديث هايدو الذي تطرق فيه لحركة المبادلات التجارية بين الجزائر والعديد من الدول الأخرى، بحيث ذكر أنه يأتي الكثير من التجار المسيحيين لموانئ مدينة الجزائر ويجلبون معهم الكثير من السلع، فالتجار الإنجليز يجلبون سلع مختلفة والتي منها كميات من الحديد والرصاص والقصدير والنحاس والبارود والقماش بجميع أنواعها، أما القادمون من كتالونيا وفالنسيا فإنهم يجلبون النبيذ والملح والصبغة والحايك ذات اللون الأحمر والذهب والفضة، وبالنسبة للتجار الفرنسيين فإنهم يجلبون جميع أنواع الخردوات والسلع القطنية والحديد والصلب والمسامير والملح والشب والكبريت، بالإضافة إلى الموائد الفاخرة والعلك والبندق وغيرها. وتأتي من مدن جنوة ونابولي وصقلية الحرير المغزول بكافة أنواعه وأقمشة دمشق والمخمل بكافة أنواعه، بالإضافة إلى الأغذية والصناديق والصابون الأبيض. أما التجار الأتراك فإنهم يجلبون من القسطنطينية الكثير من المواد والتي من بينها مجاديف القوادم (السفن) والكتان والأقمشة والأحزمة والسجاد والقفطان والملاعق المنحوتة والخزف، بالإضافة إلى الأطباق والمزهريات. وفيما يخص تجار جربة فإنهم يجلبون معهم التوابل والقطن والتمر وغيرها. بينما يتم شراء أو مقايضة السلع الجزائرية من طرف هؤلاء التجار والتي تتمثل أساسا في: القمح، والشعير، والأبقار، والثيران، والجمال، والأغنام، والصوف، والزيوت، والزبدة، والعسل، والزبيب، والتين، والحرير وغيرها¹.

وفيما يخص المبادلات التجارية مع المشرق فقد اعتمدت بشكل أساسي على المواد الكمالية، وشملت على العديد من الأنواع منها الشاشية والزراي والأغطية والحبال والبرانس الصوفية وبعض المنتجات الزراعية، في حين اقتصرت الواردات على بعض المنتجات

¹– diego de haëdo, op. cit, p 103 – 104.

كالصناعات التقليدية مثل الزرابي الفاخرة والخناجر المطعمة وخيوط الحرير وسبائك الذهب والأقمشة الحريرية وبعض التوابل والعطور، بالإضافة إلى كميات أخرى من الأرز والسكر¹. أمّا فئة اليهود وخاصة اليهود الذين هاجروا مع المسلمين من الأندلس المعروفين باسم السفارديم فإنّهم استفادوا من نشاط القرصنة هم كذلك، فقد كان البحارة الجزائريون يبيعون ما غنموه إلى التجار اليهود، الذين هم بدورهم يقومون بإعادة تصديرها إلى أوروبا، وخاصة إيطاليا وفرنسا وحتى إلى بعض الجزر الواقعة في المحيط الأطلسي، بالإضافة إلى ذلك كانوا يقومون بعملية نقل الأموال من أوروبا إلى الجزائر، وهي نقود خاصة بفداء الأسرى². كما كانوا يقومون باستيراد الأسلحة والمعدات البحرية من الدول الأوروبية. وقد أشار القنصل الفرنسي في الجزائر سنة 1692م أنّ يهود الجزائر قاموا بعقد صفقة مع يهود مرسيليا بفرنسا تم من خلالها جلب كميات كبيرة من الكبريت إلى ميناء الجزائر. كما أبرموا العديد من الاتفاقيات الأخرى مع الدول الأوروبية خاصة هولندا التي كانوا يستوردون منها الأسلحة، هذا وكان اليهود يقومون بعمليات تجارية نشيطة مع المدن الإيطالية خاصة مدينة ليفورنو Livorno³.

وحسب عزيز سامح ألتز فإنه وُجد بالجزائر حوالي ألفين يهودي تركزت تجارتهم على الغنائم التي جلبها القراصنة من غزواتهم البحرية، ونتيجة لهذه التجارة حقق هؤلاء أرباحا طائلة، هذا ما مكنهم من بيع المعادن النفيسة كالذهب بالإضافة إلى صرف العملات. وقد سمحت لهم السلطة بفتح بعض الدكاكين لبيع سلعهم، وفي نفس الوقت تم فرض عليهم ارتداء لون خاص من اللباس يختلف عن ألوان الألبسة التي يرتديها باقي السكان⁴.

¹ ناصر الدين سعيدوني، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب)"، المرجع السابق، ص 41، 42.

² عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 145 - 146.

³ إسماعيل جودي، المرجع السابق، ص 196.

⁴ عزيز سامح ألتز، المرجع السابق، ص 145 - 146.

ونظرا للنشاط المتزايد لليهود بالجزائر خاصة خلال القرن الثامن عشر، أصبح التجار والقناصل الأوروبيون يشكون منهم بعد بروز مكانتهم وتقربهم من السلطة الحاكمة في الجزائر، مثل ما قام به القنصل يوم Baume في 05 أوت 1718م، الذي حث الملك على معاقبة اليهود الفرنسيين المتعاونين مع يهود الجزائر على مستوى النشاط التجاري، وكذلك ما قام به لومير le Maire الذي حث الغرفة التجارية بمرسيليا في 10 أفريل 1734م على منع التجار اليهود من شحن البضائع الفرنسية في أرصفة مرسى مدينة مرسيليا، الذي يعتبر أنّ النشاط التجاري في هذه المنطقة يرجع للفرنسيين دون غيرهم¹.

وقد احتلت العديد من الأسر اليهودية مكانة مرموقة في وسط المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، وبالأخص العائلات التي نزحت من الأندلس بعد سقوط الحواضر الإسلامية بها، والتي ساهمت بشكل كبير في تنشيط الحركة التجارية على مستوى الموانئ البحرية بالجزائر سواء في العهد الزياني أو خلال الوجود العثماني، فقد كوّنوا مؤسسات تجارية واحتكروا من خلالها النشاط التجاري، وقد تزايد نشاط هؤلاء اليهود بعد الاحتلال الإسباني لوهـران سنة 1509م، من خلال إشرافهم على مؤسسة الديوانة وتحكمهم في القوافل الآتية والذاهبة من وهران².

¹ - جون. ب. وولف، المرجع السابق، ص 168 - 169.

² - مختار حساني، المرجع السابق، ص 163 - 164.

خاتمة

يُمكن القول في ختام هذه الدراسة التي قمنا بها والتي هي تحت عنوان: "دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني"، أن المهاجرين الأندلسيين الذين هاجروا من بلادهم الأندلس إلى الجزائر كانت لهم إسهامات كثيرة في مختلف المجالات تقريبا، فكما وَلجوا لمختلف القطاعات الأخرى كالاقتصادية والثقافية والعسكرية فكذا كان لهم دور هام ولا يقل في أهميته عن الأدوار السابقة في البحرية الجزائرية، والذي تمثل في الدور الصناعي والدفاعي والجهادي والتجاري، ونستنتج من كل هذا:

- أن الهجرة الأندلسية نحو الجزائر لم تكن اختيارية في معظم حالاتها، بل كانت هناك مجموعة من الأسباب التي جعلت هؤلاء يهاجرون من أرضهم، ولعل من بينها ظهور الفتن والمشاكل والصراعات الداخلية في الأندلس، بالإضافة إلى سقوط غرناطة سنة 1492م، وما نجم عنها من نقض للعهود من طرف السلطات المسيحية، ووقوع الأندلسيين تحت نير الظلم والاضطهاد الذي مارسه الساسة الإسبان ودعّمه رجال الكنيسة وأتباعهم.

- أن بلاد المغرب الأوسط لم تكن أحسن حالا من سابقتها الأندلس، خاصة خلال القرن الخامس عشر وبدايات القرن السادس عشر الميلاديين، أين نجدها تدخل في دوامة من الفوضى والصراعات الداخلية والخارجية، وهو ما أنهك قوتها وسياستها، كل هذه الأسباب وأخرى أدت بها في النهاية إلى تعرضها للتحرشات الإسبانية مع بدايات القرن السادس عشر، ونظرا لعدم تكافؤ القوى بين الجيش المسيحي الإسباني والجيش الإسلامي الزياني وغيره من جيوش المنطقة كالجيش المريني والحفصي، تم غزو العديد من مناطق بلدان المغرب العربي، ومن بينها الجزائر التي تعرضت العديد من مدنها الساحلية للغزو، كالمرسى الكبير سنة 1505م ووهران سنة 1509م وبجاية سنة 1510م والعديد من المدن الأخرى، كل هذا الوضع جعل من بلاد المغرب الأوسط في حالة فوضى غير منتهية وصراعات سياسية وقبلية.

- أن النزوح الأندلسي نحو الجزائر، والذي قُدّر بأعداد كبير تصل في مجملها إلى أكثر من ستين ألف موريסקي، لم يكن بالأمر الغريب نظرا للقرب الجغرافي بين الأندلس والجزائر، ونظرا

للروابط الدينية والثقافية التي تجمع شعوب البلدين، وهذه الهجرة التي خلفت خسائر كبيرة في الأرواح والممتلكات، وجعلت إسبانيا في فوضى هي الأخرى خاصة انهيار القطاع الاقتصادي، نظرا لما كان للأندلسيين من ثقل في هذا المجال ودور في حيويته، إلا أن الجزائر التي استقبلت هؤلاء قد استفادت من خبرتهم وقدراتهم التي يتمتعون بها، وهذا كله وفق القاعدة التي تقول: "مصائب قوم عند قوم فوائد"، وحتى وإن كانت هذه المصيبة تمس الأندلسيين والمسلمين في كل بقاع العالم ومنهم الجزائريين، إلا أن النتائج التي ترتبت عن هذه الهجرة على مستوى الجزائر كانت أكثر إيجابية وأكثر فائدة في أغلب حالاتها، نظرا لمؤهلات هؤلاء ودورهم المعروف في كل المجالات تقريبا.

- أنه بعد استقرار الأندلسيين بالمدن الساحلية للجزائر وبعض المدن الداخلية الأخرى، بعد هجرتهم التي مرت بثلاث مراحل أساسية قد قاموا بتنشيط الحرف والصنائع وأدخلوا بعض الحرف التي كانت غير معروفة في الجزائر، كما تقننوا في تطوير القطاع الفلاحي، والهندسة المعمارية، وأنشؤوا مدن أخرى مثل برشك وشرشال والبليدة وغيرها، والتي أصبح لها ثقل وميزان على المستوى المحلي والإقليمي، ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل دخلوا باب العمل العسكري والصناعي والجهادي بمصراعيه، ودعّموا بأموالهم وجهدهم هذا العمل لكي يواكب أو يفوق التطورات الحاصلة في المنطقة المغاربية والمتوسطة بشكل عام، كل هذا العمل وكل هذا الجهد المبذول من طرف هؤلاء لم يكن بدافع كسب لقمة العيش أو محاولة التأقلم مع المناطق الجديدة فحسب، ولكن كان وراءه دافع ومحفز تمثل في رغبتهم من الانتقام من من طردوهم، ومحاولة استرجاع ثرواتهم ولما أرضهم المسلوبة.

- أن من أهم الأدوار التي مارسها هؤلاء المهاجرون العمل ضمن البحرية الجزائرية، هذه الأخيرة التي تُعتبر العمود الفقري لقوة ولاقتصاد الجزائر طيلة الوجود العثماني بها "1519-1830م"، التي يرجع الفضل في تأسيسها إلى الإخوة بربروس العثمانيين مع بدايات القرن السادس عشر، بحيث قاموا بتكوين أسطول بحري وتأهيل الرجال للعمل في هذه المؤسسة،

التي لقيت دعما من طرف الدولة العثمانية بالرجال والمال والعتاد لتُصبح شيئا فشيئا قوة لا يُستهان بها، بل أصبحت القوة التي تهابها كل أساطيل أوروبا وتخشى مواجهتها، وهو ما انعكس بالإيجاب على إيالة الجزائر التي أصبحت سيدة البحر الأبيض المتوسط دون منازع، وكل هذا البروز لم يأت من العدم ولكن كان وراءه جهد وعمل كبير حتى ما وصلت إليه هذه المؤسسة من مكانة عالية، وقبل الوصول إلى هذه المكانة كان من أولويات إنجازاتها بل وأهمها تحرير السواحل الجزائرية من الغزو الإسباني وتثبيت قواعد الحكم العثماني بالجزائر، ومساعدة المهاجرين الأندلسيين في الهجرة والدفاع عنهم، وغيرها من الإنجازات التي لا يسع هذا المقام من ذكرها كلها.

- أنّ البحرية الجزائرية قد ضمت العديد من الفئات، ليس الأتراك والجزائريين فقط، ومن أهم تلك الفئات فئة الأعلاج والأندلسيين، وما يهمنا نحن هنا هو فئة الأندلسيين التي رُبما غُيّبت تاريخيا ولم تلق حقا مثل الفئات الأخرى، وأسباب ذلك ذكرناها في المقدمة وفي فصول هذه الدراسة، هؤلاء المهاجرون الأندلسيون كان لهم دور بارز ومهم في تطوير وازدهار البحرية الجزائرية، فلم يتركوا مجالا من مجالاتها إلا ودخلوا إليه باستثناء المناصب العليا والحساسة، التي لم يستطع دخولها إلا الأتراك العثمانيون والعديد من الأعلاج المسيحيين بعد اعتناقهم الإسلام وإثبات جدارتهم في العمل البحري، ويُمكن أن نصنف هذه الفئة مع فئة الأهالي الجزائريين الذين هم كذلك حُرّموا من تلك المناصب العليا، وترجع بذلك إلى أسباب عديدة منها سياسية وإدارية بالدرجة الأولى.

- أنّ من بين المهام التي قام بها هؤلاء المهاجرون على مستوى مؤسسة البحرية ولوجهم للعمل في مجال الصناعة البحرية، فقد ساهموا في تنشيط صناعة الأسلحة والبارود، تلك الصناعة التي كانت من بين الصناعات المهمة جدا في البحرية الجزائرية، خاصة وأن في تلك الفترة بدأ الانتقال تدريجيا من استعمال الوسائل التقليدية في الحروب كالسيف والمنجنيق وغيرها من الأسلحة البدائية والتوجه إلى الأسلحة النارية ذات القدرة الكبيرة في مواجهة العدو والسيطرة

عليه، وإدراكا منها قامت السلطة الحاكمة بالاهتمام بهذه الصناعة وفتح الباب أمام كل من له خبرة في هذا المجال حتى يساهم في تنشيطه وتطويره، فكان للأندلسيين المستقرين بالجزائر الفرصة لدخول هذا المجال وتنشيطه، خاصة ما لقيه هؤلاء من تحفيز على هذا العمل نظرا لما يملكونه من خبرة في هذا المجال.

- ساهم الأندلسيون في تشييد وبناء العديد من المراكز التي كانت ناشطة في مجال صناعة الأسلحة، خاصة في مدن شرشال والجزائر والبليدة وبجاية وغيرها، ولعل من أهم تلك المراكز دار النحاس بالجزائر التي كانت لهم مساهمة في تشييدها خلال سنة 1517م، والتي لعبوا فيها دورا مهما في صناعة الأسلحة وتحضير البارود، خاصة سبك المدافع، ولعل من أشهر تلك المدافع التي كان للأندلسيين مساهمة في صنعها مدفع بابا مرزوق سنة 1542م، كما أنه كان لهم دور في صناعة الأسلحة الخفيفة كالبنادق في دار الصناعة بقلعة بني راشد بمعسكر خلال القرن السادس عشر الميلادي، وبعض القلاع الأخرى كقلعة بني عباس وقُرى فليسة التي اشتهرت بصناعة الأسلحة الجيدة، بالإضافة إلى ذلك ساهموا في صناعة وتحضير البارود الذي يُعتبر المادة الأساسية لكل الأسلحة النارية المستعملة في البر أو البحر.

- مساهمة الأندلسيين في صناعة السفن، ويشمل ذلك تحضير كل ما تتطلبه من مواد وتركيبها وإخراجها بشكل نهائي حسب نوعية ومهام كل سفينة، ويُعتبر هذا النشاط العمود الفقري لقوة البحرية الجزائرية، ذلك باعتبار أنّ السفن كانت تلعب دور مهم وحاسم في خسارة أو كسب المعارك البحرية، ونظرا لأنّ الأندلسيين كانت لهم خبرة في هذا المجال قبل نزوحهم من الأندلس قاموا بمواصلة هذا النشاط وتطويره ضمن البحرية الجزائرية، فاستمت مهارتهم بالجدية والإتقان في صنع السفن، كما أنّهم نشطوا العديد من المراكز الخاصة بهذه الصناعة مثل ترسانة شرشال التي شهدت نشاطا كبيرا لهذه الصناعة خلال العهد العثماني، ومن أمثلة السفن التي قاموا بصناعتها في هذه الدار سفينة الفرقاطة والبركانطي.

كذلك غير بعيد عن مدينة شرشال نجد مدينة الجزائر التي عرفت رواجاً كبيراً لهذه الصناعة والصناعات الأخرى المتعلقة بالمجال العسكري، ساهم فيها الأندلسيون بتنشيط هذه الصناعة خاصة ورشتي باب الواد وباب عزون، بالإضافة إلى ذلك كانت لهم مساهمة في تنشيط هذه الصناعة بمركز الصناعة البحرية بمدينة بجاية، ومما يُحسب لهم جلبهم لنوع جديد من السفن التي لم يكن معروفاً لدى الأسطول الجزائري، والذي تمثل في السفن المستديرة المدفوعة بالشرع وذلك مع بداية القرن السابع عشر، هذا النوع من السفن الذي يتميز بخفته وسرعته قد أعطى للأسطول بروز أكثر وقوة في حسم المعارك البحرية، بالإضافة إلى ذلك نجد أنهم برعوا في حرفة النجارة والنحت التي لا غنى عنها في هذه الصناعة.

- بروزهم في مجال الدفاع ضمن الجيش البحري، وذلك من خلال مشاركتهم في التصدي للحملة الأوروبية ضد الجزائر، فقد برزوا في العديد من المعارك وبيّنوا من خلالها مدى حرصهم على الدفاع عن دينهم وعن أرضهم التي استقروا بها الجزائر. وقد وصل تعداد هؤلاء المهاجرين ضمن القوات الساهرة على الدفاع عن الموانئ الجزائرية في بعض الحالات قرابة ثمانية آلاف أندلسي مثل ما ذكر في إحصاء سنة 1535م، ثم بدأ هذا العدد يتموج من سنة إلى أخرى بين الزيادة والنقصان، ومن أمثلة تلك المعارك وأشهرها التي شارك فيها الأندلسيون وأبدوا فيها مساهمتهم الفعالة في الدفاع عن الجزائر رفقة إخوانهم الجزائريين حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541م، والتي شارك فيها حوالي ستة آلاف جندي أندلسي.

- دورهم في بناء وتشديد العمارة العسكرية المتعلقة بالموانئ البحرية، ومن ذلك بناء وتشديد العديد من القلاع والحصون والطبانات على مستوى الموانئ البحرية، مثل موانئ مدينة الجزائر وبجاية وشرشال وغيرها، ومن أمثلة ذلك تشييد حصن البنيون بمدينة الجزائر، بالإضافة إلى قلعة شرشال وبرج المول وبرج الأندلس وبرج السريدين وغيرها من القلاع والتحصينات العسكرية، التي ساهمت بشكل كبير في التصدي لضربات العدو، وكانت درع حامٍ لجنود البحرية المتواجدين على مستوى الموانئ، ومن بين العائلات الأندلسية التي برزت في هذا القطاع أسرة

الأوسطى موسى، التي اشتهر منها العديد من الشخصيات مثل المعلم موسى وعلي الثغري، والحاج برهوم وغيرهم.

- دورهم في تنشيط حركة الجهاد البحري، وربما برزوا في هذا الجانب أكثر من الجوانب الأخرى وهذا لعدة أسباب، ولعل من أهمها حقدهم وضغنتهم على الجيش الإسباني الذي طردهم من بلادهم، فتولد عن ذلك رغبة في الانتقام والثأر ممن طردوهم واحتقروهم، ومن العوامل الأخرى التي طوروا بها هذا العمل نشاط الجوسسة، خاصة وأنهم كانوا على دراية باللغة الإسبانية وبالأماكن الجغرافية لإسبانيا، بحكم العلاقات التي كانت تربطهم بعائلاتهم هناك وأصدقائهم، كل هذا ساعدهم في عملية التحرك والتقرب من الموانئ الإسبانية والسيطرة على العديد من المراكب بكل سهولة، وغيرها من الميزات الأخرى التي اكتسبها هؤلاء وطوروا بها عمليات التخطيط والتنفيذ ضمن رحلات الأسطول البحري خصوصا في عملياته الجهادية. ومن أمثلة هؤلاء البحارة الأندلسيين الذين اشتهروا ضمن البحرية الجزائرية الرايس بلانكو، والرايس مراد الكبير غواديانو، والرايس سعيد الشويهد، وهناك بعض الشخصيات التي خدمت لصالح البحرية الجزائرية ولم تستقر بالجزائر ومنها البحارة السلاويين الأندلسيين، مثل البحار سيدي عبد الله بن عايشة وأخيه عبد الرحمن، اللذين عملا لصالح البحرية الجزائرية عبر فترات مختلفة من أواخر القرن السابع عشر.

ومن المؤكد أنّ نشاط الجهاد البحري (القرصنة) الذي مارسه البحارة الأندلسيون رُفقة رياس البحرية الجزائرية صاحبه نشاط آخر لعب هو الآخر دور هام في ازدهار اقتصاد الإيالة الجزائرية وكان موردا هاما للخزينة العمومية، وتمثل ذلك النشاط في النشاط التجاري، الذي وَلَج له الأندلسيون البحارة أو أصحاب رؤوس المال، لما يرجع من فائدة كبيرة على أصحابه، خاصة تجارة الأسرى المسيحيين، التي شكلت موردا هاما للتجار ولخزينة الدولة كذلك.

- كما كان للأندلسيين دور كبير في تمويل نشاط الجهاد البحري من خلال صرف الأموال التي تحصلوا عليها من جراء عمليات بيع الأسرى في هذا النشاط، وقد اشتهرت العديد من

العائلات والشخصيات الأندلسية في هذا المجال مثل عائلة ابن رامول وابن هني وبرحال، وعائلة الشويهد التي كان لها حضور تقريبا في كل النشاطات المتعلقة بالبحرية الجزائرية وغيرها، وأنجبت هذه العائلة العديد من كبار التجار مثل التاجر سعيد الشويهد وسليمان الشويهد وغيرهم.

- برزت فئة أخرى من الأندلسيين الفارين من الاضطهاد الإسباني والتي تمثلت في جماعة اليهود (السفارديم)، فقد كان لها حضور لافت وقوي في هذا النشاط، خاصة قيامها بعمليات شراء السلع والعبيد من البحارة الجزائريين وإعادة بيعها محليا أو تصديرها إلى أوروبا، وكانت لهم نشاطات أخرى في هذا الجانب مثل عمليات نقل الأموال من أوروبا إلى الجزائر، واستيراد المعدات البحرية خاصة الحربية منها من أوروبا كذلك، وقد قُدر عددهم بالجزائر حوالي ألفي يهودي، مارس الكثير منهم هذا النشاط.

ومن خلال ما عرضناه سابقا من نتائج حول الموضوع الذي قمنا بدراسته والمتعلق بدور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية، نؤكد أنّ هؤلاء المهاجرين كان لهم دور بارز في العديد من القطاعات على مستوى البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، فقد كانت إسهاماتهم واضحة في العديد من النشاطات، مثل الجهاد البحري وتفعيل حركية الصناعة البحرية سواء المتعلقة بصناعة السفن أو صناعة السلاح والبارود، والمساهمة أيضا في بناء وتشبيد العمارة العسكرية من قلاع وحصون وطبانات ومراكز للصناعة العسكرية والبحرية، كل هذه الأدوار لعبت دور مهم جدا بل وأساسي في بروز وتطور البحرية الجزائرية، كما فعّلوا حركية النشاط التجاري خصوصا تجارة الأسرى، التي كانت من بين الموارد الرئيسية للخرينة العمومية.

ونستنتج أيضا أنّ هذه الأدوار التي قام بها الأندلسيون لم تكن حِكرا على المسلمين فقط ولكن شارك فيها اليهود الأندلسيون خاصة النشاط التجاري، لكن بمساهمة أقل من هؤلاء المسلمين، وذلك أنّ اليهود ولجوا للنشاط التجاري فقط دون الولوج للقطاعات الأخرى، وهذا

راجع لسياسة البلد، وكذلك لأمر أخرى متعلقة بانتماء هؤلاء ومحاولة إبعادهم عن الأعمال الأساسية والحساسة في البحرية الجزائرية.

ويتضح لنا جليا أنّ الدور الذي قام به الأندلسيون لم يرق في الحقيقة إلى الأدوار التي قام بها البحارة العثمانيون والأعلاج، بل كان أقل من ذلك، ما عدا الجهاد البحري والنشاط التجاري بدرجة أقل، بالإضافة إلى ذلك نلاحظ أن هذه الأدوار قد برزت بشكل كبير مع بدايات التواجد العثماني بالجزائر خلال القرن السادس عشر ثم ازدادت نشاطا وحيوية خلال القرن السابع عشر، لتتراجع بعد ذلك شيئا فشيئا إلى غاية حلول القرن التاسع عشر أين لا يكاد يوجد لهم أثر في البحرية الجزائرية.

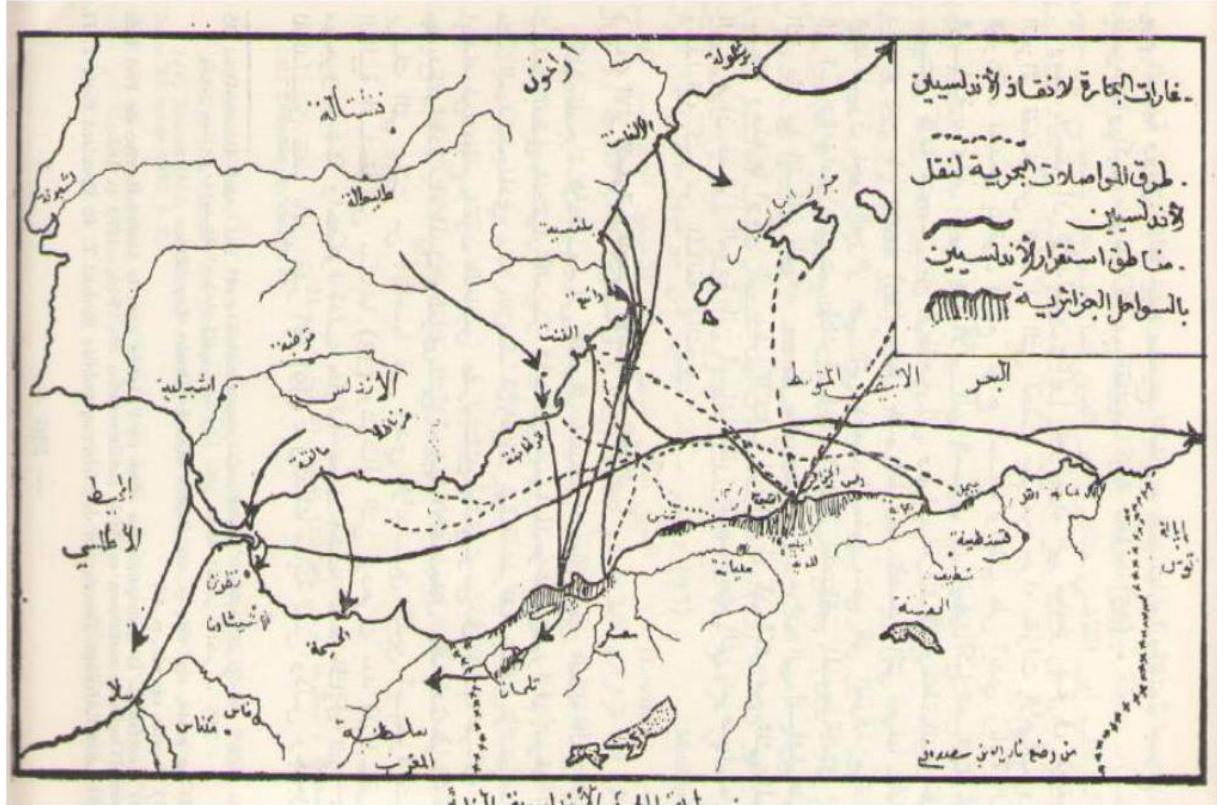
ونلاحظ كذلك أنّ نشاطهم على مستوى البحرية الجزائرية كان متفاوتا من نشاط إلى آخر، فقد برزوا في نشاط الجهاد البحري بدرجة كبيرة، ثم يليه نشاط البناء والتشييد والدفاع، وبدرجة أقل النشاط الصناعي والتجاري، كل هذه الأدوار كان لها الأثر الإيجابي في تطور وتقدم البحرية الجزائرية طيلة الوجود العثماني بالجزائر الذي فاق ثلاثة قرون.

وبما أنّ الكتابة التاريخية لا تخلو من النقائص والفجوات فكذلك هذا البحث هو الآخر لا يخلو من النقائص، كونه من البحوث الجديدة المتعلقة بالأدوار التي قام بها المهاجرون الأندلسيون في البحرية الجزائرية، وهذا كله طبعا في حدود علمنا التي لا تزال متواضعة مقارنة بالبحوث التي كُتبت عن موضوع الأندلسيين وهجراتهم، أو عن موضوع البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني بشكل عام، ورغم أننا وصلنا لبعض المُعطيات والنتائج التي تُتصف هؤلاء المهاجرين في دورهم الذي قاموا به على مستوى البحرية الجزائرية، إلا أنّ هذا العمل ربما يكون ثمرة وبداية لدراسات أخرى تواصل البحث أكثر في هذا الموضوع، خصوصا الدراسات التاريخية الجزائرية منها، التي نتمنى أن تكون دراسات مُركزة أكثر من ذلك، وتُعالج إشكاليات أخرى تُؤرخ لمسار وإسهامات الأندلسيين الذين استقروا بالجزائر وبقيت أصولهم حتى الآن في العديد من مناطق الوطن، ولعل من بين تلك الإشكاليات التي ربما تحظى بالدراسة والبحث مستقبلا

دراسة العلاقة التي كانت تربط المهاجرين الأندلسيين الذين عملوا على مستوى البحرية الجزائرية بمختلف الفئات الأخرى المكونة لهذه المؤسسة، وكذلك دراسة أدوار المهاجرين الأندلسيين على مستوى البحريات المغاربية خلال العهد العثماني، أو دراسة العائلات الأندلسية التي كانت لها دور بارز في البحرية الجزائرية من خلال الأرشفة الجزائري والأجنبي، مثل عائلة الشويهد التي تُعتبر من بين أهم العائلات الأندلسية وأشهرها في الجزائر، كونها لم تترك مجالا إلا وساهمت فيه تقريبا، وغيرها من الإشكاليات الأخرى التي ربما يُنفض عنها الغبار وترى النور في الكتابات التاريخية مستقبلا.

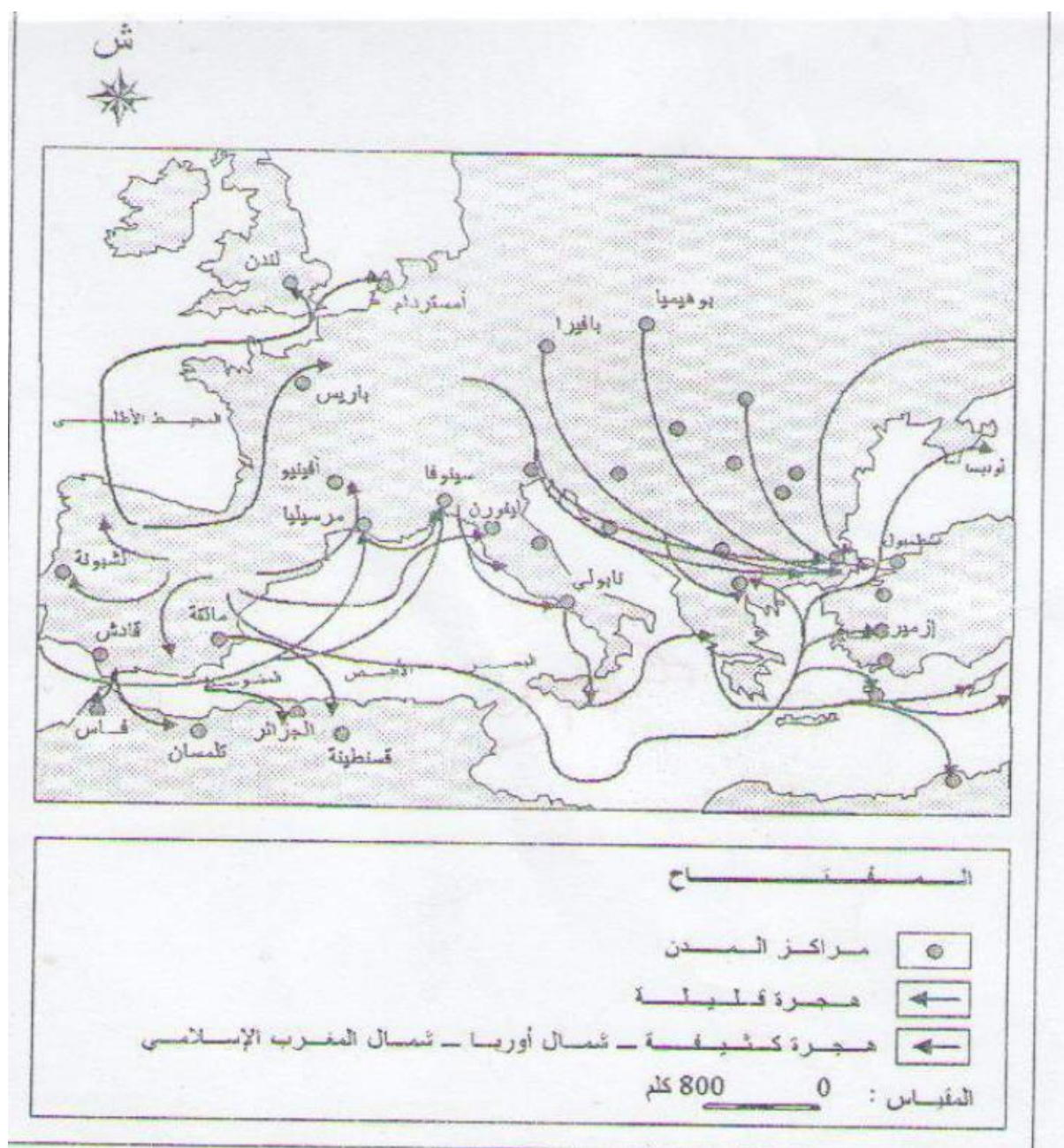
ملاحق

- الملحق رقم 02: خريطة توضح غارات البحارة الجزائريين لإنقاذ الموريسكيين، بالإضافة إلى توضيح مكان استقرار هؤلاء بالسواحل الجزائرية.



- مريم بوخاوش، المرجع السابق، ص 466.

- الملحق رقم 03: خريطة توضح حركة هجرة اليهود بعد سقوط غرناطة سنة 1492م.



- مريم بوخاوش، المرجع السابق، ص 461.

- الملحق رقم 04: قرار طرد موريسكيي فالنسيا (بالنسيا) سنة 1609م، وهو بداية الهجرة الأندلسية الأخيرة أو الجلاء الأخير للأندلسيين من إسبانيا.

قرار طرد موريسكيي فالنسيا أُعلن في فالنسيا في ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩^(١)

من صاحب الجلالة الملك

وياسمه السيد لويس كاريو دى توليدو ماركيز كاراثينا وسيد مدن بنتو وانيس
والقائد العام لهذه المدينة ومملكة فالنسيا والنائب عن جلالة الملك.

إلى السادة والأساقفة ، والقضاة ، وممثلى المدن والقرى ، والحكام ، ومنوبى
جلالة الملك والمواطنين ، خاصة مواطنى هذه المملكة .

جاء فى رسالة ملكية من صاحب الجلالة مؤرخة فى ٤ أغسطس الماضى من هذا
العام ، موقعة من سكرتيه أندريس دى برادا :

إلى ابن عمى : ماركيز كاراثينا والقائد العام لمملكة فالنسيا.

قد علمتُ أننى على مدى سنوات طويلة حاولت تنصير موريسكيي هذه المملكة
ومملكة قشتالة، كما علمتُ بقرارات العفو التى صدرت لصالحهم والإجراءات التى
اتخذت لتعليمهم ديننا المقدس ، وقلة الفائدة الناتجة من كل ذلك ، فقد لاحظنا أنه لم
يتنصر أحد ، بل زاد عنادهم. ورغم الخطر والأضرار التى تترتب على استعمال
السياسة معهم إلا أنه منذ أيام التقيت بكثير من العلماء والمتدينين ، وقد رجوت أن
أعالج موضوع الموريسكيين بما يرضى ربنا - الذى اشتد غضبه على الموريسكيين -
وأكدوا لى أنه يمكن معاقبة الموريسكيين فى أموالهم وأشخاصهم، لأن الاستمرار فى
ارتكاب الجرائم يؤكد أنهم ملحقون ؛ لا يحترمون الله ولا الإنسان. ورغم أنه كان

بالإمكان معاقبتهم كما تستحق جرائمهم إلا أنني إزاء الرغبة فى اتباع اللين معهم أمرت بعقد اجتماع اللجنة فى هذه المدينة ؛ والتي حضرتموها أنتم والبطيريك وقساوسة آخرون وأشخاص مثقفون ، للنظر فيما إذا كان من الممكن تجنب طرد المورييسكيين من هذه الممالك. لكننى علمت أن أهل قشتالة مستمرون فى محاولتهم الضارة . فهمت من مصادر مؤكدة أنهم حاولوا - ويحاولون - من خلال سفرائهم ، ومن خلال طرق أخرى الإضرار ببلادنا . ورغبةً منى فى القيام بواجبى نحو الحفاظ على أمن البلاد - خاصة مملكة فالنسيا - ونحو رعاياها المخلصين لأن الخطر أقرب إليهم فقد قررت طرد كل مورييسكى هذه المملكة ، ونفيهم إلى بلاد البربر.

ولكى يتم تنفيذ هذا القرار ، وأوامر صاحب الجلالة فقد أمرنا بنشر القرار التالى:

١ - يخرج كل مورييسكى هذه المملكة ، رجالاً ونساءً ، وأبناؤهم كذلك ، من فالنسيا فى خلال ثلاثة أيام اعتباراً من نشر هذا القرار فى الأماكن التى يعيشون فيها ، ويذهب الجميع إلى حيث يستقلون السفينة فى الميناء الذى يحدده المفوض ، ويحمل كل مورييسكى كل ما يستطيع من أمتعة شخصية ، ويستقل المركب أو السفينة التى تحمله إلى بلاد البربر فينزل منها دون أن يتعرض لسوء المعاملة أو المضايقات، وننبه إلى أننا سنوفر لكل منهم ما يحتاجه من ملابس خلال الرحلة ، وبإمكان كل واحد منهم أن يحمل ما يستطيع ، ومن لا ينفذ هذا البند ويخالف هذا القرار يتعرض لعقوبة الإعدام التى ستنفذ لا محالة.

٢ - أى مورييسكى - بعد نشر القرار ومرور ثلاثة أيام على نشره - يتواجد خارج محل إقامته أو فى الطرقات قبل إبحار السفينة ، يستطيع أى شخص إلقاء القبض عليه ، وتجريده من متاعه ، وتسليمه إلى العدالة فى أقرب مكان ، وإذا دافع المورييسكى عن نفسه فبإمكان المواطن أن يقتله دون أن يتعرض لعقوبة.

٣ - بعد نشر القرار يحظر على المورييسكى مغادرة محل إقامته إلى مكان آخر ؛ بل يظل فى مكانه حتى يصل إلى القرية المفوض الذى يقتادهم إلى السفينة .

٤ - أى مورييسكى يدفن متاعاً له ، أو يخفيه - لأنه لا يستطيع أن يحمله معه - أو يضره فيه النار أو يتلف الزرع أو الأشجار أو البيوت توقع عليه عقوبة الإعدام ، ويقوم بتنفيذها المواطنون المقيمون فى موقع ارتكاب الجريمة. نأمر بذلك لأن صاحب الجلالة قد تفضل بمنح سادة المورييسكيين الأمتعة التى لا يستطيع المورييسكيون حملها معهم .

٥ - من أجل الحفاظ على البيوت وعلى محصول الأرز ، وإبلاغ ذلك إلى السكان الجدد ، استجاب صاحب الجلالة لطلبنا وقرر بقاء ستة أفراد بعائلاتهم في كل قرية بها مائة بيت ، على أن يقوم سادة الرعايا باختيار الأفراد الذين سيبقون ، ويلزم سادة الرعايا بإخبارنا بأسماء الأشخاص الذين تم اختيارهم ، أما الأشخاص الذين سيبقون في القرى التابعة لصاحب الجلالة فسنقوم نحن باختيارهم. وننبه إلى أنه يفضل أن يكون الأشخاص الذين سيبقون من كبار السن ، وأن تكون حرفتهم الوحيدة هي الزراعة ، وأن يكونوا قد أبدوا ميلاً إلى اتباع المسيحية .

٦ - لا يقوم أحد المسيحيين القدامى أو الجنود بإساءة معاملة الموريسكيين أو إيذائهم باللفظ ، أو الإضرار بممتلكاتهم أو بزوجاتهم وأبنائهم.

٧ - يجب ألا يخفى أحد في بيته موريسكياً ، ولا يساعده على الاختفاء ولا عُوَقب من يفعل ذلك بالسجن لمدة ست سنوات ، ويعقوبات أخرى نراها.

٨ - لكي يفهم الموريسكيون أن رغبة جلالة الملك هي طردهم من البلاد ، وأنه لن يقع عليهم إيذاء أثناء السفر ، وأنهم سُنقلون إلى بلاد البربر؛ فإننا نسمح بعودة عشرة أشخاص من الذين سافروا مع الفوج الأول لكي يخبروا الآخرين بذلك ، ونسمح بأن يتم ذلك مع كل فوج ، ونأمر بأن يبلغ ذلك إلى قباطنة السفن لكي يأمرؤا به ، ولكي يحولوا دون أن يقوم الجنود والبحارة بإيذاء الموريسكيين باللفظ أو بالفعل.

٩ - الصبية دون الرابعة عشرة الذين يفضلون البقاء ، ويوافق أولياء أمورهم على ذلك ، لا يُطردون .

١٠ - الأطفال دون السادسة من أبناء المسيحيين القدامى يبقون في إسبانيا ، وتبقى أمهاتهم معهم حتى لو كن موريسكيات ؛ أما إذا كان الأب موريسكى والام مسيحية قديمة فسيُطرد الأب ، ويبقى الأطفال دون السادسة مع أمهم.

١١ - يبقى أيضاً الأشخاص الذين عاشوا مدة عامين بين مسيحيين قدامى ، ولم يحضروا اجتماعات موريسكية .

١٢ - يبقى أيضاً من تلقوا القرى المقدس ، وهؤلاء يتم التعرف عليهم من خلال مسئولى القرى التى يعيشون فيها.

١٣ - يوافق صاحب الجلالة على طلب الموريسكى الذى يفضل الرحيل إلى بلاد أخرى (عدا ممالك إسبانيا) .

هذه هي الرغبة الملكية ، وتنفذ العقوبات الواردة فيها دون رجعة ، ولكي يتم إبلاغ الجميع بها يتم نشر القرار بالطرق المعتادة.

فالنسيا في ٢٢ سبتمبر ١٦٠٩ .

ماركيز كارثينا وعنه مانويل دى اسبينوسا

- مرثيديس غارشيا أرينال، المرجع السابق، ص 229، 232.

- الملحق رقم 05: تقرير حول الموريسكي ديفغو دياث وزوجته ماريا ديل كاستيو سنة 1630م، يوضح قضية هجرة هذا الأخير من إسبانيا إلى الجزائر ثم العودة بعد ذلك، ويوضح بعض مظاهر حياة ديفغو في الجزائر خلال هذه الفترة.

موجز ومقتطفات من القضية التي نظرتها محكمة التفتيش ضد ديفغو دياث ، وهو موريسكي قشتالي حوكم في كوينكا عام ١٦٣٠ لأنه عاد مرتين إلى إسبانيا بعد أن طُرد منها

" ديفغو دياث جزار ، وزوجته ماريا ديل كاستيو موريسكيان من بيلمونتي^(١) مثل ديفغو دياث أمام المحكمة بعد أن اتهمه أنطونيو مالو ، وزوجته ، وخادمته ، وشاهد آخر بما يلي :

- عدم وضع لحم أو دهن الخنزير في الحلة ، بل كان يستعمل الزيت .
- تناول اللحم في أيام صيام المسيحيين وأيام الجمع ، نون أن يكون مريضاً ، لأنه يتناول السمك والتونة والسردين والجبن ؛ وهي أشياء لا يتناولها المرضى .
- الاغتسال ، وارتداء ملابس نظيفة يوم الجمعة ، والنوم وهو عريان .
- استضافة موريسكيين من بايي دي ريكوتي في بيته.

" وتعلم هذه الشاهدة أن ديفغو دياث المذكور كان يستضيف في بيته موريسكيين كثيرين من بايي دي ريكوتي ، وأنه كان هو وزوجته يدخلان البيت مع الموريسكيين المذكورين ، وكانوا يتحدثون باللغة العربية التي لا تفهمها الشاهدة ، وكانوا يغلّقون الباب لمدة ثلاث أو أربع ساعات "

عندما سُئل ديفغو دياث أمام المحكمة عما إذا كان له أعداء ذكر خادمة سابقة له، كان قد طردها من خدمته لأنها كانت تشرب الخمر ، وذكر اسمي أنطونيو مالو وزوجته ، وهما أصحاب خان مثله. يدافع عن المتهم الموجهة إليه (يقول مثلاً إنه لم يكن يتحدث بالعربية مع من كان يستضيفهم في بيته ؛ بل كان يحدثهم باللهجة الفالانسية لأنه كان قد عاش فترة طويلة في تلك البلاد ويتحدث لغتها وله أصدقاء فيها) ، ومن خلال الإجابات على الأسئلة يحكي قصة حياته. ديفغو دياث من دايمييل التابعة لكالاترايا؛ وهو من الموريسكيين القدامى الذين كانوا يقيمون في قشتاله منذ ثلاثمائة عام حيث

كانوا يعملون في خدمة ملوكها ، وبعد طرد موريسكي غرناطة أُرانبوا أن يطربوبهم ، وطربوبهم بالفعل ثم عانبوا بعد ذلك وأقاموا فى القرى المذكورة

كان عمر ديبغو عند الطرد سبعة عشر عاماً ، وحتى ذلك الحين كان يشتغل بالزراعة ، وبعد أن غادر مملكة قشتالة دخل مملكة فرنسا فى بايونا ، وسان خوان دى لوث عام ١٦٠٩ ، أمضى هناك ما يقرب من خمسة عشر يوماً ، وكان ضمن أناس كثيرين ممن شملهم قرار الطرد. عاد ديبغو إلى دايمييل من فرنسا ، لكنهم اعتقلوه ، وبعد أن سجن لمدة شهرين حملوه إلى قرطاج مع موريسكيين آخرين ، ومنها إلى الجزائر. يتحدث ديبغو عن فترة إقامته فى تلك المدينة ويعترف بأنه مختن.

“ أنزلوهم بالقرب من الجزائر ، وجاء الأتراك من المدينة واقتابوهم إليها وأدخلوهم الترسانات ؛ وهى بيوت كبيرة بها الأسلحة وطلقات المدافع ، وهناك كانوا يفحصون الذكور ، وكانوا يختنونهم ” ، كان من يقوم بإجراء الختان حلاقين... بعد ذلك أقام لهم الأتراك مأدبة عظيمة ” مثل التى تُقام فى إسبانيا عند الزفاف . أكلوا وهم يجلسون على الأرض على حصيرة فوقها مفرش ” . بعد ذلك صنعوا له من عباعته جلباب مسلم.

“ ذهب ديبغو إلى السفن لكى يعمل ويستخرج حجارة لبناء سور عند الميناء ” . كانوا يدفعون له ريالاً ونصف ، وكان يصحب موريسكيين آخرين من طليطلة ومن مملكة غرناطة ، ومسيحيين أيضاً. وذات مرة اعترف أمام قسيس أسير ، وكان - من باب التخفى - يمثل أنه يلعب الكوتشينة . ظل يؤدى شعائر المسيحيين نون أن يقول ذلك لأحد. لم يدخل إلى المسجد الكبير فى الجزائر إلا مرة واحدة ، وحدث ذلك فى ساعة لم تكن وقت صلاة ، ودخل المسجد لأنه كان لديه فضول لمعرفة ما بداخله.

يقص الأشياء التى صدمته فى عادات الأتراك ، وحتى لو أنه ذات مرة شعر بميل نحو شريعة محمد فإن الصدام قد جعله يفقد ذلك الميل. يقول إنهم يفعلون كل شىء بشكل مخالف لما يحدث فى إسبانيا . يتبولون وهم يرفعون القميص ، وينزلون السروال كالنساء. ^(٢) يمشون فى أحذية بسيطة ، ويبدو أنهم يفعلون كل شىء بشكل مخالف لما يحدث فى إسبانيا . تسير النساء وهن يغطين وجوههن ، بحيث لا يستطيع أحد أن

يراهن . يأكلون وهم جالسون على الأرض ، لكن أكثر ما أثار اشمئزازه هو أنهم يشترون الغلمان لكي يناموا معهم...

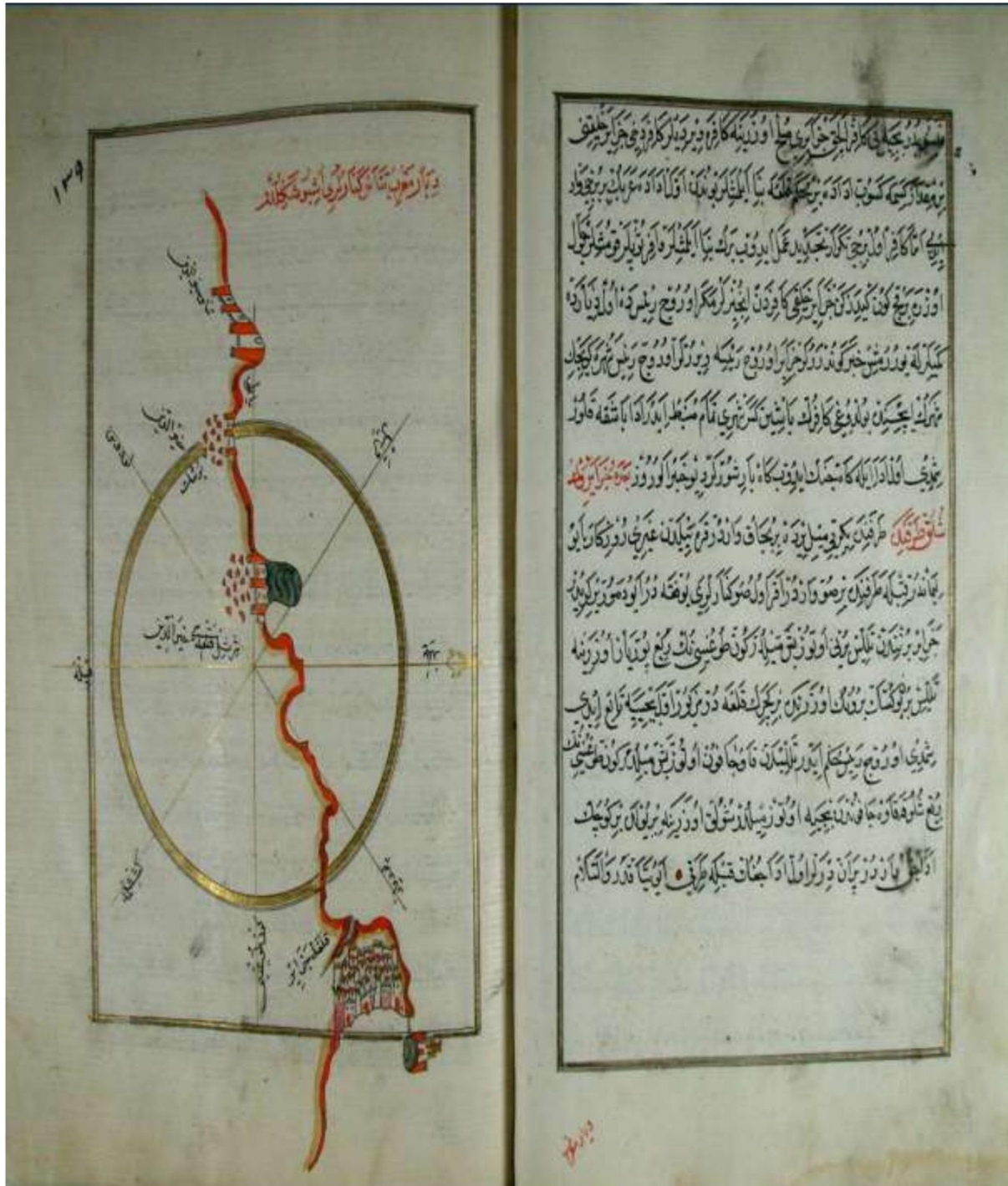
" هناك في الجزائر أكثر من ستة آلاف غرناطي ، وهم مسيحيون ، لكن موريسكيي أراغون وفالنسيا لم يعتنقوا المسيحية أبداً ^(٣) . ولو أن أحد الغرناطيين الموجودين في الجزائر ولد له ولد فإنه لا يتركه يغيب عن عينه أبداً خوفاً من أن يسرقه المسلمون ويستغلونه كما ذكرت ^(٤) .

بعد أن أمضى عدة شهور في الجزائر أبحر ديبغو في سفينة صيادين من بينهم موريسكيون من أراغون ، وذات يوم رأى أن سواحل إسبانيا قريبة ؛ فالتقى بنفسه في الماء، وظل يسبح حتى طرطوسة، ومنها توجه إلى سرقسطة ثم إلى فرنسا لكي يبحث عن والده أو أحد إخوته. لم يجد أحداً (فمنهم من مات ، ومنهم من عاد إلى إسبانيا) فتوجه إلى أبينيون ، وعاد إلى إسبانيا . عاش في فالنسيا حيث تعلم حرفة الجزارة ، ومارسها بعد ذلك في أوريويلا ومانثاناريس وموتا ديل كويريو وبيلمونتي التي كان يقيم فيها عندما ألقى القبض عليه. يقول في دفاعه إنه لو لم يكن مسيحياً مخلصاً ما عاد إلى إسبانيا بعد أن طرد منها مرتين ، فلو كان يؤدي شعائر محمد لاستقر في الجزائر ، وهي الأرض التي تؤدي فيها هذه الشعائر .

على مدى نظر القضية كانت النقطة الرئيسية للمناقشة هي ما إذا كانت عملية الختان التي أجريت له قد أجريت بشكل إجباري أم لا ؛ فإذا كانت قد تمت بشكل إرادي يكون قد رفض العقيدة الكاثوليكية ، ويكون قد اختار الإعدام ، ومن ناحية أخرى فإن أعضاء محكمة التفتيش لا يصدقون أن المسلمين يجبرون أحداً على اعتناق دينهم ، أو يجرون عملية الختان لأحد بشكل إجباري.

- مرثيديس غارشيا أرينال، المرجع السابق، ص 243، 245.

- الملحق رقم 06: وثيقة تاريخية مُتضمنة وصفا وخريطة توضيحية لقلاع مدن: الجزائر وشرشال وتنس، التي ساهم في بنائها وتشبيدها المهاجرون الأندلسيون بالجزائر.



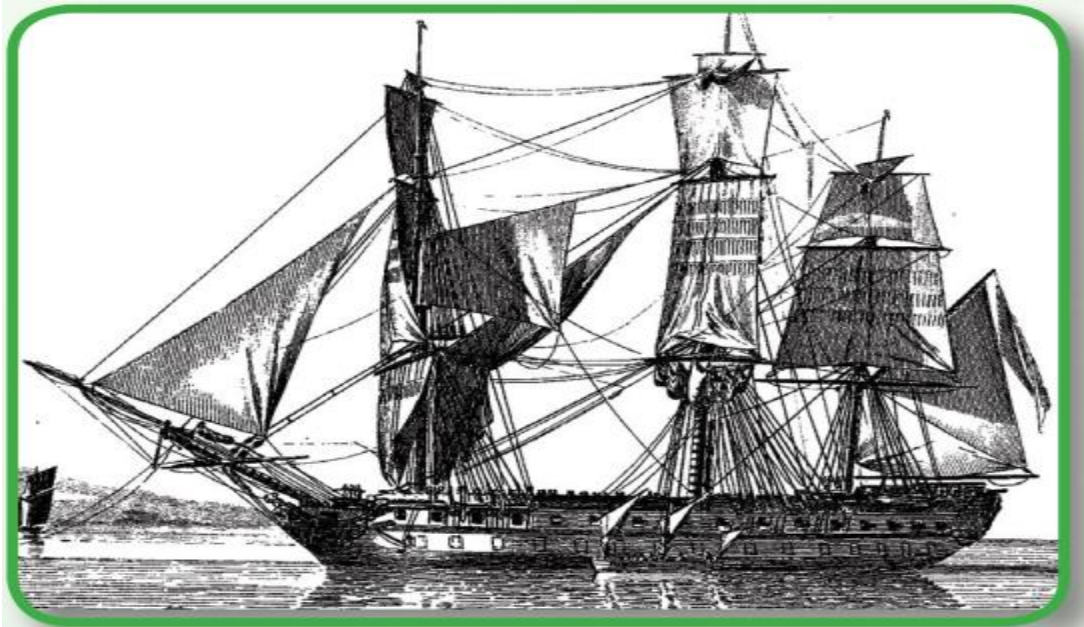
- إبراهيم بن يحيى البوسعيدي وآخرون، المرجع السابق، ص 231.

الملحق رقم 07: مدفع بابا مرزوق الذي شارك في تصنيعه المهاجرين الأندلسيين سنة 1542م، نُقل إلى فرنسا بعد بداية احتلالها للجزائر سنة 1830م، وُصّب بشكل عمودي في ميناء مدينة بريست الفرنسية.



- Hana Menasria, "**Nouvelles révélations sur le canon Baba Merzoug**", Journal de la Liberté. Algérie, Publié 18 Septembre 2021 à 19:05, Cité du lien suivant : <https://www.liberte-algerie.com/culture/nouvelles-revelations-sur-le-canon-baba-merzoug-365177>

- الملحق رقم 08: سفينة الجفن vaisseau، التي كانت من بين أشهر السفن المتواجدة على مستوى الأسطول الجزائري، والتي طرأت عليها عدة تعديلات حتى أصبحت تشتهر بالسفينة الدائرية، وكان للاندلسيين الذين هاجروا إلى الجزائر مع بداية القرن السابع عشر دور هام في هذا العمل، أي تحويلها من الشكل العادي إلى سفينة دائرية، أثبتت مدى كفاءتها ونجاعتها في الحروب البحرية.

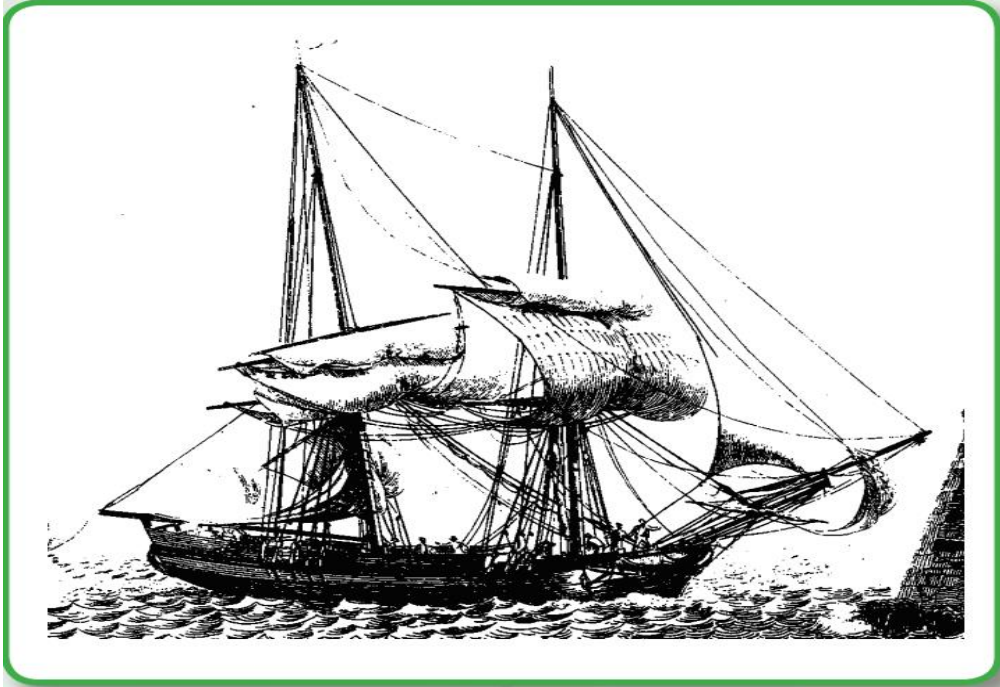


- زهرة محجوبي، المرجع السابق، ص 51.

- الملحق رقم 09: سفيتا الفرقاطة والبركانطي الذين ساهم في صناعتها المهاجرين الأندلسيين بالجزائر خلال العهد العثماني.



سفينة الفرقاطة frégate

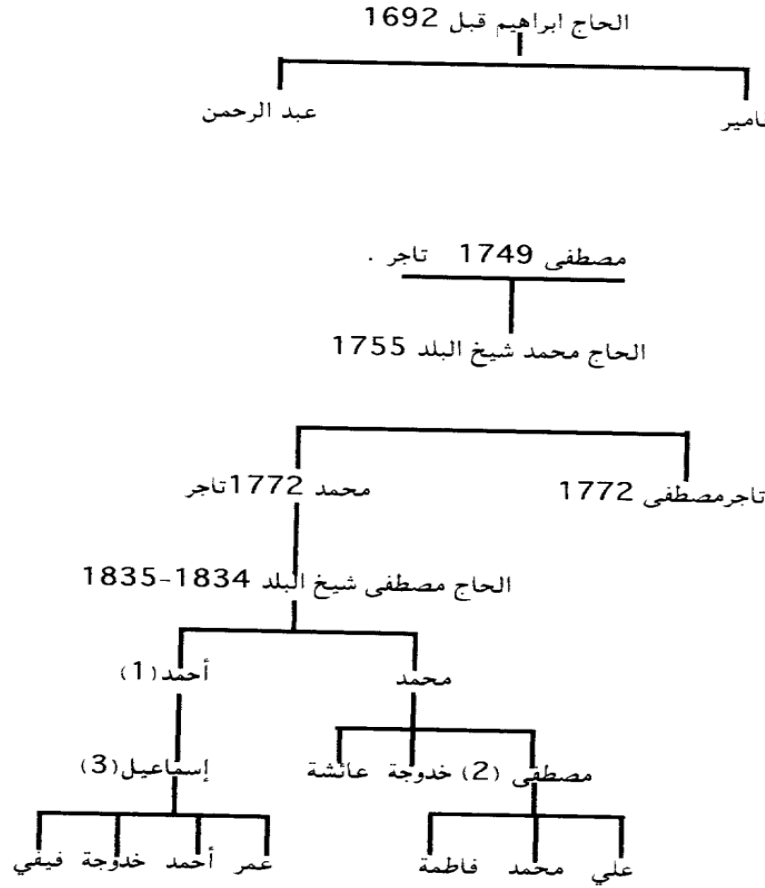


سفينة البركانطي Brigantin

- زهرة محجوبي، المرجع السابق، ص 50 - 55.

- الملحق رقم 10: مخطط يوضح أهم الشخصيات البارزة في عائلة بوضربة الأندلسية، والتي كانت لها العديد من النشاطات بالجزائر خلال العهد العثماني.

عائلة بوضربة



- (1) يتعلق الأمر بسي أحمد بوضربة الذي فاوض معاهدة الاستسلام عام 1830.
- (2) ابن محمد بوضربة وحفيد المترجمان العام . تلقى تعليمه في المدرسة العربية ثم انتقل إلى الثانوية . اشتغل في المصالح الإدارية بمدينة الجزائر توفي عام 1895 م .
- (3) ولد عام 1823 م بمدينة مارسيليا حيث كان والده مكلفا بمصالح الداي . تلقى تعليمه بمدينة باريس . وفي عام 1853 أصبح ترجمانا عسكريا ثم ترجمانا عاما سنة 1872 وتوفي بمدينة قسنطينة .

- عائشة غطاس، "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية - اقتصادية"، المرجع السابق، ص 103.

- الملحق رقم 11: مخطط يوضح أهم الشخصيات التي مارست مهنة التجارة من عائلة الشويهد الأندلسية بالجزائر خلال العهد العثماني.

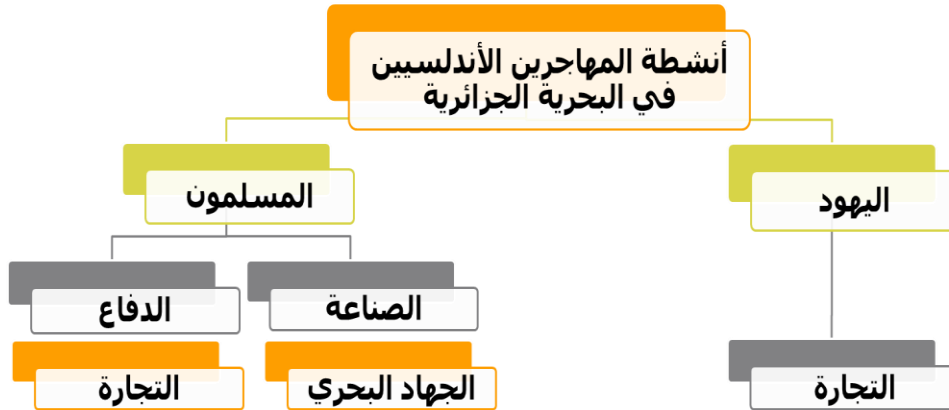
عائلة الشويهد*



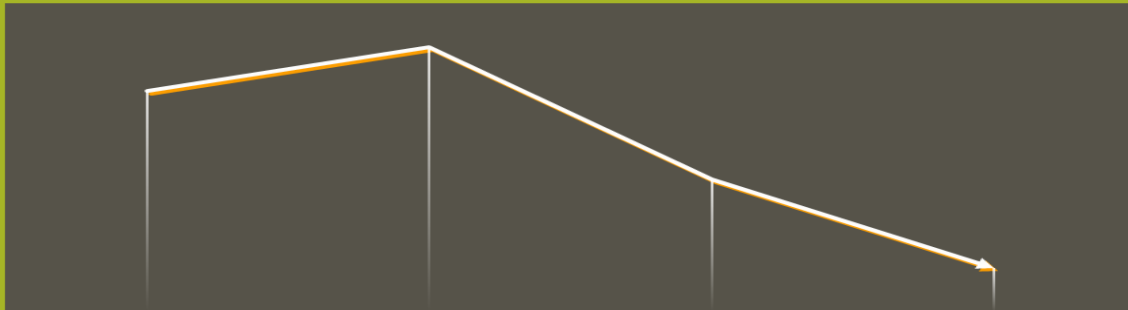
* إعتمدنا في هذه المحاولة على أخبار جاءت متناثرة هنا وهناك في سجلات المحاكم الشرعية .
وانظر الجزء الخاص بالملاحق ، قسم عقود التحسيس وثيقة رقم 1 .
(1) لا بد من التنبيه الى أننا لم نعثر على أي خبر بشأن الجد الأكبر السعيد الشويهد ماعدا أنه كان من رياس البحر ؛ هذا كما تضفي عليه وثائقنا صفة الانتصاري .
(2) أن الأخبار بشأنه هو الآخر قليلة ، فهل كان من تجار الحرير ؟ لكنه يتجلى لنا من وثائقنا أن الحاج سليمان كان يحظى بمكانة متميزة إذ نعت بألقاب تفخيمية ، قلما حظي بها الموظفون السامون وكان يحظى بها على وجه التحديد أحد الوزراء البارزين وهو بيت المالجي ، وكان من المناصب الهامة والخطيرة . إذ جاء في إحدى الوثائق مايلي : " ... المعظم الوجيه المفخم الثقة الارضى الامين المرتضى السيد الحاج سليمان بن المرحوم الرئيس سعيد عرف ابن الشويهد ... " رغم أنه ليس هناك ما يوحي أنه تولى المنصب . ونحن نستبعد ذلك ، إذ كان المنصب حكرا على العنصر التركي .
(3) حظي يوسف هو الآخر بمكانة متميزة ، لقد حضر شاهدا في إحدى القضايا رفقة سبعة شهود وهو الوحيد الذي لقب بأربعة ألقاب تفخيمية ، المعظم ، الأجل ، الزكي ، الأفضل الحاج يوسف الشويهد .
(4) كان على رأس أمانة الأمناء في عهد القاضي محمود أفندي .
(5) وهو معاصر لمصطفى . وشغل منصب شاوش بيت المال في نفس الفترة التي كان فيها أخوه محمد على رأس أمانة الأمناء . وتولت عائلة الشويهد وكالة الحرمين الشريفين إذ كان المعظم محمد بن الشويهد وكيلا لفقراء الحرمين الشريفين .

- عائشة غطاس، "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية - اقتصادية"، المرجع السابق، ص 186.

- الملحق رقم 12: مخططات حول فئة الأندلسيين وأعمالها في البحرية الجزائرية من إعداد الباحث.

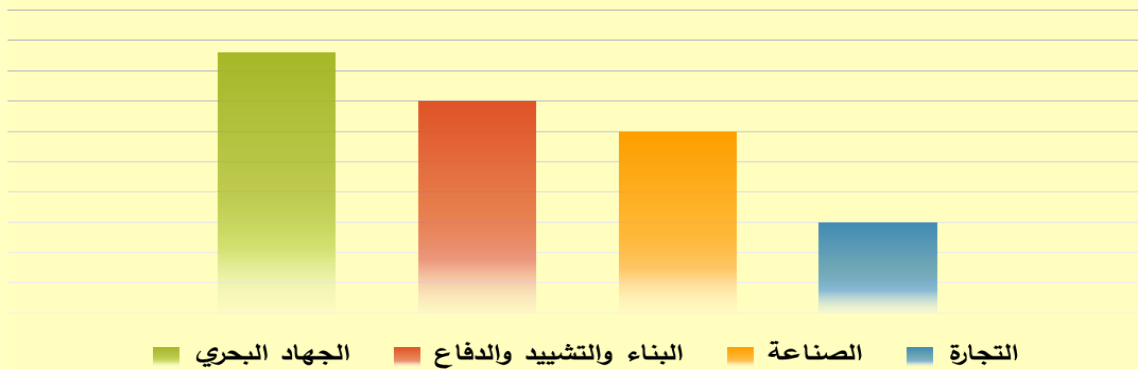


مخطط تقريبي يُوضح نسبة مشاركة الأندلسيين في البحرية الجزائرية (1519 - 1830)



القرن التاسع عشر
القرن الثامن عشر
القرن السابع عشر
القرن السادس عشر

نشاطات الأندلسيين في مؤسسة البحرية، من الأكثر نشاطا إلى الأقل نشاطا





قائمة المصادر

والمراجع

- القرآن الكريم

أولاً- المصادر.

أ- المصادر باللغة العربية:

- 1- الأندلسي ابن جبير (614هـ / 1217م)، رحلة ابن جبير، د. ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 2007م.
- 2- الأندلسي أحمد بن غانم (ت: 1008هـ / 1599م)، العز والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية، رقم 1511، الجزائر، د. ت.
- 3- بربروس خير الدين (ت: 953هـ / 1546م)، مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة: محمد دراج، ط 1، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2010م.
- 4- بفايفر سيمون (عاش خلال القرن التاسع عشر)، مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر، تقديم وتعريب أبو العيد دودو، د. ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1974م.
- 5- البكري أبي عبيد الله (ت 487هـ / 1094م)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب: "وهو جزء من كتاب المسالك والممالك"، د. د، د. م، 1967م.
- 6- باشا جودت (ت 1312هـ / 1895م)، تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر أفندي الدنا، ج 1، د. ط، مطبعة جريدة بيروت، د. م، 1308هـ / 1891م.
- 7- التلمساني ابن رقية (ت: 1194هـ / 1780م)، الزهرة النائرة فيما جرى في الجزائر حين أغارت عليها جنود الكفرة، ضبط النص وعلق عليه خير الدين سعيدي الجزائري، ط 1، أوراق ثقافية، جيجل، الجزائر، 2017م.
- 8- التمكروتي علي بن محمد (ت: 1003هـ / 1594م)، النفحة المسكية في السفارة التركية (1589)، تحقيق وتقديم محمد الصالحي، ط 1، دار السويدي للنشر والتوزيع، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، إ. ع. م، لبنان، 2007م.

- 9- التونسي خير الدين (ت: 1890م)، أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، تقديم محمد الحداد، د. ط، دار الكتاب المصري (القاهرة)، دار الكتاب اللبناني (بيروت)، مصر، 2012م.
- 10- الجزائري محمد بن ميمون (ت: ق 18م)، التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط 2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- 11- جليبي كاتب (ت: 1068هـ / 1657م)، تحفة الكبار في أسفار البحار، تصنيف حاجي خليفة، ترجمة وتحقيق محمد حرب وتسليم حرب، ط 1، دار البشير للثقافة والعلوم، د. م، 2017م.
- 12- الحجري شهاب الدين أحمد بن قاسم (ت: بعد سنة 1050هـ / 1640م)، كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق وتقديم وترجمة شورد فان كوننكزفلد، قاسم السمراي، خيرارد فيخرز، د. ط، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، الوكالة الإسبانية للتعاون الدولي، د. م، د. ت.
- 13- الحموي ياقوت (ت: 626 هـ / 1229م)، معجم البلدان، ج 1، د. ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1977م.
- 14- الحميري محمد بن عبد المنعم (ت: 900هـ / 1495م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط 2، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، 1984م.
- 15- الراشدي ابن سحنون (ت: خلال النصف الأول من القرن 19م)، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم الشيخ المهدي البوعبدلي، اعتنى به عبد الرحمن دويب، ط 1، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
- 16- شالر وليام (ت: 1833م)، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816-1824)، تعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982م.

- 17- الشقراني الراشدي أحمد بن عبد الرحمن (ت: 1301 هـ / 1883م)، القول الأوسط في أخبار بعض من حل بالمغرب الأوسط، تحقيق وتقديم ناصر الدين سعيدوني، ط 2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
- 18- كاتكارت (ت: 1843م)، مذكرات أسير الداوي كاتكارت قنصل أمريكا في المغرب، ترجمة عن الإنجليزية وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، د. ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982م.
- 19- كربخال مارمول (ت: 1600م)، إفريقيا، ترجمة: محمد حجي وآخرون، ج 2، د. ط، دار نشر المعرفة، الرباط، 1989م.
- 20 - مجهول (ت: ق 6 هـ / 12م)، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، د. ط، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، د. ت.
- 21- بن ماجد شهاب الدين أحمد (ت: 906 هـ / 1501م)، الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد، تم جلب الكتاب من موقع: archive.org
- 22- المزاري الآغا بن عودة (ت: 1897م)، طلوع سعد السعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التاسع عشر، ج 1، د. ط، تحقيق ودراسة يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، د. م، د. ت.
- 23- المشرفي الجزائري عبد القادر (ت: 1192 هـ / 1778م)، بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإشبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر، د. ط، د. م، 2008م. تم جلب الكتاب من موقع: archive.org
- 24- المقري أحمد (ت: 1041 هـ / 1631م)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، ج 1، ج 2، ج 4، د. ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1968م.

25- هابنسترايت. ج. أو (ت: 1757م)، رحلة العالم الألماني: ج. أو. هابنسترايت إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ - 1732م)، ترجمة وتقديم وتعليق ناصر الدين سعيدوني، ط 1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م.

26- الوزان الفاسي حسن بن محمد (ت: حوالي سنة 957هـ / 1550م)، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر، ج 2، ط 2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983م.

ب- المصادر باللغة الأجنبية:

1- diego de haëdo (D: 1613), topographie et Histoire générale D'Alger, traduit de l'espagnol par dr. Monnereau et a. Berbrugger, présentation de Jocelyne dakhli, éditions BoUChene, 1998.

2- H. D. de Grammont (D: 1892), Histoire d'Alger sous la domination turque (1515- 1830), Ernest leroux, éditeur, paris, 1887.

3- Laugier de Tassy (D: 1748), Histoire du Royaume D'Alger, harvard college library, Amesterdam, Hollande, N. D.

4- R. P. Pierre Dan (D: 1649), Histoire de parparie et de ses corsaires, Deuxième édition, paris, 1646.

5- SHAW (docteur Thomas) (D: 1751), Voyage dans la régence d'Alger au XVIIIe siècle, traduit de l'anglais par E. Mac Carthy, chez Marlin éditeur, Paris, France, 1830.

ثانيا: المراجع.

أ- المراجع باللغة العربية:

1- أرسلان شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، د. ط، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، 1983.

2- الأسقف دون باسكوال بورونات إي براتشينا، الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ترجمة كنزة الغالي، ج 1، ط 1، مطابع دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012م.

3- ألتز عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، ترجمة: محمود علي عامر، ط 1، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، 1989م.

- 4- أندري جوليان شارل، تاريخ إفريقيا الشمالية، ج 2، تعريب: محمد مزالي والبشير بن سلامة، ط 4، الدار التونسية للنشر، تونس، 1983م.
- 5- إيفانوف نيقولا، الفتح العثماني للأقطار العربية 1516-1574، ترجمة يوسف عطا الله، مراجعة وتقديم مسعود ضاهر، ط 1، دار الفارابي، بيروت، لبنان، 1988م.
- 6- أرينال مرثيديس غارثيا، الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة وتقديم جمال عبد الرحمن، ط 1، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، مصر، 2003م.
- 7- البتوني محمد لبيب، رحلة الأندلس، د. ط، كلمات عربية للترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 2012م.
- 8- بشتاوي عادل سعيد، الأندلسيون المواركة، ط 1، مطابع أنترناشيونال برس، القاهرة، مصر، 1983م.
- 9- بلحميسي مولاي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، د. ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- 10- بوعزيز يحي، الموجز في تاريخ الجزائر، ج 2، ط 2، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2009م.
- 11- _____، _____، علاقات الجزائر الخارجية مع دول وممالك أوروبا 1500-1830، طبعة خاصة، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009م.
- 12- جرجي زيدان، تاريخ التمدن الإسلامي، ج 1، د. ط، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2012م.
- 13- الجعماطي عبد السلام، دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2012م.
- 14- حساني مختار، تاريخ الدولة الزيانية، ج 2، د. ط، منشورات الحضارة، الجزائر، 2009م.

- 15- بن حموش مصطفى، مساجد مدينة الجزائر وزواياها وأضرحتها في العهد العثماني من خلال مخطوط ديفولكس والوثائق العثمانية، ترجمة وتحقيق وتعليق مصطفى بن حموش، ط 1، دار الأمة، الجزائر، 2007م.
- 16- الحموي محمد ياسين، تاريخ الأسطول العربي، د. ط، مطبعة الشرقي بدمشق، 1945م.
- 17- حوراني جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى، ترجمة يعقوب بكر، مراجعة وتقديم يحي الخشاب، د. ط، مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة، مصر، د. ت.
- 18- خلاصي علي، الجيش الجزائري في العصر الحديث، ط 1، دار الحضارة، الجزائر، 2007م.
- 19- _____، _____، قصبة مدينة الجزائر، ج 1، ط 1، دار الحضارة، الجزائر، 2007م.
- 20- دراج محمد، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543)، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 1، 2012م.
- 21- الذنون عبد الحكيم، آفاق غرناطة، ط 1، دار المعرفة، دمشق، سوريا، 1988م.
- 22- رزوق محمد، الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرنين 16-17، ط 3، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1998م.
- 23- ريمون أندريه، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة لطيف فرج، ط 1، دار الفكر، القاهرة، مصر، 1991م.
- 24- زغروت فتحي، العثمانيون ومحاولات إنقاذ مسلمي الأندلس (898هـ - 1115هـ) = (1492م - 1609م) منذ سقوط غرناطة حتى الطرد النهائي، ط 1، الأندلس الجديدة، مصر، 2011م.
- 25- الزوبعي بشري محمود، محاكم التفتيش الإسبانية 1480-1516م، د. ط، دار زهران للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016م.

- 26- بن زيان بن أشنهو عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، تم جلب الكتاب من موقع: archive.org
- 27- سالم عبد العزيز، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، د. ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1969م.
- 28- ستيفن جيمس ويلسن، الأسرى الأمريكيان في الجزائر: 1795/1796م، ترجمة علي تابلت، د. ط، منشورات ثالة، الجزائر، 2007م.
- 29- سعد الله فوزي، الشتات الأندلسي في الجزائر والعالم، ج 1، ج 2، د. ط، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2016م.
- 30- سعيدوني ناصر الدين، الشيخ المهدي بوعبدلي، الجزائر في التاريخ العهد العثماني، د. ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984م.
- 31- ———، ———، دراسات أندلسية مظاهر التأثير الإيبيري والوجود الأندلسي بالجزائر، ط 2، البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م.
- 32- شاشية حسام الدين، السفارديم والموريسكيون، ج 1، ط 1، دار السويدي للنشر والتوزيع (إ. ع. م)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (لبنان)، 2015م.
- 33- شكري فرحات يوسف، غرناطة في ظل بني الأحمر، ط 1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1993م.
- 34- شوفالييه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، ترجمة: جمال حمادنة، د. ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007م.
- 35- الصلابي علي محمد، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط 1، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، 2001م.
- 36- عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، د. ط، دار هومة، الجزائر، 2012م.

- 37- عبادة عبد الفتاح، سفن الأسطول الإسلامي وأنواعها ومعداتھا في الإسلام، د. ط، مطبعة الهلال، مصر، 1913م.
- 38- فيلاي عبد العزيز، تلمسان في العهد الزياني، ج 1، د. ط، موفم للنشر والتوزيع، الجزائر، 2002م.
- 39- العسلي بسام، خير الدين بربروس والجهاد في البحر 1470-1547م، ط 1، دار النفائس، بيروت، 1980م.
- 40- علي الحجي عبد الرحمن، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة 92-897هـ (711-1492م)، ط 2، دار القلم، دمشق- بيروت، 1981م.
- 41- عنان محمد عبد الله، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتصرين، ط 3، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، مصر، 1966م.
- 42- غطاس عائشة، الدولة الجزائرية الحديثة ومؤسساتها، ط خاصة، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954م، الجزائر، 2007م.
- 43- غلاب عبد الكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج 2، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005م.
- 44- فارس محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الإسباني، ط 1، د. م، 1969م.
- 45- أبو قاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ط 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1998م.
- 46- _____، _____، مجموع رحلات "رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين الأغواطي في شمال إفريقيا والسودان والدرعية"، ترجمة وتحقيق أبو القاسم سعد الله، ط خاصة، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011م.

- 47- كار ماثيو، الدين والدم إبادة شعب الأندلس، ترجمة مصطفى قاسم، مراجعة أحمد خريس، ط 1، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2013م.
- 48- كواندرو روجي، قراصنة سلا، ترجمة محمد حمود، د. ط، نشر بمساهمة المعهد الجامعي للبحث العلمي، جامعة محمد الخامس، المغرب، 1991م.
- 49- كولان جورج ساقن، الأندلس، ترجمة: إبراهيم خورشيد، عبد الحميد يونس، حسن عثمان، ط 1، دار الكتاب اللبناني (لبنان)، دار الكتاب المصري (مصر)، 1980م.
- 50- —، —، البارود عند المسلمين، ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، ط 1، دار الكتب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان، 1984م.
- 51- كيلي جاك، البارود تاريخ المادة المتفجرة التي غيرت العالم، ترجمة صلاح عويس، ط 1، المركز القومي للترجمة، القاهرة، مصر، 2016م.
- 52- لقوارة فهم، ميناء مدينة الجزائر ودوره الاقتصادي في العهد العثماني (ق 10 - 11هـ/ 16 - 17م)، د. ط، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2021م.
- 53- ماخوفيسكي ياتسيك، تاريخ القرصنة في العالم، ترجمة أنور محمد إبراهيم، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 2008م.
- 54- ماهر سعاد، البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، د. ط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، مصر، 1967م.
- 55- متر آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، ترجمة أبوريد محمد عبد الهادي، أعد فهارسه رفعت البدرابي، ج 2، ط 5، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د. ت.
- 56- المحامي محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ط 1، دار النفائس، بيروت، 1981م.

- 57- محمد جمال الدين عبد الله، المسلمون المنصرون أو الموريسكيون الأندلسيون، د 1، دار الصحوة، القاهرة، 1991م.
- 58- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (العهد العثماني)، ج 08، ط 04، المكتب الإسلامي، د. م، 2000م.
- 59- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، د. ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، د. ت.
- 60- المطوي محمد العروسي، الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، ط 2، دار الغرب الإسلامي، د. م، د. ت.
- 61- المنتصر الكتاني علي، انبعاث الإسلام في الأندلس، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2005م.
- 62- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني القرصنة الأساطير والواقع، ج 2، د. ط، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م.
- 63- مؤنس حسين، تاريخ المسلمين في البحر المتوسط، د. ط، الدار المصرية اللبنانية للطباعة والنشر والتوزيع، د. م، 1993م.
- 64- نايت بلقاسم مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830، ج 1، ط 2، دار الأمة، الجزائر، 2007م.
- 65- النخيلي درويش، السفن الإسلامية على حروف المعجم، د. ط، مطابع الأهرام التجارية، مصر، 1970م.
- 66- الهلالي الملي مبارك بن محمد، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 3، د. ط، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د. ت.
- 67- ———، ———، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج 3، د. ط، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د. ت.

- 68- هلايلي حنفي، أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي الموريسكي، د. ط، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2010م
- 69- ———، ———، أوراق في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط 1، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2008م.
- 70- ———، ———، بنية الجيش الجزائري خلال العهد العثماني، ط 1، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2007م.
- 71- وولف جون. ب، الجزائر وأروبا 1500-1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم سعد الله، طبعة خاصة، دار الرائد، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م.
- 72- يحيياوي جمال، سقوط غرناطة ومأساة الأندلسيين 1492-1610م، د. ط، دار هومة، الجزائر، 2004م.

ب- المراجع باللغة الأجنبية:

- 1- Fey Henri-Léon, Histoire d'Oran avant, pendant et après la domination espagnole, Typographie Adolphe perrier, éditeur Boulevard Oudinol, Oran, Alger, 1858.
- 2- Heers Jacques, Les Barbaresques, Perrin, Paris, France, 2008.
- 3- Jan Glete, war fare at sea 1500- 1650 Maritime Conflicts and the Transformation of Europe, First published by Routledge, London, 2000.
- 4- Mercedes García-Arenal and Gerard Wiegers, The Expulsion of the Moriscos from Spain, Translated by Consuelo López-Morillas and Martin Beagles, Volume 56, Brill, Boston, w. d.
- 5- Moulay Belhamissi, marine et marins D'Alger (1518- 1830), T 1, T 2, bibliothèque nationale d'Algerie, Alger, 1996.
- 6- Robert C. Davis, Esclaves Chrétiens, Maitres Musulmans L'esclavage blanc en Méditerranée (1500-1800), Traduit de l'anglais (Etats-Unis) par Manuel Tricoteaux, Éditions Jacqueline Chambon, Amsterdam, 2006.

ثالثاً: الرسائل الجامعية.

أ- باللغة العربية:

- 1- بلبشير عمر، "جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى من القرن 6 إلى 9هـ/ 12-15م من خلال كتاب (المعيار) للونشريسي"، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران، الجزائر، دفعة 2010م.
- 2- بوخاوش مريم، "آثار سقوط الأندلس على بلاد المغرب الأوسط 6. 10هـ / 12. 16م"، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ الإسلامي الوسيط، قسم التاريخ، المدرسة العليا للأساتذة - بوزريعة، الجزائر، دفعة 2015م.
- 3- جودي إسماعيل، "الصناعة العسكرية في الجزائر في العهد العثماني 1518-1830"، رسالة مكملة لنيل متطلبات الماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 2009م.
- 4- حمّاش خليفة، "الأسرة في مدينة الجزائر خلال العهد العثماني"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه دولة في التاريخ الحديث، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة منتوري بقسنطينة، الجزائر، دفعة 2006م.
- 5- درياس لخضر، "المدفعية الجزائرية في العهد العثماني"، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 1990م.
- 6- دكاني نجيب، "الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية وردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر الهجري 10 هـ السادس عشر ميلادي 16م"، رسالة مكملة لنيل متطلبات الماجستير، تخصص التاريخ الحديث والمعاصر، كلية العلوم الإنسانية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 2002م.

- 7- رضوان نبيل عبد الحي، "جهود العثمانيين لإنقاذ الأندلس واسترداده في مطلع العصر الحديث"، أطروحة مكملة لنيل متطلبات الدكتوراه، قسم الدراسات العليا التاريخية، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، السعودية، دفعة 1987م.
- 8- رمادلية أمال، "الأسلحة المحفوظة بمتاحف الجزائر (دراسة أثرية فنية)"، رسالة مكملة لنيل متطلبات الماجستير في الآثار العثمانية، معهد الآثار، جامعة الجزائر 2، الجزائر، دفعة 2012م.
- 9- سرحان حليم، "تطور صناعة السفن الحربية بالجزائر على عهد العثمانيين (920-1246هـ) (1514-1830م) من خلال المصادر التاريخية والأثرية"، رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير في الآثار الإسلامية، معهد الآثار، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 2008م.
- 10- سعيود إبراهيم، الأسرى المغاربة في "إيطاليا" خلال العهد العثماني، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، دفعة 2010م.
- 11- سيدي محمد عمارة، "هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب الأوسط خلال القرن (7هـ/13م) ودورهم الثقافي"، رسالة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، قسم الحضارة الإسلامية، جامعة وهران (السانية)، الجزائر، دفعة 2013م.
- 12- عبد الصمد توفيق مزارى، "الجهاد البحري في عهدي المرابطين والموحدين"، رسالة مكملة لنيل متطلبات الدكتوراه في العلوم الإسلامية، تخصص تاريخ وحضارة، كلية العلوم الإسلامية، جامعة الجزائر، دفعة 2008م.
- 13- ابن عزوز نبيلة، "أندلسيو الجزائر آثارهم وتاريخهم حاضرة تلمسان - أنموذجا -"، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه، تخصص الدراسات الأدبية والحضارة الإسلامية، قسم

اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، الجزائر، دفعة 2018م.

14- غراف هجيرة، "السلطة والمؤسسة العسكرية في الجزائر خلال العهد العثماني (1519م-1671م)"، أطروحة مكملة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث (ل. م. د) في التاريخ الحديث، قسم التاريخ وعلم الآثار، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، جامعة وهران 1، الجزائر، دفعة 2021م.

15- غطاس عائشة، "الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700-1830 مقارنة اجتماعية - اقتصادية"، أطروحة مكملة لنيل شهادة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية، جامعة الجزائر، الجزائر، دفعة 2001م.

16- مختاري مباركة، "التحولات الاقتصادية بالجزائر العثمانية 1830-1518م"، مذكرة مكملة لنيل متطلبات الماستر في تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر، جامعة سعيدة، الجزائر، دفعة 2013م.

ب- باللغة الأجنبية:

1- François Martinez, "La permanence morisque en Espagne après 1609 (discours et réalités)", Doctorat d'Etudes Romanes, Faculté: Arts et Lettres, Langues et Sciences humaines et sociales, Spécialité: Espagnol, Université Paul-Valéry - Montpellier III, France, 1997.

2- Ünal TAŞKIN, "OSMANLI DEVLETİ'NDE KULLANILAN ÖLÇÜ VE TARTI BİRİMLERİ", YÜKSEK LİSANS TEZİ, TARİH ANABİLİM DALI, SOSYAL BİLİMLER ENSTİTÜSÜ, FIRAT ÜNİVERSİTESİ, Türkiye, 2005.

رابعاً: المقالات.

أ- المقالات باللغة العربية:

- 1- ابنسعيدان محمد، "الأسطول البحري ودوره في إيالة الجزائر خلال القرن 11هـ / 17م"، مجلة قضايا تاريخية، المدرسة العليا للأساتذة ببوزريعة، الجزائر، المجلد 02، العدد 07، 2017م.
- 2- أميلي حسن، "تاريخ بارباريا وقراصنتها للراهب بيير دان"، تعريب وتقديم حسن أميلي، المجلة التاريخية المغاربية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، زغوان، تونس، العدد 106، السنة التاسعة والعشرون، فيفري 2002م.
- 3- الباطني خالد، "عبيد في الجزائر: أسرى الولايات المتحدة الأمريكية في الجزائر 1785-1797"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر، المجلد 80، العدد 5، جويلية 2020م.
- 4- بن بلة خيرة، "حكام الجزائر في العهد العثماني من خلال الكتابات الأثرية"، مجلة الدراسات الأثرية، جامعة الجزائر 2، المجلد 11، العدد 2، 16 ديسمبر 2013م.
- 5- بلحميسي مولاي، "صناعة السفن في الجزائر أيام الأتراك (ق. 16-19)"، مجلة الدراسات الأثرية، جامعة الجزائر 02، المجلد 02، العدد 03، 10 نوفمبر 1995م.
- 6- البوسعيدي إبراهيم بن يحيى وآخرون، "الدور العسكري لموريسكيي الأندلس في الدفاع عن الجزائر العثمانية حتى نهاية القرن السابع عشر الميلادي"، حوليات آداب عين شمس، جامعة عين شمس، مصر، المجلد 50، عدد جانفي- مارس 2022م.
- 7- التميمي عبد الجليل، "لغة أواخر الموريسكيين وإقامتهم بالمغرب من خلال نصوص وفرمانات عثمانية جديدة"، المجلة التاريخية المغاربية، مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، السنة الرابعة والثلاثون، العدد 128، جوان 2007م.

- 8- _____، _____، "رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى دوج البندقية حول الموريسكيين"، نقلا عن مكتبة عين الجامعة الالكترونية (<https://ebook.univeyes.com/154081/pdf>).
- 9- جبور محمد، "البحرية الجزائرية في أواخر العهد العثماني"، مجلة عصور، جامعة وهران، الجزائر، المجلد 07، العدد 02، 30 ديسمبر 2008م.
- 10- الجداية كريمة سليمان، "القرصنة وحركة الجهاد البحري (لخير الدين بربروسا واخوانه) في شمال إفريقيا (1510م - 1546م)"، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مصر، المجلد 77، العدد 02، أبريل 2017م.
- 11- حنفي عائشة، "تجهيزات السفن الحربية بالجزائر في العهد العثماني"، حولية الاتحاد العام للآثاريين العرب "دراسات في آثار الوطن العربي"، اتحاد الجامعات العربية، المجلد 17، 2014م.
- 12- دراج محمد، "تأسيس إيالة الجزائر"، مجلة عصور، جامعة وهران، الجزائر، المجلد 09، العدد 01.
- 13- دهان سليمان، "الأبعاد الاجتماعية والاقتصادية لحركة البحرية الجزائرية خلال الفترة الحديثة"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، المجلد 22، العدد 01، 30 ديسمبر 2021م.
- 14- دو لاسيرنا ألفونسو، "الموريسكيون الإسبان في تونس والمغرب"، مجلة الأكاديمية، العدد 13، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، المغرب، 1998م.
- 15- دوالي خديجة، "مأساة طرد مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة: الأبعاد والتحليل"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، الجزائر، المجلد 06، العدد 23 - عدد خاص-، أوت 2016م.

- 16- رضوان نبيل عبد الحي، "تطور الأسطول العثماني في ظل أبرز الحضارات البحرية للبحر المتوسط"، مجلة المؤرخ الصغير، جامعة القاهرة، مصر، العدد 20، جويلية 1998م.
- 17- سباك رشيدة، "الرايس حميدو (1770-1815) وإنجازاته العسكرية"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري، الجزائر، المجلد 04، العدد 01، 21 فيفري 2022م.
- 18- سرحان حليم، "صناعة السفن الحربية بالجزائر في العهد العثماني من خلال المخطوطات"، المجلة المغاربية للمخطوطات، جامعة الجزائر 02، الجزائر، المجلد 07، العدد 01، 30 ديسمبر 2011م.
- 19- _____، _____، "صناعة السفن الحربية في الجزائر خلال العهد العثماني دراسة مستمدة من النصوص التاريخية والوثائق"، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة المسيلة، المجلد 01، العدد 05، 30 ديسمبر 2017م.
- 20- _____، _____، "نظرات حول السفن الحربية الجزائرية في العهد العثماني (دراسة هيستوريوغرافية)"، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة المسيلة، المجلد 05، العدد 09، 28 ديسمبر 2015م.
- 21- سعيدوني ناصر الدين، "الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لولايات المغرب العثمانية (الجزائر - تونس - طرابلس الغرب)"، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية 31، مجلس النشر العلمي بجامعة الكويت، الكويت، 2010م.
- 22- سعيود إبراهيم، "القرصنة المتوسطية خلال الفترة الحديثة القرصنة الإيطالية نموذجا"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، جامعة غرداية، الجزائر، المجلد 04، العدد 11، 30 جوان 2011م.

- 23- _____، _____، "جهود الكنيسة البابوية في تحرير الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال العهد العثماني (مقاربة تاريخية)"، مجلة الدراسات التاريخية، جامعة الجزائر 2، الجزائر، المجلد 17، العدد 01، 01 ديسمبر 2016م.
- 24- شترة خير الدين يوسف، "أضواء على النشاط البحري للأسطول الجزائري خلال العهد العثماني"، مجلة الآداب، جامعة بغداد، العراق، العدد 133، جوان 2020م.
- 25- شرفي جميلة، بوغفالة ودان، "الأسواق في بايلك الغرب الجزائري خلال العهد العثماني (1519 - 1830)"، مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، الجزائر، المجلد 08، العدد 01، جوان 2017م.
- 26- صديقي بلقاسم، "هجرة الأندلسيين إلى بلاد المغرب 15 - 17م: الدوافع والمراحل"، المجلة المغربية للمخطوطات، جامعة الجزائر 02، الجزائر، المجلد 13، العدد 05، جوان 2017م.
- 27- طوهارة فؤاد، "الهجرة الأندلسية إلى المغرب الأوسط السياق التاريخي والمجال الجغرافي"، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، العدد 15، 2015م.
- 28- العبيدي سمير عبد الرسول، "أثر التهجير القسري لموريسكيي الأندلس إلى المغرب الأوسط (الجزائر) (1492-1609م)"، مجلة دراسات تاريخية، بيت الحكمة قسم الدراسات التاريخية، العراق، المجلد 2018، العدد 47، 2018م.
- 29- بن عتو بلبراوت، "المنشآت الدفاعية بمدينة الجزائر ومينائها خلال العهد العثماني"، مجلة الحضارة، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، المجلد 11، العدد 14، 01 جويلية 2010م.
- 30- _____، _____، "بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني 1510-1554"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، الجزائر، المجلد 3، العدد 7-8، 22 جانفي 2013م.

- 31- فكاير عبد القادر، "مساهمة الجزائر في دعم الأندلسيين واحتضانهم (1492-1609م)"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، الجزائر، المجلد 05، العدد 17، 20 أفريل 2015م.
- 32- قبيج عامر أحمد، "السياسة الصليبية الإسبانية تجاه بلاد المغرب بُعيد سقوط غرناطة (1492-1504م/ 897-910هـ)"، مجلة جامعة القدس المفتوحة للأبحاث والدراسات، جامعة القدس المفتوحة، فلسطين، المجلد 02، العدد 38، جوان 2016م.
- 33- قدوري الطاهر، "مسألة القرصنة أو الجهاد البحري في المغرب الإسلامي: دراسة مقارنة"، مجلة عصور الجديدة، جامعة وهران 1، الجزائر، المجلد 10، العدد 2، جوان 2020م.
- 34- كاردياك لوي، الموريسكيون الأندلسيون والمسيحيون، تعريب وتقديم عبد الجليل التميمي، المجلة التاريخية المغربية، ديوان المطبوعات الجامعية (الجزائر)، تونس، ط 1، 1983م.
- 35- كاظم إلهام محمود، مشتاق بشير الغزالي، نور حسين، "اضطهاد مسلمي الأندلس (الموريسكيين - Moriscos) في عهد شارل الأول (كارلوس الخامس) 1516-1556"، مجلة كلية التربية للبنات للعلوم الإنسانية، جامعة الكوفة، العراق، العدد 20، 2017م.
- 36- محجوبي زهرة، "أهم مراكز الصناعة البحرية الحربية الجزائرية خلال العهد العثماني (1529-1830م) وتفاعلها مع جوانب الحياة"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المركز الوطني للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري، الجزائر، المجلد 01، العدد 01، جانفي 2019م.
- 37- محمد علي أورخان، "مأساة الأندلس وموقف العثمانيين"، مجلة حراء، Işık Özel Eğitim Tic، إستانبول، تركيا، العدد 05، أكتوبر - ديسمبر 2006م.
- 38- مرجاني عبد القادر، "هجرات الموريسكيين إلى الجزائر ومساهماتهم في مواجهة المد الإيبيري في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن السادس عشر الميلادي"، مجلة القرطاس، جامعة تلمسان، الجزائر، المجلد 06، العدد 11، جانفي 2019م.

- 39- الميلىق عبد القادر، "الأندلسيون المواركة وحضورهم في الصناعة البحرية بالجزائر في العهد العثماني"، المجلة المغاربية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، المجلد 09، العدد 01، جوان 2018م.
- 40- ميمى داود، "الهجرة الأندلسية ودورها في بناء القوة العسكرية للجزائر ما بين 1492م و1610م"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، المركز الوطنى للدراسات والبحث في التاريخ العسكري الجزائري، المجلد 02، العدد 01، جانفى 2020م.
- 41- هلاىلى حنىفى، "التنظيم العسكري للبحرية الجزائرية في العهد العثماني"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، المجلد 22، العدد 02، 15 ديسمبر 2007م.
- 42- —، —، "الحضور الأندلسى بالجزائر في العهد العثماني على ضوء سجلات المحاكم الشرعية"، المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية، مؤسسة التميمى للبحث العلمى والمعلومات، زغوان، تونس، العدد 25، أوت 2002م.
- 43- —، —، "القرصنة وشروط افتداء الأسرى الإسبان في الجزائر خلال العهد العثماني"، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، العدد 4، 2003م.
- 44- —، —، "القضية الموريسكية في الفضاء العثماني الجزائري على ضوء فرمانات العثمانية (1492-1614)"، مجلة الحوار المتوسطى، جامعة الجىلالى لىابس سيدي بلعباس، الجزائر، المجلد 5، العدد 6، 15 مارس 2014م.
- 45- —، —، "حكم هجرة الأندلسيين إلى المغرب العربى من خلال فتاوى الونشريسي"، مجلة الحوار المتوسطى، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، العدد 02، مارس 2010م.
- 46- —، —، "حكم هجرة الأندلسيين إلى المغرب العربى من خلال فتاوى الونشريسي"، مجلة الحوار المتوسطى، جامعة سيدي بلعباس، الجزائر، المجلد 02، العدد 02، مارس 2010م.

47- يوسف صرهودة، "سياسة السلطة والمجتمع في مواجهة الأوبئة والمجاعات في إيالة الجزائر خلال القرن 18 - 19م"، المجلة التاريخية الجزائرية، جامعة المسيلة، الجزائر، المجلد 06، العدد 01، 30 جوان 2022م.

ب- المقالات باللغة الأجنبية:

- 1- Braudel Fernand, "Les Espagnols de l'Afrique du Nord de 1492-1577", In R. A, Alger, 1928, n° 28.
- 2- CHouitem Arezki, "L'occupation d'Oran par les Espagnols en 1509", Revue d'histoire méditerranéenne, Université Bejaia, Algérie, N°: 02, juin 2020.
- 3- Devoulx Albert, "le registre des prisches maritimes", traduction: document Authentique et inédit, R. A, Alger, 1872.
- 4- _____, _____, "la marine de la régence d'Alger", R. A, Alger, N°: 77, septembre 1869.
- 5- Feraud Charles, "Histoire des villes de la province Constantine", (Bougie) Constantine, 1989.
- 6- Feridun BİLGİN, "ENDÜLÜS'TE KALAN SON MÜSLÜMANLARIN (MORİSKOLAR) İSPANYA'DAN SÜRGÜNÜ (1609-1614)", Dinbilimleri Akademik Araştırma Dergisi, Türkiye, Cilt 13, Sayı 2, 2013.
- 7- Michel Boeglin, "De la déportation à l'expulsion: évangélisation et assimilation forcée, Les morisques à Séville (1570-1610)", In: Cahiers de la Méditerranée. N°: 79, 2009.
- 8- Raja Yassine Bahri, (2009), "Aportes culturales des los Moriscos en Túnez", Revista de Historia Moderna, N°: 27, 2009.
- 9- Samia Chergui, "Les morisques et l'effort de construction d'Alger aux XVIIe et XVIIIe siècles", cahiers de la mediterrannee, journals openedition, N 79, 2009, Vu le: 6- 2- 2023, Citation du lien suivant: <https://journals.openedition.org/cdlm/4932>

خامسا - المعاجم والموسوعات:

- خطيب مصطفى عبد الكريم، معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، ط 1، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1996م.

سادسا - المراسيم:

- مرسوم طرد الموريسكيين من "مملكة بلنسية" ومرسوم طرد الموريسكيين من سائر الممالك الإسبانية، ترجمة محمد عبد المومن، دورية كان التاريخية، العدد 34، ديسمبر 2016م.

سابعا - المقابلات الشخصية:

- مقابلة مع عبد الجليل التميمي، مقر مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، يوم: 5 جانفي 2023م، سا: 12:00 صباحا.

ثامنا - المداخلات والملتقيات:

1- خليفي رفيق، "الأندلسيون وتنشيط حركة الواجهة البحرية للمغرب الأوسط"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المنعقد يومي 07-08 ديسمبر 2009م، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر 02، الجزائر.

2- داودي مصطفى، "دور البحرية الجزائرية في القضايا الإنسانية الخارجية بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر الميلاديين"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المنعقد يومي 07-08 ديسمبر 2009م، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط، جامعة الجزائر 02، الجزائر.

3- سعيدوني ناصر الدين، "الأندلسيون (الموريسكيون) بمقاطعة الجزائر ((دار السلطان)) أثناء القرنين السادس عشر والسابع عشر"، ملتقى الدراسات الموريسكية، 4-9 ديسمبر 1990م، إسبانيا.

4- هاشم هشام سوادي، "البحرية الجزائرية في القرن السادس عشر من خلال كتاب تحفة الكبار في أسفار البحار لكاتب جلبي (1608-1656)"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ

الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، المنعقد يومي 07-08 ديسمبر 2009م، مخبر البناء الحضاري للمغرب الأوسط (الجزائر)، جامعة الجزائر، الجزائر.

5- هلايلي حنفي، "ابا عروج وبدايات تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة"، الندوة العلمية "المجتمع والدولة في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر"، مخبر مصادر وتراجم، جامعة وهران 1، الجزائر، 28 أبريل 2016م.

6- —، —، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال الملتقى الدولي الموانئ الجزائرية عبر العصور "سلما وحربا"، جامعة الجزائر، الجزائر، 07-08 ديسمبر 2009م.

7- —، —، "مشروع البحرية الجزائرية في عمليات إنقاذ الموريسكيين الأندلسيين خلال القرنين 16 و17م"، أعمال المؤتمر الدولي الرابع عشر للدراسات الموريسكية - الأندلسية "مهدة إلى الأستاذ الإسباني ميكال دي إيبالثا"، منشورات مركز الدراسات والترجمة الموريسكية، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، ماي 2011م.

تاسعا: المواقع الإلكترونية.

أ- باللغة العربية:

1- الأشرعة السوداء "وثائقي عن نكبة الموريسكيين"، برنامج تحت المجهر، قناة الجزيرة، تم بثه بتاريخ: 12-12-2007م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 03-06-2022م، متاح على

الرابط التالي: <https://www.youtube.com/watch?v=ht5kuFWT8Ck>

2- أورجياس لوران، "علم المواد: منسوجات تتحوّل من الحالة المرنة إلى الصلبة تحت تأثير الضغط"، مجلة nature، تم نشره بتاريخ: 23-08-2021م، تم الاطلاع عليه بتاريخ، 07

- 01-2023م، متاح على الرابط التالي:

<https://arabicedition.nature.com/journal/2021/08/d41586-021-02116-2>

- 3- جودي أحمد، "ما هي أيام الحسوم"، موقع عبارات وكلمات، نشر بتاريخ: 02- 20- 2018م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 19- 01- 2023م، مُتاح على الرابط التالي:
<https://www.kalimat1.com/vb/showthread.php?t=1372>
- 4- حسين ريما، "كم عدد الدول الإسكندنافية"، موقع موضوع، نشر بتاريخ: 19 سبتمبر 2021م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 29 مارس 2023م، مُتاح على الرابط التالي:
<https://2u.pw/Yh9ueB>
- 5- حمادي عبد الله، "هجرة الأندلسيين إلى الجزائر بدأت مع دخول المرابطين إلى الأندلس في سنة 1085م"، حوار مع الخير شوار لجريدة الشعب أونلاين (جريدة إلكترونية) يوم 03 فيفري 2021م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 01 جوان 2022م، مُتاح على الرابط التالي:
<https://cutt.us/6O2Rq>
- 6- ضمراوي بانا، "ما هو البرغل"، موقع موضوع، تاريخ النشر: 4- 12- 2017م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 29- 01- 2022م، مُتاح على الرابط التالي:
<https://cutt.us/w8QhC>
- 7- عزيز فرحاني طارق، "البحرية الجزائرية خلال الفترة العثمانية (1518- 1830م)"، يومية أقلام الوسط (إلكترونية)، تم الاطلاع عليها بتاريخ: 01- 01- 2022م، مُتاح على الرابط التالي:
<https://cutt.us/pvQEp>
- 8- قاموس المعاني الجامع، "تعريف ومعنى جلفط"، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 11- 02- 2022م، مُتاح على الرابط التالي: <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D8%AC%D9%84%D9%81%D8%B7>
- 9- قوران أرجمند، "نقل الأتراك الجزائريين لمسلمي الأندلس إلى شمال إفريقيا ونتائجه"، ترجمة من التركية عامر الهنيني، مراجعة وتدقيق منذر أبو هواش، نقلا عن: عامر الهنيني، دور أترك الجزائر في نقل مسلمي الأندلس إلى شمال إفريقيا ونتائجه، الجمعية الدولية للمترجمين واللغويين العرب، نشر بتاريخ: 12 / 01 / 2009م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 22 / 11 /

- 2021م، مُتاح على الرابط التالي:
<http://www.wata.cc/forums/showthread.php?39437>
- 10- مجهول، "الأسطول البحري الجزائري"، موقع شبكة بحوث وتقارير ومعلومات، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 24-11-2021م، مُتاح على الرابط التالي:
<https://arbyy.com/detail1316779123.html>
- 11- مجهول، قصة قصيدة السيف أصدق إنباء من الكتب، منصة عالم الأدب، نشر بتاريخ: 10-02-2022م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 05-03-2022م، مُتاح على الرابط التالي:
<https://2u.pw/gHO1eL>
- 12- مسكين يونس، "سلا.. أساطيل جمهورية القراصنة تحكم أعالي المحيط الأطلسي"، موقع الجزيرة الوثائقية، نشر بتاريخ: 02-02-2022م، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 17-05-2023م، مُتاح على الرابط التالي: <https://cutt.us/xQILF>
- 13- معرفة، "جغرافيا إسبانيا"، موقع معرفة، تم الاطلاع عليه بتاريخ 19-01-2021م، مُتاح على الرابط التالي: <https://cutt.us/IFzuJ>
- 14- موقع sensagent، "مملكة أراجون"، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 15-09-2021م، مُتاح على الرابط التالي: <http://dictionary.sensagent.com/ar-ar/مملكةأراجون/>
- 15- "وصف ومعنى وتعريف كلمة يلت"، موقع كلمات، تم الاطلاع عليه بتاريخ: 18-02-2023م، مُتاح على الرابط التالي:
[/https://kalimmat.com/define/%D9%8A%D9%84%D8%AA](https://kalimmat.com/define/%D9%8A%D9%84%D8%AA)
- ب- باللغة الأجنبية:

1- Hana Menasria, "Nouvelles révélations sur le canon Baba Merzoug", Journal de la Liberté. Algérie, Publié 18 Septembre 2021 à 19:05, Cité du lien suivant: <https://www.liberte-algerie.com/culture/nouvelles-revelations-sur-le-canon-baba-merzoug-365177>

2- Michael Ray, "Kingdom-of-Navarre historic kingdom", Spain, britannica, It has been viewed: 24- 08- 2021, Citing the following link: <https://www.britannica.com/place/Kingdom-of-Navarre>

3- Mikel de Epalza, "Los moriscos antes y después de la expulsión", Biblioteca Virtual, Posté sur 2019, Vu le: 25- 11- 2022, Citado del siguiente enlace:

<https://www.cervantesvirtual.com/nd/ark:/59851/bmc0p100>

4- Safia Benselama-Messikh, "Les fortifications ottomanes d'Alger (1516-1830)", site Web Hal open science, Publié le 26- 10- 2016, Accédé le 02-01-2022, Citation du lien suivant:

<https://halshs.archives-ouvertes.fr/halshs-01309755>

الفهارس

— فهرس الأعلام

— فهرس الأماكن

— فهرس المحتوى

- أ -

- أبي الحسن "الغالب بالله"..... 33
أبي العباس الرنداحي..... 131
أبي حمو الأول..... 193
أبي عبد الله..... 34, 57, 117
أبي عبد الله الزغل..... 34
أبي عبد الله محمد..... 34, 57, 117
أحمد الأول..... 110, 111
أحمد المقرئ .. 79, 80, 87, 88, 109, 205
أحمد بن القاضي..... 64, 66, 68
أحمد بن قاسم الحجري..... 99, 107
أحمد بو علي الأشبوني..... 266
أحمد توفيق المدني, 29, 32, 35, 36, 76
119
أرجمونت كوران..... 88
إسحاق..... 56, 118
أسريوس..... 239
إسكندر بروجيا..... 49
إسماعيل الصفوي..... 90
أشرف سيف الدين..... 91
إكسماوث..... 137
الأب دان..... 140, 179
الآبلي..... 118
الأوسطى موسى..... 229, 232
الباشا مصطفى..... 202
إبراهيم بن سلمون هاليفي..... 120
آبلة..... 118
ابن أبي العيش الخزرجي الإشبيلي..... 117
ابن اشنهو..... 88, 132, 160, 182
ابن الأحمر..... 31, 32
ابن الرميمي..... 32
ابن تاشفين الأول..... 40
ابن رامول..... 282
ابن رقية التلمساني..... 59
ابن سيد الناس..... 117
ابن عبد ربه..... 52
ابن هود..... 31
أبو الحسن علي الإشبيلي..... 116
أبو الوليد إسماعيل..... 33
أبو بكر..... 59, 117
أبو تاشفين..... 193
أبو تمام حبيب بن أوس الطائي..... 92
أبو حمو موسى الثاني..... 86
أبو عبد الله محمد بن يوسف (الفقيه)..... 32
أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر..... 31
أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي
الإشبيلي..... 116
أبو مدين شعيب بن الحسين الأنصاري ... 116
أبي الحجاج يوسف..... 33

الباكى 115	إيزابىلا , 29, 30, 33, 34, 36, 45, 49, 72,
التمكروتى 52, 116	75, 86, 92, 95
الحاج إبراهيم بن موسى الثغرى 235	ابن زهو 52
الحاج برهوم 232	ابن الصايغ النحوى 24
الحاج حسين 69	أبى البقاء صالح بن شريف 89
الحاج على آغا 232	إبراهيم موسى 229
الحسن بن محمد 118	ابن الأحمر 31
الحسن على 116, 117	ابن الشاهد 282
الرايس بلانكو 266	ابن الكبابطى 282
الرايس حميدو 142, 179, 180, 266	ابن تشيكو 282
السيد محمد 283	ابن زوان 282
الغنى بالله محمد بن يوسف 33	ابن هنى 282
ألفريدوس 239	أبو على الرنداحى 131
ألفونسو الثامن 31, 73, 112, 120	أبى الحجاج 34
القلايسى 119	أحمد 90, 118
الكاردينال خزيمينيس 224	الإدريسى 268
المزارى 52, 53	البكرى 268
المستنصر بالله 131	الرايس حميدو 136
المسيو بطره مارتين 92	الرايس عمر 136
المنصور بن الناصر بن علناس الحمادى ... 84	الرايس محمد 136
المنصور محمد بن أبى عامر 131	الرايس مصطفى 136
اليعقوبى 268	الغناس بن طاهر العبدلأوى 53
أندريا دوريا 233	المقدسى 268
إيدىن رايس 94, 255	إلىاس 56
	أنطونىو 221

- 221 أنطونيو مايسترو - ت -
 284 أوسطى علي الجزائري
 92 أيدن باشا
 247 ايدين رايس
 33 أبو عبد الله محمد
 34..... ثريا
 - ج -
 57, 89, 90, 92..... بايزيد الثاني
 54 بدرو نافارو
 93 برتيف باشا
 119 بن النيقرو
 119 بن بكير
 109, 256..... بن سحنون الراشدي
 266 بن علي الحرّار
 119 بو الركائب
 283 بوضربة
 262 بوليو بيرساك
 287 بوم
 119 بوناتيرو
 93, 61 بيرري رايس
 282 برحال
 119 بلانكو
 119 بن الكبابطي
 119 بوضربة
 152 تشاو جو كوا
 - ث -
 34..... ثريا
 - ج -
 91..... جم
 91..... جنيد
 267 جواد يانو
 58, 90, 129, 130 جودت باشا
 221 جوفروا
 264 جون لوفاشي
 91..... جويلس الثاني
 - ح -
 68..... حاجي حسين آغا
 82, 118, 119, 120 حسام الدين شاشية
 129 حسان بن ثابت
 50, 52, 217.... (ليون الإفريقي) حسن الوزان
 115, 275 حسن باشا
 96..... حسن فنزيانو
 111 حسين داي
 38, 49, 62, 64, 66, 74, حنفي هلايلي
 75, 77, 81, 82, 83, 94, 96, 99, 106,
 108, 115, 116, 134, 135, 156,

168, 169, 170, 171, 179, 180,
182, 183, 184, 185, 186, 187,
189, 196, 199, 200, 215, 220,
225, 226, 227, 228, 246, 247,
253, 255, 256, 257, 258, 260,
262, 267, 269, 270, 271, 273, 275,
279, 281, 282

91 حيدر
252 حسن آغة
247, 256..... حسن فنزيانو

- خ -

98 خايمي بليدا
111 خليل باشا
28 خوان الثاني
119 خوان أنطونيو فيسنت
98 خوان دي ربيرا
118 خوان كرديناس
25, 28, 47, 48, 58, 59, 60, 61, 62, 63, 64, 65, 66, 67, 68, 69,
88, 90, 93, 94, 95, 114, 133, 146,
160, 191, 212, 224, 225, 251, 252
25 خير الدين التونسي
106 خوان جيرونيمو
282 خوجة

خير الدين بربروس, 56, 63, 68, 70, 114,
136, 160, 179, 237, 247

خيرونيمو خابيري..... 98
خيميناس..... 45, 46, 118

- د -

دحية الكلبي..... 24
دوبون 203
دولا فاي 271
دون ألفنسو هيرناندو 106
دون أوغسطين دي ميثيا 100
دون باسكوال بورونات 78
دون ديبغو فرنانديز دي كورطوبا 50
دون روي روكا 51
دون لويس كاريو دي طوليدو 101
دون مارتن القرطبي 275
دي أقيلا 106
دي سنتا كروز 106
دي فولكس..... 110, 220, 243, 256
دييغو ديفيرا 224
دييقوا فيرا 65
درغوث 247

- ر -

روزي 210
ريبيرا 80, 98

- ز -	سيمون بفايفر 230
زاوي بن كبيسة 52	سيمون دي دانسر 146, 220, 221
- س -	سعد الجزري 131
سالم التومي 42, 64, 65, 66	سوسان 119
سانتكرز 106	سيدي مورينو 284
سعاد ماهر 126, 153, 154, 164, 165, 167	- ش -
سعد 34, 53, 75, 76, 79, 84, 99, 119, 141, 191, 192, 194, 195, 202, 208, 213, 226, 229, 232, 233, 234, 235, 266, 267, 282, 283, 284	شارلكان 95, 96, 134, 203, 225, 226
سعيد الشويهد 266, 282, 283	شاو 203
سليم الأول 62, 67, 68, 69, 90, 91	شكيب أرسلان 26
سليم التومي 54, 64	- ص -
سليم الثاني 199, 261	صالح باشا 140
سليمان الشويهد 282	صالح رايس 63, 136, 247
سليمان القانوني 69, 95	صالح رايس 94, 252, 255
سمير عبد الرسول العبيدي 83, 84, 116, 120, 262, 282	- ض -
سوبرينو 114	ضون خوان 34
سيدي أحمد بن الحاج عمار 283	ضون فرناندو 34
سيدي عبد الله بن عايشة 265	- ط -
سيسنا دي ماريا دي بينا 118	طارق بن زياد 130
سيسنيروس 77	- ع -
	عائشة الحرة 34
	عبد الجليل التميمي 78, 93, 94, 111, 252
	عبد الحكيم الذنون 31, 32, 33, 34, 36

- عبد الحميد بن زيان بن أشنهو, 88, 73, 42,
132, 156, 161, 182, 185, 186,
188, 214, 218, 219, 244, 245,
254, 255
- عبد الدار بن قصي بن كلاب 118
- عبد الرحمن, 109, 79, 67, 62, 61, 43,
114, 116, 131, 156, 207, 250, 266
- عبد الرحمن الأوسط 250
- عبد الرحمن الثعالبي 156
- عبد الرحمن الناصر 250
- عبد الرحمن بن محمد بن رماحس 131
- عبد الرحمن علي الحجي 79
- عبد الرحيم بن محمد بن أبي العيش 117
- عبد العزيز 64, 85, 86, 131
- عبد القادر المشرفي 24, 25, 43
- عبد القادر المشرفي الجزائري 24, 25, 43
- عبد الكريم غلاب, 257, 85, 46, 39, 38, 37,
عبد الله حمادي 73, 84
- عبد الله عنان 35, 228
- عبد الله محمد بن سلبطور الهاشمي 131
- عبد الملك بن مروان 129
- عرب أحمد باشا 199, 233
- عروج, 63, 62, 61, 60, 59, 57, 56, 49,
64, 65, 66, 68, 88, 114, 136, 142,
146, 160, 179, 224, 237, 247, 255
- عقبة بن عامر 129
- علج علي 199, 227, 261, 264
- علي الثغري 232
- علي باشا 94, 232, 247, 261
- علي بتشيني 136, 179, 276
- علي ريس 57
- عمر باشا 184
- عمر بن الخطاب رضي الله 128, 129
- عمر بن العاص رضي الله عنهما 128
- عيسى بن الغريب العربي 53
- عبد الله بن رياحين 131
- عبد الله بن شعيب 131
- علج علي 136, 252
- علي 229
- غ -
- غانديا 113
- غلاسيران دي بينوس 275
- غوفيا 275
- غالب بن عبد الرحمن 131
- ف -
- فاركاس 66
- فاطمة 274
- فرانسييسكو خيمينيس دي سيسنيروس ... 45, 72
- فرانسييسكو غوميث دي ساندوفال 98

- 28, 29, 30, 33, 35, 36, 37, 45, فرديناند
49, 50, 92, 95
45 فرديناند بروديل
78 فرناندو دي تلابيرا
27 فرناندو غنصالس
95, 134 فرنسوا الأول
79 فرنسوا مرتيناز
107, 108, 109 فريدون بيلجين
83, 85, 112 فؤاد طوهارة
227 فوكفوليس
80, 98, 99 فيليب الثالث
80, 95, 226, 227 فيليب الثاني
107, 237 فيي هنري ليون
- ق -
- 65 قارة حسن
57 قانصوه الغوري
90, 92 قايتباي
234 قايد صفا
24 قلاوون
57 قورقود
- ك -
- 56 كاترينا
154, 155, 156, 157, 204, 214, 215, 230, 231, 276
101 كاراينا
114 كاستيار
146 كرد عبيد باشا
279, 280 كروازيل
92 كمال راييس
275 كورتييز
45, 46, 54, 55, 58, 64, 121, 123, 139, 140, 157, 158,
159, 169, 201, 221, 240, 257,
260, 261, 268, 274, 277, 279
108 كوسا مصطفى باشا
- ل -
- 161 لوباج
287 لومير
78, 216 لوي كاردياك
284 لويس ثاباتا
106 لويس فرخادو
- م -
- 112 ماشيو كار
129 معاوية
151 ماركو بولو
101 ماركيز كاراينا
53, 195 مارمول كربخال
46 مبارك بن محمد المليي

- 110 متفرقة إبراهيم أفندي
 256 محمد التواتي
 56, 67, 68 محمد الصلابي
 56, 91 محمد الفاتح
 31 محمد الناصر
 118 محمد بن إبراهيم
 118 محمد بن أبي بكر
 52 محمد بن أبي عون
 118 محمد بن غلبون المرسى
 283 محمد بن يوسف الشويهد
 39, 47 محمد خير فارس
 98, 101 محمد عبد المومن
 126, 127, 128 محمد ياسين الحموي
 184 محمود الثاني
 266 مراد الكبير غواديانو
 247, 256, 264, 284 مراد رايى
 283 مصطفى بن أحمد بن محمد الشويهد
 86, 87, 92, 95, 96, 108, مصطفى داودي
 264
 229, 231, 234 موسى الأندلسى الحميرى
 235
 35 موسى بن أبي الغسان
 118 ماغلينا
 284 محمد الجيار
 284 محمد غرانادينو
 284 محمد قايه
 101 مونتي سون
 130 موسى بن نصير
 54 مولاي عبد الله
 119 مولينا
 119 موناسيريو
 - ن -
 142 نابليون
 139 ناربروك
 43, 74, 115, 123, ناصر الدين سعيدوني
 137, 142, 143, 183, 202, 203,
 204, 218, 220, 221, 255, 256, 286
 108 نافاريتي
 127 نوح عليه السلام
 41, 42, 43, 44, 49, 56, نيقولاى إيفانوف
 57
 - ه -
 123, 273, 274 هابنسترايت
 24 هرقل
 121, 157, 169, 194, 216, 251, هايدو
 258, 259, 260, 270, 271, 278, 285
 76 هرناندو

- و -	يحي بوعزير, 52, 53, 54, 55, 60, 64, 65
وائل بن حجر الكندي الحضرمي اليمني .. 117	134, 136, 144, 225, 241, 242
- ي -	يعقوب 56, 101, 152
ياقوت الحموي 25, 220	يعمر بن مالك بن بهثة 117
	يغمراسن بن زيان..... 38
	يوسف ... 30, 31, 32, 40, 42, 212, 283

باستثناء "الجزائر" نظرا لكثرة ورودها في البحث

– أ –

أراغون, 25, 26, 27, 28, 29, 33, 37, 47,	الأناضول, 62, 69, 70, 91, 219, 228, 237
72, 73, 97, 105, 107, 120, 131,	الأندلس, 24, 25, 26, 27, 29, 31, 32, 34,
194, 216	35, 36, 37, 38, 39, 46, 49, 52, 56,
أرجونة 31	58, 60, 67, 69, 72, 73, 74, 76, 79,
أرزيو 106, 115	80, 81, 83, 84, 85, 86, 87, 88, 89,
أزمير 219	90, 92, 93, 94, 95, 96, 97, 99, 105,
إسبانيا, 24, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 37,	107, 108, 112, 114, 117, 118,
42, 43, 46, 47, 49, 50, 51, 54, 58,	120, 131, 134, 191, 192, 193,
66, 72, 73, 74, 75, 78, 80, 81, 82,	195, 196, 198, 199, 200, 204,
87, 90, 93, 94, 95, 96, 97, 98, 99,	205, 206, 207, 210, 223, 225,
101, 103, 104, 105, 106, 107, 108,	227, 230, 234, 237, 242, 244,
110, 111, 112, 113, 114, 121, 134,	246, 248, 249, 250, 256, 257,
136, 194, 217, 220, 222, 225, 227,	263, 264, 282, 286, 287
243, 244, 252, 254, 258, 263, 264,	الباب العالي, 48, 67, 69, 89, 138, 143,
275, 278	199, 243, 251, 261
إسطنبول 58, 67	البحر الأبيض المتوسط, 24, 26, 27, 30, 44,
أشيونة 24	47, 48, 50, 51, 58, 81, 82, 92, 93,
إشبيلية, 27, 28, 31, 47, 75, 76, 78, 83,	96, 112, 130, 131, 132, 134, 135,
97, 106, 118, 250	148, 149, 150, 152, 163, 166,
الأرناؤط 90	173, 177, 213, 215, 241, 244,
الإسكندرية 53	247, 249, 254, 259, 262, 264,
الأسور 266	265, 284

البحر الأدرياتيكي..... 141	المحيط الأطلسي, 141, 131, 49, 27, 24
البحر المحيط..... 130, 25	181, 215, 223, 249, 264, 284, 286
البرتغال, 106, 99, 49, 48, 26, 25, 24	المحيط الهندي..... 152, 153, 165, 166
131, 140, 142	المدينة..... 40, 41
البشارات..... 114, 75, 264	المرسى الكبير, 106, 59, 52, 51, 50, 45
البليدة 115, 94	228
البندقية 110, 111, 155, 173, 207	ألمرية, 131, 85, 84, 51, 31, 30, 205
البنيون 229, 224, 66, 54	229
البيازين..... 87	المغرب, 39, 38, 37, 36, 32, 29, 28, 26
البيرة 85	40, 41, 42, 43, 44, 45, 48, 49, 50,
البيرينيه 113	55, 56, 57, 73, 74, 76, 77, 78, 81,
الجبل الأسود 30	83, 84, 85, 87, 88, 92, 107, 111,
الحجاز 127, 91, 62	112, 117, 118, 121, 131, 132,
الخالصة..... 130	134, 143, 154, 192, 193, 202,
الخرز 268	203, 204, 205, 211, 213, 214,
الزاب 40, 41	218, 221, 227, 230, 242, 245,
الزلاقة 84	246, 247, 251, 252, 261, 263,
السيبوس..... 219	265, 267, 286
القسطنطينية, 207, 199, 160, 121, 48	المغرب الأدنى..... 38, 39, 40, 132
285	المغرب الأوسط, 43, 42, 41, 39, 38
القصبه..... 202, 253	44, 45, 50, 55, 56, 74, 83, 84, 85,
القل 115, 218, 219, 222	117, 118, 119, 121, 132, 134,
القلية..... 115	193, 205, 213, 227, 246, 247, 267
ألمانيا 42, 48, 95	المغرب الأقصى 37, 40, 132, 264
	المغرب العربي..... 37

المقطع 115	البلقان 219
المورة 90	البلدية 115, 201
الهند 97, 128, 130, 164, 166, 249	البندقية 91, 110
الوادي الكبير 32, 41	الحضنة 41
اليدوغ 219	الدنمارك 142
أليكانت 96, 106	الصين 53, 249
اليمن 53, 128, 223, 249	القاله 219
أوروبا, 144, 136, 134, 126, 123, 48,	المجر 91
219, 225, 214, 166, 145,	ألمرية 31
280, 272, 263, 248, 242, 228,	الهند 53
286, 285, 283	اليونان 137
إيرلندا 142, 284	أمريكا 138, 280
أيسلندا 272, 284	أندرش 88
إيطاليا, 246, 179, 161, 131, 92, 48, 42,	إندونيسيا 164
286	أبيرون 106
إينيس 101	أرزيو 109
أبذة 117	إسكندرونة 219
إنجلترا 110, 142	- ب -
أنصنا 220	باب البحر 232, 234
المسيلة 85	باب الجزيرة 234
ابن العروس 105	باب الواد 65, 120, 214
أشبونة 28	باب عزون 214, 234, 277
الإديسي 268	بجاية, 63, 62, 61, 60, 59, 54, 53, 41,
الآفاق 105	64, 68, 84, 85, 115, 116, 201, 214,
البروفانس 48	217, 218, 221, 225, 229, 250, 267

26, 73 برشلونة	38, 39, 40, 47, 50, 52, 66, 67, 68, 77, 84, 85, 86, 106, 109, 112, 115, 117, 118, 120, 121, 224, 228
27 برغش	54, 65, 66, 85, 116, 119, 224, 267
88 بلفيق	204 توغرت
26, 84, 97, 98, 99, 100, 101, 105, 112, 114, 228, 255	38, 40, 41, 57, 59, 60, 63, 67, 73, 78, 93, 107, 111, 123, 129, 162, 180, 196, 202, 203, 207, 218, 221, 252, 286
101 بنتو	113 تارازونا
85 بني جد ليداس	85 تنمير
203, 211 بني راشد	- ج -
60, 64, 203 بني عباس	25, 30, 60, 89, 141, 181, 266
267 بني مزغنة	جربة 57, 132, 285
118 بورتو	جزر البليار 25, 47, 120, 121
268 بونة	جزر الكناري 142
24 برشلونة	جزيرة مدلي 56
105 برغش	جزيرة جوانفيل 216
130 بلرم	جنوة 42, 99, 285
28, 77, 83 بلنسية	جيان 28, 32, 75, 117
219 بني صالح	جيجل 53, 59, 62, 64, 65, 214, 218, 222, 267
164 بورما	جزيرة سيسيليا 90
204 بوسعادة	
- ت -	
267 تامدقوست	
219 تركيا	
119 تروخيو	
85, 112, 121, 266 تطوان	

جفية 105	سطيف 222
- ح -	سلا.....240, 264, 284
حصن العقاب 31, 38, 76	سومبورت 106
حلق الوادي..... 57, 60	سيمانكاس 226
- د -	- ش -
دانية 28,99, 105, 250	شبه الجزيرة الإيبيرية, 24, 25, 26, 28, 30
دلس 41, 94, 84, 115	73
- ر -	شبه الجزيرة العربية..... 128
رندة 33, 85	شرشال, 41, 63, 65, 115, 147, 195, 201,
رودس 57, 129	202, 215, 216, 219, 221, 233, 257
روسيا 137	شريس 32
روما 48	شمال إفريقيا, 27, 32, 46, 47, 49, 66, 69,
رأس تيزيرين 216	72, 73, 74, 89, 97, 101, 102, 103,
رنشفالة..... 106	107, 121, 207, 208, 238, 263,
- ز -	275, 280
زواوة 66	شنت ياقب 130, 131
- س -	شنكلانا 101
سرقسطة..... 28, 113	شاطبة 28
ساقوننة..... 105	- ص -
سردينيا 42, 47, 92	صفاقس..... 85
سوسان 119	صقلية 27, 42, 47, 92, 99, 285
سوسة 85	- ط -
	طرطوشة..... 28, 250

24, 28, 72, 97..... طليطلة	244 قرطاج
49, 110 طرابلس الغرب	32..... قرمونة
- ع -	40, 41, 59, 115, 121, 222 قسنطينة
54, 115 عنابة	25, 26, 27, 28, 29, 31, 33, 34, قشتالة
- غ -	35, 37, 45, 72, 73, 80, 105, 115,
106 غراو	131
25, 26, 27, 28, 29, 30, 31, 32, غرناطة	131 قصر أبي دانس
33, 34, 35, 36, 37, 39, 41, 45, 49,	34..... قصر الحمراء
71, 72, 73, 74, 75, 76, 77, 79, 80,	24, 275 قطلان
83, 84, 85, 86, 87, 95, 97, 105,	116..... قنطانيا
109, 116, 118, 119, 131, 132,	85..... قابس
192, 193, 194, 216, 222, 230,	28, 31, 75, 77, 97, 117..... قرطبة
251, 256, 257, 259	105 قطالونيا
275 غوفيا	- ك -
- ف -	238 كورسيكا
37, 39, 88..... فاس	113, 194, 285..... كاتالونيا
24, 25, 42, 53, 91, 95, 107, 110, فرنسا	- ل -
131, 134, 162, 227, 242, 272, 286	113 لمانشا
203 فليسة	207 ليبيا
42 فلورانزا	286..... ليفورنو
42 فينيزيا	28..... لاردة
- ق -	105 لقنت
105, 107..... قرطاجنة	42..... لونبارديا
	27..... ليون

40, 41, 225.....	مليانة
105.....	منقوفة
101.....	مونتي سون
- ن -	
47, 92, 285.....	نابولي
25, 26.....	نافار
91.....	نجد
24, 30.....	نهر الوادي الكبير
94.....	نهر أوفيللا
24.....	نهر دويره
267.....	نيودال ريال
24.....	نهر تاجه
142.....	نيوفاوندلاند
- ه -	
118.....	هنين
219, 272, 286.....	هولندا
- و -	
32, 80, 85.....	وادي آش
86.....	وادي الورييط
41, 224.....	وادي شلف
204.....	وادي ميزاب
222.....	وادي زناتي
- م -	
38.....	مراكش
85.....	مرسى الدجاج
266.....	مادر
77.....	ماردة
92, 106, 130, 132, 243.....	مالطا
31, 34, 50, 105, 205, 250, 257.....	مالقة
94, 116, 224.....	متيجة
24, 29, 80.....	مدريد
85.....	مرسى أرزيو
145, 266, 286, 287.....	مرسيليا
55, 83, 109, 115, 132, 203.....	مستغانم
24, 25, 34, 35, 53, 56, 66, 90.....	مصر
91, 92, 95, 99, 114, 126, 127, 128,	
145, 152, 173, 206, 215, 220,	
229, 230, 238	
145, 203.....	معسكر
118.....	مكناس
117.....	منبج
215.....	منطقة القبائل
62, 250.....	مينورقة
28, 144, 250.....	ميورقة
28, 31, 105, 205.....	مرسية
55, 106.....	مزغان

الصفحة	العنوان
/	البسمة
/	الإهداء
/	شكر وتقدير
/	قائمة المختصرات
22 -1	مقدمة
69 -24	الفصل التمهيدي: الأوضاع السياسية السائدة في الأندلس والمغرب الأوسط أواخر القرن 15م وبدايات القرن 16م
24	أولاً: الأوضاع السياسية السائدة في الأندلس
24	1- بدايات تشكل الوحدة الإسبانية
30	2- سقوط غرناطة وتشكل إسبانيا الموحدة
38	ثانياً: الأوضاع السياسية السائدة في المغرب الأوسط
38	1- تقهقر الدولة الزيانية
44	2- التحرشات الإسبانية
44	أ- أسباب التحرشات
48	ب- مجريات التحرشات
55	3- انضمام المغرب الأوسط إلى الدولة العثمانية
122 -71	الفصل الأول: ظروف ومجريات الهجرة الأندلسية إلى الجزائر
71	أولاً: أسباب الهجرة
81	ثانياً: مراحل الهجرة
82	1- الهجرة الاختيارية (قبل سقوط غرناطة)
85	2- الهجرة الاضطرارية (بعد سقوط غرناطة)
96	3- الهجرة الإجبارية (1609- 1614م)

113	ثالثا: استقرار الأندلسيين بالجزائر
187 - 124	الفصل الثاني: نشأة وتطور البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني
124	أولا: ظروف وعوامل نشأة الأسطول الجزائري
124	1- تمهيد
131	2- الظروف والعوامل
135	ثانيا: عتاد الأسطول
136	1- السفن
171	2- التجهيزات الحربية
176	ثالثا: البنية التنظيمية للجيش البحري
180	1- إدارة البحرية الجزائرية
182	2- الطاقم المساعد والمرافق للأسطول البحري
233 - 189	الفصل الثالث: الدور الصناعي والدفاعي للمهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية
189	أولا: مساهمتهم في التصنيع
189	1- تمهيد
199	2- صناعة الأسلحة وتحضير البارود
199	أ- صناعة الأسلحة
203	ب- صناعة وتحضير البارود
210	3- صناعة وتجهيز السفن
220	ثانيا: مساهمتهم في الدفاع
220	1- مشاركتهم في التصدي للحملة البحرية على الجزائر
226	2- مشاركتهم في بناء وتشيد العمارة العسكرية

285 - 235	الفصل الرابع: الدور الجهادي والتجاري للمهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية
235	أولاً: الدور الجهادي (الجهاد البحري)
265	ثانياً: الدور التجاري (مساهمتهم في تنشيط التجارة وتمويل حركة الجهاد البحري)
287	خاتمة
297	ملاحق
314	قائمة المصادر والمراجع
359 - 341	الفهارس
341	فهرس الأعلام
350	فهرس الأماكن
357	فهرس المحتوى

ملخص الدراسة:

يُعد موضوع "دور المهاجرين الأندلسيين في البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني" من بين المواضيع التاريخية المهمة التي تطرقت لفئة المهاجرين الأندلسيين وأدوارهم ضمن مؤسسة البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني (1519-1830م)، تلك الفئة التي كان لها تواجد في الجزائر، خصوصا المناطق الساحلية منها منذ أواخر القرن الثاني عشر الميلادي، ليزداد هذا التواجد بعد سقوط غرناطة سنة 1492م، وأثناء الجلاء الأخير لهؤلاء من إسبانيا بين سنتي 1609 و1614م، أين ازداد هؤلاء عددا، وازدادوا تأثيرا في المجتمع المحلي الجزائري، ومن بين التأثيرات التي حدثت بوجودهم، وتركت بصمتهم واضحة في فترة غير قصيرة من تاريخ الجزائر، العمل على مستوى البحرية الجزائرية خلال العهد العثماني، بمختلف تفرعاتها ونشاطاتها، فكان لهم دور مهم ومؤثر على مستوى هذه المؤسسة في مختلف الأنشطة، وعلى جميع الأصعدة تقريبا، وبالخصوص النشاط الجهادي والدفاعي والنشاط المتعلق بالصناعة والتجارة كذاك.

فكان لهم حضور في صناعة الأسلحة بمختلف أشكالها سواء الأسلحة الخفيفة أو الثقيلة، بالإضافة إلى ذلك كان لهم حضور في صناعة وتجهيز السفن بمختلف أشكالها ومهامها. كما كان لهم دور مهم في الدفاع عن السواحل الجزائرية التي تعرضت للعديد من الغارات الأوروبية طيلة الوجود العثماني بالجزائر، كما لعبوا دورا هاما في بناء وتشديد المراكز الصناعية والعمارة العسكرية المتعلقة بالموانئ البحرية، ولم يتوقفوا عند هذا الحد، بل كان لهم دور آخر مهم تمثل في تنشيط عمليات الجهاد البحري، مستغلين في ذلك درايتهم بجغرافية إسبانيا والجزر التابعة لها، وبلغتها كذلك، خصوصا أنها كانت العدو الأول للجزائر. وعلاوة على ذلك ساهموا في تحريك عجلة النشاط التجاري خصوصا تجارة الأسرى المسيحيين، التي عرفت رواجاً كبيراً في ذلك الوقت، وساهموا من خلال هذا النشاط في تمويل عمليات الجهاد البحري ضد الأساطيل المسيحية المعادية، وتنشيط الحركة الاقتصادية بالجزائر.

Study Summary:

The topic of "The Role of Andalusian Immigrants in the Algerian Navy during the Ottoman Era" is among the important historical topics that dealt with the category of Andalusian immigrants and their roles within the Algerian Navy during the Ottoman era (1519-1830 AD), that group that had a presence in Algeria, especially the coastal areas of it since the first periods after the Islamic conquest of Andalusia, to increase this presence after the fall of Granada in 1492 AD, and during the last evacuation of these people from Spain between 1609 and 1614 AD, where they increased in number and increased their influence in the Algerian community. Among the influences that occurred with their presence and left their mark clearly in a short period of Algeria's history was the work at the level of the Algerian navy during the Ottoman era in its various branches and activities, so they had an important and influential role at the level of this institution in various activities at almost all levels, especially jihadi and defense activity and activity related to industry and trade as such.

They had a presence in the manufacture of weapons in various forms, whether light or heavy weapons, in addition to that, they had a presence in the manufacture and equipping of ships of various forms and tasks. They also played an important role in the construction and construction of industrial centers and military architecture related to seaports, and they did not stop there, but they had another important role represented in activating maritime jihad operations, taking advantage of their knowledge of the geography of Spain and its islands, and its language as well, especially since it was the first enemy of Algeria. In addition, they contributed to the movement of commercial activity, especially the trade of Christian prisoners, which was very popular at the time, and contributed through this activity to financing naval jihad operations against hostile Christian fleets, and to stimulate economic movement in Algeria.